

التَّحْرِيفُ بَابِ خَلْدُونَ

وَرِحْلَةٌ غَرْبًا وَشَرْقًا



تأليف
عبد الرحمن بن خالدون

منشورات
دار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

١٩٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً^(١)

وأصل هذا البيت من إشبيلية؛ انتقل سلفنا - عند الجلاء -
وغلب ملك الجلائقة ابن أدفونش عليها - إلى تونس في أواسط
المائة السابعة .

نسبه :

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد
ابن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون^(٢) . لا أذكر من نسبي إلى
خلدون غير هؤلاء العشرة ، ويغلب على الظن أنهم أكثر ، وأنه سقط
مثلهم عدداً ؛ لأنّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس ، فإن كان
أول الفتح فالمدّة لهذا العهد سبعمائة سنة ، فيكونون زهاء العشرين ؛

(١) ختم ابن خلدون الجزء الأخير من تاريخه بالتعريف بنفسه وأضاف بخطه في بعض النسخ قوله:
« ورحلته غرباً وشرقاً » .

(٢) بفتح الحاء كما ضبطه بخطه بالقلم مرارا ، وكما نص عليه السخاوي في الضوء اللامع ١٤٥/٤ .

ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول^(١).

وتَسَبُّنا حَضْرَمَوْت، من عَرَب اليَمَن، إلى وائِل بن حُجْر،
من أقبال العَرَب، معروف وله صُحْبَة . قال أبو محمد بن حَزْم^(٢) في
كتاب الجَهْرَة : وهو وائِل بن حُجْر بن سَعِيد بن مَسْرُوق بن وائِل
ابن الثُّعْمَان بن رَبِيعَة بن الحَارِث بن عَوْف بن سَعْد بن عَوْف بن عَدِيَّ
ابن مالِك بن شُرْحَبِيل بن الحَارِث بن مالِك بن مُرَّة بن حَمِيرِي بن
زيد بن الحَضْرَمِي بن عمرو بن عبد الله بن هَانِي، بن عَوْف بن جُرْشَم
ابن عبد شمس بن زيد بن لَأَي بن شَبِيت^(٣) بن قُدَامَة بن أَعْجَب بن
مالِك بن لَأَي بن قحطَان . وابنه عَلَقْمَة بن وائِل وعبد الجَبَّار بن
وائِل .

وذكره أبو عمر بن عبد البرّ في حرف الواو من « الاستيعاب »،
وأنته وفد^(٤) على النبي صلى الله عليه وسلم، فبسط له رداءه، وأجلسه
عليه، وقال: « اللهم بارك في وائِل بن حُجْر وولده وولد وولده إلى يوم
القيامة ».

(١) انظر المقدمة ص ٣٠٤ طبع دار الكتاب اللبناني . حيث قدر أعمار الدول .
(٢) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي (٣٨٤ - ٤٥٦) انظر
الإحاطة وتاريخ الأدب العربي لبروكلن ١/٤٠٠، والملحق ١/٦٩٤ .
(٣) قيدها بخطه بفتح الشين وسكون الباء الموحدة بعدها مشاة فوقية .
(٤) انظر قصة وفادته على النبي (ص) « عام الوفود » في القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ
ابن خلدون ص ٨٣٥ .

وبعث معه جارية بن أبي سفيان إلى قومه يعلمهم القرآن
والاسلام؛ فكانت له بذلك صحابة مع معاوية . ووفد عليه لأول
خلافته وأجازته؛ فرد عليه جائزته ولم يقبلها .

ولما كانت واقعة حُجْر بن عدي الكندي بالكوفة ، اجتمع
رؤوس أهل اليمن ، وفيهم وائل هذا ، فكانوا مع زياد^(١) بن أبي سفيان
عليه ، حتى أوثقوه وجاؤا به إلى معاوية ، فقتله كما هو معروف .

قال ابن حزم : ويؤكد كَر بنو خلدون الاشبيليون من ولده ،
وجدهم الداخل من الشُّرْق خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هاني .
ابن الخطاب بن كُريِب^(٢) بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن
حُجْر . قال : وكان من عقبه كُريِب بن عثمان بن خلدون وأخوه
خالد ، وكانا من أعظم ثوار الأندلس .

قال ابن حزم : وأخوه محمد كان من عقبه أبو العاصي عمرو بن
محمد بن خالد بن محمد بن خلدون . وبنو أبي العاصي : محمد ، وأحمد ،
وعبد الله . قال : — وأخوهم عثمان ، وله ، عقب . ومنهم الحكيم
المشهور بالأندلس من تلاميذ مَسَلَمَة المَجْرِيْطِي^(٣) ؛ وهو أبو مُسَلِم

(١) هو زياد بن أبي سفيان ، ويقال ابن أبيه ؛ أخو معاوية بن أبي سفيان .

(٢) قيده بخطه بضم الكاف وفتح الراء .

(٣) هو أبو القاسم مسلة بن أحمد المجريطي . فلنكي راصد ، له تأليف في الفلك والفلسفة والسحر

والكيمياء . انظر عيون الأنباء ٣٩/٢ .

عمر بن محمد^(١) بن بَقِيَّ بن عبد الله بن بكر بن خالد بن عثمان بن خالد بن عثمان بن خلدون الدَّأخل . وابن عمه أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله . قال : ولم يبق من ولد كُرَيْبِ الرَّيسِ المذكور إلا أبو الفضل بن محمد بن خلف بن أحمد بن عبد الله بن كُرَيْبِ - انتهى كلام ابن حزم .

سله بالاندلس

ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا إلى الأندلس ، نزل بِقَرْمُونَةَ في رَهْط من قومه حَضْرَمَوْت ، ونشأ بَيْتُ بَنِيهِ بها ، ثم انتقلوا إلى إِشْبِيلِيَّة . وكانوا في جُند اليمَن ، وكان لكَرَيْبِ من عقبه وأخيه خالد ، الثورةُ المعروفةُ بِإشبيلية أيام الأمير عبد الله المرواني ؛ ثار على ابن أبي عَبْدَةَ ، وملكها من يده أعواما ، ثم ثار عليه إبراهيم بن حجاج ، بِإملاء الأمير عبد الله وقتله ، وذلك في أواخر المائة الثالثة . وتلخيص الخبر عن توريته^(٢) ، على ما نقله ابن سعيد^(٣) عن الحِجَارِي^(٤)

(١) في عيون الأنباء (٤١/٢) : « عمر بن أحمد بن خلدون » . وابن خلدون هذا هو أحد أشراف اشبيلية ، وكان فيلسوفا مهندسا طبييا . توفي سنة ٤٤٩ هـ .
(٢) تفصيل خبر هذه الثورة في تاريخ ابن خلدون ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ .
(٣) علي بن موسى بن سعيد العنسي القرناطي (٦١٠ - ٦٧٣) صاحب كتابي « المغرب » و « المشرق » وغيرها . يعتمد عليه ابن خلدون كثيرا في النسب والتاريخ .
(٤) أبو محمد عبد الله إبراهيم الحِجَارِي (نسبة) إلى وادي الحجارة (الصنهاجي من أهل القرن السابع ألف كتاب « المسهب في غرائب المغرب » ابتداء فيه من فتح الأندلس وانتهى إلى سنة ٦٣٠ ، انظر نفع الطيب ١ - ٤٨٣ ، ٢٠٤ - ٤٠٦ .

وابن حَيَّان^(١) وغيرهما، وينقلونه عن ابن الأشعث مؤرخ إشبيلية: أن الأندلس لما اضطربت بالفتن أيام الأمير عبد الله تناول رؤساء إشبيلية إلى الثورة والاستبداد، وكان رؤساؤها المتطاولون إلى ذلك في ثلاثة بيوت: بيت بني أبي عبدة، ورئيسهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة، وكان عبد الرحمن الداخل وأبى أبا عبدة إشبيلية وأعمالها، وكان حافده أمية من أعلام الدولة بقرطبة، ويولونه المالك الضخمة. وبيت بني خلدون هؤلاء، ورئيسهم كريب المذكور، ويردفه أخوه خالد.

قال ابن حَيَّان: وبيت بني خلدون إلى الآن في إشبيلية نهاية في النباهة، ولم تنزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية. ثم بيت بني حجاج، ورئيسهم يومئذ عبد الله. قال ابن حَيَّان: هم - يعني بني حجاج - من لخم، ويبتهم إلى الآن في إشبيلية ثابت الأصل، نابت الفرع موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية. فلما عظمت الفتنة بالأندلس أعوام الثمانين والمائتين، وكان الأمير عبد الله قد ولى على إشبيلية أمية بن عبد الغافر، وبعث معه ابنه محمداً، وجعله في كفالته، فاجتمع هؤلاء النفر، وثاروا بمحمد بن الأمير عبد الله وبأمية

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (٣٧٧ - ٤٦٩) مؤرخ الأندلس بلا جدال. له كتاب «التين» أو «المبين» في التاريخ، و«المقتبس» في تاريخ الأندلس، وكتاب «معرفة الصحابة». (وفيات الاعيان لابن خلكان ١ - ٢١٠).

صاحبهم ، وهو يمالئهم على ذلك ، ويكيد - بابن الأمير عبد الله .
وحاصروها في القصر ، حتى طلب منهم اللحاق بأبيه فأخرجوه ،
واستبدت أمية بإشبيلية ، ودس على عبد الله بن حجاج من قتله ،
وأقام أخاه إبراهيم مكانه . وضبط اشبيلية ، واسترهن أولاد بني
خلدون وبني حجاج ، ثم ثاروا به ، وهم بقتل أبنائهم ؛ فراجعوا
طاعته . وحلفوا له ؛ فأطلق أبناءهم فانتقضوا ثانية . وحاربوه فاستمات
وقتل حرمة ، وعقر خيوله ، وأحرق موجوده . وقتلهم حتى قتله
مقبلاً غير مدبر ، وعانت العامة في رأسه . وكتبوا إلى الأمير عبد
الله بأنه خلع فقتلوه ، فقبل منهم مداراة ، وبعث عليهم هشام بن عبد
الرحمن من قرابته ، فاستبدوا عليه ، وفتكوا بابنه ، وتولى كبير ذلك
كريب بن خلدون ، واستقل بإمارتها .

وكان إبراهيم بن حجاج بعد ما قتل أخوه عبد الله - على ما
ذكره ابن سعيد عن الحجاري - سمّت نفسه إلى التفرد ، فظاهر
ابن حفصون^(١) أعظم ثوار الأندلس يومئذ ، وكان بمالقة وأعمالها إلى
رندة ، فكان له منه ردء . ثم انصرف إلى مداراة كريب بن
خلدون وملايسته ، فردّفه في أمره ، وشركه في سلطانه ، وكان في

(١) هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القر . أول
ثائر بالأندلس ، وهو الذي افتتح الخلافة بها ، وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٠ .
وتوفي سنة ٣٠٦ وانظر تورته في تاريخ ابن خلدون ٤ - ٢٨٦ وما بعدها .

كُرَيْبٍ تحامل على الرعية وتعضب ، فكان يتجهّم لهم ، ويغلظ عليهم ، وابن حجاج يسلك بهم الرفق والتلطف في الشفاعة لهم عنده ، فانحرفوا عن كُرَيْبٍ الى ابراهيم . ثم دس الى الأمير عبد الله يطلب منه الكتاب بولاية اشبيلية ، لتسكن اليه العامة ؛ فكتب اليه العهد بذلك . وأطلع عليه عرفاء البلد ، مع ما أشربوا من حبه ، والنفرة عن كُرَيْبٍ ، ثم أجمع الثورة ، وهاجت العامة بكُرَيْبٍ فقتلوه ؛ وبعث برأسه الى الامير عبد الله ، واستقر بإمارة اشبيلية .

قال ابن حيان : وحصن مدينة قرمونة من أعظم معاقل الأندلس ، وجعلها مرتبطاً لخيوله ، وكان ينتقل بينها وبين اشبيلية . واتخذ الجند ورتبهم طبقات ، وكان يصانع الأمير عبد الله بالأموال والهدايا ، ويبعث اليه المدد في الصوائف . وكان مقصوداً ممدحاً ، قصده أهل البيوتات فوصلهم ، ومدحه الشعراء فأجازهم ، وانتجعه أبو عمر بن عبد ربه صاحب المقدم^(٢) ، وقصده من بين سائر الثوار ، فعرف حقه ، وأعظم جائزته .

ولم يزل بيت بني خلدون بإشبيلية - كما ذكره ابن حيان وابن

(١) الصوائف جمع صائفة وهي غزوات المسلمين الى بلاد الروم . سميت صوائف لأنهم كانوا يفتنون صيفاً تفادياً من شدة البرد والثلج (تاج العروس) .
 (٢) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (٢٤٦ - ٣٢٨) صاحب كتاب العقد الفريد ترجمته في الوفيات ٣٩/١ اليتيمة ٤١٢/١ معجم ياقوت ٦٧/٢ .

حَزَمٌ وَغَيْرُهُمَا - سَائِرَ أَيَّامِ بَنِي أُمِيَّةٍ إِلَى أَزْمَانِ الطَّوَائِفِ^(١) - ،
وَأَنْصَحَتْ عَنْهُمْ الْإِمَارَةَ بِمَا ذَهَبَ لَهُمْ مِنَ الشُّوَكَةِ .

وَمَا عَلَا كَعْبُ ابْنِ عَبَّادٍ^(٢) بِإِسْبِيلِيَّةٍ ، وَاسْتَبَدَّ عَلَى أَهْلِهَا ،
اسْتَوَزَرَ مِنْ بَنِي خَلْدُونَ هُوْلَاءَ ، وَاسْتَعْمَلَهُمْ فِي رُتَبِ دَوْلَتِهِ ، وَحَضَرُوا
مَعَهُ وَقَعَةَ الزُّلَّةِ^(٣) كَانَتْ لِابْنِ عَبَّادٍ وَليُوسُفِ بْنِ تَاشِفِينَ^(٤) عَلَى
مَلِكِ الْجَلَالَةِ ، فَاسْتَشْهَدَ فِيهَا طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ بَنِي خَلْدُونَ هُوْلَاءَ ،
ثَبَتُوا فِي الْجَوْلَةِ مَعَ ابْنِ عَبَّادٍ فَاسْتُلْجِمُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ . ثُمَّ كَانَ
الظُّهُورُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ . ثُمَّ تَغَلَّبَ يُوْسُفُ بْنُ
تَاشِفِينَ وَالْمُرَابِطُونَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَاضْمَحَلَّتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَفَنِيَتْ
قَبَائِلَهُمْ .

سَلْهُ بِأَخْرِيَّةٍ

وَمَا اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ^(٥) عَلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَمَلَكُوهَا مِنْ يَدِ

- (١) يَتَدَيَّرُ عَمْرُ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ بِنَهَايَةِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَيَنْتَهِي بِغَلْبَةِ يُوْسُفِ ابْنِ
تَاشِفِينَ الْمُرَابِطِيِّ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، وَاسْتِيْلَاةِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ . انْظُرْ تَارِيخَ ابْنِ خَلْدُونَ ٣٣٦/٤ ، وَمَا بَعْدَهَا .
(٢) أَبُو الْقَاسِمِ الْعَتَمِدُ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ (٤٣١ - ٤٨٨) أَكْبَرُ مَلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ
تَرْجَمَتْهُ فِي : تَارِيخِ ابْنِ خَلْدُونَ ٣٤٤/٤ وَمَا بَعْدَهَا .
(٣) وَقَعَةُ الزُّلَّةِ هَذِهِ مِنَ الْعَارِكِ ذَاتِ الْإِثْرِ الْبَعِيدِ فِي الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَلِذَلِكَ أَكْثَرَ
الْمُؤَرِّخُونَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْهَا . انْظُرْ الْاسْتِقْصَا ١١١/١ - ١١٩ .
(٤) انْظُرْ تَرْجَمَةَ يُوْسُفِ بْنِ تَاشِفِينَ (٤١٠ - ٥٠٠) فِي الْوَفَايَاتِ ٤٨١/٢ .
(٥) تَبْتَدِيءُ دَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ بِالْمَغْرِبِ سَنَةَ ٥١٤ عَلَى يَدِ مَهْدِيِّ الْمُوَحِّدِينَ مُحَمَّدِ بْنِ تَوَمَرْتٍ وَتَنْتَهِي
سَنَةَ ٦٨٨ هـ . وَامْتَدَّ سُلْطَانُهَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَنَةِ ٥٤٠ - ٦٠٩ هـ تَقْرِيْبًا انْظُرْ جَدْوَةَ الْاِقْتِبَاسِ ص
٩٧ - وَتَارِيخَ أَبِي الْفَدَاءِ ٢٤٣/٢ .

المرابطين ، وكان ملوكهم : عبد المؤمن وبنيه . وكان الشيخ أبو حفص كبير هتتاتة زعيم دولتهم^(١) ، وولوه على اشبيلية وغرب الأندلس مرارا ، ثم ولوا ابنه عبد الواحد عليها في بعض أيامهم ، ثم ابنه أبا زكرياء كذلك ، فكان لسلفنا بإشبيلية اتصال بهم ، وأهدى بعض أجدادنا من قبل الأمهات ، ويُعرف بابن المحتسب ، للأمير أبي زكرياء^(٢) يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص أيام ولايته عليهم ، جارية من سبي الجلالقة ، اتخذها أم ولد ، وكان له منها ابنه أبو يحيى زكرياء ولي عهده الهالك في أيامه ، وأخواه : عمر وأبو بكر ، وكانت تُلقب أم الخلفاء . ثم انتقل الأمير أبو زكرياء الى ولاية إفريقية سنني العشرين والستائة . ودعا لنفسه بها ، وخلع دعوة بني عبد المؤمن سنة خمس وعشرين . واستبد بأفريقية ، وانتقضت دولة الموحدين بالأندلس ، وثار عليهم ابن هود^(٣) . ثم هلك واضطربت الأندلس ،

(١) هو أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد الهتتاتي ، أول التابعين لمهدي الموحدين من بين قومه ، والمختص بصعابته ، ومن هنا انتظم في سلك العشرة السابقين الى دعوة ابن تومرت . وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ . والى أبي حفص هذا تنسب الدولة الحفصية بأفريقية . وليس صحيحاً ما يتوهم من انها من ذرية أبي حفص عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ، انظر ابن خلدون .

(٢) هو الامير ابو زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصي . ملك جل أفريقية ، وبايعه اهل الاندلس ، وأمله اهل شرق الاندلس لصد هجوم ملكي أرغون وقشتالة ، فأوفدوا اليه كاتب ابن مرذيش أبا عبد الله ابن الابار ، فانشده القصيدة السنية المشهورة :

ادرك بجيالك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

(٣) محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن هود الجذامي . انظر أخبار ثورته في تاريخ

وتكالب الطاغية عليها، وردد الغزو إلى الفرنتيرة^(١)، بسيط قرطبة وإشبيلية إلى جيان، وثار ابن الأحمر بغرب الأندلس من حصن أرجونة، يرجو التماسك لما بقي من رمق الأندلس. وفاوض أهل الشورى يومئذ باشبيلية. وهم بنو الباجي، وبنو الجدة، وبنو الوزير، وبنو سيد الناس، وبنو خلدون. وداخلهم في الثورة على ابن هود، وأن يتجافوا للطاغية عن الفرنتيرة، ويتمسكوا بالجلال الساحلية وأمصارها المتوعيرة، من مالقة إلى غرناطة إلى المريّة؛ فلم يوافقوه على بلدهم.

وكان مقدمتهم أبو مروان الباجي، فتابذهم ابن الأحمر وخلع طاعة الباجي، وبأيع مرة لابن هود، ومرة لصاحب مرأكش من بني عبد المؤمن، ومرة للأمير أبي زكريا، صاحب إفريقية. ونزل غرناطة، واتخذها داراً لملكه، وبقيت الفرنتيرة وأمصارها ضاحية من ظل الملك؛ فخشى بنو خلدون سوء العاقبة مع الطاغية، وارتحلوا من إشبيلية إلى العدو، ونزلوا سبتة وأجلب الطاغية على تلك الثغور؛ فملك قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة وجيان وما إليها، في مدة عشرين سنة. ولما نزل بنو خلدون سبتة أصهر اليهم العزفي^(٢) بأبنائه

(١) الفرنتيرة هي: بسيطة قرطبة وإشبيلية وطليلة وجيان، آخذة من جوف (شمال) الجزيرة من المغرب إلى الشرق.

(٢) انظر أخبار بني العزفي في تاريخ ابن خلدون ٦/٧٢٧، ٧٧٧.

وبناته ، فأختلط بهم ، وكان له معهم صهرٌ مذكور . وكان جدُّنا الحسن بن محمد ، وهو سبط ابن المحتسب ، قد أجاز فيمن أجاز معهم ؛ فذكر سوابقَ سلفه عند الأمير أبي زكرياء ؛ فقصدَه وقدم عليه فأكرم قدومه . وارتحل الى المشرق ؛ ففضى فرضه . ثم رجع ولحق بالأمير أبي زكرياء على بُونة ؛ فأكرمه ، واستقرَّ في ظلِّ دولته ، ومرعى نعمته ، وفرضَ له الأرزاق ، وأقطع الاقطاع . وهلك هنالك ؛ فدفن ببونة . وخلف ابنه محمدًا أبابكر ؛ فنشأ في جوِّ تلك النعمة ومرعاها . وهلك الأمير أبو زكرياء ببونة سنة سبع وأربعين ، ووليَّ ابنه المستنصر محمدٌ ؛ فأجرى جدنا أبابكر على ما كان لأبيه . ثم ضرب الدهر ضربانَه ، وهلك المستنصر سنة خمسٍ وسبعين ، ووليَّ ابنه يحيى ، وجاء أخوه الأمير أبو إسحق من الأندلس ، بعد أن كان فرًّا أمام أخيه المستنصر . فخلع يحيى ، واستقلَّ هو بملك إفريقية ، ودفع جدُّنا أبابكر محمدًا الى عمل الأشغال في الدولة ، على سنن عطاء الموحدين فيها قبله ؛ من الانفراد بولاية العمال ، وعزلهم وحسابانهم ، على الجباية ، فاضطلع بتلك الرتبة . ثم عقد السلطان أبو إسحق لابنه محمد ، وهو جدُّنا الأقرب ، على حجابة ولي عهدِه ابنه أبي فارس أيام

أَقْصَاهُ إِلَى بَجَايَةَ^(١). ثُمَّ اسْتَعْفَى جَدُّنَا مِنْ ذَلِكَ فَأَعْفَاهُ، وَرَجَعَ إِلَى الْحَضْرَةِ. وَلَمَّا غَلَبَ الدَّعِيُّ ابْنَ أَبِي عِمَارَةَ^(٢) عَلَى مَلِكِهِمْ بَثُونِسَ، اعْتَقَلَ جَدُّنَا أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدًا، وَصَادَرَهُ عَلَى الْأَمْوَالِ، ثُمَّ قَتَلَهُ خَنْقًا فِي مَحْسِهِ. وَذَهَبَ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ جَدُّنَا الْأَقْرَبُ مَعَ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَقَ وَأَبْنَائِهِ إِلَى بَجَايَةَ؛ فَقَبِضَ عَلَيْهِ ابْنُهُ أَبُو فَارِسَ، وَخَرَجَ فِي الْعَسَاكِرِ هُوَ وَإِخْوَتُهُ لِمُدَافَعَةِ الدَّعِيِّ ابْنَ أَبِي عِمَارَةَ، وَهُوَ يُشَبَّهُ بِالْفَضْلِ ابْنَ الْمُخْتَوِعِ، حَتَّى إِذَا اسْتَلْحَمُوا بِمَرِّ مَاجَنَةَ خَلَصَ جَدُّنَا مُحَمَّدٌ مَعَ أَبِي حَفْصٍ - ابْنِ الْأَمِيرِ أَبِي زَكْرِيَاءَ مِنَ الْمَلْحَمَةِ، وَمَعَهُمَا الْفَازَازِيُّ وَأَبُو الْحُسَيْنِ ابْنَ سَيِّدِ النَّاسِ؛ فَلَحِقُوا بِمَنْجَاتِهِمْ مِنْ قَلْعَةِ سِنَانَ. وَكَانَ الْفَازَازِيُّ مِنْ صَنَائِعِ الْمَوْلَى أَبِي حَفْصٍ، وَكَانَ يُؤَثِّرُهُ عَلَيْهِمْ. فَأَمَّا أَبُو الْحُسَيْنِ ابْنَ سَيِّدِ النَّاسِ فَاسْتَنَكَفَ مِنْ إِيْشَارِ الْفَازَازِيِّ عَلَيْهِ، بِمَا كَانَ أَعْلَى رَتْبَةً مِنْهُ بِبَلَدِهِ إِشِيلِيَّةَ، وَلَحِقَ بِالْمَوْلَى أَبِي زَكْرِيَاءَ الْأَوْسَطِ بِتِلْمَسَانَ^(٣)، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ مَا ذَكَرْنَاهُ. وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ خَلْدُونَ فَأَقَامَ مَعَ الْأَمِيرِ أَبِي حَفْصٍ، وَسَكَنَ لِإِيْشَارِ الْفَازَازِيِّ. وَلَمَّا اسْتَوْلَى أَبُو حَفْصٍ عَلَى الْأَمْرِ رَعَى لَهُ

(١) بجاية وتسمى الناصرية نسبة الى بانيها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري الصنهاجي - بناها في حدود سنة ٤٥٧ : مدينة الجزائر تقع على ساحل البحر الأبيض وكانت قاعدة المغرب الأوسط. ياقوت ٦٢/٢ .

(٢) هو أحمد بن روق بن أبي عماره من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة . تاريخ ابن خلدون والاحاطة ١٧٤/١ .

(٣) (Tlemcen) بكسر تين وسكون الميم وسين . وبعضهم يقول : تمنسان ، بالنون عوض اللام : مدينة مشهورة بالمغرب .

سابقته ، وأقطعه ، ونظمه في جملة القواد ومراتب أهل الحروب ، واستكفى به في الكثير من أهل ملكه ، ورشحه لحجابه من بعد الفازازي . وهلك ، فكان من بعده حافد أخيه المستنصر أبو عصيدة ، واصطفى لحجابه محمد بن إبراهيم الدبّاغ كاتب الفازازي ، وجعل محمد ابن خلدون رديفاً في حجابه . فكان كذلك الى أن هلك السلطان ، وجاءت دولة الأمير خالد ، فأبقاه على حاله من التجلّة والكرامة ، ولم يستعمله ولا عقده له ، إلى أن كانت دولة أبي يحيى بن اللحياني ، فاصطنعه ، واستكفى به عند ما نبضت عروق التغلّب للعرب ؛ ودفعه الى حماية الجزيرة من دلاج^(١) ، أحد بطون سليم المواطنين بنواحيها ؛ فكانت له في ذلك آثار مذكورة . ولما انقرضت دولة ابن اللحياني خرج الى المشرق ، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة ، وأظهر التوبة والاقلاع ، وعاود الحج متفلاً سنة ثلاث وعشرين ، ولزم كسر بيته . وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته في كثير مما كان يده من الاقطاع والجراية ، ودعاه الى حجابه مراراً ، فامتنع .

أخبرني محمد بن منصور بن مزني^(٢) ، قال : لما هلك الحاجب محمد ابن عبد العزيز الكردي المعروف بالمزوار ، سنة سبع وعشرين

(١) انظر بعض أخبار دلاج في تاريخ ابن خلدون .

(٢) كان ابن مزني هذا صديقاً لابن خلدون . انظر العبر ٦/٨٨٨ - ٩٣٩ .

وسبعمائة ، استدعى السلطان جدك محمد بن خالدون ، وأراده على الحجابة ، وأن يفوض إليه في أمره ، فأبى واستعفى ، فأعفاه ، وأمره فيمن يوليه حجابته ، فأشار عليه بصاحب الشعر : بجاية ، محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس ، لاستحقاقه ذلك بكفايته واضطلاعه ، ولقد يم صحابة بين سلفها بتونس ، وبأشبيلية من قبل . وقال له : هو أقدر على ذلك بما هو عليه من الحاشية والذؤين^(١) ، فعمل السلطان على إشارته ، واستدعى ابن سيد الناس ، وولاه حجابته . وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمداً عليها ، وثوقاً بنظره واستنامةً إليه ، الى أن هلك سنة سبع وثلاثين ، ونزع ابنه ، وهو والذي محمد أبو بكر ، عن طريقة السيف والخدمة ، الى طريقة العلم والرباط ، لما نشأ عليها في حجر أبي عبد الله الزبيدي^(٢) الشهير بالفقيه ، كان كبير تونس لهده ، في العلم والفتيا ، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن ، الوليين الشهيرين . وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه ، وألزمه ابنه ، وهو والذي رحمه الله ، فقراً وتفقه ، وكان مقدماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه . عهدي بأهل الأدب

(١) الذؤون : الأذنون الأخضر . (لسان العرب) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي (بضم الزاي ، نسبة الى

قرية بساحل المهدي) توفي عام ٧٤٠ هـ (انظر رحلة ابن بطوطة ص ٦) .

يتحاً كمون إليه فيه ، ويعرضون حوكمهم عليه ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

نشأته ومشيخته وحاله

أما نشأتي فاني وُلدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، ورَبَّيتُ في حجر والدي رحمه الله الى أن أَيْقَعْت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتِّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرَّال^(١) الانصاري ، أصله من جالية الأندلس من أعمال بَلَنْسِيَّة ، أخذ عن مشيخة بَلَنْسِيَّة وأعمالها ، وكان إماماً في القراءات ، لا يُلْحَق شأوه ، وكان من أشهر شيوخه في القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البَطْرَني^(٢) ، ومشيخته فيها ، وأسانيده معروفة . وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي ، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفراداً وجمعاً^(٣) في إحدى وعشرين ختمة ، ثم جمعها في ختمة

(١) برال : بضم الباء الموحدة ، وفتح الراء المشددة ، هكذا قيده ابن خلدون بالقلم ، ومعاصره محمد بن ميمون البلوي الأندلسي بخطه بالقلم أيضاً .

(٢) البطرني ضبطه ابن خلدون بالقلم ، وابن ميمون البلوي ، بفتح الباء والطاء المهمله وراء ساكنة بعدها نون ، نسبة الى بطرنة من اقليم بلنسية بشرق الأندلس . انظر كتاب البيان المغرب ٢٥٢/٣ .

(٣) الإفراد أن يتلى القرآن كله أو جزء منه برواية واحدة لأحد القراء السبعة أو العشرة المشهورين ، والجمع أن يجمع القارئ عند قراءة القرآن كله أو جزء منه بين روايتين فأكثر من الروايات السبع أو العشر المتواترة . ويسمى بالجمع الكبير ان استوفى القارئ سبع قراءات فأكثر ، والاسم بالجمع الصغير . ولهم في صفة الجمع وحكمه ، من اباحة وتحريم ، خلاف معروف تجده في نيفت النفع ص ٨ - ١٠) .

واحدةٍ أُخرى ، ثم قرأت برواية يعقوب^(١) ختمة واحدة جمعاً بين الروايتين عنه ؛ وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي^(٢) ؛ اللامية في القراءات ، والرأئية في الرِّسم ، وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البَطْرَني وغيره من شيوخه ؛ وعرضت عليه كتاب التَّقْصِي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ، حَدَا بِهِ حَدُو كتابه التَّمهيد على الموطأ ، مقتصرًا على الأحاديث فقط .

ودارَسْتُ عليه كتباً جَمَّةً ، مثل كتاب التَّسْهِيل لابن مالك^(٣) ومختصر ابن الحاجب^(٤) في الفقه ، ولم أَكْمَلْهَا بالحفظ ، وفي خلال ذلك

(١) هو يعقوب بن اسحق بن زيد بن عبد الله الحضرمي البصري (١١٧ - ٢٠٥) أحد القراء العشرة ، وله قراءة مشهورة عنه ، وهي إحدى القراءات العشر ، وقد رويت عنه من طريقين : الأولى رواية محمد بن المتوكل المعروف برويس (طبقات القراء ٢/٢٣٤ ، والثانية عن روح بن عبد المؤمن الهذلي (طبقات القراء ١/٢٨٥) . والى ما ذكر يشير ابن خلدون بقوله « جمعاً بين الروايتين عنه » .
(٢) هو ابو التلمس ، ويكنى أبا محمد أيضاً القاسم بن فيره (بكسر الفاء بعدها ياء آخر الحروف ساكنة ، ثم راء مشددة مضمومة بعدها هاء) بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيبي رحل الى الشرق ، ودخل القاهرة ، وبها بمدرسة القاضي الفاضل ، نظم قصيدته اللامية التي عرفت بالشاطبية ، وبجزر الأمانى ، والرأئية التي تعرف بالعقيلة . (طبقات القراء ٢/٢٠ ، سبكي طبقات ٤/٢٩٧ ديباج ص ٢٢٤) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي الجياني النجوي المشهور (٦٠٠ - ٦٧٢) وكتابه تسهيل الفوائد جمع - في ايجاز - قواعد النجوى ، ولذلك عني به أعلام النجوى قراءة وشرحا واقراء وقد طبع بمكة سنة ١٣١٩ هـ . مرآة الجنان ٤/١٧٢ ، وبقية الوعاة ٣٥ .

(٤) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب مال الدين المصري (٥٧٠ - ٦٤٦) . له مختصر في الفقه المالكي يسمى المختصر الفقهي ، والفرعي ، والجامع بين الأميات . وقد تحدث ابن خلدون في آخر فصل الفقه من مقدمته عن مختصر ابن الحاجب الفقهي ، وعن تاريخ دخوله الى المغرب ، وأثره في دراسة الفقه المالكي هناك ، وعن شرحه من علماء المغرب ، وعناية الفقهاء المغاربة به - بما لا يدع مجالاً للريبة . وفيات الاعيان ١/٣٩٥ .

تعلمت صناعة العربية على والدي ، وعلى أستاذي تونس : منهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصري ، وكان إماماً في النحو وله شرح 'مستوفى' على كتاب التسهيل . ومنهم أبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى . ومنهم أبو العباس أحمد بن القصار ؛ كان مُمتعاً في صناعة النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الجناب النبوي ، وهو حي لهذا العهد بتونس . -

ومنهم : امام العربية والأدب بتونس ، أبو عبد الله محمد بن بجر ؛ لازمت مجلسه ، وأفدت عليه ، وكان بجرّاً زاخراً في علوم اللسان . وأشار عليّ بحفظ الشعر ؛ فحفظت كتاب الأشعار الستة ، والحماسة للأعلم^(١) ، وشعر حبيب^(٢) ، وطائفة من شعر المتبي^(٣) ، ومن أشعار كتاب الاغانى . ولازمت أيضاً مجلس إمام المحدثين بتونس ؛ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادى ياشي ، صاحب الرحلتين ؛ وسمعت عليه كتاب 'مسلم بن الحجاج' ، الا فتوتاً ييسيراً من كتاب الصيد ؛ وسمعت عليه كتاب الموطأ من أوله الى آخره ،

(١) يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشتمري المعروف بالأعلم - وفيات ٤٦٥/٢ .

(٢) حبيب بن أوس الخارث الطائي أبو تمام (١٩٠ - ٢٢٦) : شاعر غني عن التعريف .

(٣) أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي الشاعر المعروف .

وبعضاً من الائمة الخمسة؛ وناولني^(١) كتباً كثيرة في العربية والفقه، وأجازني اجازة عامة، وأخبرني عن مشايخه المذكورين في برنامجه؛ أشهرهم بتونس قاضي الجماعة أبو العباس أحمد بن الفمّاز الخرجي.

وأخذت الفقه بتونس عن جماعة؛ منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجيّاني، وأبو القاسم محمد القصير؛ قرأت عليه كتاب التهذيب لابي سعيد البرادعي؛ مختصر المدونة، وكتاب المالكية، وتفقهت عليه. وكنت في خلال ذلك أُنْتَابُ مجلس شيخنا الامام، قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، مع أخي محمد رحمة الله عليهما. وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للامام مالك، وكانت له فيه طرق عالية، عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اختلاطه - ابي غير هؤلاء - من مشيخة تونس، وكلّهم سمعت عليه، وكتب لي، وأجازني؛ ثم درجوا كلّهم في الطاعون الجارف.

وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن، عند ما ملك افريقية سنة ثمان وأربعين، جماعة من أهل العلم، وكان يُلرّمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه: فمنهم شيخ الفتياء بالمغرب، وامام مذهب مالك، أبو عبد الله محمد بن سليمان السّطي؛ فكنت أُنْتَابُ

(١) المناولة في اصطلاح الحديثين: نوع من الإجازة، وهي أن يدفع الشيخ لطالبه أصل ساعه، أو فرعاً مقابلاً بأصله، ويقول له قد أجزت لك في روايته عني (انظر كتب مصطلح الحديث).

مجلسه ، وأفدت عليه . ومنهم كاتب السلطان أبي الحسن ، وصاحب علامته التي توضع أسافل مكتوباته ، امام المحدثين والنُّحاة بالمغرب ، أبو محمد بن عبد المهيمن بن عبد المهيمن الحضرمي ؛ لازمته ، وأخذت عنه ، سماعاً ، وإجازة ، الامهات الست ، وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، وكتباً كثيرة شدت عن حفطي . وكانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تريد على ثلاثة آلاف سفر؛ في الحديث والفقهاء ، والعربية ، والادب ، والمعقول ، وسائر الفنون ؛ مضبوطة كلها ، مقابلة . ولا يخلو ديوان منها عن ثبت بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده الى مؤلفه ، حتى الفقه ، والعربية ، الغريبة الاسناد الى مؤلفيها في هذه العصور . ومنهم الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي ، امام المقرئين بالمغرب . قرأت عليه القرآن العظيم ، بالجمع الكبير بين القراءات السبع ، من طريق أبي عمرو الداني ، وابن شريح^(١) ، في ختمه لم أكملها ، وسمعت عليه عدة كتب ، وأجازني بالاجازة العامة .

- ومنهم شيخ العلوم العقلية ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأيلي .
- أصله من تلمسان ، وبها نشأ ، وقرأ كتب التعاليم ، وحذق فيها .

(١) محمد بن شريح بن أحمد بن محمد أبو عبد الله الأشبيلي القرشي (٣٨٨ - ٤٧٦) .

وأظله الحصار الكبير يتلمسان أعوام المائة السابعة؛ فخرج منها، وحبج. ولقي أعلام المشرق يومئذ؛ فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عرّض في عقله. ثم رجع من المشرق، وأفاق، وقرأ المنطق والأصلين، على الشيخ أبي موسى عيسى بن الامام؛ وكان قرأ بتونس، مع أخيه أبي زيد عبد الرحمن، على تلاميذ ابن زيتون^(١) الشهير الذكر؛ وجاء الي تلمسان بعلم كثير من المعقول والمنقول، فقرأ الآبلي على أبي موسى منها كما قلناه. ثم خرج من تلمسان هارباً الى المغرب، لان سلطانها يومئذ، أبو حمّو من ولد يغمراسن بن زيان، كان يُكرِّهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففرّ الى المغرب، ولحق بمرأكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء^(٢) الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية، وورث مقامه فيها وأرفع، ثم صعد الى جبال الهسايّة، بعد وفاة الشيخ، باستدعاء علي بن محمد بن تروميت، ليقرأ عليه، فأفاده. وبعد أعوام استنزله ملك المغرب، السلطان أبو سعيد^(٣)، وأسكنه بالبلد الجديد، والآبلي معه.

(١) القاسم بن أبي بكر بن مسافر شهر ابن زيتون، يكنى ابا القاسم (٦٢١ - ٦٩١) رحل الى المشرق، واخذ عن علمائه، ورجع الى تونس، فتولى بها الإنماء والقضاء؛ وهو اول من اظهر تآليف فخر الدين الرازي بتونس، حيث كان يقرئها. احمد بابا ص ٢٢٢.

(٢) ابو العباس احمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي (٦٥٤ - ٧٢٤) يعرف بان البناء العددي؛ ولد بمرأكش، وتعلم بها، وتوفي بها. الاستقصاء ٨٨/٢.

(٣) انظر اخباره في تاريخ ابن خلدون.

ثم اختصه السلطان أبو الحسن ، ونظمه في جملة العلماء بمجلسه ، وهو في خلال ذلك يُعلِّم العلوم العقلية ، ويُنشئها بين أهل المغرب ، حتى حذق فيها الكثير منهم من سائر أمصارها ، وألحق الأصغر بالأكبر في تعليمه . ولما قدم على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمته ، وأخذتُ عنه الاصلين ، والمنطق ، وسائر الفنون الحكيمية ، والتعليمية ؛ وكان رَحِمَهُ اللهُ ، يشهد لي بالتبريز في ذلك .

ومن قدم في جملة السلطان أبي الحسن : صاحبنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان الملقب^(١) . كان يكتب عن السلطان ، ويلازم خدمة أبي محمد عبد المهيمن رئيس الكتاب يومئذ ، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمحاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه . وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب ، في براعة خطه ، وكثرة علمه ، وحسن سمته ، وإجادته في فقه الوثائق ، والبلاغة في الترسيل عن السلطان ، وحوك الشعر ، والخطابة على المنابر ؛ لانه كان كثيراً ما يصلِّي بالسلطان . فلما قدم علينا بتونس ، صحبتُه ، واغتبطت به ، وإن لم اتَّخِذْهُ شيخاً ، لمقاربة السن ، فقد أفدت منه كما أفدت منهم . وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرَّحَوِي شاعر تونس في قصيدة على رويِّ النون ، يرغب منه تذكرة^(٢)

(١) انظر اخباره في العبر .

(٢) كذا بالأصل ، وفي نسخة طبع بولاق : يرغب منه ان يذكره لشيخه .

شيخه أبي محمد عبد المهيمن في إيصال مدحه الى السلطان أبي الحسن،
في قصيدته^(١) على رويّ الباء، وقد تقدم ذكرها في أخبار السلطان.
وذكر في مدح ابن رضوان أعلام العلماء القادمين مع السلطان وهي
هذه :

عرفتُ زمانِي حين أنكرتُ عرفاني
وأيقنتُ أن لا حظَّ في كَفِّ كيوانِ^(٢)
وأن لا اختيارٌ في اختيارٍ مَقومٍ وأن لا قراعٌ بالقرانِ لأقرانِ^(٣)
وأنَّ نظامَ الشَّكْلِ^(٤) اكملَ نظمه لِأضعفِ قاضٍ في الدليلِ برُجحانِ
وان افتقارِ المرءِ في فقراتِهِ ومن ثقله يُغني اللبيبَ بأوزانِ
فمن بعد ما شمت الخلاب ولم أرعْ لهشَّةَ راضٍ او لِشِرَّةَ غضبانِ
ولم يُعشني للنارِ لَمعُ شُعاعِها فما كل نارٍ نارَ موسى بنِ عمرانِ
ولم يبق لي في الغيبِ من املِ سِوى لقاءِ ابنِ رضوانِ وجنَّةِ رضوانِ

(١) كذا ، وفي ب : في قصيدة .

(٢) كيوان : اسم لرحل ، وهو احد الكواكب السيارة .

(٣) مقوم الكوكب : موضعه (طولُه) من فلك البروج (الدائرة الكسوفية) ، والقران : اجتماع كوكبين سيارين في نقطة واحدة من فلك البروج ، ويشير الرحوي الى ما يزعمه المنجمون من ان الكوكب اذا كان في موضع معين في فلك البروج ، او اقترن بكوكب آخر في نقطة معينة ، كان له اثر حسن . او سيء ، في اعمال الانسان .

(٤) نظام الشكل : شكل الفلك ، يريد وضعه في وقت معين ، وهو ما يعرف عندهم بالنصبة الفلكية . ونظام الشكل : كناية عن حسن دلالاته . يقول : مها انتظم الشكل فانه اضعف قاض في دلالة القران على رجحان عمل على آخر .

هناك الفيت العلاء تنتمي الى أناس ضئيل عندهم فخر غسان
وأرعت من روض التأدب يانعا وحيت من كثر العلوم بمقيان
وردت فلم تجذب لديه رياتي وصديق طرفي ما تلقته آذاني
فحسبك من آدابه كل زاخر يحييك معسولا بدر ومرجان
يحييك بالسلك الذي لم تحيط به

طروس ابن سهل او سالف بوران^(١)

فقل بابلي إن ينافشك لفظة وفي وشيه الأطراس قل هو صنعاني
خلائق لم تخلق سدئ بل تكلمت بإسداء إنعام وإبلاء إحسان

ثم يقول في ذكر العلماء القادمين :

هم القوم كل القوم، أما حلومهم

فأرسخ من طودني ثبير^(٢) وثهلان^(٣)

فلا طيش يعرفوهم وأما علومهم فأعلامها تهديك من غير نيران

(١) السالف : جانب العنق ، وجعلوا كل جزء من العنق سلفة ، فقالوا : انها لوضاحة السالف . (لسان العرب) .

وبوران : هي بنت الحسن بن سهل . تزوجها الخليفة المأمون ، وأنفق في زفافها من الأموال ما أصبح مضرب المثل . وفيات الأعيان ١١٦/١ .

وابن سهل هو الحسن بن سهل السرخسي والد بوران ، ووزير المأمون ؛ له في البلاغة مكانة . (وفيات ١٧٧/١) .

(٢) ثبير : جبل بظاهر مكة . (تاج العروس) .

(٣) ثهلان : جبل في بلاد بني نمير . (تاج العروس) .

بفقهٍ يَشِيمُ الْأَصْبَحِيَّ^(١) صَبَاحَهُ وَأَشْهَبَ^(٢) مِنْهُ يَسْتَدَلُّ بِشُهْبَانِ
وَحَسَنِ جِدَالٍ لِلْخُصُومِ وَمَنْطِقٍ يَجِيئَانِ فِي الْأَخْفَى بِأَوْضَحِ بُرْهَانِ
سَقَتِ رَوْضَةَ الْأَدَابِ مِنْهُمْ سَحَابٌ سَحَبَ عَلَى سَحْبَانَ^(٣) أَذْيَالِ نَسِيَانِ
فَلَمْ يُبْقِ نَأْيُ ابْنِ الْإِمَامِ شِمَاخَةً عَلَى مُدُنِ الدُّنْيَا لِأَنْفِ تِلْمَاسَانَ
وَبَعْدَ نَوَى السَّطِيِّ لَمْ تَسْطُ فَأَسَهُ بِفَخْرٍ عَلَى بَغْدَانَ فِي عَصْرِ بَغْدَانَ
وَبِالْأَبْلَى اسْتَسْقَتِ الْأَرْضُ وَبَلَهَا وَمَسْتَوْبَلٌ مَا مَالَ عَنْهُ لَا ظَلَمَانَ
وَهَامَتِ عَلَى عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ تُونِسٌ وَقَدْ ظَفِرَتْ مِنْهُ بِوَصْلِ وَقُرْبَانَ
وَمَا عَلِقَتْ مِنْهُ الضَّمَائِرُ غَيْرَهُ وَإِنْ هَوَيْتِ كَلَّا لَجِبَ ابْنَ رِضْوَانَ
وَكُتِبَ هَذَا الشَّاعِرُ : صَاحِبُنَا الرَّحْوِيُّ يُذَكِّرُ عَبْدِ الْمُهَيْمِنِ
بِذَلِكَ :

لِهِيَ النَّفْسُ فِي اكْتِسَابِ وَسْعِي وَهُوَ الْعُمَرُ فِي انْتِهَابِ وَفِي
وَأَرَى النَّاسَ بَيْنَ سَاعٍ لِرُشْدٍ يَتَوَخَّى الْهُدَى وَسَاعٍ لِفِي
وَأَرَى الْعِلْمَ لِلْبَرِيَّةِ زِينًا فَتَزِيَّ مِنْهُ بِأَحْسَنِ زِيَّ

(١) يريد الأصبحي مالك بن أنس الإمام المعروف ؛ لانتهاء نسبة الى ذي أصح . (ديباج ص ١١ - ٣٠) .

(٢) هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكي المصري وفيات الأعيان ١/٩٧ .

(٣) هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي ، يضرب به المثل في البيان ؛ أدرك الإسلام ، ومات

سنة ٥٥٤ هـ . ترجمته في شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون ص ٧٥ .

وأرى الفضلَ قد تجمَعُ كُلاً في ابن عبد المهيمن الحضرمي
حلَّ بالرتبة العلية في حضرة ملك سامي العماد علي
قلم أوسع الأقاليم أمراً فله قد أطاع كلُّ عصى
قدر ما يُفيد منه احتذارٌ فبأيِّ زاه يقضي بأيِّ
يمنحُ العزَّ والعُلا ويوالي بالعطايا الجسام كلَّ ولي
يلجأ الدارعون خوفاً إليه فهو يزري بالصَّارم المشرقي
هو أعلى الأقاليم في كل عصرٍ حيث يُنمى إلى الامام علي
حليتْ تلكمُ الرياسة منه بفريدٍ في كل معنى سني
سالك في النظام دُرّاً وطوراً ناز دُرّه بنشرٍ وطي
يدعُ للبديع^(١) ترمي بحضرة ولصابي^(٢) بني بويه بمي
ويرى اُخرسُ العراق لديه انه بالشام كالأعجمي
وعلمُ هي البحور ولكن ينثني الواردون منها بري
تصدرُ الأمة العظيمةُ عنه بحديث مجود مروي
وبفقه فيه وحسن مقال يضع النور في لحاظ العمي
وبنحو يُنجي على سيبويه ببيان في المُبهمات جلي

(١) يريد ابا الفضل احمد بن الحسين الهمداني ، بديع الزمان ، المتوفى سنة ٣٩٨ . (وفيات

الاعيان ٤٧/١) .

(٢) ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب البلغ . وفيات ١٤/١ .

عَمِي الأَخْفَشَانِ عَنْهُ وَسُدَّتْ
يَا إِخَا الْحُكْمِ فِي الْأَنَامِ وَإِنِّي
بِنْتُ فِكْرِي تَعَرَّضْتُ لِحِمَاكُم
تَبْتَغِي الْقُرْبَ مِنْ مِرَاقِي الْأَمَانِي
عَنْ خَفَايَاهُ فِطْنَةُ الْفَارِسِيِّ
لَأَنَادِي رَبَّ النَّدَى وَالنَّدَى
فَالْقَهَا رَاضِيًا بِوَجْهِ رَضِي
وَالتَّرَقَّى لِلجَانِبِ الْعَلْوِيِّ
كَلَّ دَانَ تَبْغِي وَكَلَّ قَصِي
فَأَنلَهَا بِرَامَاهَا نَلَتْ سَهْلًا

ثم كانت واقعة العرب على السلطان بالقيروان ، في فاتحة تسع
وأربعين ، فشقوا عن ذلك ، ولم يظفر هذا الرحوي بطلته . ثم جاء
الطاعون الجارف ، فطوى الساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن
هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس ، لخلعة كانت بينه وبين والدي ، رحمه
الله ، أيام قدومهم علينا .

فما كانت واقعة القيروان ، نار أهل تونس بمن كان عندهم من
أشباع السلطان أبي الحسن ، فاعتصموا بالقصبة دار الملك ، حيث كان
ولد السلطان وأهله ، وانتقض عليه ابن تافراكين ، وخرج من
القيروان إلى العرب ، وهم يحاصرون السلطان ، وقد اجتمعوا على
ابن أبي دبوس ، وبايعوا له ، كما مر في أخبار السلطان ، فبعثوا ابن
تافراكين إلى تونس ، فحاصر القصبة ، وامتنعت عليه . وكان عبد
المهيمن يوم ثورة أهل تونس ، ووقوع الهزيمة ، خرج من بيته إلى
دارنا ، فاخفى عند أبي رحمه الله ، وأقام مختفياً عندنا نحواً من ثلاثة

أشهر . ثم نجا السلطان من القَيْرَوَانِ الى سُوسَة ، وركب البحر الى
تونس ، وفرَّ ابن تَافَرَاكِين الى المشرق . وخرج عبد الميِّمَن من
الاختفاء ، وأعادهُ السلطان الى ما كان عليه ، من وظيفة العَلامَة
والكتابة ، وكان كثيراً ما يخاطب والذي رحمه الله ويشكره على
مُوالاته ، ومما كتب اليه وحفظته من خطّه :

| | |
|--|---------------------------------------|
| لِحَمْدِ ذَوِي الْمَكَارِمِ قَدْ ثَنَانِي | فَعَالَ شُكْرَهُ أَبَدًا عَنَانِي |
| جَزَى اللهُ ابْنَ خَلْدُونَ حَيَاةً | مَنْعَةً وَخُلْدًا فِي الْجَنَانِ |
| فَكَمْ أَوْلَى وَوَالِي مِنْ جَمِيلِ | وَبِرٍّ بِالْفِعَالِ وَبِاللِّسَانِ |
| وَرَاعَى الْخَضْرَمِيَّةَ فِي الَّذِي قَدْ | حَبَا مِنْ وَدِّهِ وَمِنْ الْخَنَانِ |
| أَبَا بَكْرٍ ثَنَاءً كَطُولِ دَهْرِي | أُرْدِدُ بِاللِّسَانِ وَبِالْجَنَانِ |
| وَعَنْ عَلِيَّكَ مَا امْتَدَّتْ حَيَاتِي | أَكْفَاحِ بِالْحُسَامِ وَبِالسِّنَانِ |
| فَنُكَ أَفَدْتِ خِلَاءً لَسْتُ دَهْرِي | أُرَى عَنْ حَبِّهِ أَثْنِي عَنَانِ |

وهؤلاء الأعلام الذين ذكرهم الرَّحْوِي فِي شعره ، هم سَبَاق
الْحَلَبِيَّةِ فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، اصطفاهم لصحابته من بين أهل
المغرب . فأما ابنا الامام^(١) منهم فكانا اخوين من اهل بَرَشِك ، من
اعمال تلمسان ، واسم اكبرهما : ابو زيد عبد الرحمن ، واسم الاصغر :

(١) انظر ترجمة ابني الامام في الديباج ص ١٥٢ . وفي تاريخ ابن خلدون بعض اخبارهما .

ابو موسى عيسى ، وكان ابوهما اماما ببعض مساجد برشك ،
وأتهمه المتغلب يومئذ على البلد زيرم^(١) ابن حماد ، بأن عنده
وديعة من المال لبعض اعدائه ، فطالبه بها ، فلاذ بالامتناع ، وبيته
زيرم ، لينتزع المال من يده ، فدافعه وقتل^(٢) وارتحل ابنه
هذان الأخوان الى تونس في المئة السابعة ، واخذ العلم بها عن تلاميذ
ابن زيتون ، وتفقه على اصحاب ابي عبدالله ابن شعيب الكالي ،
وانقلبا الى المغرب بحظ وافر من العلم . وأقاما بالجزائر يبثان بها العلم ،
لامتناع برشك عليهما من أجل [ضرر] زيرم المتغلب عليها ،
والسلطان ابو يعقوب يومئذ ، صاحب المغرب الأقصى من بني مرين ،
جاثم على تلمسان يحاصرها الحصار الطويل المشهور^(٣) ، وقد بث
جيشه في نواحيها ، وغلب على الكثير من أعمالها وأمصارها ، وملك
عمل مغراوة بشلف ، وحاضرتة مليانة ، فبعث عليها الحسن بن علي
ابن ابي الطلاق من بني عسكر ، وعلي بن محمد الخيري من بني
ورتاجن ، ومعهما - لضبط الجباية واستخلاص الأموال - الكاتب
منديل بن محمد الكتاني ، فارتحل هذان الأخوان يومئذ من الجزائر ،

(١) اسمه زيري بالياء ، فتصرفت العامة فيه ، وصار زيرم بالميم . وانظر اخباره في تاريخ ابن
خلدون .

(٢) وقد اتفق لهذا الوالد ابنة الاكبر ، ابو زيد عبد الرحمن . - العبر .

(٣) دام هذا الحصار ثمانية اعوام ، وثلاثة اشهر . انظر اخباره ، وما جرّه على اهل
تلمسان من عن ، في العبر .

واحتلاً بـبليانة، فحلياً بعين منديل الكِناني، فقرَّبها واصطفاهما،
 واتَّخذهما لتعليم ولده محمد. ثم هلك يوسف بن يعقوب سلطان
 المغرب، بمكانه من حصار تِلْمَسَان، سنة خمس وسبعائة^(١) على يد
 خصيٍّ من خصيَّانه؛ طعنه فأشواه، وهلك. وقام بالملك بعده حافده
 ابو ثابت، بعد خطوب ذكرناها في أخبارهم، ووقع بينه وبين صاحب
 تلمسان يومئذ أبي زيان محمد بن عثمان بن يعمر آسن، وأخيه أبي حمو،
 العهد المتأكد على الافراج عن تِلْمَسَان، وردِّ أعمالها عليهم، فوفى
 لهم بذلك، وعاد الى المغرب. وارتحل ابن أبي الطَّلَّاق، والحِيري،
 والكِناني من مليانة راجعين الى المغرب. ومروا بتِلْمَسَان، ومع
 الكِناني هذان الأخوان؛ فأوصلها الى أبي حمو، وأثنى عليها. وبمرَّفه
 بمقامها في العلم؛ فاغتبط بها ابو حمو، واختطَّ لهما المدرسة المعروفة
 بها بتِلْمَسَان. وأقاما عنده على هدي أهل العلم وسنتهم. وهلك ابو
 حمو؛ فكانا كذلك مع ابنه أبي تاشفين الى ان زحف السلطان ابو
 الحسن المريني الى تلمسان، وملكها عنوةً، سنة سبع وثلاثين. وكانت
 لهما شهرة في أقطار المغرب، أثبتت لهما في نفس السلطان عقيدةً صالحة؛
 فاستدعاها حين دخوله، وأدنى مجلسها، وأشاد بتكرمتها، ورفع
 محلها على أهل طبقتها. وصار يُجَمِّلُ بها مجلسه متى مرَّ بتِلْمَسَان، او

(١) في العبرم ٧: «آخر سنة ست»، وقد اشار ابن حجر، في الدرر الكامنة ٤٨٠/٤،
 الى هذا الخلاف، واعتمد - نقلاً عن الإحاطة - انه قتل سنة ٧٠٦.

وقدا عليه في الأوقات التي يَفِد فيها أعيانُ بلدهما . ثم استنفرهما للغزو ، وحضرا معه واقعة طَريف ، وعادا الى بلدهما . وتوفي أبو زيد منها إثر ذلك ، وبقي اخوه ابو موسى مُتَبَرِّئاً ما شاء من ظلال تلك الكرامة .

ولما سار السلطان ابو الحسن الى إفريقيّة سنة ثمان واربعين ، كما مرّ في أخباره استصحبَ أباموسى بن الامام معه مُكرِّماً مُوقراً ، عالي المَحل ، قريب المجلس منه . فلما استولى على إفريقيّة ، سرّحه الى بلدّه ، فاقام بها يسيراً ، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع واربعين . وبقي أعقابُهما يتلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ، ومُتَوَقِّلين قُلُوباً طَبَقاً عن طَبَق الى هذا العهد .

واما السّطيّ ، واسمه محمد بن عليّ بن سُليمان ، من قبيلة سَطّة ، من بطون أوْرَبَة بنواحي فاس . نزل ابوه سُليمان مدينة فاس ، ونشأ محمد بها واخذ العلم عن الشيخ ابي الحسن الصُّغَيْرِ^(١) إمام المالكية بالمغرب ، والطائر الذِّكْر ، وقاضي الجماعة بفاس ، وتفقه عليه . وكان احفظ الناس لمذهب مالك ، وأفقههم فيه . وكان السلطان ابو الحسن لدينه وسراوته ، وبعد شأوه في الفضل ، يتشوّف الى تنويهه مجلبسه بالعلماء ،

(١) هو علي بن محمد بن عبدالحق الزرويلي ابو الحسن ، يعرف بالصغير (مصغراً) الاستقصا ٨٨/٢ . ولابن خلدون رأي في أبي الحسن هذا . انظره في العبر .

واختار منهم جماعة لصحابه ومجالسته . كان منهم هذا الامام محمد بن سليمان . وقدم علينا بثونس في جلته ، وشهدنا وفور فضائله . وكان في الفقه من بيها لا يُجاري ، حفظاً وفيها ، عهدي به وأخي محمد رحمه الله يقرأ عليه من كتاب التبصرة لابي الحسن اللخمي ، وهو يُصححه عليه من املائه وحفظه ، في مجالس عديدة . وكذا كان حاله في اكثر ما يُعاني حمله من الكتب . وحضر مع السلطان ابي الحسن ، واقعة القيروان ، وخلص معه الى تونس ، واقام بها نحواً من ستين . وانتفض المغرب على السلطان ، واستقل به ابنه ابو عنان . ثم ركب السلطان ابو الحسن في اساطيله من تونس آخر سنة خمسين ، ومر بجاية ، فادركه الفرق في سواحلها ، ففرقت اساطيله ، وغرق اهله ، واكثر من كان معه من هؤلاء الفضلاء وغيرهم . وألقاه البحر ببعض الجزر هناك ، حتى استنقذه منه بعض اساطيله ، ونجا الى الجزائر بعد ان تلف موجوده ، وهلك الكثير من عياله واصحابه ، وكان من امره ما مر في اخباره .

واما الآبلي^(١) واسمه محمد بن ابراهيم ، فنشؤه بتلمسان ، واصله من جالية الاندلس ، من أهل آبله ، من بلاد الجوف^(٢) منها ، اجاز

(١) محمد بن ابراهيم الآبلي هذا ، من اخص اساتذة ابن خلدون ، وهو - فيما تحدثت به المراجع - عالم ذو مكانة بعيدة المدى في الثقافة الاسلامية بالمغرب .
(٢) المراد بالجوف ، الشمال في لغة المغاربة والاندلسيين . تاريخ ابن خلدون م ؛ الاستقصا

ابوه وعمه احمد ، فاستخدمهم يغير آسن بن زيان ، وولده في جندهم ،
واصهر ابراهيم منها الى القاضي بتلمسان محمد بن غلبون في ابنته ،
فولدت له محمداً هذا . ونشأ بتلمسان في كفاية جده القاضي ؛ فنشأ
له بذلك ميل الى انتحال العلم عن الجندية التي كانت مُنتحل ابيه
وعمه . فلما يقع وادرك ، سبق الى ذهنه محبة التعاليم ؛ فبرع فيها ،
واشتهر . وعكف الناس عليه في تعلمها وهو في سن البلوغ . ثم
اُطل السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان ، وجثم عليها
يُحاصرها . وسير بعوثه الى الاعمال ؛ فافتتح اكثرها . وكان ابراهيم
الايلي قائداً بهين ؛ مرسى تلمسان في لمة من الجند . فلما ملكها
يوسف بن يعقوب ، اعتقل من وجد بها من شيع ابن زيان ، واعتقل
ابراهيم الايلي فيهم . وشاع الخبر في تلمسان بأن يوسف بن يعقوب
يسترهن أبناءهم ويطلبهم ؛ فتشوف ابنه محمد الى الأحاق به ، من
اجل ذلك . واغراه اهله بالعزم عليه ؛ فتسور الاسوار ، وخرج الى
ابيه ؛ فلم يجد خبر الاسترهان صحيحاً . واستخدمه يوسف بن يعقوب
قائداً على الجند الاندلسيين بتاوريرت ، فكره المقام على ذلك ،
ونزع عن طوره ، ولبس المسوح ، وسار قاصداً الحج . وانتهى الى

رباط العباد^(١) محتفياً في صُحبة الفقراء ؛ فوجد هنالك رئيساً من كربلاء^(٢) ثم من بني الحسين ، جاء الى المغرب يروم اقامة دعوتهم فيه ، وكان معقلاً ؛ فلما رأى عساكر يوسف بن يعقوب ، وشدة هيبته غلب عليه اليأس من مرامه ، ونزع عن ذلك ، واعتزم الرجوع الى بلده ، فسار شيخنا محمد بن ابراهيم في جملة .

قال لي رحمه الله : وبعد حين انكشفت لي حاله ، وما جاء له ، واندرجت في جملة أصحابه وتابعه . قال : وكان يتلقاه في كل بلد من أصحابه وأشياعه وخدمته من يأتيه بالأزواد ، والنفقات من بلده ، الى ان ركبنا البحر من تونس الى الاسكندرية . قال : واشتدت علي الغلظة في البحر ، واستحييت من كثرة الاغتسال ؛ لمكان هذا الرئيس ؛ فأشار علي بعض بطانته بشرب الكافور ؛ فاغترفت منه غرفة ، فشربتها فاختلطت . وقدم الديار المصرية على تلك الحال ، وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد ، وابن الرقعة ، وصفي الدين الهندي ، والتبريزي ، وابن البديع ، وغيرهم من فرسان العقول والمنقول . فلم يكن قصاراه إلا تمييز اشخاصهم ، اذا ذكرهم لنا ؛

(١) مرتفع جميل خارج مدينة تلسان ، كان مدفن الأولياء والصلحاء والعلماء . وهناك موضعان عرفا باسم « العباد » ؛ أحدهما يسمى العباد الفوقي ، وكان بعيداً نوعاً ما عن المدينة ، والثاني العباد السفلي ، وكان باب الجياد من أبواب تلسان .

(٢) هو الموضع الذي قتل فيه الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقد أطلق اليوم اسم كربلاء على لواء كامل من ألوية العراق . ياقوت ٢٢٩/٧ .

لما كان به من الاختلاط. ثم حجَّ مع ذلك الرئيس ، وسار في جملته الى كَرْبَلَاءَ ؛ فَبَعَثَ معه من أصحابه من أوصله الى مَأْمَنِهِ من بلاد زَوَاوَةَ^(١) من اطراف المغرب . وقال لي شيخنا رحمه الله : كان معي دنائير كثيرة تَرَوَّدَتْها من المغرب ، واستبطنتها في جَبَّةِ كَنْتِ أَلْبَسُهَا ؛ فلما نزل بي ما نزل انتزَعَهَا مِنِّي حتى اذا بعث اصحابه يشيِّعُونِي الى المغرب ، دَفَعَهَا إِلَيْهِمْ ، حتى اذا اوصولني الى المَأْمَنِ ، أعطوني اياها ، وأشهدوا عليَّ بها في كتاب حملوه معهم اليه كما امرهم . ثم قارَنَ وصول شيخنا الى المنرب مَهْلِكِ يوسف بن يعقوب وخلص اهل تِلْمِسَانَ من الحصار ؛ فعاد الى تِلْمِسَانَ ، وقد افاق من اختلاطه ، وانبشَّتْ همته الى تعلُّمِ العلم . وكان ماؤلاً الى العقليات ؛ فقرأ المنطق على ابي موسى ابن الامام ، وجملة من الأصليين ، وكان ابو حَمُو^(٢) صاحب تِلْمِسَانَ يومئذ قد استفحل ملكه ، وكان ضابطاً لاموره ، وَبَلَغَهُ عن شيخنا تقدُّمُهُ في علم الحساب ؛ فدفعه الى ضبط أمواله ومُشارفة عَمَّالِهِ . وتقادى شيخنا من ذلك ؛ فأكرهه عليه ؛ فأعمل الحيلة في

(١) زواوة بفتح الزاي: بطن من بطون البربر البتر، ويرجع ابن خلدون - تبعاً لابن حزم - أنها من كتامة، وكان موطنها، حسب ما حدده، الجبال العالية التي بنواحي بجاية، والتي بينها وبين تدلس. وبإسليم هذه البطون تسمى الأمكنة التي تنزلها، حال إقامتها، وبعد ما ترحل؛ ولهذا يقع اسم القبيلة الواحدة على أمكنة متعددة. انظر العبر ٨٨/٦، ١٨١، ١٩٢، تاج العروس ١٠/١٦٦، ١٦٧.

(٢) هو أبو حمو موسى بن يوسف الزباني، من ملوك تلمسان، بني عبد الواد. انظر الاستبصار ١٠٣/٢ وما بعدها.

الفرار منه ، ولحق بفاس أيام السلطان ابي الربيع ^(١) . وبعث فيه ابو حمو ؛ فاخفى بفاس عند شيخ التعاليم من اليهود ، خلوف المغيلي ؛ فاستوفى عليه فنونها ، وحذق . وخرج متوارياً من فاس ؛ فلحق بمراكش ، أعوام العشر والسبع مائة . ونزل على الامام ابي العباس بن البناء شيخ المعقول والمنقول ، والمبرز في التصوف علماً وحالاً ؛ فلزمه ، واخذ عنه . وتضلّع من علم المعقول والتعاليم والحكمة . ثم استدعاه شيخ الهسا كرة علي بن محمد بن تروميت ليقراً عليه ، وكان ممرضاً في طاعته للسلطان ؛ فصعد إليه شيخنا وأقام عنده مدة ؛ قرأ عليه فيها وحصل . واجتمع طلبة العلم هنالك على الشيخ ، فكثرت إفادته ، واستفادته ، وعلي بن محمد في ذلك على تعظيمه ، ومحبته ، وامثال إشارته ؛ فغلب على هواه ، وعظمت رياسته بين تلك القبائل . ولما استنزل السلطان أبو سعيد علي بن تروميت من جبله ، نزل الشيخ معه ، وسكن بفاس . وانشال عليه طلبة العلم من كل ناحية ؛ فانشر علمه ، واشتهر ذكره ؛ فلما فتح السلطان أبو الحسن تلمسان ولقي أبا موسى بن الامام ، ذكره له بأطيب الذكر ، ووصفه بالتقدم في العلوم . وكان السلطان معنياً بجمع العلماء لمجلسه ، كما ذكرنا . فاستدعاه من مكانه بفاس ، ونظمه في طبقة

(١) هو سليمان بن عبد الله بن أبي يعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني ، يكنى أبا الربيع .

العلماء بمجلسه ، وعكفَ على التدريس والتعليم ، ولازم صحابة
السُّلطان ، وحضّر معه واقعة طريف ، وواقعة القير وان بإفريقية .
وكانت قد حصلت بينه وبين والذي رحمه الله صحابة ، كانت وسيلتي
إليه في القراءة عليه ؛ فلزمت مجلسه ، وأخذت عنه . وافتتحت
العلوم العقلية بالتعاليم . ثم قرأت المنطق ، وما بعده من الأصلين ،
وعلم الحكمة . وعرضَ أثناء ذلك ركوبُ السُّلطان أساطيله من
تونس إلى المغرب ، وكان الشيخ في نُزُلنا وكفالتنا ، فأشرنا عليه
بالمقام ، وثبُطنا عن السفر ؛ فقبل ، وأقام . وطالَ بنا به السُّلطان أبو
الحسن ؛ فأحسنَّ له العُدْر . وتجاوى عنه ، وكان من حديث غرقه في
البحر ما قدّمناه . وأقام الشيخ بتونس ، ونحن وأهل بلدنا جميعاً
نتسآجل في غشيان مجلسه ، والأخذ عنه ؛ فلما هلك السُّلطان أبو
الحسن بجبال هنتاة^(١) ، وفرغ ابنه أبو عنان^(٢) من شواغله ، ومَلَكَ
تلمسان من بني عبد الواد ؛ كتب فيه يطلبه من صاحب تونس ،
وسلطانها يومئذ أبو إسحق^(٣) إبراهيم بن السلطان أبي يحيى ، في كفالة

(١) درج ابن خلدون على ضبط « هنتاة » بالقلم ، بكسر الهاء . وسكون النون ، وفتح التاء
الفوقية ، بعدها ألف ممدودة ، ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي شذرات الذهب لابن العماد
٣٤٥/٦ ، وصبح الأعشى ١٣٤/٥ : أنها بفتح الهاء . وبقية الضبط متفق عليه بينهم .

(٢) هو فارس المكنى بأبي عنان بن أبي الحسن المريني ؛ كان يلقب بالمتوكل . ثار على أبيه ،
وملك المغرب الأقصى ، وبجاية ، وقسنطينة ، وتلمسان ، وتونس ، وتوفي سنة ٧٥٩ .

(٣) أبو إسحق إبراهيم بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم .

شيخ الموحدين أبي محمد بن تافرأكين؛ فأسلمه إلى سفيره، وركب معه البحر في أسطول السلطان الذي جاء فيه السفير. ومرّ بجاية، ودخلها، وأقام بها شهراً، حتى قرأ عليه طلبه العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، ورضيتهم في ذلك منه ومن صاحب الأسطول. ثم ارتحل، ونزل بمرسى هنيئ و قدّم على السلطان بتليمان، وأحلّه محلّ التكرمة، ونظّمه في طبقة أشياخه من العلماء. وكان يقرأ عليه، ويأخذ عنه، إلى أن هلك بفاس، سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وأخبرني رحمه الله أن مولده بتليمان سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وأما عبد المهيمن كاتب السلطان أبي الحسن، فأصله من سبته، ويثّم بها قديم، ويُعرفون ببني عبد المهيمن؛ وكان أبوه محمد قاضيها أيام بني العزّي. ونشأ ابنه عبد المهيمن في كفالتة؛ وأخذ عن مشيخته. واختصّ بالأستاذ أبي إسحق الغافقي^(١). ولما ملك عليهم الرئيس أبو سعيد، صاحب الأندلس، سبته ونقل بني العزّي؛ مع جملة اعيانها إلى غرناطة، ونقل معهم القاضي محمد بن عبد المهيمن، وابنه عبد المهيمن؛ فاستكمل قراءة العلم هنالك وأخذ عن أبي جعفر بن الزبير^(٢)

(١) إبراهيم بن أحمد بن عيسى الأشبيلي أبو إسحق؛ عرف بالغافقي. دخل سبته، وولي القضاء بها. وتوفي سنة ٧١٦ هـ. الدرر الكامنة ١٣/١٠.

(٢) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، أبو جعفر.

ونظراته ، وتقدّم في معرفة كتاب سيبويه ، وبرّز في علو الاسناد ، وكثرة المشيخة . وكتب له اهل المغرب والاندلس والمشرق ، فاستكتبه رئيس الاندلس يومئذ ، الوزير ابو عبد الله بن الحَكيم ^(١) الرُندي ، المستبدّ على السلطان المخلوع ^(٢) من بني الاحمر ، فكتب عنه ، ونظّمه في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه ، مثل المحدث الرحّالة ابي عبد الله بن رشيد الفهري ^(٣) ، وأبي العبّاس احمد بن (...) ^(٤) الغزفي ، والعالم الصوفي المتجرّد ، ابي عبد الله محمد بن خميس ^(٥) التلمساني ، وكانا لا يُجاريان في البلاغة والشعر - الى غير هؤلاء . ممن كان مختصاً به ؛ وقد ذكرهم ابن الخطيب في تاريخ غرناطة . فلما نكب الوزير ابن الحَكيم ، وعادت سبّته الى طاعة بني مرّين ، عاد عبد المهيمن اليها واستقرّ بها . ثم ولي السلطان ابو سعيد ، وعذب عليه ابنه ابو علي ، واستبدّ بحمل الدّولة . تشوّف الى استدعاء .

(١) هو الوزير الشاعر محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم ، أبو عبد الله الرندي ، شهر بابن الحَكيم ، الاطّاعة ٢/٢٧٨ - ٣٠٤

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ، يكنى أبا عبد الله ؛ ثالث ملوك بني الاحمر (٦٥٥ - ٧١٣) ، وهو الذي بنى مسجد الحمراء الأعظم بقرناطة .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ... بن رشيد (مصغراً) الفهري السبّتي . محدث رحالة شهير .

(٤) هكذا يبايض في الاصل ، ولا يوجد تبايض في ب . ولعل ابن خلدون ترك الفراغ ليضع فيه آباء أبي العبّاس الغزفي ، فمات قبل أن يفعل . وهي - كما في نيل الابتهاج وغيره - أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عزافة اللخمي .

(٥) ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد . الحجري ، التلمساني ، الشاعر . توفي قتيلاً في سنة ٧٠٨ وله نيف وستون سنة .

الفضلاء ، وتجل الدولة بمكانهم ؛ فاستقدم عبد المهيمن من سبته ، واستكتبه سنة اثنتي عشرة . ثم خالف على ابيه سنة اربع عشرة ، وامتنع بالبلد الجديد ، وخرج منها الى سجلماسة بصلح عقده مع ابيه ؛ فتمسك السلطان أبو سعيد بعبد المهيمن ، واتخذ كاتباً ، الى ان دفعه لرياسة الكتاب ، ورسم علامته في الرسائل والاوامر ؛ فتقدم لذلك سنة ثمان عشرة ، ولم يزل عليها سائر ايام السلطان ابي سعيد وابنه ابي الحسن . وسار مع ابي الحسن الى إفريقية ، وتخلّف عن واقعة القيروان بتونس ؛ لما كان به من علّة النقرس . فلما كانت الهبة بنونس ، ووصل خبر الواقعة ، وتحيز اشياح السلطان الى القصة ، مع حرّمه ، تسرب عبد المهيمن في المدينة ، منتبذاً عنهم ، وتوارى في بيتنا ، خشية ان يصاب معهم بمكروه . فلما انجلت تلك الغيابة ، وخرج السلطان من القيروان الى سوسة ، وركب منها البحر الى تونس ، اعرض عن عبد المهيمن ، لما سخط غيبته عن قومه بالقصة ، وجعل العلامة لابي الفضل ابن الرئيس عبد الله بن ابي مدين^(١) ، وقد كانت مقصورةً من قبل على هذا البيت ، واقام عبد المهيمن عطلاً من العمل مدة اشهر . ثم اعتبه السلطان ، ورضي عنه ، واعاد اليه العلامة

(١) عبد الله بن ابي مدين شيب الثاني . نجم - من بيت ابي مدين - في خدمة بني مرين ؛ فقلدوه الحجابة ، ورياسة الكتاب . ولد بقصر كتاة ، ونشأ بمكناسة ، وتعلم بها .

كما كان ، وهلك لأيام قلائل بتونس في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين . ومولده سنة خمس وسبعين من المائة قبلها ، وقد استوعب بن الخطيب التعريف به في تاريخ غرناطة فلطالعها هناك من أحب الوقوف عليه .

وأما ابن رضوان ^(١) الذي ذكره الرَّحَوِي في قصيدته ، فهو أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري ؛ أصله من الأندلس نشأ بمالقة ، وأخذ عن مشيختها ، وحذق في العربية والأدب ، وتفنن في العلوم ، ونظم ونثر ، وكان مجيداً في الترسيل ، ومُحسناً في كتابة الوثائق . وارتحل بعد واقعة طريف ، ونزل بسبته ، ولقي بها السلطان أبا الحسن ، ومدحه ، وأجازه ، واختص بالفاضل إبراهيم بن أبي يحيى ^(٢) ، وهو يومئذ قاضي المساكر ، وخطيب السلطان ، وكان يستنبيه في القضاء والخطابة ، ثم نظم في حلبة الكتاب بباب السلطان . واختص بخدمة عبد المؤمن رئيس الكتاب والأخذ عنه ، إلى أن رحل السلطان إلى إفريقية ، وكانت واقعة القيروان ، وانحصر بقصبة تونس من انحصار بها ؛ من اشباعه مع أهله وحرمة . وكان السلطان قد تحلف ابن رضوان هذا بتونس في بعض خدمه ، فجعلني عند الحصار فيما عرض لهم من المكاتبات . وتولى

(١) انظر ترجمة ابن رضوان هذا ، في الاستقصاء ١٢٣/٢ .

(٢) إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي التنازي أبو اسحق ؛ يعرف بان أبي يحيى

التوفي بعد سنة ٧٤٨ . الإحاطة ٢١٧/١ .

كبر ذلك ، فقام فيه احسن قيام ، الى ان وصل السلطان من القيروان ، فرعى له 'حق' خدمته ، تأنيساً ، وقرباً ، وكثرة استعمال ، الى ان ارتحل من تونس في الأسطول ، الى المغرب سنة خمسين كما مر . واستخلف بتونس ابنه ابا الفضل وخلف ابا القاسم بن رضوان كاتباً له ؛ فاقام كذلك اياماً . ثم غلبهم على تونس سلطان الموحدين الفضل ابن السلطان ابي يحيى . ونجا ابو الفضل الى ابيه ، ولم يطق ابن رضوان الرحلة معه ؛ فاقام بتونس حوفاً ، ثم ركب البحر الى الأندلس ، واقام بالمرية مع جملة من هنالك من اشباع السلطان ابي الحسن ؛ كان فيهم عامر بن محمد بن علي شيخ هنتاته ، كافلاً لحرم السلطان ابي الحسن ؛ وابنه . اركبهم السفين معه من تونس عندما ارتحل ؛ فخلصوا الى الأندلس ، ونزلوا بالمرية ، واقاموا بها تحت جراية سلطان الأندلس ؛ فلحق بهم ابن رضوان ، واقام معهم . ودعاه ابو الحجاج ^(١) سلطان الأندلس الى ان يستكتبه فامتنع ، ثم هلك السلطان ابو الحسن ، وارتحل مخلصه الذين كانوا بالمرية . ووفدوا على السلطان ابي عتآن . ووفد معهم ابن رضوان ؛ فرعى له وسائله في خدمة ابيه ، واستكتبه ، واختصه بشهود مجلسه ، مع طلبة العلم بحضرته . وكان محمد بن ابي عمرو يومئذ رئيس الدولة ،

(١) هو سابع ملوك بني الاحمر . ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر . (٧١٨ -

٧٥٥) ولي الملك سنة ٧٣٤ .

ونَجِيّ الحَلْوَة، وصاحب العَلَامَة، وحُسابان الجبَاية والعساكر، قد عَلِبَ على هَوَايَ السلطان، واختصَّ به؛ فاستخدم له ابنَ رضوان حتى عَلِقَ منه بدمه. ولايةٌ وصحبةٌ، وانتظاماً في السَّمَر، وغَشِيان المجالس الخاصَّة، وهو من ذلك يُدنيه من السلطان. ويُنفقُ سوقه عنده، ويستكفي به في مواقف خدمته إذا غاب عنها لما هو أهمُّ؛ فحَلِي بعين السلطان، ونفقت عنده فضائله. فلَمَّا سار ابن أبي عمرو في العساكر إلى بَجَاية، سنة أربع وخمسين، انفرد ابن رضوان بقلم الكتاب عن السلطان. ثم رجع ابن أبي عمرو، وقد سَخِطَه السلطان؛ فأقصاه إلى بَجَاية وولاه عليها، وعلى سائر أعمالها، وعلى حرب الموحِّدين بَشَنَطِيْنَة. وأفرد ابن رضوان بالكتابة، وجعل إليه العَلَامَة، كما كانت لابن أبي عمرو، فاستقلَّ بها، مؤفِّراً الاقطاع، والاسهام، والجماء. ثم سَخِطَه آخر سبع وخمسين، وجعل العَلَامَة لمحمد بن أبي القاسم بن أبي مَدِين، والانشاء والتوقيع لأبي إسحق إبراهيم بن الحاج الغرناطي^(١). فلما كانت دولة السلطان أبي سالم^(٢)، جعل العَلَامَة لعلي بن محمد بن سعود^(٣) صاحب ديوان العساكر،

(١) إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم... النميري أبو إسحق؛ يعرف بابن الحاج ولد سنة ٧١٣، وكان حياً في سنة ٧٦٨. احاطة ١/١٩٣ - ٢١٠.

(٢) أبو سالم هذا هو إبراهيم بن السلطان أبي الحسن، وأخو السلطان أبي غنم فارس. تفصيل أخباره في تاريخ ابن خلدون.

(٣) دو علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن سعود الخزاعي، يكنى أبا الحسن أصله من الأندلس من بيت علم، وقدم أبوه تلمسان. كان فقيهاً أديباً لغزياً.

والانشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن بن خلدون . ثم هلك أبو سالم سنة اثنتين وستين ، واستبد الوزير عمر بن عبد الله^(١) على من كفله من أبنائهم ، فجعل العلامة لابن رضوان ، سائر أيامه ، وقتله عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ، واستبد بملكه ، فلم يزل ابن رضوان على العلامة ، وهلك عبد العزيز ، وولي ابنه السعيد في كفاة الوزير أبي بكر بن غازي^(٢) بن الكاس ، وابن رضوان على حاله ؛ ثم غلب السلطان أحمد على الملك ، وانتزعه من السعيد ، وأبي بكر بن غازي ، وقام بتدبير دولته محمد بن عثمان بن الكاس ، مستبداً عليه ، والعلامة لابن رضوان ، كما كانت ، الى أن هلك بأزمور في بعض حركات السلطان أحمد الى مرأكش ، لحصار عبد الرحمن بن بوقلوسن ابن السلطان أبي علي سنة (.....)^(٣) .

وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه ، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بثونس ، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق ، وتخطت النكبة منهم آخرين الى أن استوفوا ما قدير من آجالهم . فمن حضر معه بإفريقية من العلماء ،

(١) الوزير عمر بن عبد الله ، من الوزراء الذين كان لهم الأثر البارز في تصريف شؤون الدول بالمغرب ؛ واخباره ذكرت مفصلة في العبرم ٧ .

(٢) الوزير أبو بكر بن غازي هذا ؛ كان له صيت وسلطة أيام بني مرين ، وكانت له كذلك صلة بلسان الدين ابن الخطيب ، عند ما انتقل الى المغرب . انظر تاريخ ابن خلدون م ٧ .

(٣) كذا ياض بالأصل ؛ ولم نعتز في المراجع التي بين ايدينا على هذه السنة .

شيخنا أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي ، شيخ القراءات بالمغرب ؛ أخذ العلم والعربية عن مَشِيخَة فاس ، وروى عن الرَّحالة أبي عبد الله محمد بن رُشيد ، وكان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تُجَارَى . وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود^(١) ، وكان يصلي بالسلطان التراويح ، ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه .

ومن حضر معه بإفريقية ، الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصبَّاغ من أهل مكناسة . كان مبرزاً في المنقول والمعقول ، وعارفاً بالحديث^(٢) وبرجاله ، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءته ؛ أخذ العلوم عن مَشِيخَة فاس ، ومكناسة ، ولقي شيخنا أبا عبد الله الأيلي ، ولازمه ، وأخذ عنه العلوم العقلية ؛ فاستنفذ بقیة طلبه عليه ، فبرز آخرًا ؛ واختاره السلطان لمجلسه ، فاستدعاه ، ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول^(٣) .

ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور ، من أعمال ندرومة ، ونسبه في صنهاجة كان مبرزاً في الفقه على مذهب

(١) ورد في حديث لأبي موسى الأشعري ، أنه كان يقرأ ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أصل - مزامراً من مزامير آل داود ؛ يكنى عن حسن صوته . تاج العروس ٣/٣٤٠ .
(٢) يقولون أنه أبلى في مجلس درسه ، على حديث : « يا أبا عمير ، ما فعل النغير » أربعاً فائدة . الاستقصاء ٢/٨٤ .

(٣) يكرر ابن خلدون قوله في هذا الحادث لفتح المصاب فيه ، فلقد كانت قطع الأسطول نحو سائة قطعة ، غرقت كلها ، وهلك فيها من أعلام المغرب نحو أربعائة . الاستقصاء ٢/٨٤ .

الامام مالك بن أنس ، تفقه فيه على الأخوان أبي زيد ، وأبي موسى ابني الامام ، وكان من جلة أصحابها .

ولما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان ، رفع من منزلة ابني الامام ، واختصها بالشورى في بلديهما . وكان يستكثر من أهل العلم في دولته ، ويُجزي لهم الأرزاق ، ويمر بهم مجلسه ؛ فطلب يومئذ من ابن الامام أن يختار له من أصحابه من ينظمه في فقهاء المجلس ؛ فأشاروا عليه بان عبد النور هذا ؛ فآدناه ، وقرّب مجلسه ، وولاه قضاء عسكره ، ولم يزل في جملته الى أن هلك في الطاعون بتونس سنة تسع وأربعين . وكان قد خلف بتلمسان أخاه عليا رفيقه في دروس ابن الامام ، إلا أنه أقصر باعاً منه في الفقه . فلما خلع السلطان أبو عتّان طاعة أبيه السلطان أبي الحسن ، ونهض الى فاس ، استنفره في جملته . وولاه قضاء مكناسة ؛ فلم يزل بها ، حتى إذا تغلب عمر بن عبد الله على الدولة كما مر ، نزح الى قضاء فرضة ؛ فسرّحه . وخرج حاجاً سنة أربع وستين ؛ فلما قدم على مكة ، وكان به بقية مرض ، هلك في طواف القدوم . وأوصى أمير الحاج على ابنه محمد ، وأن يُبلغ وصيته به للأمر المتغلب على الديار المصرية يومئذ ، يدبعا الحاصي^(١) ؛ فأحسن خلافته فيه ، وولاه من وظائف الفقهاء ما سدّه به خلته ، وصان عن

(١) هو الأمير المعروف يلغا بن عبد الله الحاصي الناصري . تناهت اليه الرياسة ، واقب نظام الملك ، وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف .

سؤال الناس وجهه ؛ وكان له - عفا الله عنه - كلفٌ بعمل الكيمياء ، تابعا لمن غلط في ذلك من أمثاله . فلم يزل يُعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه ، الى أن دعت الضرورة للترحل عن مصر ، ولحق ببغداد . وناله مثل ذلك ؛ فلحق بماردين ، واستقر عند صاحبها ، وأحسن جواره ، الى أن بلغنا بعد التسعين أنه هلك هنالك حتف أنفه ، والبقاء لله وحده .

ومنهم شيخ التعلیم أبو عبد الله محمد بن النجار^(١) من أهل تلمسان ؛ أخذ العلم ببلده عن مشيختها ، وعن شيخنا الأيلي ، وبرز عليه . ثم ارتحل الى المغرب ، فلقى بسبته إمام التعلیم ، أبا عبد الله محمد ابن هلال شارح المجسطي في الهيئة ، وأخذ بمرأ كش عن الامام أبي العباس بن البناء ، وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها ، وما يتعلق بها ، ورجع الى تلمسان بعلم كبير ، واستخلصته الدولة . فلما هلك أبو تاشفين ، وملك السلطان أبو الحسن ، نظمه في جملته وأجرى له رزقه ، فحضر معه بإفريقية ، وهلك في الطاعون .

ومنهم أبو العباس أحمد بن شعيب^(٢) من أهل فاس ؛ برع في اللسان ، والأدب ، والعلوم العقلية ، من الفلسفة ، والتعلیم ، والطب ،

(١) هو محمد بن علي بن النجار التلمساني أبو عبد الله .

(٢) هو احمد بن شعيب الجزنائي التنازي تزيل فاس . كتب لابي الحسن المريني ، وتوفي

وغيرها ؛ ونظمه السلطان أبو سعيد في حلبة الكتاب ، وأجرى عليه الرزق مع الأطباء ؛ لتقدمه فيهم ؛ فكان كاتبه ، وطبيبه ؛ وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده ؛ فحضر بإفريقية ، وهلك بها في ذلك الطاعون . وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين ، وكانت له إمامة في نقد الشعر ، وبصر به ؛ ومما حضرني الآن من شعره :

| | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| دارُ الهوى نَجْدٌ وساكنُها | أقصى أمانِي النَّفسِ من نَجْدِ |
| هل بَاكَرَ الوَسْمِيَّ ساحتها | واستَنَّ في قِيَعانِها الجُرْدِ |
| أَو بات معتلُّ النَّسيمِ بها | مُسْتَشْفِيًّا بِالْبَانِ والرَّندِ |
| يتلو أحاديثَ الذين هُمُ | قَصْدِي وإن جاروا عن القصدِ |
| أيامِ سَمَرٍ ظالِها وطَني | منها وُزْرَقُ مِياها ورِدِي |
| ومَطارِحُ النَّظراتِ في رَشايِ | أَحْوَى المدامعِ أهيفِ القَدِّ |
| يَرنو إِلَيْكَ بَعينِ جازيةِ | قَتِلِ المَحِبُّ بها على عَمْدِ |
| حتى أَجَدَّ بهم على عَجَلِ | رَيْثُ الخُطوبِ وعائِرِ الجَدِّ |
| فَقِدُوا فلا وَابيك بَعْدَهُم | ما عِشتُ لا آسى على الفَقْدِ |
| وَعَدُوا : دَفيناً قد تَضَمَّنَه | بطنِ الشَّرِي وقَرارةِ اللِّحْدِ |
| ومشرداً من دُونِ رُؤيتِه | قُدْفُ النُّوى وتَوَفةِ البُعدِ |

أَجْرَى عَلِيَّ الْعَيْشُ بَعْدَهُمْ أَنِّي فَقَدْتُ جَمِيمَهُمْ وَحُدِي
لَا تَلَجِنِي يَا صَاحِبَ فِي شَجْنِ أَخْفَيْتُ مِنْهُ فَوْقَ مَا أَبْدِي
بِالْغَرْبِ لِي سَكَنٌ تَأْوِبُنِي مِنْ ذِكْرِهِ سُهْدٌ عَلَى سُهْدِ
فِرْحَانَ قَدْ تُرِكَ بِمُضِيْعَةٍ زُوِيَتْ عَنِ الرُّفْدَاءِ وَالرُّفْدِ

ومنهم صاحبنا الخطيب ابو عبدالله بن أحمد بن مرزوق^(١)؛ من اهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين خدمة تربته، من لدن جددهم خادمه في حياته. وكان جدّه الخامس او السادس، واسمه ابو بكر بن مرزوق، معروفاً بالولاية فيهم. ولما هلك دفته يغمراسن^(٢) بن زيان، سلطان تلمسان من بني عبد الواد، في التربة بقصره، ليُدفن بإزائه، متى قُدر بوفاته. ونشأ محمد هذا بتلمسان. ومولده - فيما اخبرني - سنة عشر وسبعمائة^(٣) وارتحل مع ابيه الى المشرق. وجاور ابوه بالحرمةين الشربفين، ورجع هو الى القاهرة؛ فاقام بها. وقرأ على

(١) ابن مرزوق هذا، من بيت علم معروف.

(٢) يغمراسن هذا هو ابن زيان بن ثابت بن محمد، من بني عبد الواد، كان من أشدهم بأساً، وكانت له في النفوس مهابة. ولي الملك سنة ٧٣٣، ودان له المغرب الأوسط وتلمسان.

(٣) تاريخ مولد ابن مرزوق، كما ذكره ابن خلدون، يخالف ما ذكره ابن الخطيب في الإحاطة حيث يقول انه ولد سنة ٧١١ هـ.

برهان الدين الصَّفَاقُسي^(١) المالكي واخيه . وبرع في الطِّبِّ والرواية ، وكان يُجيد الخطِّين ؛ ثم رجع سنة خمس وثلاثين الى المغرب ، ولقي السلطان ابا الحسن بمكانه في تلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجدا عظيماً ؛ وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم بالعباد . وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه . وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ، والثناء عليه ؛ فيحياي بعينه ، واختصه ، وقربه ، وهو مع ذلك يلازم مجلس الشيخين ابني الامام ، ويأخذ نفسه ببقاء الفضلاء ، والأكابر ، والأخذ عنهم ؛ والسلطان في كل يوم يزيده رتبة ؛ وحضر معه واقعة طريف التي كان فيها تمحيص المسلمين ؛ فكان يستعمله في السفارة عنه الى صاحب الأندلس . ثم سافر عنه ، بعد ان ملك افريقية ، الى ابن أدفونش ملك قشتالة^(٢) في تقرير الصلح ، واستنقاذ أبي عمر تاشفين . كان أسر يوم طريف ؛ فغاب في تلك السفارة عن واقعه القيروان . ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية ، جاءوا في السفارة عن ملكهم ، ولقيهم خبر واقعة القيروان ، بشسطينة ، من بلاد افريقية ، وبها عامل السلطان وحاميته ، فثار اهل قسطنطينة بهم جميعاً ، ونهبوهم ، وخطبوا للفضل

(١) ابراهيم بن محمد بن ابراهيم القيسي الصفاقسي برهان الدين صاحب كتاب « اعراب القرآن » .
 ألفه بالاشتراك مع أخيه شمس الدين محمد . ديباج ص ٩٢ .
 (٢) مملكة قشتالة تقع في جنوب مقاطعة مدريد ، وكانت تشمل كلا المقاطعتين : « كوانكا » التي تقع في الجنوب الشرقي لمقاطعة مدريد ، و « توليدو » الواقعة في الجنوب ، والجنوب الغربي لمقاطعة مدريد أيضاً .

ابن السلطان أبي يحيى ، وراجعوا دعوة الموحدين ، واستدعوه فجاؤ اليهم ، وملك البلد . وانطلق ابن مرزوق عائداً الى المغرب ، مع جماعة من الاعيان ، والعُمال والسفراء ، عن الملوك . ووفد على السلطان ابي عنان بفاس مع أمه حطية أبي الحسن وأثيرته . كانت راحلة اليه ، فأدر كها الخبر بـسُنطينة . وحضرت الهيعة . واتصل بها الخبر بتوثب ابنها ابي عنان على ملك ابيه ، واستيلائه على فاس ؛ فرجعت اليه ، وابن مرزوق في خدمتها ، ثم طلب اللحاق بتلمسان ؛ فسرّ حوه اليها ، واقام بالعباد مكان سلفه . وعلى تلمسان يومئذ ابو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيّان ، قد بايع له قبيلة بنو عبد الواد بعد واقعة القيروان بتونس ، وابن تافراكين يومئذ محاصر للقصبة ، كما مر في أخبارهم . وانصرفوا الى تلمسان ، فوجدوا بها ابا سعيد عثمان بن جرّار ، من بيت ملوكهم ، قد استعمله عليها السلطان ابو عنان ، عند انتقاضه على ابيه ، ومسيره الى فاس ؛ فانتقض ابن جرّار من بعده ، ودعا لنفسه ، وصمد اليه عثمان بن عبد الرحمن ومعه اخوه ابو ثابت وقومهما ، فلكوا تلمسان من يد ابن جرّار ، وحبسوه ثم قتلوه ؛ واستبد ابو سعيد بملك تلمسان ، واخوه ابو ثابت يُرادفه . وركب السلطان ابو الحسن البحر من تونس ، وغرق أسطوله ، ونجا هو الى الجزائر ، فاحتل بها ، واخذ في الحشد الى تلمسان ؛ فرأى ابو سعيد ان

يكفَّ غرْبُه عنهم ، بمواصلة تقع بينهما ، واختار لذلك الخطيبَ ابنَ مرزوى ؛ فاستدعاه واسرَّ اليه بما يلقيه عنه للسلطان أبي الحسن ، وذهب لذلك على طريق الصحراء . وأطلع ابو ثابت وقومهم على الخبر ، فنكروه على ابي سعيد ، وعاتبوه ، وأنكر ، فبمشوا صقير ابنَ عامر في اعتراض ابن مرزوق ، فجاء به ، وحبسوه اياماً . ثم أجازوه البحرَ الى الاندلس ؛ فنزل على السلطان ابي الحجاج بقرناطة ، وله اليه وسيلة منذُ اجتماعه به بمجلس السلطان ابي الحسن بسببته إثر واقعة طريف ؛ فرعى له ابو الحجاج ذمَّة تلك المعرفة ، وادناه ، واستعمله في الخطابة بجامعه بالحمراء ؛ فلم يزل خطيبه الي ان استدعاه السلطان ابو عنان سنة اربع وخمسين بعد مهلك أبيه ، واستيلائه على تلمسان وأعمالها ؛ فقدم عليه ورعى له وسائله ، ونظمه في أكابر أهل مجلسه . وكان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي ، ويُدرِّس في نوبته مع من يُدرِّس في مجلسه منهم . ثم بعثه الي تونس عامَ ملكها سنة ثمان وخمسين ؛ ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى ، فردت تلك الخطبة واختفت بتونس . ووُثي إلي السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسخطه لذلك ، ورجع السلطان من قسنطينة ؛ فثار أهل تونس بمن كان بها من عماله وحاميته . واستقدموا أبا محمد بن تافراكين من المهديّة ، فجاء ، وملك البلد . وركب القومُ الأسطول ، ونزلوا بمراسي تلمسان . وأوعز

السلطان [أبو عنان] باعتقال ابن مرزوق، وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادرية^(١) ببابه، فلقبه بتأسالة، فقيده هنالك. وجاء به، فأحضره السلطان وقرأه، ثم حبسه مدة، وأطلقه بين يدي مهايكه؛ واضطربت الدولة بعد موت السلطان أبي عنان، وبإيعاب بنو مرين لبعض الأعياص من بني يعقوب بن عبد الحق. وحاصروا البلد الجديد، وبها ابنه السعيد، ووزيره المستبد عليه، الحسن بن عمر؛ وكان السلطان أبو سالم بالأندلس، غرّبه إليها أخوه السلطان أبو عنان، مع بني عمهم، ولد السلطان أبي علي بعد وفاة السلطان أبي الحسن، وحضوهم جميعاً في قبضته. فلما توفي، أراد أبو سالم النهوض لملكه بالمغرب، فتمعه رضوان القائم يومئذ بملك الأندلس، مستبداً على ابن السلطان أبي الحججاج، فلحق هو بإشبيلية، من دار الحرب، ونزل على بطرّه^(٢)، ملكهم يومئذ، فهبأله السفين، وأجازه إلى المدوّة، فنزل بجبل الصفيحة، من بلاد غمارة، وقام بدعوته بنو مثنى، وبنو منير أهل ذلك الجبل منهم، حتى تم أمره، واستولى على ملكه؛ في خبر طويل، ذكرناه في أخبار

(١) يريد بالجنادرية رجال الشرطة! والمفرد: جاندار الذي يتكون من كلمتين فارسيتين: جان، ومعناها: سلاح، ودار معناها مسك.

(٢) اصطاح ابن خلدون على كتابة «بطرّه» بطاء، فوقها نقطتان، إشارة إلى أن نطقها بين الطاء والتاء؛ وقد أشار إلى الطريق التي أتبعها في رسم مثل هذا الحرف - مما خرج نطقه عن الطوق العربي الخالص - في أول المقدمة.

دولتهم . وكان ابن مرزوق يُدَاخِلُه ، وهو بالأندلس ، وَيَسْتَعْمِدُ
له ، وَيُفَاوِضُه فِي أُمُورِه ، وَرَبَّمَا كَانَ يَكَاتِبُه ، وَهُوَ بِجَبَلِ الصَّفِيحَةِ ،
وَيُدَاخِلُ زَعَمَاءَ قَوْمِه ، فِي الْأَخْذِ بِدَعْوَتِه . فَلَمَّا مَلَكَ السُّلْطَانُ أَبُو
سَالِمٍ ، رَعَى لَهُ تِلْكَ الْوَسَائِلَ أَجْمَعًا ، وَرَفَعَهُ عَلَى النَّاسِ ، وَأَلْمَى عَلَيْهِ
مَحَبَّتَه ، وَجَعَلَ زِمَامَ الْأُمُورِ بِيَدِه ، فَوَطَى النَّاسَ عَقِبَه ، وَغَشِيَ
أَشْرَافَ الدَّوْلَةِ بَابَه ، وَصَرَفُوا الْوُجُوهَ إِلَيْهِ ؛ فَمَرَضَتْ لَذَلِكَ قُلُوبُ
أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَنَعَمُّوهُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَرَبَّصُوا بِهِ ، حَتَّى تَوَثَّبَ عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ ، وَافْتَرَقَ النَّاسُ عَنِ السُّلْطَانِ . وَقَتْلَهُ عُمَرُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ آخِرَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِينَ ، وَحَبَسَ ابْنَ مَرْزُوقٍ وَأَغْرَى بِهِ سُلْطَانَه
الَّذِي نَصَبَه ؛ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ ، فَاِمْتَحَنَهُ ، وَاسْتَصْفَاهُ ،
ثُمَّ أَطْلَقَهُ ، بَعْدَ أَنْ رَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ قَتْلَه ، فَمَنَعَهُ مِنْهُمْ .
وَلَحِقَ بْتُونِسَ ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ ، وَزُلَّ عَلَى السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقَ ،
وَصَاحِبِ دَوْلَتِهِ الْمُسْتَبِدِّ عَلَيْهِ ، أَبِي مُحَمَّدَ بْنَ تَأْفَرَاكِينَ ، فَأَكْرَمُوا
نُزْلَه ، وَوَلَّوهُ الْخُطَابَةَ ، بِجَامِعِ الْمُوَحِّدِينَ بْتُونِسَ . وَأَقَامَ بِهَا ، إِلَى أَنْ
هَلَكَ السُّلْطَانُ أَبُو إِسْحَاقَ سَنَةَ سَبْعِينَ ، وَوَلِيَ ابْنُهُ خَالِدٌ . وَزَحَفَ
السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ ، حَافِدُ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى ، مِنْ مَقَرِّهِ بِسُطْنَيْنَةَ
إِلَى تُونِسَ ، فَمَلَكَهَا ، وَقَتَلَ خَالِدًا ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ .

وَكَانَ ابْنُ مَرْزُوقٍ يَسْتَرِيبُ مِنْهُ ، لِمَا كَانَ يَمِيلُ ، وَهُوَ بِفَاسَ ،

مع ابن عمه أبي عبد الله محمد، صاحب بجانة، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه؛ فعزله السلطان أبو العباس عن الخطبة بتونس؛ فوجم لها، وأجمع الرحلة إلى المشرق. وسرّحه السلطان، فركب السفين، ونزل بالاسكندرية؛ ثم ارتحل إلى القاهرة، ولقي أهل العلم، وأمراء الدولة، ونفقت بضائعه عندهم، وأصلوه إلى السلطان، وهو يومئذ الأشرف^(١). فكان يحضر مجلسه، وولوه الوظائف العلمية، وكان ينتجع منها معاشه. وكان الذي وصل حبله بالسلطان إسطدأره^(٢) محمد بن أقبغا أص^(٣)، لقيه أول قدومه، فحلي بعينه، واستظرف جملة، فسمي له، وأنجحت سعايته، ولم يزل مقيماً بالقاهرة، موقر الرتبة، معروف الفضيلة، مرشحاً لقضاء المالكية، ملازماً للتدريس في وظائفه، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين.

هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن، من أشيخنا، وأصحابنا؛ وليس موضوع الكتاب الاطالة فلنقتصر على هذا القدر، ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف.

(١) السلطان الأشرف: هو أبو المفاخر شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٥٤ - ٧٧٨) تولى الملك سنة ٧٦٤ هـ ترجمته في تاريخ ابن خلدون م ٥.
(٢) الإسطدأر. بكسر الهمزة: لقب للذي يتولى قبض مال السلطان. وهذا اللفظ مركب من استند، ومعناها الأخذ، ودار ومعناها المسك، فأدغمت الدال المعجمة في الدال فصارت إسطدأر. وكتابها «أستاذ دار»، خروج بها عن رسمها الصحيح، ومن الخطأ توهم أن «أستاذ» و«دار» كلمتان عربيتان. وانظر صبح الاعشى ٤٥٧/٥.
(٣) هو الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا أص المتوفى سنة ٧٩٥ هـ.

ولاية العلامة بتونس ، ثم الرحلة بعدها الى المغرب ،

والكتابة عن السلطان ابو عنان

لم أزل منذ نشأت ، وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب بالأعيان ، والصُدور ، وجميع المشيخة ، وهلك أبوي ، رحمهما الله . ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الأيلي ، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين ، إلى أن شدوت بعض الشئ ، واستدعاه السلطان أبو عنان ، فارتحل إليه ، واستدعاني أبو محمد بن تافرأكين ، المُستبدُّ على الدولة يومئذ بتونس ، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق . وقد نهض إليهم من قسنطينة صاحبها الأمير أبو زيد ، حافد السلطان أبي بجي في عساكره ، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استجدوه لذلك ؛ فأخرج ابن تافرأكين سلطانه أبا إسحق مع العرب ، أولاد أبي الليل ، وبث العطاء في عسكره ، وعمر له المراتب والوظائف . وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بالاستزادة من العطاء ؛ فغزاه ، وأذاني منه ؛ فكتبت العلامة للسلطان ، وهي وضع « الحمد لله والشكر لله » ، بالقلم الغليظ ، مما بين البسمة وما بعدها ، من مخاطبة أو مرسوم ؛ وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين . وقد كنت

منطويّاً على مفارقتهم ، لما أصابني من الأستيجاش لذهاب أشياخي ،
وُعطّدي عن طلاب العلم . فلما رجع بنو مرّين الى مراكزهم بالمغرب ،
وانحسر تيارهم عن إفريقية ، وأكثر من كان معهم من الفضلاء ،
صحابه وأشياخ ، فاعتزمت على اللحاق بهم . وصدتني عن ذلك أخي
وكبير محمد ، رحمه الله ؛ فلما دُعيت إلى هذه الوظيفة ، سارعت الى
الاجابة ، لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب ، وكان كذلك ؛ فإنما لما
خرجنا من تونس ، نزلنا بلاد هوارّة ، وزحفت العساكر بعضها إلى
بعض ؛ بفحص مرّ ماجنة ، وانهزم صفنا ، ونجوت أنا الى أبة ؛ فأقت
بها عند الشيخ عبد الرحمن الوشتاتي ، من كبراء المرابطين . ثم تحولت
الى تبسة ، ونزلت بها على محمد بن عبدون ، صاحبها ؛ فأقت عنده
ليالي حتى هيا لي الطريق ، وبذرق^(١) لي مع رفيق من العرب ،
وسافرت الى قفصة ، وأقت بها أياماً أترصد الطريق ، حتى قدم علينا
بها الفقيه محمد بن الرئيس منصور بن مُزني ، وأخوه يوسف يومئذ
صاحب الزّاب . وكان هو بتونس ، فلما حاصرها الامير أبو زيد ،
خرج إليه ، فكان معه . ثم بلغهم الخبر بأن السلطان أبا عتّان ملك
المغرب ، نهض الى تلمسان ؛ فملكها ، وقتل سلطانها ، عثمان بن عبد
الرحمن ، وأحاه أبا ثابت ، وأنه انتهى الى المدية ، وملك بجاية من

(١) البذرة : الحفارة ، ويقال لها العصمة ؛ لأنها يمتص بها . والكلمة معربة .

يد صاحبها ، الأمير أبي عبد الله من حفدة السلطان أبي يحيى ، راسله عند ما أطل على بلده ؛ فسار إليه ، ونزل له عنها ، وصار في مجلته ، وولي أبو عنان علي بجاية عمر بن علي شيخ بني واطاس ، من بني الوزير شيوخهم . فلما بلغ هذا الخبر ، أجفل الأمير عبد الرحمن من مكانه على حصار تونس ، ومرّ بقفصة ، فدخل إلينا محمد بن مزني ذهاباً إلى الزاب ؛ فرافقته إلى بسكرة ، ودخلت إلى أخيه هنالك . ونزل هو ببعض قرى الزاب تحت جراية أخيه ، إلى أن انصرم الشتاء .

وكان أبو عنان لماً ملك بجاية ، وولي عليها عمر بن علي بن الوزير ، من شيوخ بني واطاس ، وجاء^(١) فارح ، مولى الأمير أبي عبد الله لنقل حرمه وولده ، فداخل بعض السفهاء من صنهاجة^(٢) في قتل

(١) جاء في الاستقصا ٣/١٨٤ و ١٨٥ . في بيان هذا الحادث :

« وكان أبو عبد الله الحفصي قد استصحب معه في وفادته على السلطان أبي عنان حاجبه فارحاً ، مولى ابن سيد الناس . فلما نزل للسلطان عن بجاية ، نقم فارح عليه ذلك ، وأسرها في نفسه إلى ان بعث الحفصي المذكور مع الوطاسي لينقل حرمه ، ومتاعه ، وماعون داره إلى المغرب ؛ فاتته إلى بجاية . وبينما هو يحاول ما أرسل في شأنه ، شكا إليه الصنهاجيون سوء ملكة بني مرين ؛ فنجع كلامهم فيه ونفث لهم بما عنده من الضغن ، ودعاهم إلى الثورة بالبرينيين ، والدعوة إلى الحفصيين ؛ فاجابوه إلى ذلك وتواعدوا للفتك بعلي بن عمر الوطاسي بمجلسه من القصبية وتولى كبرها منصور بن ابراهيم بن الحاج من مشيختهم وناكره في داره على عادة الأمراء . ولما أكب عليه ليلتم أطرافه ، طعنه بخنجره ، ثم ولج عليه الباقون فاستلحموه ، وذلك في ذي الحجة من سنة ٧٥٣ . الخ »

(٢) صنهاجة بكسر الصاد ، والمعروف في المغرب فتحها : قبائل كثيرة من البربر في المغرب . وانظر تاج العروس ٢/٦٧ .

عمر بن علي ؛ فقتله في مجلسه . ووثب هو على البلد ، وبعث الى الأمير أبي زيد ، يستدعيه من قسنطينة ؛ فتمشت رجالات البلد فيما بينهم خشيةً من سطوة السلطان . ثم ناروا بفارح فقتلوه ، وأعادوا دعوة السلطان كما كانت . وبعثوا عن عامل السلطان بتدلس ، يحيياتن بن عمر بن عبد المؤمن ، شيخ بني ونكاسن من بني مرين ؛ فلما كوه قيادهم . وبعثوا الى السلطان بطاعتهم ؛ فأخرج لوقته حاجبه محمد بن أبي عمرو ، واكتف له الجند ، وصراف معه وجوه دولته وأعيان يطلانه . وارتحلت أنا من بسكرة ، وافداً على السلطان أبي عنان بتلمسان ، فلقيت ابن أبي عمرو بالبطحاء ، وتلقاني من الكرامة بما لم أحتسبه ، وردني معه الى بجاية ، فشهدت الفتح . وتسايلت وفود إفريقية إليه ؛ فلما رجع السلطان ، وفدت معهم ، فنالني من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه ، إذ كنت شاباً لم يطر شاربي . ثم انصرفت مع الوفود ، ورجع ابن أبي عمرو الى بجاية ؛ فأقت عنده ، حتى انصرم الشتاء من أواخر أربع وخمسين ؛ وعاد السلطان أبو عنان الى قاس ، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه ، وجرى ذكري عنده ، وهو ينتقي طلبية العلم للذاكرة في ذلك المجلس ؛ فأخبره الذين لقيتهم بتونس عني ، ووصفوني له ؛ فكتب الى الحاجب يستقدمني ، فقدمت عليه ، سنة خمس وخمسين ، ونظمني في أهل مجلسه العلمي ، وأزمني شهود الصلوات معه ؛ ثم استعملني في كتابته ، والتوقيع بين يديه ، على

كُره مني ، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي . وعكفت على النظر ، والقراءة ، ولقاء المشيخة ، من أهل المغرب ، ومن أهل الأندلس ، الوافدين في غرض السفارة ؛ وحصلت من الافادة منهم على البغية .

وكان في جملته يومئذ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الصفار ، من أهل مرّاكش إمام القراءات لوقته ؛ أخذ عن جماعة من مشيخة المغرب ، كبيرهم شيخ المحدثين الرحالة أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري ، ساند أهل المغرب ، وكان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع الى أن توفي . ومنهم : قاضي الجماعة بفاس ، أبو عبد الله محمد المقرئ^(١) ، صاحبنا ، من أهل تلمسان . أخذ العلم بها عن أبي عبد الله محمد السلاوي ، وردّ عليها من المغرب خلوّاً من المعارف . ثم دعتهم الى التحلّي بالعلم ، فعكف في بيته على مدارسة القرآن ، فحفظه ، وقرأه بالسبع . ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية ، فحفظه ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه ، والأصول ، فحفظها ، ثم لزم الفقيه عمران المشدالي^(٢) من تلاميذ أبي علي ناصر الدين^(٣) وتفقه عليه ،

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر المقرئ (بتشديد القاف المفتوحة نسبة الى مقرة ، أو بسكون القاف . والميم في الحالتين مفتوحة) وهو جد صاحب النفع . ترجمته في الاحاطة ١٣٦/٢ .

(٢) هو أبو موسى عمران المشدالي ، بفتح الميم ، والشين ، وتشديد الدال المفتوحة .

(٣) أبو علي ناصر الدين المشدالي ، قنصور بن أحمد بن عبد الحق : فقيه معروف

وبرز في العلوم ، الى حيث لم تُلحَقْ غايته . وبنى السلطان أبو تاشفين مدرسة يُتَلَمَّسان ، فقدمه للتدريس بها ، يضا هي به اولاد الامام . وتفقه عليه بتلمسان جماعة ، كان من أوفرهم سَهْمًا في العلوم أبو عبد الله المَقْرِي هذا :

ولما جاء شيخنا أبو عبد الله الأيليّ الى تلمسان ، عند استيلاء السلطان أبي الحسن عليها ، وكان أبو عبد الله السّلاوي قد قُتل يوم فتح تِلْمَسَان ، قَتَلَه بعض أشياع السلطان ، لذنب أسلفه في خدمة أخيه أبي علي بسجلماسة ، قبل انتحاله العلم ، وكان السلطان يعتدُّه عليه ، فقتل بيباب المدرسة ، فلزم أبو عبد الله المَقْرِي بعده مجلس شيخنا الأيليّ ، ومجالس ابني الامام ، واستبحر في العلوم وتفنّن . ولما انتقض السلطان أبو عنان ، سنة تسع وأربعين وخلص أباه ، ندبه الى كتاب البيعة ، فكتبها وقرأه على الناس في يوم مشهود . وارتحل مع السلطان الى فاس ، فلما ملكها ، عزل قاضيها الشيخ المعمر أبا عبد الله بن عبد الرزاق وولاه مكانه ، فلم يزل قاضياً بها ، الى أن سخطه لبعض النزعات الملوكية ، فجزّله وأدال منه بالفقيه أبي عبد الله الفشتالي^(١) آخر سنة ست وخمسين ، ثم بعثه في سفارة الى

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الفشتالي القاضي بفاس ، كان بيته معموراً بالجوود والخير والصلاح ، وكان أبو عبد الله هذا أحد أعلام المغرب . الإحاطة ١٣٣/٢ .

الأندلس ، فامتنع من الرجوع . وقام السلطان لها في ركاثيه ، ونكر على صاحب الأندلس ابن الأحمر تسمّكه به ، وبعث إليه فيه يستقدمه ، فلاذ منه ابن الأحمر بالشفاعة فيه ، واقتضى له كتاب أمان بخط السلطان أبي عنان ، وأوفده مع الجماعة من شيوخ العلم بغرناطة ، ومنهم : القاضيان بغرناطة ، شيخنا أبو القاسم الشريف السبتي^(١) ، شيخ الدنيا جلاله وعلماً ووقاراً ، ورياسةً ، وإمام اللسان حوكماً ونقداً ، في نظمه ونثره . وشيخنا الآخر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البليقي^(٢) من أهل المرية ، شيخ المحدثين والفقهاء والأدباء والصوفية والخطباء بالأندلس ، وسيد أهل العلم باطلاق ، والمتفنين في أساليب المعارف ، وآداب الصحابة لله لوك فمن دونهم ؛ فوفدا به على السلطان شفيعين على عظيم تشوقه للقائهما ؛ ففُيئت الشفاعة ، وأنجحت الوسيلة .

حضرتُ بمجلس السلطان يوم وفادتها ، سنة سبع وخمسين ، وكان يوماً مشهوداً . واستقر القاضي المقرري في مكانه ، بباب السلطان ، عطلاً من الولاية والجراية . وجرت عليه بعد ذلك محنة من السلطان ،

(١) محمد بن احمد ... بن عبد الله الحسي السبتي الشهير بالشريف الغرناطي ، ابو القاسم ٦٩٧-٧٦٠

(٢) أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن الحاج البليقي (٧٠٨ - ٧٧٠) (بوحدة ولام

مشددة وفاء مكسورات ، وقاف بعد مئاة من تحت) ، هكذا ضبطه في طبقات القراء ، وقبده

ابن خلدون بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة . طبقات القراء ٢/٢٣٥ .

بسببُ خصومة وقعت بينه وبين اقاربه ؛ امتنع من الحضور معهم عند القاضي القشتالي ؛ فتقدم السلطان الى بعض اكابر الوزعة ببابه ، بأن يسحبه الى مجلس القاضي ؛ حتى انقذ فيه حكمه ؛ فكان الناس يعدونها محنة . ثم ولاء السلطان ، بعد ذلك ، قضاء العساكر في دولته ، عندما ارتحل الى قسطنطينة . فلما افتتحها ، وعاد الى دار مُلكه بفاس آخر ثمان وخمسين ، اعتلَّ القاضي المَقْرِي في طريقه ، وهلك عند قدومه بفاس .

ومنهم صاحبنا الامام العالم الفذ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والاصول ، ابو عبدالله ، محمد بن احمد الشريف الحسني ، ويُعرف بالعدوي ، نسبة الى قرية من اعمال تلمسان ، تُسمى العنوين ؛ وكان اهل بيته لا يُدافعون في نسبهم . وربما يُعزف فيه بعض الفجرة ، ممن لا يزعه دينه ، ولا معرفته بالانساب ، فيعدُّ من اللغو ، ولا يلتفت اليه . نشأ هذا الرجل بتلمسان ، واخذ العلم عن مشيختها ، واختص باولاد الامام ، وتفقه عليها في الفقه ، والاصول والكلام ؛ ثم لزم شيخنا ابا عبدالله الابلي . وتضلَّع من معارفه ؛ فاستبحر ، وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه ؛ ثم ارتحل الى تونس في بعض مذاهبه ، سنة اربعين ، ولقي شيخنا القاضي ابا عبدالله بن عبدالسلام ، وحضر مجلسه ، وافاد منه ، واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد

السلام يُصغى اليه ويؤثر محله ، ويعرف حقه ، حتى لزعموا انه كان يخلو به في بيته ، فيقرأ عليه فضل التصوف من كتاب الاشارات لابن سينا ، بما كان هو قد احكم ذلك الكتاب على شيخنا الآبلي ؛ وقرأ عليه كثيراً من كتاب الشفاء لابن سينا ، ومن تلاخيص كتب أرسطو^(١) لابن رشد ، ومن الحساب والهيئة ، والفرائض ، علاوة على ما كان يجمله من الفقه والعربية وسائر علوم الشريعة . وكانت له في كتب الخلافات يد طولى ، وقدم عالية ، فعرف له ابن عبد السلام ذلك كله ، ووجب حقه وانقلب الى تلمسان ؛ وانتصب لتدريس العلم وبه ، فلأ المغرب معارف وتلاميذ ، الى ان اضطرب المغرب ، بعد واقعة القيروان ؛ ثم هلك السلطان ابو الحسن ، وزحف ابنه ابو عنان ، الى تلمسان ؛ فلجها ، سنة ثلاث وخمسين ؛ فاستخلص الشريف ابا عبدالله ، واختاره لمجلسه العلمي ، مع من اختار من المشيخة . ورحل به الى فاس ؛ فتهرم الشريف من الاغتراب ، وردد الشكوى ؛ فأحفظ السلطان بذلك ، وارتاب به . ثم بلغه اثناء ذلك ان عثمان بن عبد الرحمن ، سلطان تلمسان ، اوصاه على ولده ، وأودع له مالا عند بعض الاعيان من اهل تلمسان ، وان الشريف مطلع على ذلك ؛ فانتزع الوديعة ، وسخط الشريف بذلك ونكبه ، واقام

(١) هكذا رسمه ، وضبطه بالقلم ابن خلدون .

في اعتقاله اشهرأ ، ثم اطلقه اول ست وخمسين واقصاء ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة واعاده الى مجلسه ، الى ان هلك السلطان ، آخر تسع وخمسين .

وملك ابو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن تلمسان من يدبني مرين ، واستدعى الشريف من فاس ؛ فسرّحه القائم بالامر يومئذ ، الوزير عمر بن عبد الله ؛ فانطلق الى تلمسان . وتلقاه ابو حمو براحتيه ، واصهر له في ابنته ، فزوجها اياه ، وبني له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفناً ابيه وعمه . واقام الشريف يُدرّس العلم الى ان هلك سنة احدى وسبعين . واخبرني رحمه الله ، ان مولده سنة عشر .

ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي ابو القاسم محمد بن يحيى البرجي^(١) من برجة^(٢) الاندلس . كان كاتب السلطان ابي عنان ، وصاحب الانشاء والسّر في دولته ، وكان مختصاً به ، واثيراً لديه . واصله من برجة الاندلس ، نشأ بها ، واجتهد في العلم والتحصيل ، وقرأ ، وسمع ، وتفقّه على مشيخة الاندلس ، واستبحر في الادب ، وبرز في النظم والنثر . وكان لا يُجارى في كرم الطباع ، وحسن المعاشرة ، ولين

(١) أبو القاسم محمد بن يحيى بن محمد بن علي بن ابراهيم الفسافي البرجي الغرناطي المتوفى سنة ٧٨٦ هـ . الإحاطة ٢/٢١٥ وما بعدها .

(٢) برجة : مدينة بشرقي الأندلس ، من اقليم المرية ، وقد انتقل غالب أهلها ، بعد استيلاء المسيحيين عليها ، الى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، تاج العروس (برج) . ياقوت ٢/١١٣ .

الجانب ، وبَدَّلَ البِشْرَ ، والمعروف ؛ وارتحل الى بَجَايَه في عشر الاربعين والسبعائة ، وبها الامير ابو زكرياء ابن السلطان ابي يحيى ، منفرداً بملكها ، على حين أقفرت من رسم الكتابة والبلاغة ؛ فبادرت اهل الدولة الى اصطفائه ، واشاره بخدمته الانشاء ، والكتابة عن السلطان الى ان هلك الامير ابو زكرياء ، ونُصِبَ ابنه محمد مكانه ، فكتب عنه على رسمه ؛ ثم هلك السلطان أبو يحيى ، وزحف السلطان أبو الحسن الى إفريقيا ، واستولى على بجاية ، ونقل الأمير محمداً بأهله وحاشيته الى تلمسان ، كما تقدم في أخباره . فنزل أبو القاسم البرجي تلمسان وأقام بها ، واتصل خبره بأبي عنان ، ابن السلطان أبي الحسن ، وهو يومئذ أميرها . ولقيه ، فوق من قلبه بمكان ، الى أن كانت واقعة القيروان .

وخلع أبو عنان ، واستبد بالأمر ؛ فاستكتبه وحمله معه الى المغرب ، ولم يسمُ به الى العلامة ، لأنه آثر بها محمد بن أبي عمرو ؛ بما كان أبوه يعلمه القرآن والعلم . ورأي محمد بداره ، فولاه العلامة ، والبرجي مرادف له في رياسته ، الى أن انقرضوا جميعاً . وهلك السلطان أبو عنان ، واستولى أخوه أبو سالم على ملك المغرب وغلب ابنُ مرزوق على هواه كما قدمناه ؛ فنقل البرجي من الكتابة ، واستعمله في قضاء العساكر ؛ فلم يزل على القضاء ، الى أن هلك سنة

(...) وثمانين^(١) . وأخبرني رحمه الله أن مولده سنة عشر .

ومنهم : شيخنا المعمر الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق ، شيخ وقته جلالةً وتربيةً وعلماً وخبرةً بأهل بلده ، وعظمةً فيهم . نشأ بفَاس ، وأخذ عن مَشيختها . وارتحل الى تُونس ؛ فلقني القاضي أبا إسحق بن عبد الرفيح ، والقاضي أبا عبد الله النَّفزاوي ، وأهل طبقتها . وأخذ عنهم ، وتفقه عليهم ، ورجع الى المغرب . ولازم سَنَن الأَكابر والمشايع ، الى أن ولَّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس ؛ فأقام على ذلك ، الى أن جاء السلطان أبو عَنان من تِلْمسان ، بعد واقعة القيرَوان ، وخلصه أباه ؛ فعزله بالفقيه أبي عبد الله المَقْرِي ، وأقام عُطلا في بيته .

ولما جمع السلطان مَشِيخةَ العلم للتَّحليق بمجلسه ، والافادة منهم ، استدعى شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق ؛ فكان يأخذ عنه الحديث ، ويقراً عليه القرآن برواياته ، في مجلسٍ خاصٍّ الى أن هلك ، رحمه الله ، بين يدي هَلَك السلطان أبي عَنان . الى آخرين ، وآخرين ، من أهل المغرب والأندلس ، كلَّهم لقيتُ وذاكرتُ وأفدتُ منه ، وأجازني بالاجازة العامة .

(١) كذا بياض بالأصل وفي نيل الاتهام ص ٢٦٧ ، نقلًا عن ابن خلدون « . . . الى أن هلك بعد الثمانين وسبعمائة » ، ونقل أيضاً عن « فهرسة » السراج أنه توفي سنة ٧٨٦ هـ .

حدوث النكبة من السلطان أبي عنان

كان اتصالي بالسلطان أبي عنان ، آخر [سنة] ست وخمسين ؛
 وقرّبي وأدناي ، واستعلمني في كتابته ، حتى تكدر جويّ عنده ،
 بعد أن كان لا يُعبّر عن صفائه ؛ ثم اعتل السلطان ، آخر سبع
 وخمسين ، وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بحاية
 من الموحدين مداخلة ، أحكمها ما كان لسلي في دولتهم . وغفلت عن
 التحفّظ في مثل ذلك ، من غيرة السلطان ؛ فما هو إلا أن شغل
 بوجهه ، حتى أنمي إليه بعض الغواة ، أن صاحب بحاية ، مُعتل في
 الفرار ليسترجع بلده ، وبها يومئذ وزيره الكبير ، عبد الله بن علي ؛
 فانبعث السلطان لذلك ، وبادر بالقبض عليه . وكان فيما أنمي إليه ،
 أنني داخلته في ذلك ؛ فقبض عليّ ، وامتحنني وحبسني ، وذلك في
 ثامن عشر صفر ، سنة ثمان وخمسين . ثم أطلق الأمير محمداً ، وما زلت
 أنا في اعتقاله ، الى أن هلك . وخاطبته بين يدي مهلكه ، مستمطفاً
 بقصيدة أولها :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| على أيّ حالٍ للبيالي أعاتبُ | وأيُّ صروفٍ للزمان أعالبُ |
| كفّي حزناً أني على القرب نازح | وانّي على دعوى شهودي غائبُ |
| وانّي على حكم الحوادث نازلُ | تسلمني طوراً وطوراً تُحاربُ |

ومنها في التشوُّق :

سَلَوْتُهُمْ إِلَّا إِدْكَارَ مَعَاهِدِ لَهَا فِي اللَّيَالِي الْغَابِرَاتِ غَرَائِبُ
وَأِنْ نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْهُمْ يَشُوقُنِي إِلَيْهِمْ وَتُصَيِّبُنِي الْبُرُوقُ الْوَوَاعِبُ

وهي طويلة ، نحو مائتين بيتاً ، ذهبت عن حفظي ، فكان لها منه موقِعٌ ، وهَشٌّ لها . وكان بتامسان فوَعَدَ بالافراج عني عند حلوله بفاس ، ولخمس ليالٍ من حلوله طرقه الوجع . وهلك لخمس عشرة ليلة ، في رابع وعشرين ذي الحجة خاتم تسع وخمسين . وبادر القائم بالدولة ، الوزير الحسن بن عُمر إلى اطلاق جماعة من المعتقلين ، كنت فيهم ، فخلع عليّ ، وحمّلي^(١) ، واعادني إلى ما كنت عليه . وطلبت منه الانصراف إلى بلدي ، فابتى عليّ ، وعاملني بوجوه كرامته ، ومذاهب احسانه ، إلى ان اضطرب امره ، وانتقض عليه بنو مرين ، وكان ما قدّمناه في اخبارهم .

الكتابة عن السلطان ابي سالم في السر والانشاء .

ولما اجاز السلطان ابو سالم من الأندلس لطلب ملكه ، ونزل بجبَل الصَّفِيحَةِ من بلاد نُغمارة . وكان الخطيب ابن مرزوق بفاس ، فبشّ دعوته سرّاً ، واستعان بي على امره ، بما كان بيني وبين اشياخ

(١) جملة : أعطاه ظهراً يركبه . (لسان العرب) .

بني مَرِين من المحبة والائتلاف؛ فحملت الكثير منهم على ذلك، واجابوني اليه، وانا يومئذ اكتب عن القائم بامر بني مَرِين منصور ابن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عُمر، وسلطانة السعيد ابن ابي عَنان، بالبلد الجديد. فقصدني ابن مَرزوق في ذلك، واوصل الي كتاب السلطان ابي سالم. بالحض على ذلك، وإجمال الوعد فيه. والقى علي حمله؛ فنهضت به، وتقدمت الي شيوخ بني مَرِين، وامراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى اجابوا، وبعث ابن مَرزوق الي الحسن بن عُمر، يدعو الي طاعة السلطان ابي سالم، وقد ضجر من الحصار؛ فبادر الي الاجابة. واتفق رأي بني مَرِين على الانفضاض عن منصور بن سليمان، والدخول الي البلد الجديد؛ فلما تم عقدهم على ذلك نزلت الي السلطان ابي سالم في طائفة من وجوه اهل الدولة، كان منهم محمد بن عثمان بن الكاس، المستبد بعد ذلك بملك المغرب على سلطانه، وكان ذلك النزوع مبدأ حظه، وفاتحة رياسته، بسعايتي له عند السلطان. فلما قدمت علي السلطان بالصفيحة، بما عندي من اخبار الدولة، وما اجمعوا عليه من خلع منصور بن سليمان، وبالموعد الذي ضربوه لذلك، واستحثته. فارتحل، ولقيتنا البشير بإجفال منصور ابن سليمان، وفراره الي نواحي بادس، ودخول بني مَرِين الي البلد الجديد، وإظهار الحسن بن عُمر دعوة السلطان ابي سالم. ثم لقيتنا،

بالقصر الكبير ، قبائلُ السلطان ، وعساكرُهُ ، على راياتهم ، ووزيرُ منصورِ بن سليمان ، وهو مسعود بن رَحُونِ مَاسَايَ ؛ فتلَقَّاهُ السلطانُ بالكرامة كما يجب له ، واستوزره نائباً للحسن بن يوسف بن علي بن محمد الورثاجني السابق الي وزارته ، لَقِيَهُ بِسَبْتِهِ ^(١) ، وقد غرَّبَهُ منصور بن سليمان الي الاندلس ، فاستوزره واستكفاه .

ولمَّا اجتمعت العساكر عنده بالقصر ، صعد الي فاس . ولقِيَهُ الحسن بن عُمر بظاھرھا ؛ فاعطاه طاءته ، ودخل الي دار مُلكه وانا في ركابه ، لِحَمْسِ عَشْرَةَ لَيْلَةً من نزوعي اليه ، مُنْتَصِفَ شَعْبَانَ سِتِينَ وسبعائة ؛ فرعى لي السابقة ، واستعملني في كتابة سره ، والترسيل عنه ، والانشاء لمخاطباته. وكان اكثرها يَصْدُرُ عني بالكلام المرسل ، ان يُشار كني احد من ينتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتجالها ، وخفاء العالي منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم بين اهل الصناعة .

ثم اخذت نفسي بالشعر ، فانثال عليّ منه بحور ، توسطت بين الاجادة والقصور ، وكان مما انشدته اياه ، ليلة المولد النبوي من سنة اثنتين وستين وسبعائة :

(١) في مكان آخر أنه لقيه بطنجة . مع تفصيل هذا الحديث أيضاً .

أَسْرَفَنَ فِي بَهْجَرِي وَفِي تَعْدِيي
 وَأَبَيْنَ يَوْمَ الْبَيْنِ وَقَفَّةَ سَاعَةٍ
 اللَّهُ عَهْدُ الظَّاعِنِينَ وَغَادِرُوا
 غَرَبَتِ رَكَائِبُهُمْ وَدَمَعِي سَافِحٌ
 يَا نَاقِعًا بِالْعَتَبِ عُلَّةَ شَوْقِهِمْ^(١)
 يَسْتَمْدِبُ الصَّبُّ الْمَلَامَ وَإِنِّي
 مَا هَاجَنِي طَرْبٌ وَلَا اعْتَادَا لَجْوَى
 أَهْفُو إِلَى الْأَطْلَالِ كَانَتْ مَطْلِعًا
 عَيْشَتْ بِهَا أَيْدِي الْبِلَى وَتَرَدَّدَتْ
 تَبْلَى مَعَاهِدُهَا وَإِنْ عُهُودَهَا
 وَإِذَا الدِّيَارُ تَعَرَّضَتْ لِمُتَيْمٍ
 إِلَيْهِ عَنِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فَإِنَّهُ
 وَأَطْلَانِ مَوْقِفَ عَبْرَتِي وَنَحِيبي^(١)
 لَوَدَاعَ مَشْغُوفِ الْفُؤَادِ^(٢) كَنِيْبِ
 قَلْبِي رَهِيْنَ صَبَابَةٍ^(٣) وَوَجِيْبِ^(٤)
 فَشَرِقَتْ بَعْدَهُمْ بُمَاءُ غُرُوبِ^(٥)
 رُحْمَاكَ فِي عَذْلِي وَفِي تَأْنِيْبِي
 مَاءِ الْمَلَامِ لَدَيْ غَيْرِ شَرُوبِ^(٦)
 لَوْلَا تَذَكُّرُ مَنَزَلٍ وَجِيْبِ
 لِلْبَدْرِ مِنْهُمْ أَوْ كِنَاسِ رَيْبِ^(٨)
 فِي عِطْفِهَا لِلدَّهْرِ أَيُّ خُطُوبِ
 لِيُجِدَّهَا وَصَفِي وَحُسْنِ نَسِيْبِي
 هَزَّتْهُ ذِكْرَاهَا إِلَى التَّشْيِيْبِ
 أَلْوَى^(١) بَدِيْنِ فُؤَادِي الْمُنْهَوْبِ

(١) النحيب : البكاء .

(٢) مشغوف الفؤاد : مريضه .

(٣) الصبابة : الشوق .

(٤) الوجيب : الاضطراب والحفقان .

(٥) الغروب : الدموع حين تخرج من العين .

(٦) نقع الماء غلته : أروى عطشه .

(٧) الشروب : الذي يشرب ، وفي الإحاطة : الشريب ؛ وهو العذب .

(٨) الريب : ولد الظبي .

(٩) ألقى بالدين : مطل به . وقد ورد هذا البيت في ب :

إله على الصبر الجميل فإنه ألقى برين فؤادي المنهوب

لم أنسها والدَّهرُ يَشِيَّ صرفه
والدارُ مُونِقةٌ محاسنها بما
يا سائقَ الأظعانِ يَعْتَسِفُ الفلأ
مُتَهافتاً عن رَحَلِ كلِّ مُدَلِّلٍ^(٣)
تَتَجاذِبُ النَّفحاتُ فَضْلَ رِداثه
إن هام من ظمأ الصَّباةِ صَحْبُه
او تَعترضُ مَسْراهمُ سُدْفِ الدُّجى
في كلِّ شَعْبٍ مُنِيَّةٌ من دُونها
هَلْأَعْظَفَتْ صُدورهنَّ الى التِّي
فَتومٌ من اِكنافِ يَثْرِبَ ما مَأْمناً
حيثُ النُّبُوَّةُ آيها مَجْلُوءَةٌ
سرُّ عَجيبٌ لم يُحَجِّبِه الثرى

ومنها بعد تعديد معجزاته [صلى الله عليه وسلم]، والاطناب في

مدحه :

- (١) الفلا ، جمع فلاة ، وهي الأرض لا ماء فيها .
- (٢) الإسآد : سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار لا تعريج فيه . وانظر اختلافهم في تفسير الإسآد والتأويب في لسان العرب : (سآد) .
- (٣) المذلل من الدواب : السهل الانقياد .
- (٤) الأين الاعياء .
- (٥) اللغوب : التعب .
- (٦) شعوب كرسول : المنية .

إِنِّي دَعَوْتُكَ وَاثِقًا بِأَجَابَتِي
 قَصَّرْتُ فِي مَدْحِي فَإِنَّ يَكَّ طَيِّبًا
 مَا ذَاعَسِي يَبْغِي الْمَطِيلُ وَقَدْحَوِي
 يَا هَلْ تَبْلَغُنِي اللَّيَالِي زُورَةً
 أَحْمُو خَطِيئَاتِي بِإِخْلَاصِي بِهَا
 فِي فِتْنَةٍ هَجَرُوا الْمُنَى وَتَعَوَّدُوا
 يَطْوِي صَحَائِفَ لَيْلِهِمْ فَوْقَ الْفَلَا
 إِنْ رَنَّمِ الْحَادِي بِذِكْرِكَ رَدَّدُوا
 أَوْ غَرَّدَ الرَّكْبُ الْحَلِيُّ بِطَيِّبَةٍ
 وَرَثُوا اعْتِسَافَ الْبِيدِ عَنْ آبَائِهِمْ
 الطَّاعِنِينَ الْحَيْلِ وَهِيَ عَوَابِسُ
 وَالْوَاهِبِينَ الْمُقْرَبَاتِ صَوَافِنًا^(٦)
 وَالْمَانِعِينَ الْجَارَ حَتَّى عَرْضَهُ
 تُخَشِي بُوَادِرُهُمْ وَيُرْجَى حِلْمُهُمْ
 يَا خَيْرَ مَدْعُوٍّ وَخَيْرَ مُجِيبٍ
 فَمَا لَذِكْرُكَ مِنْ أَرِيحِ الطَّيِّبِ
 فِي مَدْحِكَ الْقُرْآنَ كُلَّ مَطِيبٍ^(١)
 تُدْنِي إِلَيَّ الْفَوْزَ بِالْمَرْغُوبِ
 وَأَحْطُ أَوْزَارِي وَإِصْرَ ذُنُوبِي
 إِنْضَاءَ كُلِّ نَجِيبَةٍ وَنَجِيبٍ
 مَا شِئْتَ مِنْ حَبَابٍ وَمِنْ تَقْرِيْبٍ^(٢)
 أَنْفَاسٍ مُشْتَقَاتٍ إِلَيْكَ طَرُوبِ
 حَنُوا لِمَعْنَاهَا حَنِينَ النَّيْبِ^(٣)
 إِرْثَ الْخِلَافَةِ فِي بَنِي يَمْعُوبِ
 يَغْشَى مُثَارُ النَّقْعِ كُلِّ سَيْبِ^(٤)
 مِنْ كُلِّ خَوَّارٍ^(٧) الْعَيْنَانَ لَعُوبِ
 فِي مُنْتَدَى الْأَعْدَاءِ غَيْرُ مَعِيبِ
 وَالْعَزُّ شَيْمَةٌ مُرْتَجَى وَمُهَيْبِ

- (١) يشير إلى الآية : « وانك لعلى خلق عظيم » آية ٦٨ / من سورة الأنعام .
 (٢) الحبيب : نوع من المدو، وهو خطو فسيح دون العنق . والتقريب : العدو دون الإسراع .
 (٣) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة .
 (٤) السيب : شعر الناصية والعرف من الفرس ، أو هو الحصلة من الشعر .
 (٥) المقربات من الخيل : التي تقرب . وتكرم ، ولا تترك لئلا يقرعها فحل لئيم . لسان العرب .
 (٦) الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم ، والجمع صوافن ، وصافنات . لسان العرب .
 (٧) فرس خوار : لين العطف ، وذلك مما يستحسن فيه .

ومنها في ذكر اجازته البحر ، واستيلائه على ملكه :

| | |
|--|-----------------------------|
| سائل به طامي العباب ^(١) وقد سرى | تزجيه ريح العزم ذات هبوب |
| تهديه شهب أسنة وعزائم | يصدعن ليل الحادث المرهوب |
| حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه | وسطا الهدى بفريقها المغلوب |
| يابن الألى شادوا الخلافة بالتقى | واستأثروك بتاجها المنصوب |
| جمعوا الحفظ الدين اي مناقب | كرموا بها في مشهد ومغيب |
| لله مجدك طارفاً او تالداً | فلقد شهدنا منه كل عجب |
| كم رهبة او رغبة بك والعلی | تقتاد بالترغيب والترهيب |
| لازلت مسروراً بأشرف دولة | يبدو الهدى من أفقها المرقوب |
| تحبي المعالي غادياً او رائحاً | وحديد سعدك ضامن المطلوب |

ومن قصيدة خاطبته بها عند وصول هدية ملك السودان اليه ،
وفيهما الحيوان الغريب المسمى بالزرافة :

| | |
|-------------------------|------------------------|
| قدحت يد الاشواق من زندي | وهفت بقلي زفرة الوجد |
| ونبذت سلواني على ثقة | بالقرب فاستبدلت بالبعد |
| ولرب وصل كنت آمله | فاعتضت منه بمؤلم الصدد |
| لا عهد عند الصبر اطلبه | إن الغرام اضاع من عهدي |

(١) طما البحر : ارتفع موجه .

يَلْحَيِ الْعَدُولُ فَمَا أَعْنَفُهُ وَأَقُولُ ضَلُّ فَأَبْتَغِي رُشْدِي
 وَاَعَارِضُ النِّفَحَاتِ أَسْأَلُهَا بَرْدَ الْجَوَى فَتَزِيدُ فِي الْوَقْدِ
 يَهْدِي الْغَرَامُ إِلَى مَسَالِكِهَا لَتَعْلِي بضعيف مَا يُهْدِي
 يَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ مُعْتَسِفًا طِيَّ الْفَلَاةِ لِطِيَّةِ الْوَجْدِ
 أَرِحِ الرَّكَّابَ فِي الصَّبَا نَبَأُ يُغْنِي عَنِ الْمُسْتَةِ الْجُرْدِ (١)
 وَسَلِ الرَّبُوعَ بِرَامَةٍ (٢) خَبْرًا عَنِ سَائِكِي نَجْدٍ وَعَنِ نَجْدِ
 مَا لِي تُتْلَمَ عَلَى الْهَوَى خُلُقِي (٣) وَهِيَ الَّتِي تَأْبَى سِوَى الْحُدِ
 لِأَبْتَيْتِ الْأَرْشَدَ مُذْوَضِحَتْ بِالْمُسْتَعِينَ مَمَّالُ الرُّشْدِ
 نِعْمَ الْخَلِيفَةُ فِي هُدَى وَتَقَى وَبِنَاءِ عَزِّ شَامِخِ الطَّوْدِ
 فَجَلَّ السَّرَاةَ الْغُرِّ شَأْنَهُمْ كَسَبَ الْعُلَى بِمَوَاهِبِ الْوَجْدِ

ومنها في ذكر خلوصي إليه ، وما ارتكبه فيه :

لِللَّهِ مَنِي إِذْ تَأَوَّبَنِي ذَكَرَاهُ وَهُوَ بِشَاهِقِ فَرْدِ
 شَهْمٌ يُفْلُ بَوَاتِرًا قُضْبًا وَجُوعَ أَقْيَالِ أَوْلِي أَيْدِ
 أَوْرَيْتُ زَنْدَ الْعِزْمِ فِي طَلْبِي وَقَضَيْتُ حَقَّ الْمَجْدِ مِنْ قِصْدِي
 وَوَرَدْتُ عَنْ ظَمَأٍ مَنَاهِلَهُ فَرَوَيْتُ مِنْ عِزِّ وَمِنْ رِفْدِ

(١) استن في عدوه ؛ ذهب على وجهه . وفرس أجرد : قصير الشعر .

(٢) رامة ، يطلق على مكانين : على منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة الى مكة ؛ وعلى قرية من قرى بيت المقدس . ياقوت ٤/٢١٢ .

(٣) يؤنث ابن خلدون كلمة « خلق » ذهاباً منه الى معنى السجدة .

هي جنةُ الدأوى لمن كلفتُ
لو لمْ أعلْ بورِدِ كوثرِها
من مبلغِ قومي ودوتهم
أني أنفتُ على رجائهم
آماله بمطالبِ المجدِ
ما قلتْ هذي جنةُ الخلدِ
قذِفُ النوى^(١) وتنوفةُ البعدِ^(٢)
وملكتْ عزَّ جميعهم وَحدي

∴

ورقيمةُ الأعطافِ حاليةٍ
وَحشِيَّةُ الأنسابِ ما أنستْ
تسمو بجيدٍ بالغِ صعداً
طالت رهوس الشائحات به
قطعتُ إليك تنانفاً وصلت
تحدي على استصعابها ذُللاً
بسُعودك اللأني ضمنٌ لنا
جاءتْك في وفدِ الأحابيشِ لا
وافوك أنضاء^(٥) تُقلِّبهم

موشيةٌ بوشائعِ البردِ
في موحشِ الينداءِ بالقوَدِ
شرفَ الصُّروحِ بغيرِ ما جهد
ولربما قصرتْ عن الوهدِ
إسآداها بالنَّصِ والوَخذِ^(٣)
وتبييت طوعَ القنِّ والقَدِ^(٤)
طولَ الحياةِ بعيشةِ رَغدِ
يرجون غيرك مُكرِّمِ الوَفدِ
أيدي السُّرى بالنَّورِ والنَّجدِ

(١) ناقة قذوف : متقدمة في سيرها على الابل ، والنوى : البعد .

(٢) التنوفة : القفر من الأرض ، والتي لا ماء فيها ، والجمع تنانف .

(٣) النص : التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها . والوَخذ : ضرب من سير الابل ،

وهو سمة الخطو في المشي .

(٤) تحدي : تسرع . والقن : البعد . والقَد بالكسر : سير يقدر من جلد غير مدبوغ .

(٥) جمع نضو : وهو المهزول .

كَالطِّيفِ يَسْتَقْرِئُ مِضَاجَهُ أَوْ كَالْحُسَامِ يُسَلُّ مِنْ غَمْدِ
يُشْنُونَ بِالْحُسْنَى الَّتِي سَبَقَتْ مِنْ غَيْرِ انْكَارٍ وَلَا جَحْدِ
وَيَرُونَ لَحْظَكَ مِنْ وَقَادَتِهِمْ فِخْرًا عَلَى الْأَتْرَاكِ وَالْمَنْدِ
يَا مُسْتَعِينًا جَلَّ فِي شَرَفِ عَنْ رُتْبَةِ الْمَنْصُورِ وَالنَّهْدِ
جَازَاكَ رَبُّكَ عَنْ خَلِيقَتِهِ خَيْرَ الْجَزَاءِ فَنِعْمَ مَا يُسْدِي
وَبَيَّتَ لِلدُّنْيَا وَسَاكِنَهَا فِي عِزَّةٍ أَبَدًا وَفِي سَعْدِ

وأنشدته في سائر أيامه غير هاتين القصيدتين كثيرًا، لم يحضرنني

الآن شي، منه .

ثم غلب ابن مرزوق على هواه، وانفرد بمخالطته، وكبح
الشكاكم عن قربه؛ فانقبضت، وقصرت الخطو، مع البقاء على ما
كنت فيه من كتابة سره، وانشاء مخاطباته ومراسمه .

ثم ولأني آخر الدولة «خطة المظالم»، فوفيتها حقها، ودفعت
للكثير مما أرجو ثوابه. ولم يزل ابن مرزوق آخذًا في سعايته بي
وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة، إلى أن انتقض الأمر على
السلطان بسببه. وثار الوزير عمر بن عبد الله بدار الملك؛ فصار إليه
الناس، ونبدوا السلطان وبيعتته، وكان في ذلك هلاكه، على ما
ذكرناه في أخبارهم .

ولما قام الوزير عُمر بالأمر، أقرني على ما كنت عليه، ووفّر
 إقطاعي، وزاد في جرايتي؛ وكنت أسمو، بطفيان الشاب، الى
 أرفع مما كنت فيه، وأدِلّ في ذلك بسابقة مودّة معه، منذ أيام
 السلطان أبي عنان، وصحابة استحكّم عقدها بيني وبينه، وبين
 الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية، فكان ثالث أئافينا، ومصقلة
 فكاهتنا. واشتدّت غيرة السلطان لذلك كما مرّ، وسطابنا، وتغافل
 عن عُمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية؛ ثم حملني الأدلال
 عليه أيام سلطانه، وما ارتكبه في حقي من القصور بي عما أسمو إليه،
 الى أن هجرته، وقعت عن دار السلطان، مغاضباً له؛ فتنكر لي،
 وأقطعني جانباً من الاعراض؛ فطلبت الرحلة الى بلدي بإفريقية.
 وكان بنو عبد الواد قد راجعوا ملكتهم بتلمسان، والمغرب الأوسط،
 فننني من ذلك، أن يغتبط أبو حمّو صاحب تلمسان بمكاني،
 فأقيم عنده. ولجّ في المنع من ذلك، وأبيت انا إلا الرحلة؛
 واسنجزرت في ذلك برديفه وصديقه، الوزير مسعود بن رحو بن ماساي،
 ودخلت عليه يوم الفطر، سنة ثلاث وستين. فأنشدته :

هنيئاً بصوم لا عداه قبولٌ وبشرى بعيدٍ أنت فيه منيلٌ
 وهنيئها من عزةٍ وسعادةٍ تتابعُ اعوامٌ بها وفصولٌ

سقى الله دهرًا أنت إنسانٌ عينه
فمصرُك ما بين الليالي مواسمٌ
وجانبك المأمول للوجود مشرع
عساک، وإن ضنَّ الزمان منوَّلي
أجرني فليس الدهر لي بمسالمٍ
وأولِّي الحسنى بما أنا آملٌ
ووالله ما رمت الترحُّل عن قلبي
ولا رغبةً عن هذه الدار إنَّها
ولكن نأى بالشعب عني حبابٌ
يبيح بهنَّ الوجد أني نازح
عزيزٌ عليهن الذي قد لقيته
توارت بأنبائي البقاع كأنني
ذكرتك يا مغنى الأحبة والهوى
وحيتت عن شوق رباك كأنما
أأحبنا والعهد بيني وبينكم
إذا أنا لم تُرضِ الحول مدامعي
إلام مقامي حيث لم تُرد العلى

ولا مسَّ ربعا في حماك محولٌ
لها غررٌ وضاحةٌ وحجولٌ
بجوم عليه عالمٌ وجهولٌ
فرسم الأماني من سواك محيلٌ
إذا لم يكن لي في ذراك مقيلٌ
فمثلك يولي راجياً ويُنيلٌ
ولا سخطةً للعيش فهو جزيلٌ
لظيلٌ على هذا الأنام ظليلٌ
شجاهنَّ خطبُ للفراق طويلٌ
وأن فؤادي حيث هنَّ حلولٌ
وأن اغترابي في البلاد يطولٌ
تخطَّمت أوغالت ركابي غولٌ
فطارت بقلبي أنهٌ وعويلٌ
يُمثل لي نؤيُّ بها وطولٌ
كريمٌ وما عهد الكرم يحولٌ
فلا قرَّبني للقاء حولٌ
مرادي ولم تعطِ القيادة ذلولٌ

(٤-٤)

أجاذبَ فضلَ العُمرِ يوماً و ليلةً
ويذهبُ بي ما بينَ يأسٍ ومطمَعٍ
تُعَلِّمَنِي عنه أمانَ خِوَادِعٍ
أما لليالِي لا تردُّ خطوبَها
يروِّعُنِي من صرفِها كلُّ حادثٍ
أداري على الرغْمِ العِدَى لا لِرِيبةٍ
واغدُو بأشجاني عيلاً كأنما
وإني وإن اصبحت في دارِ غربةٍ
وصدَّتْني الأيامُ عن خيرِ منزلٍ
لأعلم أن الخيرَ والشرَّ ينتهي
وأنِّي عزيزٌ بآبِنِ مآساي مُكثِرٌ
وساءَ صباحٌ بينها وأصيلُ
زمانٌ بنيلِ المَعْلُواتِ بَخيلُ
ويوئسُنِي لَيَّانٌ منه مَطولُ
ففي كبدِي من وقَمَنٍ فُلُولُ
تَكَادُ له صُمُّ الجبالِ تَروُلُ
يصانَعُ واشٍ خوفَها وَعَذُولُ
تجودُ بنفسِي زفرةً وغلِيلُ
تُحِيلُ الليالي سَلُوقِي وتُدِيلُ
عَهدتُ به أن لا يُضامَ نَزِيلُ
مَداهُ وأن الله سوف يُدِيلُ
وإن هان انصارُ وبانَ خليلُ

فاعانني الوزير مسعود عليه ، حتى اذن لي في الانطلاق على شريطة العُدول عن تِلْمَسان ، في ايّ مذهب اردت ، فاخترت الأندلس ، وصرفت ولدي وأمهم الى اخوالهم ، اولاد القائد محمد ابن الحكيم بُمَسْنَطِينَة ، فاتح اربع وستين . وجعلت انا طريقي على الأندلس ، وكان سلطانها ابو عبدالله المخلوع ، حين وفد على السلطان ابي سالم بفاس ، وأقام عنده ، حصلت لي معه سابقة وصلة

ووسيلة خدمة ، من جهة وزيره ابي عبدالله بن الخطيب ^(١) ، وما كان بيني وبينه من الصحابة ، فكنت اقوم بخدمته ، وأعتمل في قضاء حاجاته في الدولة . ولما اجاز ، باستدعاء الطاغية لاسترجاع ملكه ، حين فسد ما بين الطاغية وبين الرئيس المتوثب عليه بالأندلس من قرابته ، خذفته فيمن ترك من عياله وولده بفاس ، خير خلف ؛ في قضاء حاجاتهم ، وإذرار أرزاقهم ، من المتولين لها ، والاستخدام لهم . ثم فسد ما بين الطاغية وبينه ، قبل ظفـره بملكه ، برجوعه عما اشترطه له ؛ من التجافي عن حصون المسلمين التي تملكها بإجلابه ؛ ففارقه الى بلد المسلمين ، ونزل بأسجة ^(٢) . وكتب الى عمر بن عبد الله يطلب مصراً ينزله ، من أمصار الأندلس الغربية ، التي كانت ركاباً لملوك المغرب في جهادهم . وخاطبني أنا في ذلك ، فكنت له نعم الوسيلة عند عمر ، حتى تم قصده من ذلك . وتجافى عن رندة واعمالها ؛ فنزلها وملكها ، وكانت دار هجرته ، وركاب فتحه ؛ وملك منها الأندلس واسط ثلاث وستين ، واستوحشت أنا من عمر ، إثر ذلك كما مر . وارتحلت إليه ، معولاً على سوابقي عنده ، فغرب في المكافأة كما نذكر ان شاء الله تعالى .

(١) لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦)

بروكنم ٢٦٢/٢ .

(٢) أسجة قيدها ابن خلدون بالقلم ، بفتح الهمزة ، وكسر السين الخفيفة ، تقع في الجنوب الغربي

على بعد نحو ٥٤ كيلو متراً . ويقال لها أيضاً أسجة ، ولتحت هذا الاسم تجدها في ياقوت ٢٤:١

الرحلة الى الاندلس

ولمّا أجمعت الرحلة الى الأندلس ، بعثتُ بأهلي وولدي الى أخوالهم بفسنطينة ، وكتبتُ لهم الى صاحبها السلطان ابي العباس ، من حفدة السلطان ابي يحيى ، وأني امرتُ على الأندلس ، وأجيزُ اليه من هنالك . وسرت الى سبّنة فُرصة المجاز ، وكبيرها يومئذ الشريف ابو العباس احمد بن الشريف الحسني ، ذو النسب الواضح ، السالم من الرّيبة عند كافة اهل المغرب ؛ انتقل سلفه الى سبّنة من صقلية^(١) ، وأكرمهم بنو العزّفيّ اولا وصاهروهم . ثم عظم صيتهم في البلد ، فتنكروا لهم . وغربهم يحيى العزّفيّ آخرهم الى الجزيرة ؛ فاعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق^(٢) ؛ فأسروهم . وانتدب السلطان ابو سعيد الى فديتهم ، رعاية لشرفهم ؛ فبعث الى النصارى في ذلك فأجابوه . وفادى هذا الرجل واباه على ثلاثة آلاف دينار ، ورجعوا الى سبّنة . وانقرض بنو العزّفيّ ودولتهم ، وهلك والد الشريف ، وصار هو الى رياسة الشورى . ولمّا كانت واقعة القيروان ، وخلع ابو عنان اباه ، واستولى على المغرب ، وكان بسبّنة عبدُ الله بن علي الوزير ، والياً من قبل السلطان ابي الحسن ؛ فتمسك بدعوته ، ومال اهل

(١) يفتح الصاد والقاف ، أو بكسرهما ، واللام مكسورة مشددة على كلا القولين . فتحت سنة ٢١٢ تاج العروس ٤٠٤/٧ وياقوت ٣٧٣/٥ - ٣٧٧ .

(٢) الزقاق: هو المضيق الذي بين طنجة وجبل طارق ، وعرض البحر هناك نحو سبعة عشر متراً .

البلد الى السلطان ابي عنان. وبثّ فيهم الشريف دعوتَه؛ فثاروا بالوزير وأخرجوه، ووقدوا على ابي عنان. وأمكّنوه من بلدهم؛ فوأسى عليها من عظماء دولته سعيد بن موسى العجيسي؛ كما فل تربيته في صغره. وافرد هذا الشريف برياسة الشورى في سبّته؛ فلم يكن يُقَطع امرٌ دونه. ووقد على السلطان بعض الايام، فتلقاه من الكرامة بما لا يشارِ كه فيه احد من وفود الملوك والعظماء. ولم يزل على ذلك سائر ايام السلطان وبعد وفاته. وكان معظمها وقور المجلس، هَش اللِّقاء، كريم الوفاة، متحلياً بالعلم والادب، منتحلياً للشعر، غاية في الكرم وحسن العهد، وسداجة النفس. ولما مرت به سنة اربع وستين، انزلني بيته ازاء المسجد الجامع، وبلوت منه ما لا يُقدّر مثله من الملوك، وار كبني الحراقة^(١) ليلة سفري؛ يباشر دحرجتها الى الماء بيده، اغراباً في الفضل والمساهمة. وحطّطتُ بجبل الفتح^(٢) وهو يومئذ لصاحب المغرب. ثم خرجتُ منه الى غرناطة، وكتبتُ الى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني. وليلة بتُّ بقرب غرناطة على بريد^(٣) منها، لقيني كتابُ ابن الخطيب يهتني بالقدوم ويؤنسني، ونصه:

(١) الحراقة: نوع من السفن الصغيرة كان يستعمل للزهوة. السلوك المقريري ص ٣٠٦.

(٢) جبل الفتح: هو جبل طارق بن زياد. وهو المسمى اليوم Gibraltar

(٣) البريد: أربعة فراسخ؛ والفرسخ: اثنا عشر ميلاً. تاج العروس ٣/٣٩٨.

حَلَّتْ حُلُولَ التَّمِيثِ بِالْبَلَدِ المَحَلِّ عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَّهْلِ
يَمِينًا بِنِ تَعْنُو الوجوه لوجْهه من الشَّيْخِ وَالطِّفْلِ المَهْدِ^(١) وَالكَهْلِ
لقد نَشَأَتْ عِنْدِي لِلْقِيَاكِ غِبْطَةٌ تَنْسِي اغْتِبَاطِي بِالشَّيْبَةِ وَالْأَهْلِ
وَوُدِّي لَا يُجْتَاجُ فِيهِ لِشَاهِدٍ وَتَقْرِيرِي المَعْلُومِ ضَرْبِ مِنَ الجَهْلِ

أَقْسَمْتُ بِمَنْ حَجَّتْ قُرَيْشٌ لَبَيْتِهِ ، وَقَبْرِ صُرِفَتْ أَرْزَمَةَ الْإِحْيَاءِ
لَمِيَّتِهِ^(٢) ، وَنُورِ ضُرِبَتْ الْأَمْثَالُ بِمَشْكَاةِ وَزَيْتِهِ^(٣) . لَوْ خَيْرَتْ أَيْهَا
الْحَبِيبِ الَّذِي زِيَارَتُهُ الْأَمْنِيَّةُ السَّنِيَّةُ ، وَالْعَارِفَةُ الْوَارِفَةُ^(٤) ، وَاللَّطِيفَةُ
الْمُطِيفَةُ ، بَيْنَ رَجْعِ الشَّبَابِ يَقْطُرُ مَاءً ، وَوَيْفٍ^(٥) نَمَاءً ، وَيُغَازِلُ عَيْونَ
الْكُؤَاكِبِ ، فَضْلًا عَنِ الْكُؤَاعِبِ ، إِشَارَةً وَإِيمَاءً ، بِحَيْثُ لَا الْوُخْطُ
يُلْمُ بِسِيَاجِ لِمَتِهِ ، أَوْ يَقْدَحُ ذِبَالَهُ فِي ظِلْمَتِهِ ، أَوْ يَقُومُ حَوَارِيَهُ فِي
مِلَّتِهِ ، مِنَ الْأَحْيَاشِ وَأُمَّتِهِ . وَزَمَانُهُ رَوْحٌ وَرَاحٌ ، وَمَعْدَى فِي
فِي النِّعَمِ وَمِرَاحٍ ، وَقَصْفٌ صُرَاحٌ ، وَرُقَى وَجِرَاحٌ ، وَانْتِخَابٌ
وَاقْتِرَاحٌ ، وَصُدُورٌ مَا بَهَا إِلَّا انْشِرَاحٌ ، وَمَسْرَآتٌ تَرُدُّهَا أَفْرَاحٌ ؛

(١) هدأت المرأة الصبي : سكنته لينام .

(٢) في القرآن : « انك » ميت وانهم ميتون » وبهامش طبعة بولاق . العبرم ٧ ص ٤١١ شرح
لا معنى له ، أعرضنا عن ذكره .

(٣) يشير إلى الآية : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح
في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد
زيها يضيء ولو لم تمسه نار » . الآية ٣٥ من سورة النور .

(٤) العارفة العطية . والوارفة : المتسمة .

(٥) يقال : الشيء يرف إذا كثرت ماؤه من النعمة والفضاضة .

وبين قُدومك خليع الرّسن ، مُمتعاً - والحمد لله - باليقظة والوسن ،
محكّماً في نُسك الجنيد^(١) أو فتك الحسن^(٢) ، مُمتعاً بظرف المعارف ،
مالئاً أكف الصّيارف ، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزّخارف - لما
اخترت الشباب وإن شاقني زمنه ، وأعياني ثمنه ، وأجرت سحب
دمعي دمنه . فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملّكني أزمنة
آرابي ، وغبطني بمائي وتُرّابي ، ومألّف أتْرابي ، وقد أغصني بلذيد
شراي ، ووقع على سُطوره المعتبرة إضرابي . وعجّلت هذه مُغفطة
بمناخ المطيّة ، ومنتهى الطّية^(٣) ، ومُلتقى للسعود غير البطيّة ، وتنهّي
الآمال الوثيرة الوطيّة . فما شئت من نفوسٍ عاطشة الى ريبك ،
متجمّلة بزيبك ، عاقلة خطأ مهريّك ؛ وموئلي مكارمه نشيدة
أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدّق الخبر ما هنالكَ ، ويسع فضل
مجدك في التخلف عن الاصحار^(٤) ، لا ، بل للقاء من وراء البحار ،
والسلام .

ثم أصبحت من الغد قادماً على البلد ، وذلك ثامن ربيع الأول

- (١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، سيد الصوفية واهمهم . توفي سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . طبقات الشافعية للسبكي ٢٨/٢ - ٣٧ .
(٢) يريد أبا نواس : الحسن بن هانئ بن الجراح الحكمي ، الشاعر المساجن المعروف (١٤٥ - ٢٠٠) .
(٣) الطية : الوجه والقصد .
(٤) الإصحار : الخروج الى الصحراء . يتمتد عن خلفه عن الخروج للقاء بعيداً عن المدينة .

عام أربعة وستين ، وقد اهتزّ السلطان لثدومي ، وهياً لي المنزل من قصوره ، بفرشه وما عونه ، وأركب خاصته للقائي ، تحفياً وبراً ، ومجازاة بالحسني ؛ ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك ، وخلع عليّ وانصرفت . وخرج الوزيرُ ابن الخطيب فشيّعني الى مكان نُزلي ؛ ثم نظمني في علية أهل مجاسه ، واختصني بالنجسي في خلوته ، والمواكبة في ركوبه ، والمواكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه ؛ وأقتت علي ذلك عنده ؛ وسفرت عنه سنة خمس وستين الى الطاغية ملك قشتالة يومئذ ؛ بتره بن الهنشه بن أذفونش ، لاتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوّة ، بهدية فاخرة ، من ثياب الحرير ، والجياد المقرّبات ^(١) بمراكب الذهب الثقيلة ؛ فلقيت الطاغية بإشبيلية ، وعابنت آثار سلفي بها ، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه ، وأظهر الاغتباط بمكاني ، وعلم أوليّة ملتنا بإشبيلية . وأثنى عليّ عنده طبيبه إبراهيم بن زرّزر اليهودي ، المقدّم في الطب والنجمّة ، وكان لتيّني بمجلس السلطان أبي عتّان ، وقد استدعاه يستطبه ، وهو يومئذ بدار ابن الأحمر بالأندلس . ثمّ نزع — بعد هلك رضوان القائم بدولتهم — الى الطاغية ؛ فأقام عنده ، ونظّمه في أطبائه . فلما قدمت أنا عليه ، أثنى عليّ عنده ، فطلب الطاغية منّي حينئذٍ المقام عنده ،

(١) المقرّبات : التي تقرب ، ولا تترك بعيداً لئلا يقرعها فعل غير جيد ، يفعلون ذلك ليعمّطوا لها النسب الحر .

وأن يرُدَّ عليَّ تراثَ سَلْني بِإِشْبيلية ، وكان بيدَ زُعماءِ دولته ،
فتفاديتُ من ذلك بما قبله . ولم يزل علي اغتباطه الي أن انصرفت عنه ؛
فزودني وحملني ^(١) ، واختصني ببغلة فارهة ، بمركب ثقيل ولجام
ذهبيين ، أهديتها الي السلطان ، فأقطمني قرية إلبيرة من أراضي السقي
بمرج غرناطة ، وكتب بها منشوراً كان نصه ^(٢) :

ثم حضرتُ المولدَ النَّبويَّ لخامسةٍ قُدومي ، وكان يحْتفل في
الصَّنيع ^(٣) فيها والدَّعوة ^(٤) ، وإنشاد الشعراء ، اقتداءً بملوك المغرب ،
فأنشدته ليلتئذ :

حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تحييني بواكف ^(٥) الدَّمعُ يرويهَا ويُظميني
إن الألى نزحت داري ودارهم تحمّلوا القلبَ في آثارهم دُوني
وقفت أنشد صبراً ضاع بمدّهم فيهم وأسال رسماً لا يُناجيني
أمثِل الرِّبَع من شوق فألثمه وكيف والفكرُ يدنيه ويُقصيني
وبنهب الوجدُ مني كلُّ لؤؤوةٍ ما زال قلبي عليها غيرَ مأمون

(١) أعطاني ظمراً لأركبه .

(٢) بياض في جميع الاصول ، ولعل ابن خلدون ترك هذا البياض ليثبت نص هذا المنشور ،
فعاجلته المنية قبل ان يتيسر له ذلك .

(٣) الصنيع ، والصنيعة : ما اصطلمته من خير أو شر .

(٤) الدعوة بالفتح في اكثر كلام العرب ؛ طلبك الناس للطعام ، وعد قبيلة الرباب : الدعوة ،
بكسر الدال في الطعام . وانظر كتب اللغة .

(٥) وكف الدمع : سال .

سَقَّتْ جُفُونِي مَغَانِي الرَّبِّعِ بَعْدَهُمْ ۖ فَالِدَّ مَعَ وَقْفٍ عَلَى أَطْلَالِهِ الْجُونِ (١)
 قَدْ كَانَ لِلْقَلْبِ عَنِ دَاعِي الْهَوَى شُغْلٌ ۖ لَوْ أَنَّ قَلْبِي إِلَى السُّلْوَانِ يَدْعُونِي
 أَجَابْنَا هَلْ لِهَيْدِ الْوَصْلِ مُدَّ كَرٌّ ۖ مِنْكُمْ وَهَلْ نَسْمَةٌ عَنْكُمْ تُحَيِّبُنِي
 مَالِي وَلِلطَّيْفِ لَا يَعْتَادُ زَائِرُهُ (٢) ۖ وَللنَّسِيمِ عَلِيلاً لَا يَدَاوِينِي
 يَا أَهْلَ نَجْدٍ وَمَا نَجْدٌ وَسَاكِنُهَا ۖ حُسْنًا سَوَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ وَالْعَيْنِ (٣)
 أَعِنْدَكُمْ أَنْتِي مَا مَرَّ ذِكْرُكُمْ ۖ إِلَّا انْتَشَيْتُ كَأَنَّ الرَّاحَ تَشْنِينِي
 أَصْبُو إِلَى الْبَرْقِ مِنَ انْحَاءِ أَرْضِكُمْ ۖ شَوْقًا وَلَوْلَاكُمْ مَا كَانَ يُصْبِينِي
 يَا نَازِحًا وَالْمَنَى تُدْنِيهِ مِنْ خَلْدِي (٤) ۖ حَتَّى لِأَحْسِبُهُ قُرْبًا يَنَابِينِي
 أَسْلَى هَوَاكَ فَوَادِي عَنِ سِوَاكَ وَمَا سِوَاكَ يَوْمًا بِجَالٍ عَنكَ يُسَلِينِي
 تَرَى اللَّيَالِيَّ أَنْسَتِكَ إِدِّكَارِيَّ يَا ۖ مِنْ لَمْ تَكُنْ ذِكْرَهُ الْإَيَّامُ تُنْسِينِي

ومنها في وصف الايوان الذي بناه جلوسه بين قصوره :

يَا مَصْنَعًا شَيْدَتْ مِنْهُ السُّعُودُ حَمِيًّا ۖ لَا يَطْرُقُ الدَّهْرُ مَبْنَاهُ بَتَوَاهِينِ
 صَرْحٌ يَحَارُ لَدَيْهِ الطَّرْفُ مُفْتَتِنًا ۖ فَيَا يَرُوقُكَ مِنْ شَكْلِ وَتَلْوِينِ

(١) الجون : السود .

(٢) لا يزور مرة بعد الأخرى .

(٣) جمع عيناه ؛ وهي الواسعة العين من النساء .

(٤) الخلد : الببال .

تلوح ان جلييت درأ وإن تلييت تشني عليك بانفاس البساتين
 عانيت منها يجهدى كل شاردة لولا سعودك ما كادت تواتيني
 يمانع الفكر عنها ما تقسمه من كل حزن بطي الصدر مكنون
 لكن بسعدك ذلت لي شواردها فرضت منها بتحبير وترين
 نقيت دهرك في أمن وفي دعة ودام ملكك في نصر وتمكين

وأنشدته سنة خمس وستين في إعدار^(١) ولده ، والصنيع الذي
 احتفل لهم فيه ، ودعا اليه الجفلي من نواحي الاندلس ، ولم يحضرني
 منها الا ما اذكره :

صبحا الشوق لولا عبرة ونجيب^(٢) وذكري تجدد الوجد حين تثوب^(٣)
 وقلب أبى إلا الوفاء بمهده وان نرحت دار وبان حبيب
 والله مني بعد حادثة النوى فؤاد لتذكار المهود طروب
 يورقه طيف الخيال اذا سرى وتذكي حشاه نفحة وهبوب
 خليلي إلا تسعدا فدعا الاسبى فاني لما يدعو الاسبى لمجيب
 ألما على الاطلاع يقض حقوقها من الدمع فيأض الشون سكوب

(١) الإعدار : الحتان ، ثم اطلق على طعام الحتان .

(٢) الجفلي ، بفتحات : ان تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة .

(٣) النجيب : البكاء .

(٤) تثوب ، وفي ب : تثوب ؛ والمعنى فيها : ترجع وتودد .

ولا تغدُلاني في البكاء فإنَّها حُشاشةٌ نفسي في الدموع تذب
ومنها في تقدُّم ولده للاعذار من غير نُكول^(١) :

فِيمَمَ منه الحفل لا متقاعسٌ لخطب ولا نكس^(٢) اللقاء هبوب
وراح كما راح الحسام من الوغى تروق حلاه والفرند^(٣) خضيب
شواهدُ اهدتهنَّ منك شمائل وخلقُ بصفو المجد منك مشوب
ومنها في الثناء على ولديه :

هما التَّيران الطالعان على الهدى بآيات فتحِ شأنهنَّ عجيب
شهابان في الهيجا غمامان في الندى تسحُّ المعالي منها وتصوب
يدان لبسط المكرمات نماها الى المجد فيأضُّ اليدين وهوب

وأنشدته ليلة المولد الكريم من هذه السنة :

أبى الطيف ان يعتاد الا توَّها فمَنْ لي بأن القى الخيال المسَّما
وقد كنتُ استهديه لو كان ناعمي وأستمطر الاجفان لو تنمَّع الظما^(٤)
ولكن خيال كاذب وطماعة^(٥) تعلِّ قلباً بالاماني متيماً

(١) الكول : الأخر والجبن .

(٢) النكس : الرجل الضعيف ، والمقصر عن غاية النجدة والكرم .

(٣) الفرند : السيف .

(٤) تروي العطش .

(٥) الطماعة : الطمع .

ايا صاحبي نجواي والحب لوعة
 خذا لفؤادي العهد من نفس الصبا
 ألا صنع الشوق الذي هو صانع
 وإني ليدعوني السلو تعلقا
 لمن دمن اققرن الآ هو اتقا^(٢)
 عرفت بها سيما^(٤) الهوى وتنكرت
 وذو الشوق يعتاد الربوع دوار ساء
 نأوبني^(٥) والليل بيني وبينه
 أجد لي العهد القدم كأنه
 عجبت لمرتاع الجوانح خافق
 وبت أرويه كؤوس مدامعي
 وصافحته عن رسم دار بذي الغضا^(٦)
 لمهدي بها تدني الطباء وانسا
 تبيح بشكواها الضمير المكتما
 وظي النقا^(١) والبان من اجرع الحمى^(٣)
 فحبي مقيم أقصر الشوق او سما
 وتنهاني الأشجان أن اتقدما
 تردد في اطلاقهن الترنما
 فمجت على آياتها متوسما
 ويعرف آثار الديار توها
 وميض بأطراف الشايا تضرما
 اشار بتذكار العهود فأفها
 بكيت له خلف الدجى وتبسما
 وبات يعاطيني الحديث عن الحمى
 لبست بها ثوب الشيبية معلما
 وتطلع في آفاقها الغيد أنجما

(١) النقا : الكتيب من الرمل .

(٢) الاجرع : الارض الرملة السهلة المستوية . - لسان العرب .

(٣) هتفت الحمامة : ناحت ، وهي هاتفة ، والجمع هوانف .

(٤) سيما الهوى : علامته .

(٥) اتأب ليلا .

(٦) الغضا : شجر ، وخبثه من اصلب الخشب ، ولهذا يكون في فحمة صلابه .

أَحْنُ اليها حيث سار بي الهوى وَأَمْجَد رَحْلِي فِي الْبِلَادِ وَأَتْهَا^(١)

ولما استقر القرار ، واطمأنت الدار ، وكان من السلطان
الاجتباط والاستئثار وكثر الحنين الى الاهل والتذكار ، أمر
باستقدام اهلي من مطرح اغترابهم^(٢) بفسنطينة ؛ فبعث عنهم من جاء
بهم الى تلمسان . وامر قائد الاسطول بالمرية ؛ فسار لاجازتهم في
اسطوله ، واحتلوا بالمرية . واستأذنت السلطان في تلقئهم ، وقدمت
بهم على الحضرة ، بعد ان هيات لهم المنزل والبستان ، ودمنة القلج ،
وسائر ضرورات المعاش .

وكتب الوزير ابن الخطيب عندما قاربت الحضرة ، وقد كتبت
اليه استأذنه في القدوم ، وما أعتمده في احواله :

سيدي ، قدمت بالطير الميامين ، على البلد الامين ، واستضفت
الرفاء الى البنين ، ومثت بطول السنين . وصلتني البراءة^(٣) المعربة
عن كسب اللقاء ، ودنوت المزار ، وذهاب البعد ، وقرب الدار ؛
واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدم ، والحق ان يتقدم

(١) نجد ، واتهم : دخل نجداً ، وتامة .

(٢) مطرح الاجتراب : المكان البعيد عن الاهل والمشيرة .

(٣) البراءة في مصطلح المغاربة والاندلسيين : الرسالة كيفما كان موضوعها . ولا يتقيدون

فيها بللغنى اللغوي للبراءة .

سيدي الي الباب الكرم ، في الوقت الذي يجحد المجلس الجمهوري لم يُفَضَّ حَاجِيْجُهُ^(١) ، وَلَا صَوَّحَ^(٢) بِهِجِهِ ، ويصل الاهد بعدد الى المحل الذي هياته السعادة لاستقرارهم ، واختاره اليمن قبل اختيارهم . والسلام .

ثم لم يلبث الاعداء واهل السعايات ان خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتاله علي ، وحرَّكوا له جوادَ الغيرة فتَنَكَّرَ . وشِمَّتْ منه رائحة الانقباض ، مع استبداده بالدولة ، وتحكُّمه في سائر احوالها ؟ وجاءتني كتب السلطان ابي عبدالله صاحب بجاية ، بانه استولى عليها في رمضان خمسٍ وستين . واستدعاني اليه ؛ فاستأذنت السلطان ابن الاحمر في الارتحال اليه . وعميتُ عليه شأن ابن الخطيب ابقاء لمودته ؛ فارتَمَضُ^(٣) لذلك ، ولم يَسَعَهُ الا الاسعاف ، فودَّعَ وزوود ، وكتب لي مرسوم بالتشيع من املاء الوزير ابن الخطيب نصه :

هذا ظهير كرم ، تضمن تشيعاً وترفعاً ، وإكراماً وإعظاماً ، وكان لعمَلِ الصَّنِيعَةِ ختاماً ، وعلى الذي احسن تماماً ، وأشاد للمعمد

(١) الأماضة : الدفع في السير بكثرة . والحجيج : جمع حاج ؛ يزيد قبل ان يتفرق رواد المجلس السلطاني من اهل الدولة .

(٢) صَوَّحَ الثبت : تم يبسه .

(٣) ارتمض لكذا : حزن ، وارتفض بكذا : اشتد قلقه .

به^(١) بالاغتباط الذي راق قَسَامَا^(٢) وتوفّر اقساماً ، واعلن له بالقبول
إن نوى بعد النوى رجوعاً او أثر على الظعن المزمع مُقَاماً .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، الأمير عبد الله محمد بن
مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن
نصر ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأعلى ذكره ، للوليّ الجليل ،
الحظيّ المكين ، المقرّب الأودّ الأحبّ ، الفقيه الجليل ، الصدر
الأوحد ، الرئيس العلم ، الفاضل الكامل ، المرفّع الأسمى ، الأظهر
الأرضي ، الأخلص الأصفى ، أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الجليل ،
الحسيب الأصيل ، الفقيه المرفّع المعظم ، الصّدّر الأوحد الأسنى ،
الأفضل الأكمل ، الموقر المبرور ، أبي يحيى أبي بكر ، ابن الشيخ
الجليل الكبير ، الرفيع الماجد ، القائد الحظيّ ، المعظم الموقر ، المبرور
المرحوم ، أبي عبد الله بن خلدون . وصل الله له أسباب السعادة ،
وبلّغه من فضله أقصى الارادة ؛ أعلن بما عنده ، أيده الله ، من الاعتقاد
الجميل في جانبه المرفّع ، وإن كان غنياً عن الاعلان ، وأعرب عن
معرفة بمقداره ، في الحسبَاء العلماء الرؤساء الأعيان ، وأشاد باتصال
رضاه عن مقاصده البرّة وشيمه الحسان ، من لدن وفد بآبه ، وفادة

(١) كذا بالاصول . والعبارة مضطربة . ولم نعر في المراجع التي بين ايدينا على تصويبها .

(٢) القَسَام : الجمال والحسن .

العزَّ الراسخ البُنيان ، وأقام المُقام الذي عيَّن له رِفعةَ المكان ، وإجلالَ الشان ، إلى أن عَزَمَ على قصد وطنه ، أبلغه الله ذلك في ظلِّ اليُمن والأمان ، وكفالة الرَّحمن بعدَ الاغْتِباطِ المُربِّي على الحَبْرِ بالعيان ، والتمسُّك بِجِوارِه يُجْهِدُ الامكان ، ثم قَبولُ عُذْرِه بما أُجْبِلت الأَنْفُسُ عليه من الحنين إلى المعاهد والأوطان . وبعد أن لم يذْخِرْ عنه كرامةً رَفيعةً ، ولم يَحْجُبْ عنه وجهَ صَنيعةٍ ، فوَلَاهُ القيادة والسِّفارة ، وأحلَّه جليساً معتمداً بالاستشارة ، وألْبَسَه من الخُطوة والتقريب أبهى الشارة ، وجعل محلَّه من حضرته مقصوداً بالمِثْلِ معنِياً بالإشارة ، ثم أَصْحَبَه تشييعاً يشهد بالضَّمانة بِفِراقِه ، ويجمع له بِرَّ الوجهة من جميع آفاقه ، ويجعله بيده رَتيمةً خَنيصاً^(١) ، ووثيقةً سامع أو مُبْصِرٍ ؛ فمها لوى أَخْذَعَه^(٢) إلى هذه البلاد بعد قضاء وطره ، وتَمَلَّيْهِ من نَهْمَةٍ^(٣) سَفَرَه ، أو نزع به حُسنُ العهد وحنين الوُدِّ ، فَصَدْرُ العِناية به مشروح ، وبابُ الرضا والهُيُولِ مَفْتُوحٌ ، وما عَهْدُه من الخُطوة والبرِّ مَمْنُوحٌ . فما كان القصدُ في مثله من إجماد الأولياءِ لِيَتَحَوَّلَ ، ولا الاعتقادُ الكَرِيمِ لِيَتَبَدَّلَ ، ولا الأخيرُ من الأحوال

(١) الرتيمة : الخط الذي يشد في الأصبع لتستذكر به الحاجة .

(٢) الأخدعان : عراقان في موضع الحجامة من العنق ، والواحد أخدع ؛ يكتنئ بلي

الأخدعين عن العودة إلى هذه البلاد .

(٣) النهمة : الحاجة ، وبلوغ الهمة في الشيء .

لينسخ الأول . على هذا فليطوّر ضميره ، وليرد متى شاء أميره^(١) ، ومن وقف عليه من القواد والأشياخ والحدّام ، برّاً وبحراً ، على اختلاف الخطط والرتب ، وتباين الأحوال والنسب ، أن يعرفوا حقّ هذا الاعتقاد ، في كل ما يحتاج إليه من تشييع ونزول ؛ وإعانة وقبول ، واعتناء موصول ، الى أن يكمل الغرض ، ويؤدّي من امثال هذا الأمر الواجب المفترض ، بحول الله وقوته .

وكتب في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وستين وسبع مائة .

وبعد التاريخ العلامة بخط السلطان ، ونصّها : « صح هذا » .

الرحلة من الاندلس الى بجاية ، وولاية الحجابة بها

على الاستبداد

كانت بجاية ثغراً لأفريقية في دولة بني أبي حفص من الموحّدين . ولما صار أمرهم للسلطان أبي بكر بن يحيى منهم ، واستقلّ بملك إفريقية ، ولى في ثغر بجاية ابنه الأمير أبا زكرياء ، وفي ثغر قسنطينة ابنه الأمير أبا عبد الله . وكان بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ، ينازعونه في أعماله ، ويُجَمِّرون^(٢) العساكر على بجاية ،

(١) النمير من الماء : الزاكي ، الناجع .

(٢) جمر الجيش : جمعه . وهي كلمة يستعملها ابن خلدون كثيراً .

وَيُجْلِبُونَ عَلَى قُسْنَطِينَةَ ، إِلَى أَنْ تَمَسَّكَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ بِذِمَّةٍ مِنْ
السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ، مَلِكِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى مِنْ بَنِي مَرِينٍ ، وَهُوَ
الشَّفُوفُ عَلَى سَائِرِ مَمْلُوكِهِمْ . وَزَحَفَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى
تِلْمَسَانَ ؛ فَأَخَذَ بِمَخَنَقِهَا سَتَيْنِ أَوْ أَزِيدَ ، وَمَلَكَهَا عَنُوةً ، وَقَتَلَ
سُلْطَانَهَا أَبَا تَاشَفِينَ ، وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ . وَخَفَّ مَا كَانَ عَلَى
الْمُوحِدِينَ مِنْ إِصْرٍ^(١) بَنِي عَبْدِ الْوَادِ ، وَاسْتَقَامَتْ دَوْلَتُهُمْ . ثُمَّ هَلَكَ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى بِقُسْنَطِينَةَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ ، وَخَلَّفَ
سَبْعَةً مِنَ الْوَلَدِ ، كَبِيرُهُمْ أَبُو زَيْدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، ثُمَّ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ ،
فَوَلَّى الْأَمِيرَ أَبَا زَيْدٍ مَكَانَ أَبِيهِ ، فِي كِفَالَةِ نَبِيلٍ مَوْلَاهُمْ . ثُمَّ تُوِّفِيَ
الْأَمِيرُ أَبُو زَكْرِيَاءَ بِبِجَايَةَ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ ، وَخَلَّفَ ثَلَاثَةً مِنَ الْوَلَدِ ،
كَبِيرُهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ ، وَبَعَثَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ الْأَمِيرَ أَبَا
حَفْصَ عَلَيْهَا ؛ فَمَالَ أَهْلُ بِجَايَةَ إِلَى الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي زَكْرِيَاءَ ،
وَانْحَرَفُوا عَنِ الْأَمِيرِ عُمَرَ وَأَخْرَجُوهُ . وَبَادَرَ السُّلْطَانُ فَرَقَعَ هَذَا
الْحَرْقَ ، بِوَلَايَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَمَا طَلَبُوهُ . ثُمَّ تُوِّفِيَ السُّلْطَانُ أَبُو بَكْرٍ
مُنْتَصَفَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ ، وَزَحَفَ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى إِفْرِيْقِيَةَ فَلَمَّكَهَا ، وَنَقَلَ
الْأَمْرَ مِنْ بِجَايَةَ وَقُسْنَطِينَةَ إِلَى الْمَغْرِبِ . وَأَقْطَعَ لَهُمْ هُنَالِكَ ، إِلَى أَنْ
كَانَتْ حَادِثَةُ الْقَيْرَوَانَ ، وَخَلَعَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانَ أَبَاهُ . وَارْتَحَلَ مِنْ

(١) الإصر : الأمر الذي ينفلج حمله .

تَلِمَّسَان ، الى فاس ؛ فنَقَلَ معه هؤلاء الأُمراء ، أهلَ بجاية وقَسَنْطِينَة ، وخالطهم بنفسه ، وبِالِغ في تَكْرِمَتِهِمْ . ثم صرفهم الى ثغورهم : الأَمِيرَ أبا عبد الله أَوْلَا ، وإخوته من تَلِمَّسَان ، وأبا زيد وإخوته من فاس ، لِيَسْتَبِيدُوا بثغورهم ، ويُخَذِلُوا الناس عن السلطان أبي الحسن ؛ فوصلوا الى بلادهم ، وملكوها بعد أن كان الفضلُ بن السلطان أبي بكر قد استولى عليها من يد بني مرين ؛ فانترغوها منه . واستقرَّ أبو عبد الله بجاية ، حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بجبال المصامدة ، وزحف أبو عَنان الى تَلِمَّسَان سنة ثلاث وخمسين ؛ فهزَمَ ملوكها من بني عبد الواد ، وأبادهم ، ونزل المدينة ، وأطلَّ على بجاية . وبادر الأَمِيرُ أبو عبد الله للقائه ، وشكا إليه ما يلقاه من زُبُون^(١) الجُند والعرب ، وقلَّةِ الجباية . وخرج له عن ثغر بجاية فلُكها ، وأنزل عمَّاله بها . ونقل الأَمِيرَ أبا عبد الله معه الى المغرب ؛ فلم يزل عنده في حِقَاية^(٢) وكرامة . ولما قدمتُ على السلطان أبي عَنان آخر خمس وخمسين واستخلصني ، نبضتُ عُروق السَّوابق بين سَلْبِي وسَلَفِ الأَمِيرِ أبي عبد الله ، واستدعاني للصَّحابة فأسرعت ، وكان السلطانُ أبو عَنان شديد الغيرة من مثل ذلك . ثم كثر المنافسون ، ورفعوا الى السلطان ، وقد طرَّقه مرضٌ أرجف له الناس ؛ فرفعوا له

(١) يستعمل ابن خلدون الزبون اسما بمعنى الحرب .

(٢) الحقاية : المبالغة في الإكرام ، كالحفاوة .

أن الأمير أبا عبد الله اعتزم على^(١) الفرار إلى بجاية ، وأني عاقدته على ذلك ، على أن يؤليني حجّابته ؛ فانبعث لها السلطان ، وسطابنا ، واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك . وجاء السلطان أبو سالم ، واستولى على المغرب ، ووليت كتابته سرّه . ثم نهض إلى تلمسان ، وملكها من يد بني عبد الواد ، وأخرج منها أبا حمو موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يعمراسن ، ثم اعتزم على الرجوع إلى فاس ، وولى على تلمسان أبا زيّان محمد بن أبي سعيد عثمان بن السلطان أبي تاشفين ، وأمدّه بالأموال والعساكر من أهل وطنه ، ليدافع أبا حمو عن تلمسان ، ويكون خالصة له . وكان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية معه كما ذكرناه ، والأمير أبو العباس صاحب قسنطينة ، بعد أن كان بنو مرّين حاصروا أخاه أبا زيد بقسنطينة أعواماً تباعاً . ثم خرج لبعض مذهبهم إلى بونة ، وترك أخاه أبا العباس بها ؛ فخلعه ، واستبدّ بالأمر دونه . وخرج إلى العساكر الحجّرة عليها من بني مرّين ؛ فهزموهم ، وأثخن فيهم . ونهض السلطان إليه من فاس ، سنة ثمان وخمسين ؛ فتهرب منه أهل البلد وأسلموه ؛ فبعثه إلى سبتة في البحر ، واعتقله بها ، حتى إذا ملك السلطان أبو سالم سبتة عند إجازته من الأندلس سنة ستين ، أطلقه من الاعتقال ، وصحبه إلى دار ملكه ،

(١) اعتزم على الشيء : أراد فعله ، كعزم عليه .

ووعده برده عليه .

فلما ولّى ابا زيّان على تلمّسان ، أشار عليه خاصّته ونصحاؤه ، بأن يبعث هؤلاء الموحّدين إلى ثغورهم : فبعث أبا عبد الله إلى بجاية ، وقد كان ملكها عمّه أبو إسحق صاحب تونس ، ومكفول ابن تافراكين من يد بني مرين ؛ وبعث أبا العباس إلى قسنطينة ، وبها زعيم من زعماء بني مرين . وكتب إليه السلطان أبو سالم أن يفرج له عنها ، فملكها لوقته . وسار الأمير أبو عبد الله إلى بجاية ، فطال إجلاؤه عليها ، ومعاودته حصارها . وليج^(١) أهلها في الامتناع منه مع السلطان أبي إسحق . وقد كان لي المقام المحمود في بعث هؤلاء الأمراء إلى بلادهم . وتولّيت - كبر^(٢) ذلك مع خاصة السلطان أبي سالم وكبار أهل مجلسه ، حتى تمّ القصد من ذلك . وكتب لي الأمير أبو عبد الله بخطّه عهداً بولاية الحجة متى حصل على سلطانه ؛ ومعنى الحجة - في دولنا بالمغرب - الاستقلال بالدولة ، والوساطة بين السلطان وبين أهل دولته ، لا يشاركه في ذلك أحد . وكان لي أخ اسمه يحيى^(٣) أصغر مني ، فبعثته مع الأمير أبي عبد الله حافظاً للرسم ، ورجمت مع السلطان إلى فاس . ثم كان

(١) لج : نقادى في الخصومة .

(٢) الكبر : معظم الشيء ، والشرف .

(٣) قتل يحيى بن خلدون هذا في سنة ٧٨٠ ، بأمر أبي تاشفين بن ابي زيّان ؛ وكان مؤرخاً ، وأديباً ؛ ويأتي في كلام ابن الخطيب تناه على كتابته الأدبية . له كتاب : «بغية الرواد» ، في اخبار بني عبد الواد .

ماقدّمته من انصرافي الى الاندلس والمقام بها ، إلى أن تنكّر الوزير ابن الخطيب ، وأظلم الجو بيني وبينه .

وبينما نحن في ذلك ، وصل الخبر باستيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية من يد عمّه ، في رمضان سنة خمس وستين ؛ وكتب الأمير أبو عبد الله يستقدمني ، فاعتزمت على ذلك ، ونكر السلطان أبو عبد الله ابن الأحمر ذلك مني ، لا يظنّه لسوى ذلك ، إذ لم يطّلع على ما كان بيني وبين الوزير ابن الخطيب ، فأمضيت العزم ، ووقع منه الاسعاف ، والبرّ والالطاف . وركبت البحر من ساحل المريّة ، منتصف ست وستين . ونزلت بجاية لخامسة من الاقلاع ، فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدمي ، وأركب أهل دولته للقائي . وتهافت أهل البلد عليّ من كل أوب يسحون أعطاني ، ويقبلون يدي ، وكان يوماً مشهوداً .

ثم وصلت الى السلطان فحياً وفدّي^(١) ، وخلع وحمل^(٢) ؛ وأصبحت من الغد ، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقلكت بحمل ملكه ، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتديير سلطانه ، وقدّمني للخطابة بجامع القصبنة ، وأنا مع ذلك ، عاكف

(١) فدى : قال جعلت فداك .

(٢) حمل : أعطاه ظهراً يحمل عليه .

بعد انصرافي من تدبير الملك عُذْوَةَ — الى تدريس العلم أثناء النهار
بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك .

ووجدتُ بينه وبين ابن عمِّه السلطان أبي العباس صاحب
قسنطينة فتنة ، أحدثتها المشاحة في حدود الاعمال من الرعايا والعمال ،
وشبَّ نارَ هذه الفتنة عربُ اوطانهم من الدَّوَادِة من رباح ، تنفيقاً
لسوق الزُّبُون يَمْتَرُونَ^(١) به أموالهم . وكانوا في كلِّ سنة يجمع
بعضهم لبعض ؛ فالتقوا سنة ست وستين بفرَّجِوَة ، وانقسم العربُ
عليها . وكان يعقوب بنُ عليٍّ مع السلطان أبي العباس ؛ فانهمزَم
السلطان أبو عبد الله ، ورجَعَ إليَّ بجاية مفلولاً ، بعد ان كنتُ
جمعتُ له أموالاً كثيرةً أنفقَ جميعها في العرب . ولما رَجَعَ أعوزته
النفقة ؛ فخرجتُ بنفسي إلى قبائل البربر بجبال بجاية المتمنعين من
المغارم منذُ سنين ؛ فدخلتُ بلادهم واستبحتُ حماهم ، واخذتُ
رهنهم على الطاعة ، حتى استوفيت منهم الجباية ، وكان لنا في
ذلك مَدَدٌ وإعانة ؛ ثم بعث صاحبُ تِهَانَسَان إلى السلطان أبي
عبد الله يطلبُ منه الصَّهر ؛ فاسعفه بذلك ليصلَ يده به على ابن عمِّه ،
وزوَّجَه ابنته ؛ ثم نهضَ السلطان أبو العباس سنة سبع وستين ،
وجاس اوطانَ بجاية ، وكاتبَ أهلَ البلد ، وكانوا وِجِلِينَ من

(١) يَمْتَرُونَ به أموالهم : يستخرجونها .

السلطان أبي عبد الله ، بما كان يُرِيفُ الحَدَّ لهم ، وَيَشُدُّ وِطَاءَهُ عليهم ؛ فأجابوه إلى الانحراف عنه . وخرج السلطان أبو عبد الله يروم مُدَافِعَتَهُ ، ونزلَ جِبَلِ لِيَزُو مَمْتَصِمًا بِهِ ؛ فَيَبِّتَهُ السلطان أبو العباس في عساكره وجموع الأعراب من اولاد محمد بن رباح بمكانه ذلك ، باغراء ابن صَخْرٍ وَقِبَائِلِ سِدُوِيكَشٍ ^(١) . وكتبسه في حَيْمِهِ ورخص هارباً ، فلحقه وقتاه ، وسار الى البلد بمواعدة أهلها . وجاءني الخبر بذلك ، وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره ، وطلب مني جماعةٌ من أهل البلد القيام بالأمر ، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان ؛ ففتاديتُ من ذلك ؛ وخرجتُ الى السلطان أبي العباس ، فأكرمني وحباني ، وأمكته من بلده ، وأجرى أحوالي كلها على معهودها . وكثرت السعاية عنده في ، والتحذيرُ من مكاني . وشعرتُ بذلك ؛ فطلبتُ الاذن في الانصراف بمهدٍ كان منه في ذلك ؛ فأذن لي بعدَ لَأَيٍ ^(٢) ؛ وخرجتُ الى العَرَبِ ، ونزلت على يعقوب بن علي . ثم بدا للسلطان في امري ، وقبض علي أخي ، واعتقله ببونة . وكتبس بيوتنا يُظنُّ بها ذخيرةً وأموالاً ؛ فأخفق

(١) عرفت هذه القبائل بهذا الاسم منذ القديم ، وديارها في مواطن كتامة ، في البسائط الواقعة

بين فسطينة ، وبجاية .

(٢) بعد ابطاه .

ظنه . ثم ارتحلتُ من أحياء يعقوب بن عليّ ، وقصدتُ بَسْكَرَةَ^(١) ،
لِصِحَابَةِ بِنِي وَبَيْنَ شَيْخِهَا أَحْمَدَ بْنَ يَوْسُفَ بْنَ مَزْنِي ، وَبَيْنَ أَبِيهِ ؛
وَسَاهَمَ فِي الْحَادِثِ بِمَالِهِ وَجَاهِهِ .

مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان

كَانَ السُّلْطَانُ أَبُو حَمُو^(٢) قَدْ التَّحَمَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانِ أَبِي
عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبِ بِيْجَايَةِ بِالصَّهْرِ فِي ابْنَتِهِ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ يَتْلِمَسَانُ .
فَلَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ أَبِيهَا ، وَاسْتِيْلَاءُ السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنَ عَمِّهِ صَاحِبِ
قُسْطَيْنَةَ عَلَى بِيْجَايَةِ ، أَظْهَرَ الْاِمْتِعَاضَ لَذَلِكَ . وَكَانَ أَهْلُ بِيْجَايَةِ قَدْ
تَوَجَّسُوا^(٣) الْخَيْفَةَ مِنْ سُلْطَانِهِمْ ، بِإِرْهَافِ حُدِّهِ ، وَشِدَّةِ سَطْوَتِهِ ؛
فَانْحَرَفُوا عَنْهُ بَاطِنًا ، وَكَاتَبُوا ابْنَ عَمِّهِ بِقُسْطَيْنَةَ كَمَا ذَكَرْنَا .

وَدَسُّوا لِّلْسُلْطَانِ أَبِي حَمُو بِمِثْلِهَا يَرْجُونَ الْخِلَاصَ مِنْ صَاحِبِهِمْ
بِأَحَدِهِمَا . فَلَمَّا اسْتَوْلَى السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ ، وَقَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ ، رَأَوْا أَنْ

(١) بَسْكَرَةَ ضَبَطَهَا ابْنُ خَلْدُونَ ، بِالْحَرَكَاتِ ، بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالْكَافِ ، بَيْنَهَا سَيْنٌ سَاكِنَةٌ ، ثُمَّ
رَاءَ مَفْتُوحَةٌ بِمَدِّهَا هَاءٌ تَأْنِيثٌ ، وَهُوَ ضَبَطَ حَكَاهُ يَاقُوتٌ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ ، وَصَاحِبُ تَاجِ الْعُرُوسِ ،
كَمَا حَكَا أَنْ هَاكِ مِنْ يَضْبُطُهَا بِكَسْرِ الْبَاءِ وَالْكَافِ ، وَهِيَ بِلْدٌ بِالْجَزَائِرِ كَانَتْ قَاعِدَةً بِبِلَادِ الزَّابِ ،
انظُرْ يَاقُوتٌ ٢-١٨٢ ، التَّاجُ ٣-٤٣

(٢) هُوَ أَبُو حَمُو مُوسَى بْنُ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ بِيْجِي بْنِ يَغْمَرِاسِنَ بْنِ زِيَانَ ،
الاسْتِقْصَاءُ ٢-١٠٣

(٣) تَوَجَّسَ الشَّيْءُ ، وَالصَّوْتُ : سَمِعَهُ وَهُوَ خَائِفٌ

جرحهم قد اندمل^(١)، وحاجتهم قد قضيت^(٢)، فاعصَوْ صَبُوا عليه؛ وأظهر السلطان أبو حمو الامتعاضَ للواقعة يُسِرُّ منه حَسَوًّا في ارتفاع^(٣)، ويجعله ذريعةً للاستيلاء على بنجاية، بما كان يَرَى نفسه كفوَّها بعدَّه وعديده، وما سلف من قومه في حصارها؛ فسار من تَلِمَسَانَ يَجْرُ الشوكَ والمدَر^(٤)، حتى خيمَ بالرَّشَّة من ساحتها، ومعه احياءُ زُغْبَةٍ بجُموعهم وظمائهم، من لدن تَلِمَسَانَ، الى بلاد حصين، من بني عامر؛ وبني يعقوب، وسويد، والديالم والعطاف، وحصين.

وانحجَرَ أبو العباس بالبلد في شِردِمة من الجُند، أعجله السلطان أبو حمو عن استيعاب الحشد، ودافعَ أهلُ البلد أحسنَ الدِّفاع. وبعثَ السلطان أبو العباس عن أبي زيَّان بن السلطان أبي سعيد عمَّ أبي أي حمو من قُسْطَينَةَ، كان مُعْتَقَلًا بها، وأمرَ مولاَه وقائدَ عسكره بِشِيرا أن يخرُجَ معه في العساكر، وساروا حتى نزلوا بني^(٥) عبد الجبار قبالةً مُعسِّكرَ أبي حمو؛ وكانت رجالاتُ زُغْبَةَ قد وجَّهوا

(١) اندمل الجرح، برى.

(٢) يشرب اللبن خفية، ويتظاهر بأنه يأخذ الرغوة، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره.

(٣) ينظر الى المثل، « جاء بالشوك والشجر »، الميداني ١-١١٠؛ ويكنى بذلك عن كثرة جيشه، فلقد كان ١٥ الفاً. - بغية الرواد ٢-١٨٢.

(٤) في بغية الرواد: « وابن عمه أبو زيَّان ابن السلطان أبي سعيد مظل عليه من جبل بني عبد الجبار »، ولعله أوضح.

من السلطان ، وأبلغهم النذير أنه إن ملك بجاية اعتقلهم بها ؛
فراسلوا أبا زيان ، وركبوا إليه ، واعتقدوا معه . وخرج رجل البلد
بعض الأيام من أعلى الحصن ، ودفعوا شردمة كانت مجمرة إزاءهم ؛
فاقتلوا خباءهم . وأسهلوا من تلك العقبة الى بسيط الرشة .
وعاينهم العرب بأقصى مكانهم من المعسكر فأجفلوا ، وتتابع الناس
في الانجفال حتى أفردوا السلطان في مخيمه ؛ فحمل رواحه وسار ،
وكصت^(١) الطرق بزحامهم . وتراكموا بعض على بعض ؛ فهلك منهم
عوالم . وأخذهم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية ، وقد
غشيهم الليل ؛ فتركوا أزودتهم ورحالهم . وخلص السلطان ومن
خلص منهم بعد عصب الريق^(٢) ، وأصبحوا على منجاة . وقد فت
بهم الطرق من كل ناحية الى تلمسان ؛ وكان السلطان أبو حمو قد
بلغه خروجي من بجاية ، وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي
ومخلفي ؛ فكتب إلي يستفدني قبل هذه الواقعة . وكانت الأمور
قد اشتبهت ؛ فتفاديت بالأعداء ، وأقت بأحياء يعقوب بن علي ، ثم
ارتحلت الى بسكرة ؛ فأقت بها عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني .
فلما وصل السلطان أبو حمو الى تلمسان ، وقد جزع للواقعة ، اخذ
في استئلاف قبائل رياح ، ليُجلب بهم مع عساكره على اوطان

(٢) كذا بالأصول ويريد اكنظ بالطاء .

(٣) عصب الريق بفيه : اذا يبس عليه .

بِجَايَةٍ؛ وَخَاطَبَنِي فِي ذَلِكَ لِقُرْبِ عَهْدِي بِاسْتِبَاعِهِمْ، وَوَمَلِكٍ زِمَامِهِمْ،
وَرَأَى أَنْ يُعَوَّلَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ، وَاسْتَدْعَانِي لِحِجَابَتِهِ وَعَلَامَتِهِ،
وَكَتَبَ بِخَطِّهِ مُدْرَجَةً فِي الْكِتَابِ نَصُّهَا :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ، وَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى مَا وَهَبَ، لِيَعْلَمَ الْفَقِيهُ
الْمَكْرَمُ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونَ، حَفِظَهُ اللَّهُ، عَلَى أَنَّكَ تَصِلُ
إِلَى مَقَامِنَا الْكَرِيمِ، لَمَّا اخْتَصَصْنَا كَمَّ بِهِ مِنَ الرَّتْبَةِ الْمَنِيَعَةِ، وَالْمُنْتَزَلَةِ
الرَّفِيعَةِ، وَهُوَ قَلَمٌ خَلَفْتَنَا، وَالْإِنْتِظَامُ فِي سِلْكِ أَوْلِيَانِنَا، أَعْلَمْنَا كَمَّ
بِذَلِكَ. وَكَتَبَ بِخَطِّ يَدِهِ عَبْدُ اللَّهِ، الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ، مُوسَى بْنُ
يُوسُفَ لَطْفَ اللَّهِ بِهِ وَخَارَلَهُ. »

وَبَعْدَهُ بِخَطِّ الْكَاتِبِ مَا نَصَّهُ : بِتَارِيخِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَجَبِ
الْفَرْدِ الَّذِي مِنْ عَامِ تِسْعَةِ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةَ عَرَفْنَا اللَّهَ خَيْرَهُ .

وَنَصُّ الْكِتَابِ الَّذِي هَذِهِ مُدْرَجَتُهُ، وَهُوَ بِخَطِّ الْكَاتِبِ :
« أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ يَا فَاقِيَهُ ابَا زَيْدٍ، وَوَالِي رِعَايَتِكُمْ . إِنَّا قَدْ ثَبَتْنَا عِنْدَنَا،
وَصَحَّ لَدَيْنَا مَا أَنْطَوَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَبَةِ فِي مَقَامِنَا، وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى
جَنَابِنَا، وَالتَّشْيِيعِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا لَنَا، مَعَ مَا نَعْلَمُهُ مِنْ مَحَاسِنِ اشْتَمَلَتْ
عَلَيْهَا أَوْصَافِكُمْ، وَمَعَارِفَ فُقُتُمْ فِيهَا نُظَرَاءُكُمْ، وَرُسُوخَ قَدَمٍ فِي
الْفُنُونِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ .

وكانت خطّة الحِجَابَةِ بِيَابِنَا العَلِيِّ - اسماء الله - اكبرَ درجات امثالكم ، وارفعَ الخططَ لنظرائكم ؛ قُرباً مِنَّا ، واختصاصاً بمقامنا ، واطِّلاعاً على خفَايا اسرارنا . آثرناكم بها إيثاراً ، وقدّمناكم لها اصطفاً واختياراً ؛ فاعملوا على الوصول الى بابنا العَلِيِّ ، اسماء الله ، لما لكم فيه من التَّنْوِيهِ ، والقدر النَّبِيهِ ، حاجباً لعلِّي بَابِنَا ، ومستودعاً لاسرارنا ، وصاحبَ الكَرِيمَةِ عَلامَتِنَا ، الى ما يشاكل ذلك من الانعام العميم ، والخير الجسيم ، والاعتناء والتكريم . لا يشار ككم مشارك في ذلك والله يزاكم احد ، وان وُجد من امثالك فاعلموه ، وعودوا عليه ، والاتعالى يتولاكم ، ويصل سراكم ، ويوالي احتفاءكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وتأدّت إليّ هذه الكتب السلطانية على يد سفير من وزرائه ، جاء الى اشياخ الدّوَاوِدة في هذا الغرض ؛ فقامت له في ذلك احسن مقام ، وشايعته احسن مشايعه ، وحملتهم على اِجَابَةِ داعي السلطان ، والبيدار الى خدمته . وانحرف كبرائهم عن خدمة السلطان ابي العباس الى خدمته ، والاعتمال في مذاهبه ، واستقام غرضه من ذلك ؛ وكان اخي يَحْيَى قد خلص من اعتقاله ببُوْتة ، وقدم عليّ ببِسْكَرة ، فبعثته الى السلطان ابي حمو كالثائب عني في الوظيفة ، متفاديا عن تجشّم احوالها ، بما كنت نزعْتُ عن غواية الرُّتْب . وطال عليّ

إِغْفَالُ الْعِلْمِ ؛ فَأَعْرَضْتُ عَنْ الْخَوْضِ فِي أَحْوَالِ الْمُلُوكِ ، وَبَعَثْتُ الْهَمَّةَ عَلَى الْمَطَالَعَةِ وَالتَّدْرِيسِ ؛ فَوَصَلَ إِلَيْهِ الْأَخْ ، فَاسْتَكْفَى بِهِ فِي ذَلِكَ ، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ .

وَوَصَلَنِي مَعَ هَذِهِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ كِتَابُ رِسَالَةِ مِنَ الْوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ مِنْ عَرْنَاطَةَ يَتَشَوَّقُ إِلَيَّ ، وَتَأَدَّى إِلَيَّ تَلْمِيسَانَ عَلِيٍّ يَدِ سَفَرَاءِ السُّلْطَانِ ابْنِ الْأَحْمَرِ ؛ فَبَعَثَ إِلَيَّ بِهِ مِنْ هُنَاكَ وَنَصَهُ :

بِنَفْسِي وَمَا نَفْسِي عَلَيَّ بَهِيْنَةً فَيُنْزِلَنِي عَنْهَا الْمِكَّاسَ^(١) بِأَثْمَانِ حَيْبٍ نَأَى عَنِّي وَوَصَمَّ لِأَنْتَبِي وَرَاشَ^(٢) سَهَامَ الْبَيْنِ عَمْدًا فَأَصْمَانِي^(٣) وَقَدْ كَانَ هُمُ الشَّيْبِ - لَا كَانَ - كَافِيَا فَقَدْ أَدْنِي^(٤) لَمَّا تَرَحَّلَ هَمَّانِ شَرَعْتُ لَهُ مِنْ دَمْعٍ عَيْنِي مَوَارِدًا فَكُدِّرُ شَرِّي بِالْفِرَاقِ وَاطْهَمَانِي وَارْعَيْتُهُ مِنْ حُسْنِ عَهْدِي جَمِيمَةً^(٥) فَأَجْدِبُ آمَالِي وَأَوْحَشُ أَرْمَانِي حَلَفْتُ عَلَى مَا عِنْدَهُ لِي مِنْ رِضَى قِيَاسًا بِمَا عِنْدِي فَأَحْنَثُ أَيْمَانِي وَإِنِّي عَلَى مَا نَالَنِي مِنْهُ مِنْ قَلِي لَأَشْتَاقُ مِنْ لِقْيَاهُ نَعْبَةَ^(٦) ظَمَّانِ

(١) المِكَّاسُ : المِخَاكَةُ ، وَالمَشَاخَةُ فِي النَّمْرِ عِنْدَ التَّبَاعِ .

(٢) رَاشَ السَّهْمِ : أَلْصَقَ بِهِ الرِّيشَ .

(٣) أَصْحَى الصَّيْدَ : رَمَاهُ فَقَتَلَهُ فِي مَكَانِهِ .

(٤) أَدْنِي هَمَّانٍ : دَهَانِي هَمَّانٍ .

(٥) الْجَمِيمُ ، وَالجَمُّ : الْكَثِيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالنَّبْتُ الَّذِي طَالَ حَتَّى صَارَ مِثْلَ جَمَّةِ الشَّعْرِ .

(٦) النَّعْبَةُ (بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِهَا) : الْجُرْعَةُ مِنَ الْمَاءِ .

سألتُ جنوبي فيه تقرب عرشه فتمتُ بجن الشوقِ جن سليمان
 إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه وثبتُ وما استشبتُ شيمة هيمان
 وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
 ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدٍ تظللُ يوماً مثله عبد رحمان
 ولا شعرتُ من قبله بتشوقٍ تخللَ منها بين رُوحٍ وجثمانٍ

أما الشوقُ فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبرُ فأسأل به
 آيةً درج ، بعد أن تجاوزَ اللوى ^(١) والمنعرج ^(٢) ، لكن الشدة
 تعشقُ الفرج ، والمؤمن ينشقُ من رُوحِ الله الأراج ؛ وأنى بالصبرِ
 على إبرِ الدبر ^(٣) ، لا . بل الضربُ الهبر ^(٤) ، ومطاوأة اليوم والشهر ،
 تحت حكم القهر ؛ ومن للعين أن تسلوَ سلوَ المقصر ، عن إنسانها
 المبصر ، أو تذهلَ ذُهلَ الزاهد ، عن سيرها الرائي والمشاهد ، وفي
 الجسد بضعَة يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه وإن
 نزحت ؛ وإذا كان الفراق ، هو الحمام الأول ، فعلام المعول ، أعيتُ
 مُراوضة الفراق ، عمل الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُفضي
 إلى السياق ^(٥) .

(١) اللوى : ما التوى من الرمل ، ومسترق الرمل .

(٢) المنعرج : المنعطف .

(٣) الدبر ، بالفتح ويكسر : الزنابير .

(٤) الضرب الهبر : الذي يلقي قطعة من اللحم ، وهو وصف بالصدر .

(٥) ساق المريض : شرع في نزع الروح .

تركتموني بعد تشييعكم أوسعُ امر الصبر عصبانا
اقرعُ سني ندماً تارةً واستمبحُ الدمع أحياناً

وربما تعلتُ بغشيان المعاهد الخالية، وجددتُ رُسوم الأسي
بمباكرة الرُسوم البالية، أسأل نون النوى^(١) عن أهليه، وميم الموقد
المهجور عن مُصطلبيه، وثناء الأثافي^(٢) المثلثة عن منازل الموحدين،
واحارُ وبين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللتُ إذاً وما أنا
من المهتدين؛ كلفتُ لعمري الله بسألٍ^(٣) عن جفوني المؤرقة، وثائمٍ
عن هوممي المتجمعة والمتفرقة. ظنن عن ملال، لامتبرماً منا
بشراً خلال، وكدر الوصل بعد صفائه، وضرَج النصل بعد
عهد وفائه.

أقلُّ اشتياقاً أيها القلبُ إنمَّا رأيتك تُصفي الودَّ من ليس جازياً

فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربيع الفراق آسى
له^(٤)، واشكو إليه حال قلب صدعه، وأودعه من الوجد
ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشيقُ رياه أنف
ارتياح قد جدعه، وأستعديه على ظلم ابتدعه.

(١) النوى: الحفير حول الجباه أو الخيمة يمنع عنها السيل.

(٢) الأثافي: احجار توضع عليها القدر، واحدها أنفية.

(٣) سال: ناس.

(٤) آسى له: أحزن له.

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَل رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَلْبِي ^(١)
فلولا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعةُ المحلِّ الذي حلَّه، لنشرتُ
ألوية العتب، وبشنتُ كَتَائِبَهَا، كُمنَاءَ في شعابِ الكتب، تهزُّ من
الألفاتِ رماحاً خزرَ الأسنَّة ^(٢) وتوتر من النونات أمثالَ القسي المرنة
وتفود من مجموع الطرس ^(٣) والنقس ^(٤) بلقاً ^(٥) تردى ^(٦) في الأعنة، ولكنه
آوى إلى الحرم الأمين، وتفيأ ظلال الجوار المؤمن من معرفة الغوار
عن الشمال واليمين، حرم الحلال المزنية، والظلال اليزنية؛ والهيم
السنية، والشيم التي لا ترضى بالدون ولا بالدنية، حيث الرِّفْدُ الممنوح،
والطير الميامين يُزجر ^(٧) لها السنوح ^(٨) والمشوى الذي إليه، مَهْمَاتِقَارِع ^(٩)
الكرام على الضيفان ^(١٠)، حول جواني الجفان ^(١١) فهو الجنوح.

(١) البيت لمجمل بن عبد الله بن معمر العذري . الأغاني بولاق ٥١/١ .

(٢) يقال : هم خزر العيون : أي ينظرون نظرة العداوة ، وعدو أخزر العين : ينظر عن معارضة . وقد أسند ذلك الى الرماح تجوزاً .

(٣) الطرس (بالكسر) : الصحيفة .

(٤) النقس : المداد .

(٥) جمع أبلق ؛ وهو الفرس الذي لونه سواد وبياض .

(٦) الردي : حركة الفرس بين العدو والمشي .

(٧) زجر الطير : تفاعل به .

(٨) سنح الطائر سنوحا : جرى على يمينك الى يسارك ، والعرب تتيامن بذلك .

(٩) تقارع الكرام : ساهموا .

(١٠) الضيفان : جمع ضيف .

(١١) الجواني : جمع جانية ؛ وهي الحوض يجبي فيه الماء للابل . والجفان : جمع جفنة ؛ وهي

أعظم ما يكون من القصاع . وأبن الخطيب يشير الى آية : « وجفان كالجواني » آية ٣٤ منن

سورة الرعد .

تَسَبُّ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نوراً وَمِنْ فَلقِ الصَّبَاحِ عَموداً
وَمِنْ حَلِّ بَتْلِكَ المِثَابَةِ فَقَدْ اطمأنَّ جَنِبُهُ ، وَتُعَمِّدُ بالعَفْوِ ذَنْبَهُ
وَلِلَّهِ دَرُ القَائِلِ :

فوحقّه لقد انتدبتُ لوصفه بالبخل لولا أن خصصاً داره
بلدٌ متى أذكره تهيجُ لوعي وإذا قدحت الزند^(١) طار شراره
اللهم غفراً ، وأين قرارة النخيل^(٢) ، من مثوى الأقف^(٣)
البخيل ، ومكذبة المخیل^(٤) ؛ وأين ثانية هجر^(٥) ، من متبواً من
أَلحدَ وفجر .

مَنْ أَنْكَرَ غَيْثاً مَنْشَوُهُ فِي الأَرْضِ يَنوهُ بِمُخْلِيفِهَا
فَبِنَانُ بَنِي مَزْنِي مُزْنٌ تَهَلُّ بِلُطْفِ مَصْرٍ فِهَا
مُزْنٌ مَدْحِلٌ بِبَسْكَرَةِ يَوْمًا نَطَقَتْ بِمُصَحَّفِهَا^(٦)
شَكَرْتُ حَتَّى يعبَارَتِهَا وَبِمَعْنَاهَا وَبِأَحْرُفِهَا

(١) قلدح الزند : رام الأبراء به .

(٢) يريد بسكرة لأنها كانت تسمى بسكرة النخيل لكثرة ماها منه .

(٣) الأقف : الذي لم يختن ، يريد انه لا يقاس بلد عربي اهله كرام ببلد عجمي اهله بخلاء
وفي نسخة : الألف اي العمي اللسان الذي لا يحسن ان يتكلم .

(٤) يقول : ان هذا البلد يكذب ظن من خاله لأن ساكنيه بخلاء .

(٥) بلد بالبحرين معروف ، وبأبني الحديث عنه .

(٦) ذلك لان تصحيف « بسكرة » : « تشكره » .

ضَحِكْتَ بِأَبِي الْعَبَّاسِ مِنَ الْأَيَّامِ ثَنَايَا زُخْرُفَهَا
وَتَنَكَّرْتَ الدُّنْيَا حَتَّى عُرِفَتْ مِنْهُ بِمَعْرِفَهَا

بل نقول : يا محلّ الولد ، « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد » ، لقد حلّ بينك عرى الجلد^(١) ، وخلد^(٢) الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخلد^(٣) ؛ فحيّا الله زماناً شفيت في قُربك زمانته^(٤) ، واجتليت في صدق مجدك جمانته^(٥) ، وقضيت في مرعى خلّتك لبانته^(٦) ؛ وأهلاً بروضٍ أظلت أشتات معارفك بانته ؛ فحمامته بعدك تندب ، فيساعدها الجندب^(٧) ، ونوآسمه ترقّ فتتغاشي ، وعشباته تتخافت وتتلاشي^(٨) ، وأدواحه في ارتباك ، وسمائه في مآثم ذي اشتباك ؛ كان لم تكن قرهالات قبائه ، ولم يكن أنسك شارع بابيه^(٩) ، إلى صفوة الظرف ولبائه ، ولم

(١) الجلد (بفتح اللام) : الصبر .

(٢) خلد : دام .

(٣) الخلد (بفتح اللام) : القاب .

(٤) الزمانه : العاهة .

(٥) الجمانه الأولوة .

(٦) اللبانه : الحاجة .

(٧) الجندب : الجراد .

(٨) تلاشي الشيء : اضمحل . تاج العروس (لشا) و (لمش) . والتلاشي ، بمعنى الاضمحلال

عامي لم يرد عن العرب .

(٩) باب شارع الى كذا : مفتوح ونافذ اليه ؛ يريد ان انسك كان يشمل الناس جميعا من

غير تخصيص .

يَسْبَحُ إِنْسَانٌ عَيْنِكَ فِي مَاءِ شَبَابِهِ ؛ فَلَهْفِي عَلَيْكَ ^(١) مِنْ دُرَّةٍ
 اخْتَلَسَتْهَا يَدُ النَّوَى ^(٢) ، وَمَطَّلَ ^(٣) بَرْدَهَا الدَّهْرَ وَلَوَى ^(٤) ، وَنَعَقَ
 الْغُرَابَ بَيْنَهَا فِي رُبُوعِ الْهَوَى ، وَنَطَقَ بِالزَّجْرِ ^(٥) فَمَا نَطَقَ عَنِ الْهَوَى ؛
 وَبِأَيِّ شَيْءٍ يُعْتَاظُ مِنْكَ أَيْتُهَا الرِّيَاضُ ، بَعْدَ أَنْ طَلَمَا تَهْرُكُ الْفِيَّاضُ ،
 وَفَهَّمَتْ ^(٦) الْحِيَاضُ ؛ وَلَا كَانَ الشَّانِي ^(٧) الْمَشْنُوهُ ^(٨) وَالْجَرْبُ ^(٩)
 الْمَهْنُوهُ ^(١٠) ؛ مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ أَعَارَ عَلَى الصُّبْحِ فَاحْتَمَلَ ، وَشَارَكَ فِي
 الدَّمِّ النَّاقَةَ وَالْجَمَلَ ، وَاسْتَأْثَرَ جُنْحَهُ بِبَدْرِ النَّادِي لَمَّا كَمَلَ ؛ تَشَرَّ
 الشَّرَاعُ فُرَاعَ ، وَوَاوَلَ الْإِسْرَاعَ . فَكَأَنَّمَا هُوَ تَمْسَاحُ النَّيْلِ ضَائِقَ
 الْأَحْبَابِ فِي الْبُرْهَةِ ، وَاخْتَطَفَ لَهُمْ مِنَ الشَّطْرِ نَزْهَةَ الْعَيْنِ وَعَيْنَ
 النَّزْهَةِ ؛ وَلَجَّ ^(١١) بِهَا وَالْعُمُونَ تَنْظُرُ ، وَالغَمْرُ ^(١٢) عَنِ الْإِتْبَاعِ يَحْظُرُ ؛

- (١) لهفي : حزني وحسرتي .
 (٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد ؛ وهي مؤنثة .
 (٣) مطل الدهر : سوف .
 (٤) لوى بالدين : تأخر عن أدائه .
 (٥) الزجر : التيمن بسنوح الطير ، والتشاؤم ببروحه .
 (٦) فهمت : أمأت .
 (٧) الشاني ، ويقال شيني وشونة : المركب المعد للجهاد في البحر ، والجمع شواني تاج
 العروس (شون) .
 (٨) المشنوه : المغض .
 (٩) الجرب : المصاب بالجرب .
 (١٠) المهنوه : الجمال يدهن بالهناء وهو القطران .
 (١١) لججت السفينة : خاضت للجة .
 (١٢) الغمر : الماء الكثير .

فلم يُقَدَّرْ إِلَّا عَلَى الْأَسْفِ ، وَالتَّمَّاحِ الْأَثْرَ الْمُنْتَسِفَ ^(١) وَالرَّجُوعَ بَيْلًا ،
 الْعَيْبَةَ مِنَ الْخَيْبَةِ ، وَوَقَرَ الْجَسْرَةَ ^(٢) مِنَ الْحَسْرَةِ إِنَّمَا نَشْكُو إِلَى اللَّهِ
 الْبَثَّ وَالْحُزْنَ ، وَنَسْتَمِطِرُ مِنْ عَبْرَاتِنَا الْمُزْنَ ^(٣) ، وَيَسَيْفُ الرَّجَاءُ
 نُصُولَ ، وَإِذَا أَشْرَعْتَ لِلْيَأْسِ أَسِنَّةَ وَنُصُولَ .

مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ شَحَطًا ^(٤)
 مِنْ دَارِهِ الْحُزْنَ ^(٥) مِمَّنْ دَارُهُ نُصُولٌ ^(٦)

فَإِنْ كَانَ كَلِمٌ ^(٧) الْفِرَاقِ رَغِيبًا ^(٨) ، لَمَّا نَوَيْتَ مَغِيبًا ، وَجَلَّاتِ
 الْوَقْتُ الْهَنِيَّ تَشْفِيًا ^(٩) ، فَفَعَلَ الْمَلْتَمَى يَكُونُ قَرِيبًا ، وَحَدِيثَهُ
 يُرْوَى صَحِيحًا غَرِيبًا . إِلَيْهِ سَيِّدِي ! كَيْفَ حَالُ تِلْكَ الشَّمَائِلِ ،
 الْمُزْهَرَةُ الْحَمَائِلِ ، وَالشِّيمِ ، الْهَامِيَةِ الدَّيْمِ ؟ هَلْ يَمُرُّ بِبَالِهَا مَنْ رَاعَتْ
 بِالْبُعْدِ بَالَهُ ، وَأَخْدَمَتْ بَعَا صِفَ الْبَيْنِ ذُبَالَهُ ؟ أَوْ تَرَى لِشَيْئُونِ شَأْنِهَا

(١) المنتسف : المستأصل .

(٢) الجسرة : الناقة .

(٣) المزن : السحاب .

(٤) الشحط : البعد .

(٥) يريد حزن بني يربوع ، وهو قرب « فيد » في جهة الكوفة : من أجل مراتب

العرب . ورد ذكره كثيراً في شعرهم . ياقوت ٣/٢٧٠ .

(٦) صول (بضم الصاد) : مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الابواب ، وهو الدربند .

والبيت الذي ذكره ابن الخطيب لحنج المري في جملة أبيات أوردها ياقوت ٣/٤٣٥ .

(٧) الكلم : الجرح .

(٨) رغيبا : مرغوباً فيه .

(٩) التشفيب : تهميج الشر .

سَكَبَ لَا يَفْتَرُ، وَشَوْقٌ يُبْتُ حِبَالَ الصَّبْرِ وَيَنْتَرُ، وَضَى تَقْصُرُ عَنْ
 حُلَلِهِ الْفَاقِعَةَ صَنْعًا^(١) وَتَسْتَرُ^(٢)، وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ وَاللَّهُ يَسْتَرُ؛ وَمَا
 الَّذِي يَضِيرُكَ، صِينَ مِنْ لَفْحِ السَّمُومِ^(٣) نَضِيرُكَ^(٤)، بَعْدَ أَنْ أَضْرَمْتَ
 وَأَشْعَلْتَ، وَأَوْقَدْتَ وَجَعَلْتَ، وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ، أَنْ
 تَتَرَفَّقَ بِذِمَاءِ^(٥)، أَوْ تَرُدُّ بِنُغْبَةِ مَاءِ^(٦)، أَرْمَاقَ^(٧) ظَمَاءِ^(٨)،
 وَتَتَعَاهَدَ الْمَعَاهِدَ بِتَحِيَّةٍ يُشَمُّ عَلَيْهَا شَذَا أَنْفَاسِكَ، أَوْ تَنْظُرَ إِلَيْنَا -
 عَلَى الْبُعْدِ - بِمُقَلَّةِ حَوْرَاءَ مِنْ بِيَاضِ قِرطَاسِكَ، وَسَوَادِ أَنْفَاسِكَ^(٩)،
 فَرَبِّمَا قَنَعْتَ الْأَنْفُسَ الْمُحِبَّةَ بِخِيَالِ زُورٍ، وَتَعَمَّلْتَ بِنَوَالِ مَنزُورٍ^(١٠)،
 وَرَضِيْتَ، لَمَّا لَمْ تَصِدِ الْعَنْقَاءَ، بَرَزُ زُورٍ .

- (١) صنعاء يريد بها صنعاء اليمن؛ لأنها العظمى والمشهورة، ومنها كانت تجلب البرود. ياقوت
 ٣٨٦/٥ - ٣٩٤. تاج ٤٢١/٥ .
- (٢) تستر: مدينة بخوزستان من كور الأهواز، فتحها أبو موسى الأشعري في خلافة عمر،
 وكانت بها مصانع للآياب والمائم شهيرة. ضبطها ابن خلدون، بالحركات، بفتح الناء الأولى؛
 وضم الثانية، وبينها سين ساكنة، ولعله راعى في ذلك السجع. والمعروف أنها بضم الناء الأولى
 وفتح الثانية. وفيات الأعيان ٢٧٣/١، وياقوت ٣٧٧/٢ .
- (٣) اللفح: الإحراق، والسوموم (بالفتح): الريح الحارة .
- (٤) نضيرك: وجهك الحسن .
- (٥) الذمء (بالفتح والمد): بقية الروح .
- (٦) نغبة ماء: جرعة ماء .
- (٧) جمع رفق؛ وهو بقية الروح .
- (٨) جمع ظمىء (بكسر الميم)؛ وهو الذي اشتد عطشه .
- (٩) جمع نقس؛ وهو المداد .
- (١٠) النوال المنزور، كالنزر: القليل .

يَا مَنْ تَرَحَّلَ وَالرِّيحُ لِأَجْلِهِ يُشْتَاقُ إِنْ هَبَّتْ شَدَا رِيَّاهَا
تَحْيَا النُّفُوسُ إِذَا بَعُثَتْ تَحْيِيَةً وَإِذَا عَزَمَتْ أَقْرَأُ «وَمَنْ أَحْيَاهَا»^(١)

ولئن أُحييتَ بها فيما سلف نفوساً تنديك، واللهُ إلى الخير
ايهديك، فنحن نقولُ معشرُ موادِّيك: «ثني ولا تجعلها بيضة
لديك»^(٢)؛ وُعذرا فيإني لم اجثري، على خطايك بالفقر الفقيرة،
وادلت لَدَى حُجْرَاتِكَ برَفْعِ العَقِيرَةِ، عن نشاطٍ بعثتُ مرموسه^(٣)،
ولا اغتباط بالادب تغري بسياسته سوسة، وانبساطٍ أوحى إليّ على
الفترة ناموسه؛ وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدر^(٤) وهناء^(٥)،
الجرب^(٦) المجدور^(٧)؛ وإن تعلل به مخارق، فشمّ قياس فارق،
أو لحن غنى به بعد البعد مخارق^(٨)؛ والذي هيأ هذا القدر وسببه،

(١) يشير إلى الآية (٣٢) من سورة المائدة .

(٢) عجز بيت لبشار بن برد، وصدده :

قد زرتنا زورة في النوم واحدة • ثني ... الخ

وبيضة الديك: مثل يضرب للشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها، والذي يعطي عطاء ثم لا

يعود . مجمع الأمثال ٥٣/٢ ، أمالي أقالبي ١/٢٢٥ .

(٣) المرموس : المدفون .

(٤) الفت : النفع لا ريق معه . والمصدر : من به علة في صدره .

(٥) الهناء ، ككتاب : القطران .

(٦) الجرب : المصاب بداء الجرب .

(٧) المجدور : الذي أصابه داء الجدري .

(٨) هو مخارق بن يحيى بن نائس الجزار ، مولى الرشيد يكنى أبا المنهأ ؛ معن مشهور أغاني

يدن ٢١/٢٢٠ - ٢٩٤ . ومخارق الأولى بمعنى الاحق المشاكس .

وسهّل المكرهَ إليّ منه وحبّبه ، ما اقتضاه الصّنوُّ يحيى - مدّ الله
حياته ، وحرس من الحوادث ذاته ، - من خطابٍ ارتشف به لهذه
القريحة بلاليتها ^(١) ، بعد ان رَضِيُّ عَلَلَّتْهَا ^(٢) ، ورشح إلى الصّهن
ألحزمي سلالتها ^(٣) ؛ فلم يسع إلا إسعافه ، بما اعافه ؛ فأملت
نجيباً ، ما لا يعدُّ في يوم الرّهان ^(٤) نجيباً ^(٥) ، وأسمّته وجيباً لماً
ساجلتُ بهذه الترهات ^(٦) سحراً عجيباً ؛ حتّى إذا ألف القلم
المریان ^(٧) سبّحه ^(٨) ، وجمع برذونُ الفزارة فلم أطق كبّحه ^(٩) ، لم
أفق من غمرة غلُوه وموقفِ متلوه ، الا وقد تحيّر الى فنتك ،
معتزاً بل معتزاً ^(١٠) ، واستقبلها ضاحكاً مفترّاً ^(١١) ، وهش لها برّاً ،
وإن كان من الخجل مُصَفِّراً ؛ وليس بأول من هجر ^(١٢) ، في التماس

(١) البلالة : البلب ، وبقية الشيء .

(٢) العلالة : ما يتمل به ، وبقية الشيء .

(٣) السلالة : الولد .

(٤) الرهان : المسابقة على الخيل وغيرها .

(٥) النجيب ، من الإبل وغيرها : الكريم الحبيب .

(٦) الترهات : أصلها الطرق الصغار غير الجادة ؛ ثم استعيرت للأباطيل والأقاويل الخالية
من الطائل .

(٧) يريد أنه متجرد مما يعوقه عن الجري .

(٨) السبح : الجري .

(٩) كبّح الفرس وغيره : منعه من سرعة السير .

(١٠) المعتز : الفقير ، والمعتز للمعروف من غير أن يسأل .

(١١) المفتر : الذي يضحك ضحكاً حسناً ؛ يبدي أسنانه من غير تهقبة .

(١٢) هجر : هذى في كلامه وخطأ .

الوَصلُ مَمَّنْ هَجَرَ^(١) او بعثَ التَّمْرَ الى هَجَرَ^(٢) ؛ وايُّ نَسَبٍ
 بيني اليوم وبين زُخْرُفِ الكَلَامِ ، واجالَةَ جِيادِ الأَقلامِ ، في مُحَاوَرَةِ
 الأَعلامِ ؛ بعد ان حالَ الجَرِيضُ^(٣) ، دونَ القَرِيضِ ، وشُغِلَ المَرِيضُ
 عن التَّعْرِيضِ ؛^(٤) وَغَلَبَ حَتَّى الكَسَلِ ، ونصَلتِ الشَّعْرَاتُ البِيضُ
 كَأَنها الأَسَلُ ؛ تَرُوعُ بِرُقْطِ^(٥) الحَيَّاتِ ، سِرْبِ الحَيَاةِ^(٦) ،
 وتَطْرُقُ بذواتِ الغُرَرِ والشِّيَاتِ ، عند البِياتِ^(٧) ؛ والشَّيْبُ المَوْتِ
 العَاجِلِ ، واذا أبيضَ زرعَ صَبَّحَتِه المَناجِلِ ، والمُعْتَبَرِ الآجِلِ ؛ واذا
 اشتغَلَ الشَّيْخُ بغيرِ مَعادِهِ ، حُكِمَ في الظَّاهِرِ بِإبعادِهِ وأَسْرَهُ في مَلِكَةِ
 عادِهِ ؛ فَاغْضِ اِبْقاكَ اللهُ واسْمَحْ ، لِمَن قَصَرَ عَنِ المَطْمَحِ ، وبالعَيْنِ
 الكَلِيلَةَ فالْمَحِ ؛ واغْتَمِ لِباسِ ثوبِ الثَّوَابِ ، واشفِ بعضَ الجوى

(١) من الهجر ضد الوصل .

(٢) هجر : بلد بالبحرين ؛ وفيها ورد المثل الذي يشير اليه ابن الخطيب : « كجباب التمر الى هجر » ، أو « كبضع التمر الى هجر » . مجمع الأمثال ٦٦/٢ .

(٣) الجريض : من الجرض ، وهو الريق يفص به . والقريض : الشعر . وحال : منع . وهو مثل يضرب للأمر كان مقدوراً عليه ، فحال دون القدرة عليه مانع . وفي معنى المثل خلاف تجده في التاج ، واللسان ، (جرض) مجمع الأمثال ١٣٩/١ .

(٤) التعريض : اطعام العرّاضة ؛ وهي الهدية يهديها القادم من سفر . وكأنه يريد أن المريض قد شغله مرضه عن الالتفات لهذا .

(٥) جمع رقطاء ؛ وهي الحية في لونها سواد وبياض .

(٦) وقف على « الحياة » بالثناء مراعاة للسجع . وهي لفة جائزة وان كانت غير راجعة ، وتد تحذروا عنها في باب « الوقف » من كتب النحو .

(٧) جمع غرة ؛ وهي البياض في جبهة الفرس . والشيات : جمع شية ؛ وهي سواد في بياض ، أو بياض في سواد ، والبيات : الايقاع بالعدو ليلا ، من غير أن يعلم فيؤخذ غرة . والكلام على شبيه الشعرات البيض بأفراس في لونها سواد وبياض .

بالجواب .

تولأك الله فيما استضفت وملكك ، ولا بعدت ولا هلكت ،
 وكان لك أية سلكك ؛ ووسمك في السعادة بأوضح السمات ، وأتاح
 لقاءك من قبل المات ؛ والسلامُ الكريم يعتمد حلال^(١) ولدي ، وساكن
 خلدي ، بل اخي وإن اتقيت عتبه^(٢) وسيدي ، ورحمة الله وبركاته ،
 من محبيه المشتاق اليه محمد بن عبد الله بن الخطيب ، في الرابع عشر
 من شهر ربيع الثاني ، من عام سبعين وسبعائة .

وكان تقدم منه قبل هذه الرسالة كتاب آخر الي ، بعث به
 الي تلمسان ، فتأخر وصوله ، حتى بعث به الأخ يحيى عند وفادته
 على السلطان ، ونص الكتاب :

يا سيدي إجلالاً واعتداداً ، واخي ودّاً واعتقاداً ، ومحلّ
 ولدي شفقةً سكت مني فؤادا . طال علي انقطاع انبائك ، واختفاء
 اخبارك ؛ فرجوت أن تبليغ النية هذا المكتوب اليك ، وتخرق
 به الموانع دونك ؛ وإن كنت في مباتتك كالعاطش الذي لا يروى ،
 والآكل الذي لا يشبع ، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية ، والعوائد
 المألوفة ؛ فانا الآن — بعد إنهاء التحية المطلوبة الرّوض بماء الدّموع ،

(١) الحلال ، جمع : بيوت الناس ، واحدها حلة .

(٢) العتب . لومك انسانا على اساءة كانت له اليك .

وتقرير الشوق للزيم^(١)، وشكوى العباد الأليم، وسؤال إناحة
 القرب قبل الفوت من الله مُيسّر العسير، ومُقرّب البعيد، - أسأل
 عن أحوالك سؤال أبعد الناس محالا^(٢) في مجال الخلوص لك،
 وأشدّهم حرصاً على اتّصال سعادتك؛ وقد أتصل بي في هذه الأيام
 ما جري به القدر من تنويع الحال لديك، واستقرارك ببسكرة
 محلّ الغبطة بك، باللجأ الى تلك الرياسة الزكية، الكريمة الأب،
 الشهيرة الفضل، المعروفة القدر على البعد؛ حرسها الله ملجأ للفضلاء،
 ومُخيماً لرجال العلياء، ومهبطاً لطيب الثناء، بجوله وقوته؛ وما كل
 وقت تُتاح فيه السلامة؛ فاحمدوا الله على الخلاص، وقاربوا^(٣) في
 معاملة الآمال، وضمنوا^(٤) بتلك الذات الفاضلة عن المشاق، واجتولوا
 بها عن المتالف؛ فطلوب الحريص على الدنيا خسيس، والموانع
 الحافظة حجة، والحاصل حسرة، وبأقلّ السعي تحصل حالة العافية،
 والعاقل لا يستنكح الاستغراق فيما آخره الموت، إنهاينال منه
 الضروري؛ ومثلك لا يُعجزه - مع التماس العافية - أضعاف ما
 يُزجي^(٥) به العمر من المأكل والمشرب، وحسبنا الله.

(١) الزيم . الكثير الزوم .

(٢) كذا وفي نسخة . مجال والمجال بالكسر . التدبير ، وعلى رواية ، « مجال » تكون
 مضدراً ، والمجال الثاني . مكان الجولان .

(٣) اقتصدوا ، واتركوا القلوع .

(٤) ضمنوا . اجتولوا .

(٥) يزجي : يتبلغ بالقوت القليل ، ويجتريء به .

وان تَشَوَّفَتْ لِحَالِ الْمُحِبِّ تِلْكَ السِّيَادَةِ الْفِئْدَةَ ، وَالْبُنُوَّةَ
الْبَرَّةَ ؛ فَالْحَالُ الْحَالُ ، مِنْ جَعَلَ الزِّمَامَ بِيَدِ الْقَدْرِ ، وَالسَّيْرَ فِي مَهْمَعِ
الْفَقْلَةِ ، وَالسَّبْحَ فِي تَيَّارِ الشَّوَاغِلِ ؛ وَمِنْ وِرَاءِ الْأُمُورِ غَيْبٌ مُحْجُوبٌ ،
وَأَمَلٌ مُكْتُوبٌ ، نُؤَمِّلُ فِيهِ عَادَةَ السَّتْرِ مِنَ اللَّهِ ؛ إِلَّا أَنْ الضَّجَرَ
الَّذِي تَعَلَّمُونَهُ ، خَفَّضَهُ الْيَأْسَ لَمَّا عَجَزَتِ الْحِيلَةُ ، وَأَعْوَزَ الْمَنَاصَ ^(١)
وَسُدَّتْ الْمَذَاهِبَ ؛ وَالشَّأْنُ الْيَوْمَ شَأْنُ النَّاسِ فِيمَا يَقْرُبُ مِنَ الْإِعْتِدَالِ .

وفيا يرجع الى السلطان - تولاه الله - ، على أضعاف ما باشر
سَيِّدِي مِنَ الْأَغْيَاءِ ^(٢) فِي الْبِرِّ وَوَصَلَ سَبَبَ الْإِلْتِحَامِ ، وَالِاشْتِمَالِ ،
مَعَ الْإِسْتِقْلَالِ ، وَمَا يُنْتِجُهُ مُتَعَوِّدَ الظُّهُورِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

وفيا يرجع الى الأحباب والأولاد ، فعلى ما عَلِمْتِ ؛ إِلَّا أَنْ
الشَّوْقَ نُخَامِرِ الْقُلُوبِ ، وَتَصَوُّرَ اللَّيْقَاءِ ، مِمَّا يُزْهِدُ فِي الْوَطَنِ وَحَاضِرِ
النِّعَمِ . سَنَى ^(٣) اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى أَفْضَلِ حَالٍ ، وَيَسِّرُهُ قَبْلَ الْإِرْتِحَالِ ،
عَنْ دَارِ الْمِحَالِ ^(٤) .

وفيا يرجع الى الوطن ؛ فَأَحْلَامُ النَّائِمِ خِصْبًا ، وَهُدْنَةُ وَظُهُورًا
عَلَى الْعَدُوِّ ؛ وَحَسْبُكَ بِإِفْتِتَاحِ حِصْنِ آشَرَ ، وَبُرْغُهُ الْقَاطِعَةُ بَيْنَ بِلَادِ

(١) المناص: المهرب ، والممجا ، والمفر .

(٢) أغيا الرجل : بلغ الغاية في الشرف .

(٣) سنى: سهل .

(٤) المحال . العذاب ، والمهلك .

الاسلام ، ووبّذة ، والعارين وبيغهُ وحصن السّهلة ، في عام ؛ ثم دخول بلد إطريرة بنت إشيّلية عنوة ، والاستيلاء على ما يُناهزُ خمسة آلاف من السّبي ؛ ثم فتح دار الملك ، ولِدَة قُرطبة : مدينة جِيان عنوة في اليوم الأغرّ المحجّل ، وقتل المُقاتلة ، وسبى الذرّيّة ، وتعفيّة الآثار حتى لا يُدَمَّ بها العُمران ؛ ثم افتتاح مدينة أبْدَة التي تلفُ جِيان في مُلاءتها : دار التّجر ، والرّفاهية ، والبني الحافلة ، والنعم الثّرة ؛ نسأل الله - جلّ وعلا - ان يصل عوائدَ نصره ، ولا يقطعَ عنّا سبب رحمة ، وان ينفع بما اعان عليه من السعي في ذلك والاعانة عليه .

ولم يتزيّد من الحوادث الا ما علمتم ؛ من أخذ الله لنسمة السوء ، وخبث الارض ، المسلوب من أثر الخير : عُمر بن عبدالله ، وتحكم شرّ الميته في نفسه ، وإتيان النكال على حاشيته ، والاستئصال على ذاته ؛ والاضطراب مُستول على الوطن بعده ؛ الا انّ الغرب على علاته لا يرجّحه غيرُه .

والأندلس اليوم شيخُ غزاتها الامير عبدالرحمن بن علي بن السلطان ابي علي ، بعد وفاة الشيخ ابي الحسن : علي بن بدر الدين رحمه الله . وقد استقرّ بها - بعد انصراف - سيدي الامير المذكور ، والوزير مسعود بن رحو وعمر بن عثمان بن سليمان .

والسلطان مَلِكُ النصارى بِطَرُوهُ ، قد عاد الى مُلْكَةِ بِإِشْبِيلِيَّةِ ،
واخوه مُجَلِبٌ عَلَيْهِ بِمَشْتَالَةِ ، وَقُرْطَبَةُ مُخَالَفَةٌ عَلَيْهِ ، قَائِمَةٌ بِطَائِفَةٍ مِنْ
كِبَارِ النصارى الخائفين على انفسِهِمْ ، داعين لِأَخِيهِ ؛ وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ
اغْتَنَمُوا هُبُوبَ هَذِهِ الرِّيحِ . وَخَرَقَ اللهُ لَهُمْ عَوَائِدَ فِي بَابِ الظُّهُورِ
وَالخَيْرِ ، لَمْ تَكُنْ تَخْطُرُ فِي الْآمَالِ . وَقَدْ تَلَقَّبَ السُّلْطَانُ — أَيَّدَهُ اللهُ —
بِعَتَبِ هَذِهِ الْمُدَكِّفَاتِ ، بِ« الْغَنِيِّ بِاللَّهِ » وَصَدَرَتْ عَنْهُ مُخَاطَبَاتٌ ،
بِمُجْمَلِ الْفُتُوحِ وَمَقْصَلِهَا ، يَعْظُمُ الْحِرْصُ عَلَى إِيْصَالِهَا إِلَى تِلْكَ الْفَضَائِلِ
لَوْ أَمَكَّنَ .

وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْكَمَالُ مِنْ شُغْلِ الْوَقْتِ ؛
فَصَدَرَتْ تَقَايِيدٌ ، وَتَصَانِيفٌ ، يُقَالُ فِيهَا — بَعْدَمَا أَعْمَلْتَهُ تِلْكَ السِّيَادَةَ
مِنَ الْانْصِرَافِ — يَا إِبْرَاهِيمَ ، وَلَا إِبْرَاهِيمَ الْيَوْمَ ^(١) .

مِنْهَا : أَنْ كِتَابًا رُفِعَ إِلَى السُّلْطَانِ فِي الْحَبَّةِ ^(٢) ، مِنْ تَصْنِيفِ
ابْنِ أَبِي حَجَلَةَ ^(٣) مِنَ الْمَشَارِقَةِ ، أَشَارَ الْأَصْحَابُ بِمَعَارَضَتِهِ ،
فَعَارَضْتَهُ ، وَجَعَلْتُ الْمَوْضُوعَ أَشْرَفَ ، وَهُوَ مَحَبَّةُ اللهِ ؛ فَجَاءَ

(١) لعله يشير الى قوله تعالى : « يا ابراهيم اعرض عن هذا » . آية ٧٦ من سورة هود .

(٢) هو ديوان الصبابة . وقد طبع بمر سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣) أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني ٧٢٥ - ٧٧٦ أديب
صوفي ، كان يكثر الخط على أهل « الوحدة » ، وخصوصا ابن الفارض . وعارض جميع قصائده
بقصائد نبوية ، وامتنح بسبب ذلك . الدرر الكامنة ١/٣٢٩ .

كتاباً^(١) ادعى الأصحاب غرابته . وقد ووجه الى المشرق صُحبة كتاب : « تاريخ غرناطة » ، وغيره من تألّيفي . وتُعرف تحببسه بخانقاه سعيد السعداء^(٢) من مصر ؛ وانثال الناس عليه ، وهو في لطافة الأغراض ، يتكلّف اغراض المشاركة . من مُلحه :

سَلِّمَتْ لِمِصْرَ فِي الْهَوَى مِنْ بَلَدٍ يَهْدِيهِ هَوَاؤُهُ لَدَى اسْتِنشَاقِهِ ؟
مَنْ يُنْكِرُ دَعْوَايَ فُطِّلَ عَنِّي لَهُ تَكْفِي امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مِنْ عُشَّاقِهِ ؟

والله يرزقُ الاعانة في انتساخه وتوجيهه . وصدر عني جزءٌ سَمَّيْتُهُ : « الْغَيْرَةُ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرَةِ » وجزءٌ سَمَّيْتُهُ : « حَمَلُ الْجُمْهُورِ عَلَى السَّنَنِ الْمَشْهُورِ »^(٣) . والاكبابُ على اختصار كتاب « التَّاجِ »^(٤)

(١) يتحدث ابن الخطيب عن كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ وهو كتاب يقل أن يوجد نظيره بين كتب التصوف في المكتبة الاسلامية ؛ تحدث فيه عن مذاهب الصوفية ، وعن طريقة أهل « الوحدة المطلقة » ، فنسب أعداؤه الى القول بالحلول ، فكان هذا الكتاب من أسباب محنته التي انتهت بقتله رحمه الله . ولا تزال المكتبة الاسلامية تحتفظ بنسخ من هذا الكتاب ؛ وفي المجموعة النفيسة من المخطوطات التي صورتها جامعة الدول العربية ثلاث نسخ خطية منه .

(٢) والخانقاه ، بالكاف ، وبالقف ، وترسم « خانكه » أيضا : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة ، والأعمال الصالحة . وهذه الخانقاه كانت داراً للأستاذ قنبر ، أو « عنبر » أحد خدام القصر أيام الفاطميين ، وكان يلقب بسعيد السعداء .

وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشامية ، وجعل لها أوقافا ، ولذلك تعرف أيضاً بالخانقاه الصالحية ؛ وهي أول خانقاه عملت بصر . خطط المقرئ في ٢٧٣/٤ - ٢٧٥ .

(٣) ذكر هذان الكتابات في نفع الطيب في ٢٤٤/٤ في عداد مؤلفات ابن الخطيب .

(٤) هو كتاب « تاج اللغة ، وصحاح العربية » ، وقد طبع ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ ولم يذكر صاحب نفع الطيب هذا المختصر - الذي يتحدث عنه ابن الخطيب هنا - بين مؤلفات ابن الخطيب .

للجَوْهَرِيَّ (١) ، وَرَدَّ حَجْمَهُ إِلَى مِقْدَارِ الْخُمْسِ ، مَعَ حِفْظِ تَرْتِيبِهِ السَّهْلِ ؛ وَاللَّهُ الْمَعِينُ عَلَى مَشْغَلَةٍ تُقَطَّعُ بِهَا هَذِهِ الْبُرْهَةُ الْقَرِيبَةُ الْبِدَاءَةَ مِنَ التَّيَمَّةِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

والمطلوب المثاربة على تعريف يصل من تلك السيادة والبنوة ؛ إذ لا يتعذر وجود قافل من حج ، أو لاحق بتلمسان . يبعثها السيد الشريف منها ؛ فالنفس شديدة التعطش ، والقلوب قد بلغت من الشوق والاستطلاع - الحناجر . والله أسأل أن يصون في البعد وديعتي منك لديه ، ويليسك العافية ، ويخلصك وإياي من الورطة ، ويحملنا أجمعين على الجادة ، ويختم لنا بالسعادة . والسلام الكريم عوداً على بدء ، ورحمة الله وبركاته ، من المحب المتشوق ، الذَّاكِرُ الدَّاعِي ، ابن الخطيب . في الثاني من جمادى الأولى من عام تسعة وستين وسبعمائة . انتهى .

فأجبتُه عن هذه المخاطبات ، وتفاديتُ من السجع خشية المُصَوِّرِ عَنْ مُسَاجَلَتِهِ ، فلم يكن شأوه يُلْحَقُ . ونصُّ الجواب :
سَيِّدِي مَجْدًا وَعُلُوًّا ، وَوَاحِدِي ذُخْرًا مَرْجُوًّا ، وَمَحَلِّ وَالَّذِي

(١) هو أبو نصر اسميل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٦٣ أو ٤٠٠ . شافه العرب العاربة في ديارهم بالبادية ، بعدما درس اللغة بالعراق رواية ودارية ، ثم التزم ذكر الصحيح مما سمع ، فكتب « الصحاح » . وهو لهذا كله لا يزال يتبوأ المكانة الأولى بين معاصم العربية . تاج العروس . ٢٣ / ٢١١

برآً وَحُؤاً . ما زال الشوقُ — مذ نأت بي وبك الدار ، واستحکم
 بيننا البعاد — يُرعي سَمعي أنباءك ، ويُخيلُ اليَّ من أيدي الرياح
 تناولَ رسائلِك ، حتَّى وَردَ كتابُك العزيزِ على استِطلاع ، وعَهْدِ
 غيرِ مُضاع ، ووَدِّ ذي أجناس وأنواع ؛ فنَشَر بقلبي مَيت السُّلُو ،
 وحشَرَ أنواعَ المَسرَّات ، وقد للقاتك زِناد الأمل ؛ ومن الله أسأل
 الامتاع بك قبلَ الفوت على ما يرضيك ، ويُسني أمانِيَّ وأمانيك .
 وحَيَّه حَيَّةَ الهائم ، لِمواقع الغائم ، والمدلج^(١) ، للصباح المتبليج^(٢)
 وأملٌ على مُقترَح الأولياء ، خصوصاً فيك ؛ من اطمئنان الحَال ،
 وحُسن القَرار ، وذهاب الهواجس ، وسكون النَّفْرة ؛ وعموماً في
 الدَّولة ، من رُسوخ القَدَم ، وهبوبِ رِيح النَّصر ، والظهور على
 عَدوِّ الله ، باستِرجاع الحُصُون التي استنقذوها^(٣) في اعتلال الدَّولة ،
 وتخریب المعادل التي هي قواعد النَّصرانيَّة ؛ غريبةٌ لا تثبت الا في
 الحُلم ، وآية من آيات الله . وَإِنَّ خَبيمةَ هذا الفتح في طَي العُصور
 السَّابقة ، الى هذه المدة الكريمة ، لدليلٌ على عناية الله بتلك الذات
 الشريفة ، حين ظَهَرَتْ على يَدِها خوارقُ العادة ، وما تجددَ آخر
 الأيام من مُعجِزاتِ المِلة ؛ ولكم فيها — والحمد لله — بحُسن

(١) أدلج : سار الليل . كنه .

(٢) تبلج الصبح : أسفر وأضاء ؛ وصبح أبلج : مشرق مضي .

(٣) استنقذوها : أنقذوها ، وخلصوها .

التدبير، ويُمن النّقيبة^(١)، من حميد الأثر، وخالِد الذّكر، طراز^(٢) في حلة الخِلافة النّصيرية، وتاج في مفرق الوزارة. كتبها الله لكم فيما يرضاه من عباده.

ووقفت عليه الأشراف من أهل هذا الفطر المحروس؛ وأذعته في الملاء سروراً بعزّ الاسلام، وإظهاراً لنعمة الله، واستطراداً لذكر الدولة المولوية بما تستحقّه من طيب الثناء، واليتامس الدعاء، والحديث بنعمتها، والاشادة بفضلها على الدول السالفة والخالفة وتقدّمها، فانشرحت الصدور حياءً،^(٣) وامتلات القلوب إجلالاً وتعظيماً، وحسنت الآثار اعتقاداً ودعواً.

وكان كتاب سيدي لشرف تلك الدولة عنواناً، ولِمَاعساه يستعجم من لغتي في مناقبها ترجماناً^(٤)؛ زاده الله من فضله، وأمتع المسلمين ببقائه. وبشّته^(٥) شكوى الغريب، من السوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفاً، للتجافي عن مهاد الأمن، والتقويض عن دار العزّ، بين المولى المنعم، والسيد الكريم،

(١) يقال: رجل ميمون النقيبة؛ أي منجح الفعال، مظفر المطاب.

(٢) الطراز: ما ينسج من الثياب للسلطان، وعلم التوب.

(٣) حاي الرجل حياءً: نصره، واختصه، ومال إليه.

(٤) ترجمان: بفتح التاء والجيم، وضم التاء والجيم، وفتح التاء وضم الجيم.

(٥) وبشّته؛ معطوف على قوله قبل: «وحية تحية الهام». وبالأصول: «وبشّته»

بالادغام؛ وأعله تحريف.

والبلد الطيب، والايخوان البررة؛ «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»^(١). وإن تشوّفت السيادة الكريمة الى الحال، فعلى ما علمتُم، سيراً مع الأمل، ومغالبَةً للأيام على الحظّ، وإقطاعاً للعقلة جانب العمر.

هَلْ نَافِعِي وَالْجَدُّ فِي صَبَبٍ مَرِّي مَعَ الْآمَالِ فِي صَعَدٍ

رَجَعَ اللهُ بِنَا إِلَيْهِ. وَلَعَلَّ فِي عِظَتِكُمُ النَّافِعَةُ، شِفَاءٌ هَذَا الدَّاءِ الْعِيَاءِ، إِنْ شَاءَ اللهُ؛ عَلَى أَنْ لُطِفَ اللهُ مُصَاحِبَ، وَجَوَارُ هَذِهِ الرِّيَاسَةِ الْمُزْنِيَّةِ - وَحَسْبُكَ بِهَا عِلْمِيَّةٌ - عَصْمَةٌ وَافِيَةٌ^(٢) صَرَفَتْ وَجْهَ الْقَصْدِ إِلَى ذَخِيرَتِي الَّتِي كُنْتُ أَعْتَدُهَا مِنْهُمْ كَمَا عَلِمْتُمْ، عَلَى حِينِ تَقَاؤْمِ الْحَطْبِ، وَتَلَوْنِ الدَّهْرِ، وَالْأَفْلَاتِ مِنْ مَظَانِ النَّكْبَةِ، وَقَدْ رَتَعْتُ^(٣) حَوْلَهَا؛ بَعْدَ مَا جَرَّتْهُ الْحَادِثَةُ بِمَهْلِكِ السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ عَلَى يَدِ ابْنِ عَمِّهِ، قَرِيبِهِ فِي الْمَلِكِ، وَقَسِيمِهِ فِي النَّسَبِ؛ وَالتِّيَاثِ الْجَاهِ^(٤)، وَتَغْيِيرِ السُّلْطَانِ، وَاعْتِقَالِ الْأَخِ الْمَخْلُفِ، وَالْيَأْسِ مِنْهُ، لَوْلَا تَكْيِيفُ اللهِ فِي نَجَاتِهِ^(٥)، وَالْعَيْثُ بَعْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ وَالْوَلَدِ، وَاغْتِصَابِ

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٢) وافية : بالغة تمام الكمال .

(٣) طفت بها ، ودرت حولها؛ وفي الحديث: «انه من يرتع حول الحمى يوشك أن يجناطه» .

(٤) الثاث : تلتطخ ؛ والتياث : عطف على « ما جرته » .

(٥) النجاة : النجاة ، وهو المصدر الممدود لنجأ ، والمقصود نجاة

الضِّياع^(١) المُقْتَنَة من بقايا ما مَتَمَّت به الدولة النَّصْرِيَّة - أَبْقَاهَا اللهُ - من النِّعْمَة ؛ فَآوَى إِلَى الْوَكْرِ^(٢) ، وَسَاهَمَ فِي الْحَادِثِ ، وَأَشْرَكَ فِي آجَاهِ وَالْمَالِ ، وَأَعَانَ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَطَلَبَ الْوِتْرَ^(٣) ، حَتَّى رَأَى الدَّهْرُ مَكَانِي ، وَأَمَلَ الْمُلُوكُ اسْتِخْلَاصِي ، وَتَجَارَوْا فِي إِنْجَافِي . وَاللَّهُ الْخَلِصُ مِنْ عِقَالِ الْأَمَالِ ، وَالْمُرْشِدُ إِلَى نَبْذِ هَذِهِ الْحُطُوظِ الْمَوْرِطَةِ .

وَأَنْبَأَنِي سَيِّدِي بِمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنَ التَّصَانِيفِ الْغَرِيبَةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْبَلِغَةِ ، فِي هَذِهِ الْفُتُوحَاتِ الْجَلِيلَةِ ، وَبِوُدِّي لَوْ وَقَعَ الْإِتِّحَافُ بِهَا أَوْ بَعْضُهَا ، فَلَقَدْ عَاوَدَنِي النَّدَمُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ .

وَأَمَّا أَخْبَارُ هَذَا الْفُطْرِ فَلَا زِيَادَةَ عَلَى مَا عَلِمْتُمْ ؛ مِنْ اسْتِقْرَارِ السُّلْطَانِ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ السُّلْطَانِ أَبِي يَمِينِ بْنِ تُونِسَاسٍ مُسْتَبَدِّاً بِأَمْرِهِ بِالْحَضْرَةِ بَعْدَ مَهْلِكِ شَيْخِ الْمُوَحِّدِينَ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ تَائِفٍ أَيْ كَيْنِ الْقَائِمِ بِأَمْرِهِ ، رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ ؛ مُضَائِقاً فِي جَبَابَةِ الْوَطَنِ ، وَأَحْكَامِهِ بِالْعَرَبِ الْمُسْتَظْهِرِينَ بِدَعْوَتِهِ ، مُصَانِعاً لَهُمْ بِوَفْرِهِ عَلَى أَمَانِ الرَّعَايَا وَالسَّابِلَةِ^(٤) ، لَوْ أَمَكَّنَ ، حَسَنَ السِّيَاسَةِ جَهْدَ الْوَقْتِ ؛ وَمِنْ انْتِظَامِ بِيحَابَةِ مَحَلِّ

(١) جمع ضيعة ؛ وهي المقار .

(٢) وكر الطائر ؛ عشه ، والكلام على التشبيه .

(٣) طلب التآزر .

(٤) السابطة الطريق .

دولتنا في أمر صاحب قسنطينة وبوثة، غلابياً كما علمتم، مُحَمَّلاً الدولة بصرامته وقوة شكيمته فوق طوقها، من الاستبداد والضرب على أيدي المستغلين من الأعراب، مُنتَقِض الطاعة أكثر أوقاته لذلك، إلا ما شمل البلاد من تغلب العرب، ونقص الأرض من الأطراف والوسط، وخمود ذبال الدول في كل جهة؛ وكلُّ بدايةٍ فإلى تمام.

وأما أخبار المغرب الأقصى والأدنى فلديكم طلعُهُ^(١)، وأما المشرق فأخبار الحاج هذه السنة من اختلاله، وانتقاض سلطانه، وانتزاع الجفافة على كوسيه، وفساد المصانع والسقايات المعدة لو فد الله وحاج بيته، ما يسخن العين ويطيل البث، حتى لزعموا أن الهيعة^(٢) اتصلت بالقاهرة أياما، وكثر الهرج^(٣) في طرقها وأسواقها، لما وقع بين أسندمر^(٤) المتغلب بعد يلبغا^(٥) الخاسكي، وبين سلطانه ظاهر القلعة، من الجولة التي كانت دائرتها عليه، أجلت عن زهاء الخمسمائة قتلى، من حاشية وموالي يلبغا؛ وتقبض على الباقين، فأودع منهم السجون، وصلب الكثير، وقتل أسندمر في

(١) يقال أطلعته طلعي؛ أي بثته سري.

(٢) الهيعة: كل ما أفرغك من صوت؛ والصوت الشديد.

(٣) الهرج: الفتنة والاختلاط.

(٤) في نسخة: سندمر بدون ألف في أوله؛ وهو الأمير الداوادر الكبير في دولة الأنرف.

كان دويداراً عند يلبغا الناصري ثم ثار عليه. مات بالاسكندرية سنة ٧٦٩.

(٥) يلبغا بن عبد الله الخاسكي (الخاسكي) نسبة إلى خواص السلطان.

مُحَبَّسَهُ ، وَأَثَقِي زِمَامَ الدَّوْلَةِ بِيَدِ كَبِيرٍ مِنْ مَوَالِي السُّلْطَانِ ، فِقَامَ بِهَا
مُسْتَبَدًّا ، وَقَادَهَا مُسْتَقْلَا ؛ وَبِيَدِ اللَّهِ تَصَارِيفَ الْأُمُورِ ، وَمُظَاهَرَ
الْغُيُوبِ ، جَلَّ وَعَلَا .

وَرَغْبَتِي مِنْ سَيِّدِي - أَبْقَاهُ اللَّهُ - أَنْ لَا يُغِيبَ خُطَابَهُ عَنِّي ، مَتَى
أَمَكُنْ ، يَصِلُ بِذَلِكَ مِنِّي الْجَمَّةُ ، وَأَنْ يُقَبِّلَ عَنِّي أَقْدَامَ تِلْكَ الذَّاتِ
الْمَوْلُويَةِ ، وَيَعْرِفَهُ بِمَا عِنْدِي مِنَ التَّشْيِيعِ لِسُلْطَانِهِ ، وَالشُّكْرِ لِنِعْمَتِهِ ،
وَأَنْ تُنْهَوَا عَنِّي لِحَاشِيَتِهِ وَأَهْلَ اخْتِصَاصِهِ ، التَّحِيَّةَ ، الْمُخْتَلَسَةَ مِنْ
أَنْفَاسِ الرِّيَاضِ ، كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ .

وَقَدْ تَأَدَّى مِنِّي إِلَى حَضْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ خُطَابٌ عَلَى يَدِ الْحَاجِّ نَافِعٍ -
سَلَّمَ اللَّهُ - تَنَاوَلَهُ مِنَ الْأَخِ يَحْيَى عِنْدَ لِقَائِهِ إِيَّاهُ بِتَلَمَّسَانِ ، بِحَضْرَةِ
السُّلْطَانِ أَبِي حَمُو - أَيْدَهُ اللَّهُ - فَرَبَّمَا يَصِلُ ، وَسَيِّدِي يُوَضِّحُ مِنْ ثَنَائِي
وَدُعَائِي مَا عَجَزَ عَنْهُ الْكِتَابُ . وَاللَّهُ يُبْقِيكُمْ ذُخْرًا لِلْمَسْلَمِينَ ، وَمَلَاذًا
لِلْأَمَلِينَ بِفَضْلِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ لَازَبَكُمْ مِنَ السَّادَةِ الْأَوْلَادِ
الْمُنَاجِبِ ، وَالْأَهْلِ وَالْحَاشِيَةِ وَالْأَصْحَابِ ، مِنَ الْمُحِبِّ فِيكُمْ ، الْمُعْتَدِّ
بِكُمْ شَعِيَّةَ فَضْلِكُمْ ، ابْنَ خَلْدُونَ ؛ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

عنوانه : سَيِّدِي وَعِمَادِي ، وَرَبُّ الصَّنَائِعِ وَالْأَيَادِي ، وَالْفَضَائِلِ
الْكَرِيمَةِ الْخَوَاتِمِ وَالْمُبَادِي ، إِمَامَ الْأُمَّةِ ، عَلَمَ الْأُمَّةِ ، تَاجَ الْمَلَّةِ ، فَخْرَ
الْعُلَمَاءِ الْجَلَّةِ ، عِمَادَ الْإِسْلَامِ ، مُصْطَفَى الْمُلُوكِ الْكِرَامِ ، نُكْتَةَ

الدُّوْل ، كَافِلَ اَلْاِمَامَةِ ، تَاجَ الدُّوْل ، اَثِيْرَ اَللّٰهِ ، وِلِيَّ اَمِيْرِ الْمُسْلِمِيْنَ
 الْغَنِيَّ بِاللّٰهِ - اَيْدَهَ اَللّٰهِ - الْوَزِيْرُ اَبُو عَبْدِ اَللّٰهِ بْنِ الْخَطِيْبِ ، اَبْقَاهُ اَللّٰهُ ،
 وَتَوَلَّى عَنِ الْمُسْلِمِيْنَ جَزَاءَهُ .

وكتب إلي من غرناطة :

يا سيدي ووليي ، وأخي ومحلّ ولدي ! كان الله لكم حيث
 كنتم ، ولا أعدمكم لطفه وعنايته . لو كان مستقرّكم بحيث
 يتأتى لي إليه ترديد رسول ، أو إيفاد متطّلع ، أو توجيه نائب ،
 لرجعت على نفسي باللائمة في اغفال حقكم ؛ ولكن العذر ما علمتم ؛
 واحمدوا الله على الاستقرار في كهف ذلك الفاضل الذي وسعكم
 كنفه . وشمّلكم فضله شكر الله حسبه الذي لم يخلف ، وشهرته
 التي لم تكذب .

وإني اغتنمت سفر هذا الشيخ ، وافد الحرمين بمجموع الفتوح^(١) ،
 في إيصال كتابي هذا ، وبودي لو وقفتكم على ما لديه من البضاعة
 التي أنتم رئيسها وصدورها ، فيكون لكم في ذلك بعض أنس ، وربما تأدّى
 ذلك في بعضه مما لم يختم عليه ، وظاهر الأمور نُحْيِلُ عليه في تعريفكم

(١) كانت عادتهم أن يبعثوا بأخبار فتوحهم ، وتوسعاتهم التي تحصل في كل سنة ، وفي عهد كل
 ملك - يبعثون بها إلى الملوك المعاصرين عامة ، وإلى الحرم النبوي بوجه خاص . وإلى هذا يشير
 ابن الخطيب .

بها ، وأما البواطن فمما لا يتأتى كثرةً وضمنانةً ، وأخصّ ، بالصاد ، ما أظن تشوقكم إليه حالي . فاعلموا أنني قد بلغ بي الماء الزبي (١) ، واستولى عليّ سوء المزاج المنحرف ، وتوالت الأمراض ، وأعوزَ العلاج ، لبقا السبب ، والعجز عن دفعه . وهي هذه المداخلة جعل الله العاقبة فيها الى خير ؛ ولم أترك وجهاً من وجوه الحيلة الا بذلته . فما أغنى ذلك عني شيئاً ، ولولا أنني بعدكم شغلتُ الفكر بهذر التأليف ، مع الزهد . وبعْد العهد . وعدم الاماع بمطالعة الكتب . لم يتمشّح حالي من طريق فساد الفكر الى هذا الحد ؛ وآخر ما صدر عني كُنْش (٢) سميته باستنزال اللطف الموجود ، في أسر الوجود (٣) . أمليته في هذه الأيام التي أقيمُ بها رسم النياحة عن السلطان في سفره الى الجهاد . بوُدِّي لو وقفتم عليه . وعلى كتابي في المحبّة ؛ وعسى الله أن يبسرّ ذلك .

ومع هذا كله . والله ما قصرتُ في الحرص على ايصال مكاتوبِ اليكم . إما من جهة أخيكم . أو من جهة السيّد الشريف أبي عبد الله .

(١) الزبي : جمع زبية ؛ وهي الراية التي لا يعلوها الماء ، فاذا بلغها السيل كان جارفاً مجحفاً . وهو مثل يضرب للشيء يتجاوز الحد ويتفاهم . مجمع الأمثال ٦٠/١ ، لسان (زبي) .
(٢) الكُنْش : الدفتر تقيد فيه الفوائد والشوارد للضبط ، يستعمله المغاربة كثيراً الى اليوم . تاج العروس ٣٤٧/٤ .

(٣) ذكره المقرئ في نفع الطيب ٣٤٤/٤ ، بين مؤلفات ابن الخطيب بهذا العنوان : « استنزال اللطف الموجود ، في سر الوجود » .

حتى من المغرب اذا سمعتُ الرُّكْبَ يَتَوَجَّهَ مِنْهُ فَلَا أُدْرِي هَلْ
بَلَغَكُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا . وَالْأَحْوَالُ كُلُّهَا عَلَى مَا تَرَكَتُمْوهَا عَلَيْهِ .
وَأَحْبَابُكُمْ بِخَيْرٍ . عَلَى مَا عَلِمْتُمْ مِنَ الشُّوقِ وَالتَّشْوُفِ وَالْإِرْتِمَاضِ ^(١)
لِمَفَارَقَتِكُمْ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وَاللَّهُ يُحْفَظُكُمْ . وَيَكُونُ لَكُمْ . وَيَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ ؛ وَالسَّلَامُ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ . مِنَ الْمُحِبِّ الْوَاحِشِ الشَّيْخِ ابْنِ الْخَطِيبِ . فِي غُرَّةِ
رَبِيعِ الثَّانِي مِنْ عَامِ أَحَدَى وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

وَبِإِطْنِهِ مُدْرَجَةٌ نَصُّهَا :

سَيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ . اسْتَقَرَّ بِتِلْمِيسَانَ . فِي سَبِيلِ تَقْلُوبِ
وَمُطَاوَعَةِ مَزَاجِ تَعْرِفُونَهُ . صَاحِبُنَا الْمُقَدَّمِ فِي صِنْعَةِ الطَّبِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ
الشُّثُورِيِّ . فَإِنْ اتَّصَلْ بِكُمْ فَأَعِينُوهُ عَلَى مَا يَقِفُ عَلَيْهِ اخْتِيَارُهُ وَهَذَا
لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى مِثْلِكُمْ ^(٢) .

عنوانه : — سَيِّدِي وَمَحَلُّ أَخِي . الْفَقِيهَ الْجَلِيلِ . الصِّدْرَ الْكَبِيرِ
الْمَعْظَمِ . الرَّئِيسَ الْحَاجِبِ . الْعَالِمَ الْفَاضِلَ الْوَزِيرَ ابْنَ خَلْدُونَ . وَصَلَّ
اللَّهُ سَعْدَهُ . وَحَرَّسَ مَجْدَهُ . بِمَنِّهِ .

(١) الارتماض : الحزن لمفارقتكم .

(٢) كذا في الأصول ؛ ومقتضى السياق أن ما يختاره لا يحتاج في اختياره الى مثلكم .

وإنما طولتُ بذِكر هذه المحاطبات . وإن كانت فيما يظهر .
خارجةً عن غرض الكتاب . لأن فيها كثيراً من أخباري . وشرح
حالي . فيستوفي ذلك منها من يتشوف إليه من المطالعين للكتاب .
ثم إن السلطان أبا حمّو لم يزل مُعتمِلاً في الاجلاب على بجاية .
واستئلاف قبائل رياح^(١) لذلك . ومعوّلاً على مُشايعتي فيه . ووَصَلَ
يده مع ذلك بالسلطان أبي اسحاق ابن السلطان أبي بكر صاحب تونس
من بني أبي حفص ، لما كان بينه وبين أبي العباس صاحب بجاية
وقسنطينة ، وهو ابن أخيه ، من العداوة التي تقتضيها مقاسمة
النسب والملك ، وكان يوفد رسله عليه في كل وقت ، ويمرون بي ،
وأنا ببسكرة ، فأؤكد الوصلة^(٢) بمخاطبة كل منها ؛ وكان أبو زيان
ابن عم السلطان أبي حمّو بعد إجماله عن بجاية ، واختلال معسكره ،
قد سار في أثره الى تلمسان ، وأجاب على نواحيها ، فلم يظفر بشيء ،
وعاد الى بلاد حصين ، فأقام بينهم ، واشتملوا عليه ، ونجم^(٣) النفاق
في سائر أعمال المغرب الأوسط ، واختلف أحياء زغبة على السلطان ،
وانتبد الكثير عنه الى القفر . ولم يزل يستألفهم حتى اجتمع له الكثير

(١) هم من أعز قبائل بني هلال ، وأكثرهم جمعا . أطال ابن خلدون القول في قبائل
رياح ، وما كان لها من الأحداث في المغرب في المجلد السادس من العبر .

(٢) الوصلة بالضم : الاتصال ، وكل ما اتصل بشيء ، فالذي بينها وصلة .

(٣) نجم : طلع وظهر .

منهم ؛ فخرج في عساكره في مُنتَصَفِ تسع وستين الي حُصَيْنِ وأبي زِيَانِ ، واعتصموا بجبل تَيْطَرِي ، وبعث اليّ في استنفار الدَّوَاوِدَةَ للأخذ بِحُجُزَتِهِمْ^(١) من جهة الصحراء ، وكتب يستدعي أشياخهم : يعقوب بن علي كبير أولاد محمد ، وعثمان بن يوسف كبير أولاد سِبَاعِ بن يحيى . وكتب الي ابن مَزْنِي قعيدة وطنهم بِإِمْدَادِهِمْ في ذلك ، فأمدَّهم ؛ وسرنا مغرّين إليه ، حتى نزلنا القَطْفَا قِبْلَةَ تَيْطَرِي ، وقد أحاط السلطان به من جانب التل ، علي أنه اذا فرغ من شأنهم سار معنا الي بِجَايَةِ وبلغ الخبر الي صاحب بِجَايَةِ أبي العباس ؛ فاستألف من بقي من قبائل رياح ، وعسكر بطرف ثنية القِصَابِ المُفْضِيَةِ الي المَسِيلَةِ . وبينما نحن علي ذلك اجتمع المخالفون من زُغْبَةِ : وهم خالد بن عامر كبير بني عامر واولاد عريف كبراء سُويْدِ ، ونهضوا الينا بمكاننا من القَطْفَا ؛ فاجفلت احياء الدَّوَاوِدَةَ ، وتأخرنا الي المَسِيلَةِ ، ثم الي الزَّابِ . وسارت زُغْبَةُ الي تَيْطَرِي ، واجتمعوا مع ابي زِيَانِ وحُصَيْنِ ، وهجموا علي معسكر السلطان ابي حَمُو فقتلوه ورجع منهزماً الي تِلْمَسَانَ . ولم يزل من بعد ذلك علي استتلاف زُغْبَةَ ورياح يؤمّل الظَّمَّرِ بوطنه وابن عمه ، والكرّة علي بِجَايَةِ عاماً فعاماً ، وأنا علي حال في مُشَايَعَتِهِ ، وإيلاف ما بينه وبين الدَّوَاوِدَةَ ، والسلطان ابي اسحق صاحب تونس ، وابنه خالد من بعده . ثم دخلت زغبة في طاعته ،

(١) الحجة «بالضم» : معقد الإزار .

واجتمعوا على خدمته ، ونهض من تلمسان لشفاء نفسه من حصين
وبجاية ، وذلك في أخريات احدى وسبعين ؛ فوفدت عليه بطائفة من
الدواودة اولاد عثمان بن يوسف بن سليمان لنشارف احواله ، ونطالعه
بما يرسم لهم في خدمته ، فلقيناه بالبطحاء . وضرب لنا موعداً بالجزائر ،
انصرف به العرب الى اهليهم ، وتخلّفت بعدهم لقضاء بعض الاغراض
واللحاق بهم ، وصلت به عيد الفطر على البطحاء ، وخطبت به ،
وأنشدته عند انصرافه من المصلّى أهنيه بالعيد ، وأحرّضه :

هذي الديارُ فجيّهنّ صباحاً وقف المطايا^(١) بينهنّ^(٢) طلاحاً^(٣)
لا تسأل الأطلالَ إن لم ترّوها عبراتُ عينكَ واكفاً ممتاحاً
فلقد أخذنَ على جفونكَ موثقاً أن لا يُرينَ مع العبادِ شحاحاً
إيه عن الحيّ الجميعِ وربّما طربَ الفؤادَ لذكركَهم فارتاحاً
.....

ومنازلٍ للظاعنين استعجمت حُزناً وكانت بالشُرورِ فصاحاً
وهي طويلة ، ولم يبق في حفظي منها الا هذا .

وسنما نحن في ذلك ، بلغ الخبر بان السلطان عبد العزيز^(٤) صاحب

(١) جمع مطية : وهي الناقة أو البعير يمتطي ظهره .

(٢) جمع طلع « بالكسر » : وهي الناقة أضمرها الكلال ، وأجدها الإعياء من طول السفر .

(٣) هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس بن أبي سالم المريني ولي سنة ٧٩٦ بعد وفاة ابيه

أبي سالم ، وتوفي سنة ٧٩٩ . الاستقصا ١٤١/٣ وما بعدها .

المغرب الأقصى من بني مرين ، قد استولى على جبل عامر بن محمد الهنتاتي بمرأ أكش ، وكان آخذاً بِمُخَنَّقِهِ^(١) منذُ حَوْل . وساقه الي فاسَ فقتله بالعذاب ، وانه عازم على النهوض الي تِلِمَّسان ، لما سَلَفَ من السلطان ابي حمو اثناء حصار السلطان عبدالعزيز لعامر في جَبَلِه ، من الاجلاب على ثغور المغرب ؛ ولحين وصول هذا الخبر ؛ اضرب السلطان ابو حمو عن ذلك الشأن الذي كان فيه ، وكرراً راجعاً الي تِلِمَّسان . واخذ في اسباب الخروج الي الصحراء ، مع شيعة بني عامر من احياء زُغَبَة ، فاستألف ، وجمَع ، وشدَّ الرِّحال ، وقضى عيد الاضحى ؛ وطلبتُ منه الاذن في الانصراف الي الاندلس ، لتعذر الوجهة الي بلاد رِيَّاح ، وقد اظلم الجوُّ بالفتنة ، وانقطعت السُّبُل ؛ فاذن لي ، وحملي رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر . وانصرفت الي المرسي بهنّين ؛ وجاءه الخبر بنزول صاحب المغرب تازا في عساكره ؛ فأجفل بعدي من تلمسان ، ذاهباً الي الصحراء عن طريق البطحاء . وتعذر عليّ ركوب البحر من هُنَّين فأقصرت ، وتأدّى الخبر الي السلطان عبدالعزيز بأني مقيم بهنّين ، وان معي وديمةً احتملتها الي صاحب الأندلس ، تحيّل ذلك بعض الفوارة ، فكتب الي السلطان عبدالعزيز فأنفذ من وقته سرية^(٢) من تازا تعترضني لاسترجاع تلك

(١) الخنق : موضع الخنق من العنق .

(٢) السرية : قطعة من الجيش ؛ ويقال : خير سرايا أربع مئة .

الوديمة ، واستمرّ هو الى تلمسان ؛ ووافتنى السرية بهنين وكشفوا
 الخبر فلم يقفوا على صحته ، وحملوني الى السلطان ، فاقيته قريباً من
 تلمسان ، واستكشفتني عن ذلك الخبر ، فاعلمته بيقينه . وعنفني على
 مفارقة دارهم ، فاعتذرت له بما كان من عمر بن عبد الله المستبدّ عليهم ،
 وشهد لي كبير مجلسه ، وولي أبيه وابن وليه : ونزمار بن عريف ،
 ووزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة ؛ واحتفت اللطاف .
 وسألني في ذلك المجلس عن أمر بجاية ، وأفهمني أنه يروم تملكها ؛
 فهوئت عليه السبيل الى ذلك ، فسربّه ؛ وأقمت تلك الليلة في
 الاعتقال . ثم اطلقتني من الغد ، فعمدت الى رباط الشيخ الولي أبي
 مدّين ، ونزلت بجواره مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم لو تركت له .

هشايعة السلطان عبد العزيز صاحب المغرب

علي بن عبد الواد

ولما دخل السلطان عبد العزيز تلمسان ، واستولي عليها ، وبلغ
 خبره إلى أبي حمو وهو بالبطنجا ، فأجفل من هنالك ، وخرج في قومه
 وشيعته من بني عامر ، ذاهباً الى بلاد رياح ؛ فسرح السلطان وزيره
 أبا بكر بن غازي في العساكر لاتباعه . وجمع عليه احياء زغبة
 والمعقل باستئلاف وليه ونزمار وتدييره ؛ ثم أعمل السلطان نظره
 ورأى ان يقدمني أمامه الى بلاد رياح لأوطد أمره ، وأحلمهم على

مناصرته ، وشفاء نفسه من عدوه بما كان السلطان آنس مني من استتباع رياح ، وتصريفهم فيما أريده من مذاهب الطاعة . فاستدعاني من خلوتي بالعباد عند رباط الوالي أبي مدين^(١) . وأنا قد أخذت في تدريس العلم ، واعتزمت على الانقطاع ؛ فآنسني ، وقرّبي ، ودعاني الى ما ذهب اليه من ذلك ؛ فلم يسعني إلا إجابته . وخلع عليّ ، وحملني ؛ وكتب الى شيوخ الدواودة بامثال ما ألقيه إليهم من أوامره . وكتب الى يعقوب بن عليّ ، وابن مزنّني بمساعدتي على ذلك ، وأن يحاولوا على استخلاص أبي حمّو من بين أحياء بني عامر ، ويجولوه الى حيّ يعقوب بن عليّ ؛ فودعته وانصرفت في عاشوراء اثنين وسبعين ؛ فاحقت الوزير في عساكره وأحياء العرب من المعقل وزغبة على البطحاء . ولقيته ، ودفعت إليه كتاب السلطان ، وتقدمت أمامه . وشيعني ونزّمار يومئذ ، وأوصاني بأخيه محمّد . وقد كان أبو حمّو قبض عليه عند ما أحس منهم بالخلاف ، وأنهم يرومون الرحلة الى المغرب . وأخرجه معه من تلمسان مقيّدا ، واحتمله في معسكره ؛ فأكد عليّ ونزّمار يومئذ في المحاولة على استخلاصه بما أمكن . وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويّد يبدّرق^(٢) بي ويتقدّم الى أحياء حصين باخراج أبي زيّان من بينهم ؛ فسرنا جميعا ،

(١) أبو مدين : شعيب بن الحسن الأندلسي . صوفي شهير ، يعرف بأبي مدين العوث .

(٢) البدرقة ، بالذال المعجمة وبالمهملة أيضاً : الحفارة ؛ والبدرق : الحفير .

وانتهينا الى أحياءُ حُصَيْن . وأخبرهم فرح بن عيسى بوصية عمه
وَنَزَمَ مارَ إليهم ، فَنَبَذُوا الى أبي زِيَان عهده ، وبعثوا معه منهم من
أوصله الى بلاد رِيَاح . ونزل على أولادِ يَجِي بنِ علي بنِ سَبَاع ، وتوغلوا
به في القفر ، واستمرَّيتُ أنا ذاهباً الى بلاد رِيَاح ؛ فلما انتهيت الى
المَسِيلَةَ ألفتِ السلطانَ أبا حَمُوَ وأحياءَ رِيَاحٍ مُعسِكِرِينَ قريباً منها في
وطنِ أولادِ سَبَاع بنِ يَجِيٍّ مِنَ الدَّوَاوِدَةِ ، وقد تَسَاءَلُوا^(١) إليه ،
وبذلَ فيهم العطاءَ ليجتمعوا إليه . فلما سمعوا بمكاني بالمَسِيلَةَ ، جاؤوا
إليَّ فحملتهم على طاعة السلطان عبد العزيز ، وأوفدتُ أعيانهم
وشيوخهم على الوزير أبي بكر بن غازي ، فلقوه ببلاد الدِيَالِمِ عند
نهرِ وَاِصَل ؛ فأتوه طاعتهم ، ودعوه الى دخول بلادهم في اتباع
عدوه . ونهضَ معهم ، وتقدمتُ أنا من المَسِيلَةَ الى بَسْكَرَةَ ؛ فلقيتُ
بها يعقوب بن علي . واتفق هو وابنُ مُزَنِّي على طاعة السلطان ، وبعث
ابنه محمداً للقاء أبي حَمُوَ وأميرِ بني عامرِ خالد بن عامر ، يدعوهم الى
نزولِ وطنه ، والبُعدِ به عن بلاد السلطان عبد العزيز ؛ فوجده متديلاً
من المَسِيلَةَ الى الصَّحراء . ولقيه على الدَّوَسَنِ وباتَ ليلتهُ يعرضُ
عليهم التحولِ منِ وَطَنِ أولادِ سَبَاعِ الى وطنهم بشرقي الزَّابِ .
وأصبح يومه كذلك ، فما راعهم آخرَ النَّهارِ إلا انتشارَ العجاجِ خارجاً

(١) كذا ، وفي ب : تسايلاوا . ومعنى تسائل القوم : خرجوا متتابعين واحداً بعد واحد .
ومعنى تسايلا القوم : تواردوا من كل جهة .

إليهم من أفواه الثنينة؛ فركبوا يستشرفون، وإذا بهوادي الخبل طالعة من الثنينة، وعساكر بني مرين والمعقل وزغبة متتالية أمام الوزير أبي بكر بن غازي، قد دلّ بهم الطريق وفد أولاد سبّاع الذين بعثتهم من المسيلة؛ فلما أشرفوا على المخيم، أغاروا عليه مع غروب الشمس؛ فأجفل بنو عامر، وانتهب مخيم السلطان أبي حمو ورحائله وأمواله. ونجا بنفسه تحت الليل، وتمزق شمل ولده وحرمه، حتى خلصوا إليه بعد أيام، واجتمعوا بقصور مصاب^(١) من بلاد الصحراء، وامتلات أيدي العساكر والعرب من نهاهم. وانطلق محمد ابن عريف في تلك الهبة. أطلقه الموكلون به، وجاء إلى الوزير وأخيه ونزمار، وتلقوه بما يجب له. وأقام الوزير أبو بكر بن غازي على الدوسن أياما أراح فيها. وبعث إليه ابن مزني بطاعته، وأرغد له من الزاد والعلوفة^(٢)، وارتحل راجعاً إلى المغرب؛ وتخلّفت بعده أياما عند أهلي ببسكرة. ثم ارتحلت إلى السلطان في وفد عظيم من الدواودة، يقدهم أبو دينار أخو يعقوب بن علي، وجماعة من أعيانهم؛ فسأبنا الوزير إلى تلمسان، وقد منا على السلطان؛ فوسعنا من حباته^(٣) وتكرّمته، ونزله ما بعد العهد بمثله. ثم جاء من بعدنا

(١) رسم الصاد في النسخة الخطية على قاعدته، التي قررها صدر المقدمة، بصورة صاد وسطها زاي، إشارة إلى أن الصاد تنطق مشمة بالزاي.

(٢) العلوفة (بالضم) : العلف.

(٣) الحباء (بالكسر) : العطاء.

الوزير أبو بكر بن غازي على الصحراء ، بعد أن مرّ بقصور بني عامر^(١) هنالك فخر بها ، وكان يوم قدومه على السلطان يوماً مشهوداً ؛ وأذن بعدها لوفود الدواودة بالانصراف الى بلادهم . وقد كان ينتظر بهم قدوم الوزير ، ووليه ونزمار بن عريف ؛ فودعوه ، وبالغ في الاحسان إليهم ، وانصرفوا الى بلادهم . ثم أعمل نظره في إخراج أبي زيّان من بين أحياء الدواودة لما خشي من رجوعه الى حصين ؛ فوامرني في ذلك ، وأطلقني إليهم في محاولة انصرافه عنهم ، فانطلقت لذلك . وكان أحياء حصين قد توجسوا الخيفة من السلطان وتنكروا له ، وانصرفوا الى أهلهم بعد مرجعهم من غزاتهم مع الوزير ، وبادروا باستدعاء أبي زيّان من مكانه عند أولاد يحيى^(٢) بن علي ، وأنزلوه بينهم ؛ واشتملوا عليه ، وعادوا الى الخلاف الذي كانوا عليه أيام أبي حمّو ؛ واشتعل المغرب الأوسط ناراً . ونجم صبي من بيت الملك في مغراوة ، وهو حمزة بن علي بن راشد ؛ فر من معسكر الوزير ابن غازي أيام مقامه عليها فاستولى على شلف ، وبلاد قومه^(٣) . وبعث السلطان وزيره عمر بن مسعود^(٤) في العساكر

(١) كانت هذه القصور - كما يفهم من حديث ابن خلدون عنها - بالصحراء ، في جهة القبلة من الجبل المسمى بجبل راشد .

(٢) هم أولاد يحيى بن علي بن سباع من الدواودة .

(٣) يريد بلاد مغراوة ، ويأتي قوله الصريح في هذا .

(٤) هو عمر بن مسعود بن مندبل بن حمّامة .

لمنازلته ، وأعياد داؤه ؛ وانقطعت أنا ببسكرة ، وحال ذلك ما بيني وبين السلطان إلا بالكتاب والرسالة . وبلغني في تلك الأيام وأنا ببسكرة مفرئ الوزير ابن الخطيب من الأندلس ^(١) ، وقدمه على السلطان بتلمسان ؛ توّجس الحيفة من سلطانه ، بما كان له من الاستبداد عليه ، وكثرة السعاية من البطانة فيه ؛ فأعمل الرحلة الي الثغور المغربية لمطالعتها بإذن سلطانه . فلما حاذى جبل الفتح ^(٢) قُتل الفرضة ^(٣) ، دَخَلَ الي الجبل ، وبیده عهد السلطان عبد العزيز الي القائد هنالك بقوله . وأجاز البحر من حينه الي سبتة ، وسار الي السلطان بتلمسان ، وقدم عليها في يومٍ مشهود . وتلقاه السلطان من الخطوة والتقريب وإدراة النعم بما لا يُعهد مثله . وكتب إلي من تلمسان يُعرفني بخبره ، ويُلم ببعض العتاب علي ما بلغه من حديثي الأول بالأندلس . ولم يحضرنني الآن كتابه ؛ فكان جوابي عنه ما نصه :

الحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولا راداً لما قضاه الله .

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي ، والعروة الوثقى التي اعتلقتها

(١) قد فصل ابن خلدون الحديث عن مفرئ ابن الخطيب ، وقدمه الي تلمسان ، وبين الدواعي السياسية التي دفعت الي الفرار في المجلد السابع من العبر .
 (٢) بريد جبل طارق . وقد تقدم ذكره ويسمى جبل الفتح ؛ سماه بذلك عبد المؤمن بن علي عاهل الدولة الموحدية - حين نزل به فاصداً بلاد الأندلس للجهاد .
 (٣) فرضة البحر (بالضم) : محط السفن .

يَدِي^(١)، أُسَلِّمَ عَلَيْكُمْ سَلَامَ الْقُدُومِ، عَلَى الْمَخْدُومِ، وَالْحُضُوعِ،
 لِلْمَلِكِ الْمَتَّبِعِ، لِأَبْلِ أَحْيِيكُمْ تَحِيَّةَ الْمَشُوقِ، لِلْمَعْشُوقِ،
 وَالْمُدْلِجِ^(٢)، لِلصَّبَاحِ الْمَتَّبِلِجِ^(٣)، وَاقْرَرِ مَا أَنْتُمْ أَعْلَمَ بِصَحِيحِ عَقْدِي
 فِيهِ مِنْ حُجِّي لَكُمْ، وَمَعْرِفَتِي بِمِقْدَارِكُمْ، وَذَهَابِي إِلَى أَعْيُنِ الْغَايَاتِ فِي
 تَعْظِيمِكُمْ، وَالشَّنَاءِ عَلَيْكُمْ، وَالْإِشَادَةِ فِي الْإِفَاقِ بِمَنَاقِبِكُمْ،
 دَيْدَنًا^(٤) مَعْرُوفًا، وَسَجِيَّةً^(٥) رَاسِخَةً، يَعْلَمُ اللَّهُ وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا؛
 وَبِهَذَا كَمَا فِي عِلْمِكُمْ قَسَمًا^(٦) مَا اخْتَلَفَ لِي فِيهِ أَوْلُ وَآخِرُ، وَلَا شَاهِدُ
 وَلَا غَائِبُ. وَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِي، وَأَكْبَرُ شَهَادَةً^(٧) فِي خَفَايَا ضَمِيرِي.
 وَلَوْ كُنْتُ ذَاكَ، فَقَدْ سَلَفَ مِنْ حَقُوقِكُمْ، وَجَمِيلُ أَخْذِكُمْ، وَاجْتِلَابُ
 الْحِظِّ - لَوْ هَيَّأَهُ الْقَدَرُ - بِمَسَاعِيِكُمْ، وَإِثَارِي بِالْمَكَانِ مِنْ سُلْطَانِكُمْ،
 وَدَوْلَتِكُمْ، مَا يَسْتَلِينَ مَعَاظِفَ الْقُلُوبِ^(٨)، وَيَسْتَلُّ سَخَائِمَ

(١) اعتلق الشيء، وبه: احبه؛ كتعلقه، وتعلق به.

(٢) أدلج: سار الليل كله، أو جزءاً منه.

(٣) تبلج الصبح: أسفر وضاء.

(٤) الديدن: العادة.

(٥) السجية: الخلق.

(٦) الكلام على معنى: «وبهذا، كما في علمكم، أقسم قسماً الخ».

(٧) الشهادة: الحضور؛ وليس يبعد أن يكون أصل الكلام: «وأكبر شهادة بما في خفايا

ضميري»، فسقطت كلمة «بما» من الأصول.

(٨) استلان الشيء: ألانه. (أساس). ومعاظف القلوب: مثانيها؛ ومن كلامهم:

«رزقك الله عيشاً تلين لك مثانيه ومعاظفه». يربد: أسديت الي من خيرك ما من شأنه أن يصل

إلى أعماق القلوب. (وأظن اللسان) ثنى).

الهواجس^(١) ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة^(٢) ، أو إحقاق ظن^(٣) ؛ ولو تعلق بقلب ساق حرّ ذرّة^(٤) وذرّة^(٤) ، فحاش الله أن يقدح في الخلوص^(٥) لكم ، أو يرجح سوابقكم^(٦) ، إنما هو خبيثة الفؤاد الى الحشر أو اللقاء . ووالله وجميع ما يقسم به ، ما أطلع على مستكّنه مني غير صديقي وصديقكم الملابس - كان - لي ولكم الحكيم الفاضل العليم أبي عبد الله الشّجوري أعزه الله . نفثة^(٧) مصدر ، ومبائة^(٧) خلوص ، إذ أنا أعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان ، واضمحلال أمره ، من إجماع الأمر على الرحلة إليكم ، والخفوف^(٨) الى حاضرة البحر للاجازه الى عدوتكم ، تعرضت فيها للتهم ، ووقفت بمجال الظنون ، حتى تورطت في الهلكة بما ارتفع عني مما لم آتته ، ولا طويت العقد عليه ، لولا حلم مولانا الخليفة ، وحسن رأيه في وثبات بصيرته ، لكنت

(١) السخائم : الصفات ، والموجدة في النفس . والهواجس : الخواطر .

(٢) أحاشيكم : انزهكم . واستشعار النبوة : اضمارها . والنبوة الجفوة .

(٣) يقول : اني احلكم ان تصدقوا في الظنون ، فتحولوها الى يقين ثابت وحقيقة واقعة .

(٤) كذا وفي ب : ساق حرزرزور . واظنه تحريف . وبإفني ذرّة من خير : قليل منه . ويجوز ان يكون المعنى : ان وفاتي لك بحيث لا تلحقه الريبة . ولو جاز ان يتعلق بقلب ساق حر ، وقد سار المتل بوفائه ، قليل جداً من عدم الوفاء ، فمعاذ الله ان يتعلق بقلي هذا القليل فيقدح في حفظي لهد الأخوة .

(٥) خلص الشيء خلوصاً : صار خالصاً ، وبستمهله ابن خلدون بمعنى الاخلاص .

(٦) جمع سابقة ؛ وهي ماتسبق الناس اليه . يريد : اياديكم التي اسديتموها الي .

(٧) المبائة : مصدر ميمي بمعنى البث ؛ وهو ان تظهر لغيرك ما عندك من سر .

(٨) الخفوف : سرعة السير .

في الهاكين الأولين ؛ كلُّ ذلك شوقاً الى لقاءكم ، وتمثلاً لانسكم ؛ فلا تظنوا بي الظنون ، ولا تُصدِّقوا في التوهّمات ، فأنا من علمتكم صداقةً ، وسداجةً ، وخلصاً ، واتفاقَ ظاهرٍ وباطنٍ ، أثبتُ الناس عهداً ، وأحفظهم ، غيباً وأعرفهم بوزن الاخوان ومزايا الفضلاء ؛ ولأمرٍ ما تأخر كتابي من تلمّسان فأني كنت أستشعر ممّن استضافني ريباً بخطاب سواه ، خصوصاً جهتكم ، لتقديم ما بين الدولتين من الاتحاد والمظاهرة واتصال اليد ، مع أن الرسول تردّد اليّ ، وأعلمني اهتمامكم واهتمام السلطان ، تولاه الله ، باستكشاف ما انبهم^(١) من حالي ؛ فلم اترك شيئاً مما اعلم تشوّفكم اليه الا وكشفت له قناعه ، وأمّنته على بلاغه^(٢) ؛ ولم ازل بعد انتياش^(٣) مولانا الخليفة لذمائي ، وجذبه بضبعي^(٤) ساججاً في تيار الشواغل كما علمتكم القاطعة حتى عن الفكر .

وسقطت الي بمحل خدمتي من هذه القاصية أخبارُ خلوصكم^(٥) الى المغرب ، قبل وصول راجلي^(٦) الى الحضرة ، غير جلية ولا ملتزمة

(١) كذا وفي ب : « أهبم » والصواب استهبم . تاج العروس (بهم) .

(٢) البلاغ : الابلاغ ؛ وفي القرآن : « فهل على الرسل الا البلاغ المدين » .

(٣) الانتياش : الانتقاد من الهلكة .

(٤) الضبع : العضد ؛ واخذ بضبعيه : اي بعضديه .

(٥) خلص اليه : وصل اليه .

(٦) الراجل : خلاف الفارس ؛ وهو من ليس له ظهر يركبه في سفره .

ولم يتعین مُلقِي العَصَى ولا مُسْتَقَرُّ النوى^(١)؛ فأرجيت^(٢) الخطاب
الى استجلالها؛ وأفدت^(٣) في كتابكم العزيز عليّ، الجاري على سنن
الفضل، ومذهب المجد، غريب ما كيّفه القَدَر من تنويع الحال
لديكم. وعجبت من تأتي^(٤) أملككم الشارد فيه كما كنا نستبعده
عند المفاوضة؛ فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدُّوَل
على احسن الوجوه، واجمل المَخارج الحميدة العواقب في الدنيا والدين،
العائدة بحسن المآل في المَخْلَف: من اهل وولد ومتاع واثر، بعد
ان رُضْتُمْ جَوح^(٥) الايام، وتوقّلتُم قُلَل^(٦) العزّ، وقُدْتُم الدنيا
بجذافيرها^(٧)، واخذتم بأفاق السماء على اهلها. وهنيئاً فقد نالت أنفسكم
التواقة ابعداً امانيتها، ثم تأقت الى ما عند الله؛ وأشهد لَمَّا^(٨) ألهتم

(١) مستقر النوى: مكان الإقامة؛ يقال: استقرت نواهم: أي اقاموا.

(٢) أرجيت، وارجأت: أخرت. يهمز ولا يهمز.

(٣) أفدت: استفدت.

(٤) تأتي الامر؛ تهباً؛ والتأتي التهيؤ.

(٥) راض الدابة: ذلها. وفرس جوح: عادته ان يركب رأسه فلا يشبه راكبه. يريد ذلتم

الايام التي لا تسير وفق رغبات الناس، وجعلتموها تسير حسب رغبتكم.

(٦) توقل في الجبل: صعد قبه؛ وقلة كل شيء: اعلاه.

(٧) بجذافيرها: بأسرها.

(٨) ادخل ابن خلدون لام الابتداء على «ما» النافية؛ وهو استعمال شاذ. وقد ورد

هذا الاستعمال في قول الشاعر.

لما اغفلت شكرك فاصطنعني فكيف ومن عطائك جل مالي

وقنوى النجاة في ذلك: أن «ما» النافية، أشبهت «ما» التي بمعنى الذي، فجاز أن تدخل

عليها لام الابتداء. شرح الرضي على الكافية ٣٥٦/٢.

للاعراض عن الدنيا ونزع اليد من حُطامها عند الاصحاب^(١) والاقبال، ونهى^(٢) الآمال، الا جذباً وعنايةً من الله، وحُباً؛ واذا اراد الله امرأيسر اسبابه.

واتصل بي ما كان من تحفّي^(٣) المثابة^(٤) المولوية بكم، واهتزاز الدولة لقدومكم؛ ومثل تلك الخلافة، أيدها الله، من يُثابر على المفاخر، ويستأثر بالاخير. وليت ذلك عند اقبالكم على الحظ، وأنسِكُم باجتلاب الامال، حتى يحسُن المتاع بكم، ويتجمل السرير الملوكي بمكانكم؛ فالظن ان هذا الباعث الذي هزَم الامال، ونَبَذ الحطوظ، وهَوَّن المُفارقَ العزيز، يسومكم الفرار الى الله، حتى يأخذ بيدكم إلى فضاء المُجاهدة^(٥)، ويستوي بكم على جودي^(٦).

(١) الإصحاب : الانقياد من بعد صعوبة . يعني : أعرضت عن الدنيا عند انقيادها لك واقبالها عليك .

(٢) جمع نهية ؛ وهي غاية الشيء .

(٣) التحفّي ، والاحتفاء : المبالغة في الإكرام .

(٤) المثابة : الموضع يثاب ، أي يرجع اليه مرة بعد أخرى . وفي القرآن : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس » .

(٥) الفضاء : المستوى من الارض المتسع . والمجاهدة : أن تحمل النفس على المشاق البدنية ، ومخالفة الهوى .

(٦) الجودي : جبل مطل على جزيرة ابن عمر ؛ وفي قول ابن خلدون هذا : اشارة الى ما يقال عند قول الله تعالى : « واستوت على الجودي » من رسو سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي عند الطوفان . معجم البلدان ١٦٢/٣ .

الرياضة^(١) . والله يهدي للتي هي اقوم . وكأني بالأقدام^(٢) نقلت ،
والبصائر^(٣) بإلهام الحق صقلت ، والمقامات^(٤) خلفت بعد ان
استقبلت^(٥) ، والعرفان شيمت انواره وبوارقه ، والوصول
انكشفت حقائقه لما ارتفعت عوائقه . واما حالي ، والظن بكم الاهتمام
بها ، والبحث عنها ، فغير خفية بالباب المولوي - اعلاه الله -
ومظهرها في طاعته ، ومصدرها عن امره ، وتصارينها في خدمته ،
والزعم اني قمت المقام المحمود في التشيع ، والانجاش^(٦) ، واستمالة
الكافة ، الى المناصحة ، ومخالطة القلوب للولاية ؛ وما يتشوقه بجدكم
ويتطلع اليه فضلكم واهتمامكم ، من خاصيتها في النفس والولد ،
فجهينة خبره^(٧) مؤدّي كتابي اليكم ، ناشئ . تأديبي ، وثمره تربيتي ؛
فسهلوا له الاذن ، وألينوا له جانب النجوى^(٨) ، حتى يؤدي ما عندي

(١) الرياضة : تهذيب الأخلاق النفسية .

(٢) جمع قدم ، وهي السابقة التي تثبت للعبد في علم الحق . ويكنى عنها بالقدم ، لان القدم آخر شيء في الصورة ، وهذه السابقة آخر ما يقرب به العبد من الحق .

(٣) جمع بصيرة ؛ وهي قوة للقلب المنور بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها ؛ وهي للقلب بمنزلة البصر للنفس .

(٤) جمع مقام ؛ وهو الموضع يقيم فيه السالك مشغلا بالرياضة استعدادا لتخليه بعد استيفائه رسومه .

(٥) يريد : استقبلتها ، فأدبت واجباتها ، وتجاوزتها فصارَتْ خلفك ؛ ذلك لأن عزمك الصادق ، سوف ينقلك من مقام الى مقام أعلى منه ، ويصل بك الى الله في الزمن القصير .

(٦) الانجاش : التصرف في الأمور .

(٧) يشير الى المثل : « عند جينة الخبر اليقين » . وفي مجمع الأمثال ١/٣٠٤ ، وتاج العروس :

« جفن » ، « جن » شرح واف لمعنى هذا المثل .

(٨) النجوى : ما ينفرد به الجماعة ، والاتنان (من حديث) سراً كان أو ظاهراً .

وما عندكم ، وخذوه بأعقاب الاحاديث أن يقفَ عند مبادئها ،
والتّمّنوه على ما تُحدّثون ، فليس بظنّين^(١) على السّر .

وتشوّفي لما يرجع به اليكم سيدي وصديقي وصديقكم المغرب
في المجد والفضل ، المساهم في الشدائد ، كبير المغرب ، وظهر
الدّولة ، ابو يحيى بن ابي مديّن - كان الله له - في شأن الولد
والمخلف ، تشوّف الصّديق لكم ، الضّنين^(٢) على الايام بقلامه الطّفر
من ذات يديكم ، فأطلعوني طلعَ ذلك^(٣) ولا يهّمكم ؛ فالفراق الواقع
حسن ، والسلطان كبير ، والأثر جميل ، والعدو الساعي قليل وحقير ،
والنيّة صالحة ، والعمل خالص ؛ ومن كان لله كان الله له .

واستطلاعُ الرياسة المزيّنة الكافلة - كافأ الله يدها البيضاء -
عني وعنكم الي مثله من احوالكم استطلاعُ من يسترجحُ وزانكم ،
ويشكرُ الزمانَ على ولادِهِ^(٤) لمثلكم .

وقد قررتُ لعلومه من مناقبكم ، وبُعد شأوكم ، وغريب
منحاكم ، ما شهدت به آثاركم الشّائعة ، الخالدة في الرسائل المتأدّية ،

(١) رجل ظنين : متهم . وهو ينظر الى قول الله تعالى : « وما هو على الغيب بظنين » (آية
٢٤ من سورة التّكوير) .
(٢) الضّنين : البخيل .
(٣) يقال : أطلعتني طلعي ؛ أي بشتته سري .
(٤) الولاد ، بالكسر : الولادة .

وعلى ألسنة الصادر والوارد من الكافة ؛ من تحمل الدولة ، واستقامة السياسة ؛ ووقفته على سلامكم ، وهو يُراجعكم بالتحية ، ويساهمكم بالدعاء ،

وسلامي على سيدي ، وفلذة كيدي^(١) ومحلّ ولدي ، الفقيه الزكي الصدر ابي الحسن نجلكم ، أعزّه الله ؛ وقد وقع مني موقع البشري حلّوله من الدولة بالمكان العزيز ، والرتبة النابيهة ، والله يلحفكم جميعاً رداء العافية والستر ويُمهد لكم محلّ الغبطة والأمن ، ويحفظ عليكم ما اسبغ من نعمته ، ويُجريكم على عوائد لطفه وعنايته ؛ والسلام الكريم يخصكم من الحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم : عبدالرحمن بن خلدون ، ورحمة الله وبركاته في يوم الفطر عام اثنين وسبعين وسبع مائة .

وكان بعث اليّ مع كتابه نسخة كتابه اليّ سلطاناه ابن الاحمر صاحب الاندلس ، عندما دخل جبل الفتح ، وصار اليّ إيالة^(٢) بيّ مَرين ، فخاطبه من هنالك بهذا الكتاب ، فرأيت ان أثبته هنا وان لم يكن من غرض التأليف لغرابته ، ونهايته في الجودة ، وان مثله لا يُهمل من مثل هذا الكتاب ، مع ما فيه من زيادة الاطلاع على

(١) قطعة كيدي .

(٢) الإيالة ، بكسر الهمزة : الولاية ؛ يقال : آل على القوم أولا ، وايالا ، وايالة بمعنى ولي

اخبار الدول في تفاصيل احوالها . ونصُّ الكتاب :

بَانُوا فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا يَبْكِي هَذِي رِكَابٌ ^(١) السَّرَى بِبِلَا شَكِّ
فِيْنَ ظُهُورِ الرِّكَابِ ^(٢) مُعْمَلَةٌ اِلَى بَطُونِ الرَّثْبِيِّ ^(٣) اِلَى الْفُذَكِ
تَصْدَعُ الشَّمْلَ مِثْلَمَا انْحَدَرَتْ اِلَى صُبُوبٍ ^(٤) جَوَاهِرُ السِّلَكِ
مِنَ النَّوَى ^(٥) قَبْلُ لَمْ اَزَلْ حَذِرًا هَذِي النَّوَى جَلَّ مَالِكُ الْمَلِكِ

مولاي . كان الله لكم وتولّى أمركم . أسلّم عليكم سلامَ
الوداع ، وأدعو الله في تيسير اللقاء والاجتماع ، بعد التفرُّق
والانصداع ؛ وأقرّر لديكم ان الانسان أسير الأقدار ، مسلوب
الاختيار ، متقلّب في حكم الخواطر والأفكار ، وان لا بد لكل اول من
آخر ، وان التفرُّق لَمَّا لَزِمَ كلَّ اثنين يموت او في حياة ، ولم يكن
منه بُد ، كان خيرُ انواعه الواقعة بين الاحباب ، ما وقع على الوجوه
الجميلة البريئة من الشرور .

ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل اليكم من المغرب بوآدكم

- (١) الركاب ، بكسر الراء : جمع ركب ؛ والسرى ، كهدي : سير عامة الليل .
(٢) الركاب ، ككتاب : الإبل التي تحمل القوم ، واحداها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها .
(٣) جمع ربوة ؛ وهي ما ارتفع من الأرض .
(٤) الصبوب ، بالضم : الموضع المنحدر ، كالصَّبْب ؛ وبه فسر وصف النبي صلى الله عليه وسلم :
« كأنما ينحط من صبب » .
(٥) النوى ، مؤنثة : الوجه الذي يتنويه المسافر من قرب أو بعد .

وَمُقَامُهُ لَدَيْكُمْ بِجَالٍ قَلْقٍ وَوُقْلَعَةٍ^(١) ، لَوْلَا تَعْلِيلُكُمْ ، وَوَعْدُكُمْ ،
 وَارْتِقَابُ اللَّطَائِفِ فِي تَقْلِيْبِ قَلْبِكُمْ ، وَقَطْعُ مَرَا حِلِ الْإِيَامِ حَرِيصًا
 عَلَى اسْتِكْمَالِ سِنِّكُمْ ، وَنَهْوُضُ وَ لِدِكُمْ وَاضْطِلَاعِكُمْ بِأَمْرِكُمْ ،
 وَتَمَكُّنُ هُدْنَةِ وَطَنِكُمْ ، وَ مَا تَحْمَلُ فِي ذَلِكَ مِنْ تَرْكِ غَرَضِهِ لِفَرْضِكُمْ ،
 وَ مَا اسْتَمَرَّ بِيَدِهِ مِنْ عَهودِكُمْ ، وَأَنَّ الْعَبْدَ الْآنَ لَمَّا تَسَبَّبَ لَكُمْ فِي
 الْهُدْنَةِ مِنْ بَعْدِ الظُّهُورِ وَالْعَزِّ ، وَنَجْحِ السَّعْيِ ، وَتَأْتَى لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ
 الصُّلْحُ ، وَ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَمْ يَبْقَ لَكُمْ بِالْأَنْدَلُسِ مُشَبِّبٌ مِنَ الْقِرَابَةِ ،
 وَتَحْرُكٌ لِمَطَالَعَةِ الشُّغُورِ الْغَرِيبَةِ ، وَ قَرُبٌ مِنْ فُرْضَةِ الْحِجَازِ^(٢) ، وَاتِّصَالُ
 الْأَرْضِ بِيَلَادِ الْمَشْرِقِ ، طَرَقَتْهُ الْإِفْكَارُ ، وَزَعَزَعَتْ صَبْرَهُ رِيَا حُ
 الْخَوَاطِرِ ، وَتَذَكَّرَ إِشْرَافَ الْعُرَى عَلَى التَّمَامِ ، وَعَوَاقِبَ الْإِسْتِغْرَاقِ ،
 وَسِيرَةَ الْفُضْلَاءِ ، عِنْدَ شُمُولِ الْبِيَاضِ ، فَفَلَبَّتْهُ حَالٌ شَدِيدَةٌ هَزَمَتْ
 التَّمَشُّقَ^(٣) بِالشَّمْلِ الْجَمِيعِ ، وَالْوَطَنِ الْمَلِيحِ ، وَالْجَاهِ الْكَبِيرِ ، وَالسُّلْطَانَ
 الْقَلِيلَ النَّظِيرِ ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى قَوْلِهِ : « مَوْتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا »^(٤)

فَإِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الْحَالُ الْمَرْجُوعُ مِنْ أَمْدَادِ اللَّهِ ، تَمَنَّقَلَّتِ الْإِقْدَامُ إِلَى
 أَمَامٍ ، وَقَوِيَّ التَّلَاقِ بِعُرْوَةِ اللَّهِ الْوُثْقَى ، وَإِنْ وَقَعَ الْعَجْزُ ، وَافْتَضَحَ

(١) يُقَالُ : مَكَانٌ قَلْعَةٌ (كَهْمَزَةٌ) : لَيْسَ بِمَسْتَوْتِنٍ ، وَهُوَ عَلَى قَلْعَةٍ : أَي رَحْلَةٍ .

(٢) يَرِيدُ الْمِيْنَاءَ الَّذِي يَجَازُ مِنْهُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنَ الْإَنْدَلُسِ ؛ وَهُوَ جَبَلُ طَارِقٍ .

(٣) التَّمَشُّقُ : الْإِزْمُومُ لِلشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ مَفَارِقَةٍ .

(٤) الْمَعْنَى : « مَوْتُوا اخْتِيَارًا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا اضْطِرَارًا ؛ وَالْمَقْصُودُ بِالْمَوْتِ الْاِخْتِيَارِيِّ :

تَرْكُ الشُّهُوتِ ، وَ مَا يَتْرَبُ عَلَيْهَا مِنْ الزَّلَاطِ وَالْغَفْلَاتِ » .

العزم ، فالله يعاملنا بلطفه . وهذا المرتكب مرامٌ صعبٌ ، لكن سهله عليّ أمور : منها ان الانصراف لَمَّا لم يكن منه بُد ، لم يتعين علي غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المحال . ومنها ان مولاي لو سمح لي في غرض الانصراف ، لم تكن لي قدرة علي موقف وداعه ، لا والله ! ولان الموت أسبق اليّ ؛ وكفى بهذه الوسيلة الحلية - التي يعرفها - وسيلة . ومنها حرصي علي ان يظهر صدق دعواي فيما كنت اهتف به ، وأظن اني لا أصدق . ومنها اغتنام المفارقة في زمن الامان ، والهدنة الطويلة ، والاستغناء ؛ اذ كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال . ومنها - وهو اقوى الاعذار - اني مهما لم أطق تمام هذا الامر ، او ضاق ذرعي به ، لعجز ، او مرض ، او خوف طريق ، او نفاد زاد ، او شوق غالب ، رجعت رجوع الاب الشفيق ، الي الولد البر الرضي ، اذ لم أخلف ورائي مانعاً من الرجوع ، من قول قبيح او فعل ؛ بل خلفت الوسائل المرعية ، والاثار الخالدة ، والسير الجميلة ؛ وانصرفت بقصد شريف فقت به اشياخي ، وكبار وطني ، واهل طوري ، وتركتكم علي اتم ما أَرْضاه ، مُثنياً عليكم ، داعياً لكم . وان فسح الله في الأمد ، وقضى الحاجة ، فأمل العودة الي ولدي وتربتي ،

وان قُطِعَ الاجل ، فارجو ان اكون مَمَّنْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ^(١) .

فإن كان تصرُّفي صواباً ، وجارياً على السداد ، فلا يُلامَ مَنْ
 اصاب ، وان كان عن حَمَقٍ ، وفساد عقل ، فلا يُلامَ من اختلَّ عقله ؛
 وفسد مزاجه ، بل يُعذَّر ، ويُشفَقُ عليه ، ويُرحَمُ ؛ وإن لم يُعْطَ
 مولايَ أمرِي حقَّه من العدل ، وُجِلِبَتِ الذُّنُوبُ ، وُحْشِرَتِ بَعْدِي
 العُيُوبُ ، فحياؤه وتبناُصفه يُنكرُ ذلك ، وَيَسْتَحْضِرُ الحَسَنَاتِ ؛ من
 التَّربِيَةِ والتَّعْلِيمِ وِخِدْمَةِ السَّلَفِ وتَحْلِيدِ الْإِتَارِ وتَسْمِيَةِ الْوَالِدِ وتَلْقِيبِ
 السُّلْطَانِ ، والارشاد للأعمال الصَّالِحَةِ والمُدَاخَلَةِ والملاَبَسَةِ ؛ لم يتخلَّلِ
 ذلك قَطُّ خِيَانَةً فِي مَالٍ وَلَا سِرًّا ، وَلَا غَشًّا فِي تَدْبِيرٍ . وَلَا تَعَلَّقَ بِهِ
 عَارٌ ، وَلَا كُدْرَةَ نَقْصٍ ، وَلَا حَمَلَ عَلَيْهِ خَوْفٌ مِنْكُمْ ، وَلَا طَمَعٌ فِيمَا
 بِيَدِكُمْ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ دَوَاعِي الرِّعْيِ وَالْوَصْلَةِ وَالإِبْقَاءِ ، ففيم
 تكون بين بني آدم ؟

وأنا قد رحلت . فلا أوصيكم بمال ، فهو عندي أهونُ مَثْرُوكٍ ؛
 ولا بولدٍ فهمُ رجالكم ، وُخْدَامِكُمْ ، وَمِمَّنْ يَحْرِصُ مِثْلَكُمْ عَلَى
 الاستكثار منهم ؛ ولا بعيالٍ ، فهي من مُرَبِّيَاتِ بَيْتِكُمْ ، وخواصِّ
 داركم ؛ إِنَّمَا أوصيكم بِحِطِّي العزیز - كان عليَّ بوطنِكُمْ ، وَهُوَ أَنْتُمْ ؛

(١) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
 فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » آيَةٌ ١٠٠ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ .

فأنا أوصيكم بكم ، فارعوني فيكم خاصة . أوصيكم بتقوى الله ، والعمل لقد ، وقبض عنان اللّٰهو في موطن الجدّ ، والحياء من الله الذي تحصر وأقال ، وأعاد النّعمة بعد زوالها^(١) « لينظر كيف تعملون »^(٢) . وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم ، من زاد طريق ، ومكافأة ، وإعانة ، زاداً سهلاً عليكم ، وهو أن تقولوا لي : غفر الله لك ما ضيّعت من حقي خطأ أو عمداً ؛ وإذا فعلتم ذلك فقد رضيتم .

واعلموا أيضاً على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر ، وعند كل ملك ؛ واعتماده ، وبره ، والسؤال عنه ، وذكره بالجميل ، والاذن في زيارته ، نجابة منكم ، وسنة ذرع^(٣) ودهاء ، فإنها كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ، ثم أقشعت^(٤) ، وتركت الأزهار تفوح ، والمحاسن تلوح ؛ ومثاله معكم مثال المرصعة أرضعت السياسة ، والتدبير الميمون ، ثم رقدتكم في مهد الصلح والأمان ، وغطتكم بقناع العافية ، وانصرفت الى الحمام تغسل اللبن والوضر ، وتعود ؛ فإن وجدت الرضيع نائماً

(١) يشير الى حادثة خلع ابن الاحمر عن ملكه ، والتجائه الى بني مرين بالمغرب لاعادة ملكه اليه .

(٢) اقتباس من الاية ١٢٩ من سورة الاعراف .

(٣) يقال : رجل واسع الذرع ، والذراع : اي متسع الخلق .

(٤) اقشعت السحاب : تفرق واقلع .

فَحَسَنَ ، أَوْ قَدْ انْتَبَهَ فَلَمْ تَتْرِكْهُ إِلَّا فِي حَدِّ الْفِطَامِ . وَتَخْتِمُ لَكُمْ هَذِهِ
الْفَزَارَةَ^(١) بِالْخَلْفِ الْأَكِيدِ : إِنْ مَا تَرَكْتُ لَكُمْ وَجَهَ نَصِيحَةٍ فِي
دِينٍ ، وَلَا فِي دُنْيَا ، إِلَّا وَقَدْ وَفَيْتَهَا لَكُمْ ، وَلَا فَارَقْتُكُمْ إِلَّا عَن
عَجْزٍ ؛ وَمَنْ ظَنَّ خِلَافَ هَذَا فَقَدْ ظَلَمَنِي وَظَلَمَكُمْ ؛ وَاللَّهُ يَرْشِدُكُمْ
وَيَتَوَلَّى أَمْرَكُمْ . وَنَقُولُ^(٢) : خَاطِرَكُمْ فِي رُكُوبِ الْبَحْرِ .

نُسخة الكتاب ، وفي طَيِّهَا هَذِهِ الْآيَاتُ :

صَابَ^(٣) مُزْنٌ^(٤) الدُّمُوعُ مِنْ جَفْنِ صَبِّكَ^(٥)

عِنْدَمَا اسْتَرَوَحَ^(٥) الصَّبَا مِنْ مَهَبِكَ
كَيْفَ يَسْلُو بِأَجَنَّتِي عَنْكَ قَلْبٌ كَانَ قَبْلَ الْوُجُودِ جُنَّ بِحُبِّكَ
ثُمَّ قُلْ كَيْفَ كَانَ بَعْدَ انْتِشَاءِ الرُّوحِ^(٦) مِنْ أَنْسِكَ الشَّهِيِّ وَقُرْبِكَ
لَمْ يَدْعُ بَيْتَكَ الْمَنِيْعَ حِمَاهُ لِسِوَاهُ إِلَّا إِلَى بَيْتِ رَبِّكَ
أَوَّلِ عُدْرِي الرِّضَا فَمَا جِئْتُ بِدَعَا دُمْتُ وَالْفَضْلُ وَالرِّضَا مِنْ دَائِكَ
وَإِذَا مَا ادَّعَيْتَ كَرِبًا لَفَقْدِي أَيْنَ كَرِبِي وَوَحْشَتِي مِنْ كَرِبِكَ

(١) الفزارة : الكثرة من كل شيء ؛ ويريد هنا : الكثرة من الكلام ليس تحتها طائل .

(٢) كذا ، وفي ب : ويعول .

(٣) صاب المطر ، يصب : تزل . والمزن : السحاب .

(٤) الصب ؛ العاشق .

(٥) استروح ؛ اشتم .

(٦) انتشاء الروح ؛ من انتشى بمعنى سكر .

وَلَدِي فِي ذَرَاكَ وَكَرِي فِي دَوْ حَاك^(١) لِحَدِي وَتُرْبَتِي فِي تُرْبِكَ
يَا زَمَانًا أَغْرَى الْفِرَاقَ بِشَمْلِي لَيْتِي أَهْبَتِي أَخَذْتُ^(٢) لِحَرْبِكَ
أَرَكْبَتِي صُرُوفَكَ الصَّعْبَ^(٣) حَتَّى جِئْتُ بِالْبَيْنِ وَهُوَ أَصْعَبُ صُعُوكَ
وَكُتِبَ آخِرَ النُّسخَةِ يُخَاطِبُنِي :

هَذَا مَا تَسَّرَ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْخَيْرَةِ لِي وَلَكُمْ مِنْ هَذَا الْخَبَاطِ^(٤)
الَّذِي لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْلِي الْكَمَالِ . رَدْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ، وَأَخْلَصَ
تَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ، وَصَرَفَ الرَّغْبَةَ إِلَى مَا لَدَيْهِ .

وَفِي طَيِّ النَّسخَةِ مُدْرَجَةٌ نَصُّهَا :

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ سَيَادَتِكُمْ . أَوْ نِسْكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنِّي أَثْنَاءَ هَذَا
الْوَاقِعِ مِمَّا اسْتَحْضَرَهُ الْوَلَدُ فِي الْوَقْتِ ؛ وَهُوَ يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا يَجِبُ
لَكُمْ ؛ وَقَدْ حَصَلَ مِنْ حَظْوَةِ هَذَا الْمَقَامِ الْكَرِيمِ عَلَى حَظٍّ وَافِرٍ ،
وَأَجْزَلِ إِحْسَانِهِ ، وَنُورَةِ بَجْرَائِيهِ ، وَاثْبِتِ الْفُرْسَانَ خَلْفَهُ . وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ أَنْتَهَى .

ثُمَّ اتَّصَلَ مُقَامِي بِبَسْكَرَةِ ، وَالْمَغْرَبِ الْأَوْسَطِ مُضْطَرِبٌ بِالْفِتْنَةِ

(١) فِي ذَرَاكَ : فِي كَنَفِكَ . وَكَرِ الطَّائِرُ : عَشَّة . دَوْحُ جَمْعُ دَوْحَةٍ وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْمُطَيِّبَةُ

(٢) أَخَذْتُ أَهْبَتِي : أَعَدَّعْتَهُ .

(٣) رَكِبَ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ : الْأَمْرَ الشَّدِيدَ وَالسَّهْلَ .

(٤) الْخَبَاطُ ، كَقُرَابٍ : دَاءٌ مِثْلُ الْجُنُونِ .

المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز، وحمزة بن علي بن راشد
ببلاد مغراوة، والوزير عمر بن مسعود في العساكر يحاصره بحصن
تاجمومت، وأبو زيان العبد الوادي ببلاد حصين، وهم
مشتملون عليه وقائمون بدعوتيه.

ثم سخط السلطان وزيره عمر بن مسعود، ونكر منه تقصيره
في أمر حمزة وأصحابه، فاستدعاه إلى تلمسان، وقبض عليه، وبعث
به إلى فاس معتقلاً، فحس هناك؛ وجه العساكر مع الوزير أبي
بكر بن غازي، فنهض إليه، وحاصره؛ ففر من الحصن، ولحق
بمليانة مجتازاً عليها، فأندر به عاملها فتقبض عليه، وسيق إلى
الوزير في جماعة من أصحابه، فضرب أعناقهم، وصلبهم عظة
ومزدجراً للأهل الفتنة.

ثم أوعز السلطان إلى الوزير بالسير إلى حصين، وأبي زيان، فسار
في العسكر، واستنفر أحياء العرب من زغبة فأوعبهم، ونهض إلى
حصين، فامتنعوا بجبل تطري، ونزل الوزير بعساكره ومن
معه من أحياء زغبة على الجبل تطري، من جهة التل، فأخذ
بمخنتهم، وكاتب السلطان أشياخ الدواودة من رياح بالمسير إلى
حصار تطري من جهة القبلة. وكاتب أحمد بن مزني صاحب
بسكرة بإمدادهم بأعطياتهم وكتب إليّ يأمرني بالسير بهم لذلك،

فاجتمعوا عليّ، وِسرتُ بهم أولَ سنةٍ أربعٍ وسبعين؛ حتى نزلنا بالقطفة^(١)، ووفدتُ، في جماعةٍ منهم، على الوزير بمكانه من حِصارِ تِيطَري، فحدَّ لهم حدودَ الخدمة، وشارطهم على الجزاء. ورجعنا إلى أحيائهم بالقطفة؛ فاشتدُّوا في حِصارِ الجبل، وأجأوهم بسواهم^(٢) وظهروهم^(٣) إلى قُنته، فهلك لهم الخفُّ والخافر^(٤)، وضاق ذرعهم^(٥) بالحِصار من كلِّ جانب؛ وراسل بعضهم في الطاعة خفيةً، فارتاب بعضهم من بعض، فانفضَّوا ليلاً من الجبل، وأبو زيَّان معهم، ذاهبين إلى السَّحراء؛ واستولى الوزيرُ على الجبل بما فيه من مخلفهم. ولما بلغوا ما آمنهم من القفر، نَبَدُوا إلى أبي زيَّان عهده^(٦). فلحقَّ بجبالِ غمَّرة، ووفد أعيانهم على السلطان عبد العزيز بتليمان، وفاءوا إلى طاعته، فتقبلَ فيبتهم، وأعادهم إلى أوطانهم. وتقدم إلى الوزيرُ — عن أمر السلطان — بالمسير مع أولادِ يحيى بن عليِّ بن سباع، للقُبض على أبي زيَّان في جبلِ غمَّرة، وفاءً بحق الطاعة، لأنَّ غمَّرة من رعاياهم؛ فضينا لذلك، فلم نجدده عندهم. وأخبرونا أنه ارتحل عنهم

(١) تقع القطفة شرقي مدينة مليانة؛ وفي بغية الرواد ٨١/٢: «... نزلوا القطفة من بلاد حصين، فرحل مشرقاً إليهم، ونزل مليانة».

(٢) السوام، والسائمة: الإبل الراعية والمال الراعي.

(٣) الظهر: الركاب التي تحمل الإنسان في السفر.

(٤) الخف للبعير والناتة، بمنزلة الخافر للفرس.

(٥) ضاق به ذرعاً: مثل الذي سقطت قوته دون بلوغ الأمر، والاعتذار عليه.

(٦) نَبَدَ العهد: نقضه، والقاه إلى من كان بينه وبينه.

الى بلد وار كلاً من مُدُن الصحراء ؛ فنزل على صاحبها ابي بكر بن سليمان ؛ فانصرفنا من هُنالك. ومضى اولاد يحيى بن علي الى احيائهم ، ورجعت انا الى اهلي ببسكرة ، وخاطبت السلطان بما وقع في ذلك ، وأقتُ مُنتظِراً أو امره حتى جاءني استدعاؤه الى حضرته ، فارتحلت اليه .

فضل الوزير ابن الخطيب

وكان الوزير ابن الخطيب آيةً من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والادب ؛ لا يسأجل مداه ^(١) ، ولا يُبتدى فيها بمثل هداه .

فمَّا كَتَبَ عن سلطانه الى سلطان تونس جواباً عن كتاب وصل اليه مضموباً بهديّة من الخيل والرقيق ، فراجعهم عنه بما نصّه الى آخره :

الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسه الأسلاف ووجب لحقها الجازم ، وفرضها اللازم الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحبية والاكناف ؛ فامتزأ جنا بعلائها ^(٢) المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وثناؤنا على مجدها

(١) المدى : الغاية .

(٢) العلاء : الشرف .

الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الافواف ^(١) ، لما زارها الغمام الوكاف ^(٢) ؛ ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به الى قرع أبواب السموات العُلا الاستشراف ^(٣) ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة ، وفواضها ^(٤) العَميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تُدرّكه الاوصاف ، وإن عذر في التقصير عن تيّل ذلك المرام الكبير الحق والانصاف . خلافة وجهة تعظيمنا اذ توجهت الوجوه ومن نُؤثره إذا أهمنا مازجوه ، ونُقديّه ونُبديّه ^(٥) اذا استُمنح المحقوب واستُدفع المكروه السلطان الكذا ^(٦) بن ابي اسحق بن السلطان الكذا ، ابي يحيى بن ابي بكر بن السلطان الكذا ، ابي زكرياء بن السلطان الكذا ، ابي اسحق بن الامير الكذا ، ابي زكرياء ابن الشيخ الكذا ، ابي محمد بن عبد الواحد بن ابي حفص ، ابقاه الله ومقامه مقام ابراهيم رزقاً وأماناً . لا يخلص جلب الثمرات اليه وقتاً ولا يعين زماناً ؛ وكان على من يتخطّف الناس من حوله ^(٧) مؤيداً

(١) كذا بالاصول ؛ ولعل أصل الكلام : « الرياض بالافواف » ؛ والافوف ، بالضم : الزهر واجمع افواف .

(٢) وكف الماء : سال .

(٣) الاستشراف : التطلع الى الشيء .

(٤) الفواضل : الايادي الجميلة .

(٥) فداه : قال له فداك ؛ ونبديه : نبرزه . ولعل المعنى : نضعه في مكان ممتاز .

(٦) ادخل ابن الخطيب « ال » على « كذا » الموضوعه للكناية عما لم يرد المتكلم ذكره وقد

شاع في رسائله هذا الاستعمال .

(٧) اشارته الى الايات ٣٥ - ٣٧ من سورة ابراهيم واضحة .

بِاللهُ مُعَانَا .

مُعْظِمُ قُدْرِهِ الْعَالِي عَلَى الْاِقْدَارِ ، وَ مُقَابِلُ دَاعِي حَقِّهِ بِالْاِبْتِدَارِ ،
 الْمُنْتَهَى عَلَى مُعَالِيهِ الْمَخْلُودَةِ الْاَثَارِ ، فِي اصْوَاتِهِ ^(١) النَّظَامِ وَالنِّشَارِ ^(٢) ،
 ثَنَا الرُّوضَةِ الْمِعْطَارِ ، عَلَى الْاِمْطَارِ ، الدَاعِي إِلَى اللَّهِ بِطَوْلِ بَقَائِهِ فِي
 عِصْمَةِ مُنْسَدَلَةِ الْاِسْتَارِ ، وَعِزَّةِ ثَابِتَةِ الْمَرْكَزِ مُسْتَقِيمَةِ الْمَدَارِ ، وَان
 يَحْتَمُّ لَهُ بَعْدَ بُلُوغِ غَايَاتِ الْحَالِ ، وَنَهَايَةِ الْاَعْمَالِ ، بِالزَّلْفَى وَعَقْبَى الدَّارِ .
 عَبْدُ اللَّهِ الْغَنِيُّ ^ث بِاللَّهِ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، مُحَمَّدُ بْنُ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي الْوَلِيدِ اِسْمَاعِيلِ بْنِ فَرَجِ بْنِ نَصْرِ .

سَلَامُ كَرِيمٍ كَمَا حَمَلَتْ اِحَادِيثُ الْاَزْهَارِ نَسَمَاتِ الْاَسْحَارِ ، وَرَوَتْ
 ثَنُورَ الْاِقَاحِيِّ وَالْبَهَارِ ، عَنْ مُسَلْسَلَاتِ الْاِنْهَارِ ، وَتَجَلَّى عَلَى مَنصَةِ
 الْاِسْتِهَارِ ، وَجَهْ عُرُوسِ النَّهَارِ ؛ يَخُصُّ خِلَافَتَكُمْ الْكَرِيمَةَ النَّجَارِ ، الْعَزِيزَةَ
 الْجَارِ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبِرَكَاتِهِ .

أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَخْفَى حِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ عَنْ اِذْهَانِ الْبَشَرِ ،
 فَعَجَزَتْ عَنْ قِيَاسِهَا ، وَجَعَلَ الْاُرُوحَ « اِجْتَادًا مَجْنُودَةً » — كَمَا وَرَدَ فِي

(١) جَمْعُ صَوَانٍ ، وَهُوَ مَا صَنَعَ بِهِ الشَّيْءُ .

(٢) النَّشَارُ : النَّشْرُ .

الخبر^(١) — تحنُّ الى أجناسها، مُنجد هذه الملة من اولياته الجيلة
 بمن يروض الآمال بعد شماسها^(٢)، ويُيسر الاغراض قبل التماسها،
 ويُعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين اخلاق
 لباسها؛ الملك الحق، واصل الاسباب بحوله بعد انتكاث امراسها^(٣)
 ومغني النفوس بطوله، بعد افلاسها — حمداً يُدرُّ أخلاف^(٤) النعم بعد
 إبساسها^(٥)، وينشر رمم الآموال من أرماسها^(٦)، ويقدِّس النفوس
 بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها^(٧).

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الهدي
 ونبراسها^(٨) عند اقتناء الأنوار واقتباسها، مطهر الأرض من
 أوضارها وأدناسها، ومصطفى الله من بين ناسها، وسيد الرسل
 الكرام ما بين شيشها وإياسها، الآتي مهيمناً على آثارها، في حين

(١) يشير الى الحديث: «الارواح جنود مجنده، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر
 منها اختلف»

(٢) شمت الدابة شماسا . شردت وججت .

(٣) جمع مرس؛ وهو الحبل . وانتكك الحبل . انتقض بعد ان كان مبرما .

(٤) الاخلاف، جمع خلف (بالكسر)؛ وهو الضرع .

(٥) ابس بالناقعة . دعا ولدها تدر على حالبها .

(٦) جمع رمس؛ وهو القبر .

(٧) الإبلاس: القنوط، وقطع الرجاء .

(٨) النبراس (بالكسر) : المصباح .

فَقرتها^(١) ومن بعد نُصرتها واستيئاسها^(٢) ، مُرغم الصَّراغم في
أخيئاسها^(٣) ، بعد افتزارها وافتراسها^(٤) ، ومُعقر أجرام الأضنام
ومُصمت أجراسها .

والرِّضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه ، هُماة شرَّعتَه البيضا ،
وُحراسها ، ومُلقي غراسها ، ليوث الوغى عند احتدام^(٥)
مِراسها^(٦) ، ورُهبان الدُّجى تتكفل مُناجاة السَّميع العليم ، في
وَحشة الليل البهيم بإيئاسها ، وتقاوح نسيم الأسحار ، عند
الاستفغار ، بطيب أنفاسها .

والدُّعاء لخلافتكم العلية المُستنصرية بالصَّنائع التي تُشعشع أيدي
العِزة القعساء^(٧) من أكواسها ، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلاً
باحترامها واحتراسها ، وأنباء الفتوح ، المؤيدة بالملائكة والروح ،
ريحان جُلاسها وآيات المفاخر التي ترك الأول للآخر ، مكتبة
الأسطار بأطراسها ، وميادين الوجود مجالا ليجاد جودها وباسها ،

- (١) الفترة : ما بين كل نبيين ، أو رسولين من زمان انقطعت فيه الرسالة .
(٢) استيئاس : ينس ؛ وابن الخطيب ينظر الى الآية : « حتى اذا استيئس الرسل وظنوا أنهم
قد كذبوا جاءهم نصرنا ... الخ »
(٣) جمع خيس ؛ وهو موضع الأسد .
(٤) افتراس الأسد : أبدى أسنانه ؛ يريد بمد أن كانت تفتقر عن أسنانها وتفترس .
(٥) الاحتدام : شدة الحر ، واحتدمت النار : التهت .
(٦) المراس : الممارس .
(٧) عزة قعساء : ثابتة .

والعزُّ والعدلُ منسويين لفسطاطها^(١) وقسطاسها ، وصفححة^(٢) النصر
العزیز تقيضُ كُفها ، المؤيدة بالله ، على رياسها^(٣) ، عند احتياج
أضدادها ، وشره^(٤) أنكاسها^(٥) ، لانتهاجِ البلادِ وانتهاجها^(٦)
وهبوبُ رياحِ رياحها وقمردِ مرداسها^(٧) .

فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتائب نصره أمداداً تدعن
أعناق الأنام ، لطاعة ملككم المنصور الأعلام ، عند إحساسها^(٨) ،
وآتاكم من آيات العناية ، آية تضرب الصخرة الصماء ، ممن عصاها
بعضاها ، فتبادر بأنجاسها^(٩) ، - من حمراء غرناطة ، حرسها الله ،
وأيام الإسلام ، بعناية الملك العلام تحفيل وفود الملائكة الكرام ،

(١) الفسطاط : المدينة ، ومجتمع أهل مصر حول جامعهم .

(٢) الصفيحة : السيف العريض .

(٣) رئاس السيف ، ورياسه : مقبضه ، وقائمه .

(٤) الشره : شدة الحرص ، وأسوؤه .

(٥) الأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الرجل الضعيف .

(٦) انتهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه . والمراد الاستيلاء على الأراضي وانتقاصها من

الأطراف ، فعل من يتنقص قطعة اللحم بالأكل .

(٧) رياح من أكثر القبائل الهلالية جمعاً ، وأوفرهم عدداً . وأبوهم : رياح بن أبي ربيعة بن

نهيك بن هلال بن عامر . والرياسة على رياح في عهد ابن خلدون لأبناء داود بن مرداس بن رياح ؛

والى داود هذا تنتسب « الدواودة » .

(٨) الإحساس : الرؤية والعلم .

(٩) انبجس الماء : تفجر ؛ وفي الكلام معنى الآية :

« ... وأوحينا الى موسى إذ استسقاء قومه أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا

عشرة عينا الخ » آية ١٦٠ من سورة الأعراف .

لولاثمها وأعراسها ، وطواعين الطعان ، في عُدْوِ الدِّينِ المُعَانِ ، تُجَدِّدَ
عَهْدَهَا بِعَامِ عَمَوَاسِهَا^(١) .

والحمدُ لله حمداً مُعَادَا يُقَيِّدُ شِوَارِدَ النَّعْمِ ، وَيَسْتَدِرُّ مُوَاهِبَ
الْجُودِ وَالكَرَمِ وَيُؤَمِّنُ مِنْ انْتِكَاتِ الْجُدُودِ^(٢) وانْتِكَاسِهَا^(٣) ، وَلِيَّ
الْأَمَالِ وَمِكَاسِهَا^(٤) ؛ وَخِلَافَتِكُمْ هِيَ الْمَثَابَةُ الَّتِي يُزْهَى الْوُجُودُ
بِمَحَاسِنِ مَجْدِهَا ، زَهْوَةَ الرِّيَاضِ بَوَرْدِهَا وَأَسْهَآ ، وَتُسْتَمَدُّ أَضْوَاءُ
الْفَضَائِلِ مِنْ مِقْبَاسِهَا^(٥) ، وَتَرْوِي رُؤَاةَ الْإِفَادَةِ ، وَالْإِجَادَةَ غَرِيبَ
الْوِجَادَةِ^(٦) ، عَنْ ضَحَّاكِهَا وَعَبَّاسِهَا^(٧) . وَالِي هَذَا أَعْلَى اللَّهِ مَعَارِجَ
قَدْرِكُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَأَنْطَقَ بِجُجَجٍ فَخَرَ كَمْ مَنْ احْتَفَى وَانْتَمَلَ ،

(١) عمواس ، بفتح العين والميم ، وبسكون الميم مع فتح العين أو كسرهما : قرية بفلسطين بين
الرملة وبيت المقدس . وفيها وقع الطاعون الذي كان في سنة ١٨ هـ ، مات فيه كثير من الناس ،
ويقال انه أول طاعون كان في الإسلام . تاريخ الطبري ٢٠١/٤ - ٢٠٣ ، ياقوت ٢٢٥/٦ ، تاج
العروس (عمس) .

(٢) انتكك : انصرف . والجد : الحظ والبخت ، والجمع : الجدود .

(٣) انتكس : انقلب على رأسه ، وخاب وخسر .

(٤) المكاس : المشاحة ، والمشاكة .

(٥) أقبس فلان : أعطى فاراً ، والمقباس : ما قبست به النار .

(٦) الوجادة (بالكسر) : أن تجد بخط غيرك شيئاً ، فنقول عند الرواية : وجدت بخط فلان

كذا ؛ وحينذاك يقال : « هذه رواية بالوجادة » .

والمحدثين في كيفية التحديث عن طريق الوجادة ، ودرجة الثقة بها ، وشروطها ؛ تفصيل

تجده في « فتح المغيب » للمراقبي ١٥/٣ وما بعدها .

(٧) المسمون بـ « الضحاك » ، و « عباس » من المحدثين كثير ، وليس يريد ابن الخطيب

أحداً منهم بعينه ، وإنما يقصد الى « الطباقي » بين ضحاك ، وعباس .

فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه ، على صنائع الله لنا ، تسمية^(١) لا تلقع^(٢) بعدها عين ، وجملناه - على حُلل مواهبه - قلادة لا يُحتاج معها زين ، ودعواته من جيب الكِنانة^(٣) آية بيضاء الكتابة ، لم يبق معها شك ولا مَن ، وقرأنا منه وثيقة ودِّ هضم فيما عن غريم الزمان دين ، ورأينا منه إنشاء ، خدَم اليراع بين يديه وشاء ، واحترَم بهيئان^(٤) عُقدته مَشاء ، وسُئل عن معانيه الاختراع فقال : « إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ إِنْشَاءً » ؛ فأهلاً به من عربي أي يَصِفُ السَّانِحَ والبانة^(٥) ، ويُبينُ فيحسِن الابانة ، أدى الأمانة ، وسُئل عن حبه فانتَمى الى كِنانة^(٦) ، وأفصح وهو لا ينس^(٧) ، وتَهَلَّت قَسَمَاتُه وليلُ حَبْرُه يَعِيس ؛ وكان خاتمه المُقفل على صَوَانِه^(٨) ، المتحِفَ بساكر الورد في غير أوانه ، رَعَفَ من مسك عنوانه ؛ والله من

(١) التسمية : عوذة تعلق على الانسان يتعوذ بها .

(٢) لقعها بعينه : أصابه بها ، ويقول أبو عبيدة : ان اللقع لم يسمع الا في الإصابة بالعين .

(٣) الكِنانة : جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها .

(٤) الهميان (بالكسر) : المنطقة ؛ والكلام على تشبيه القلم المتخذ من القصب ، وفي وسطه عقدة ، بالرجل قد اتخذ منطقة في وسطه .

(٥) السانح : ما أتاك من عن عينك من ظي أو طير ؛ وهو مما يتيمنون به . والبانة واحدة البان ؛ وهو شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل ، ويتخذ منه دهن .

(٦) كِنانة بن خزيمية بن مدركة بن الياس بن مضر ، أبو القبيلة ؛ وهو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٧) النبس : أقل الكلام ؛ وما نيس بكلمة : أي ما تكلم .

(٨) الصوان : ما تصون به الشيء .

قَلَمَ دَبَّيْحَ نَلِكِ الْخَلَلِ ، وَنَفَعَ بِمُجَاغِ^(١) الدَّوَاةِ الْمُسْتَمِدَّةِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ الْعُلَلِ^(٢) ؛ فَلَقَدْ تَخَارَقَ فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخِلَافَةِ الَّتِي خَلَدَ فِخْرُهَا فِي الْوُجُودِ ، فَجَادَ بِسِرِّ الْبَيَانِ وَوُجُوبِهِ ، وَسَمَحَ فِي سَبِيلِ الْكِرَامِ حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ، وَجَمَعَ لِقَرَطٍ بِشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بِمَدِّ شَهَادَةِ السَّيْفِ بِشَهَامَتِهِ ، فَمَشَى مِنَ التَّرْحِيبِ ، فِي الطَّرْسِ الرَّحِيبِ ، عَلَى أُمَّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ ، أَفْصَحَ بِمَلْفُوزِ^(٣) الْإِكْسِيرِ^(٤) ، فِي اللَّفْظِ الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ بِلِسَانِ الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّدْيِيرِ^(٥) ، كَأَنَّمَا خَدَمَ الْمَلِكَةَ السَّاحِرَةَ^(٦) بَتَلِكِ الْبِلَادِ ، قَبْلَ اسْتِجَارِ الْجِلَادِ^(٧) ، فَأَثَرْتَهُ بِالطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ، أَوْ عَمَّرَ بِالْمُعَلِّقَةِ ، وَتِيكَ الْقَدِيمَةَ الْمَطْلُوقَةَ ، بِدَفِيَةِ دَارِ ، أَوْ كَنْزٍ تَحْتَ جِدَارِ ، أَوْ ظَفْرِ لِبَانِي الْحَنَايَا^(٨) ،

(١) مجاج الدواة : ما تمجه .

(٢) نفع الماء غلته : أروى عطشه .

(٣) كذا في الأصول . والصواب « ملفز » ، لأن فعله رباعي .

(٤) الإكسير : الكيمياء ، وهي كلمة مولدة . ولأهل الصنعة في الإكسير كلام مغلق طويل

فيه العجب . ويطلقون الإكسير أيضا على « الحجر المكرم » ، وهو المادة التي تلقى على المواد حال ذوبانها ، فتحولها إلى ذهب أو فضة بزعمهم . وانظر تاج المروس (كسر) .

(٥) صناعة التدبير : يعني بها تحويل المعادن إلى الذهب أو الفضة ؛ وتلك كانت ، ولا تزال ، مشكلة المشتغلين بعلم الكيمياء القديم .

(٦) يعني بالملكة الساحرة الكاهنة البربرية ، من قبيلة جراوة إحدى قبائل زناتة .

(٧) اشتجر القوم : تشابكوا ، وتشاجروا بالرماح : تطاعنوا . والجلاد : الضرب بالسيف .

(٨) الحنايا : جمع حنية ، وهي القوس . ويريد بها : مجرى الماء الذي اجتلب إلى « قرطاجنة » ، ووضع على أعمدة عالية ، عقدت بأقواس وصلت بين عدة جبال منجزة بعضها من بعض ، ثم أجرى الماء فوق هذه « الحنايا » العالية . وكانت المسافة بين قرطاجنة ، وبين منبع الماء ثلاثة أيام ؛ ولا تزال بقايا هذه الحنايا موضع العبارة من مشاهديها . انظر باقوت - ٣٢٣/٤ .

قبل أن تقطع به عن أمانيه المتأيا ، ببديعة ، أو خلف جرجير^(١) الرُّوم ، قبل مُنازلة الفُروم ، على وديعة ، أو أسلمه ابنُ أبي سرح^(٢) ، في نشبٍ للفتح وسرح^(٣) ، أو حتم له رَوْح بن حاتم^(٤) ببلوغ المطلب ، أو غلبَ الحظوظَ بخدمة آل الأغب^(٥) ، أو خصه زيادةُ الله بمزيد^(٦) ، أو شارك الشيعةَ في أمر أبي يزيد^(٧) ، أو سار على منهاج ، في مناصحة بني صنّاج ، وفضح بتخليد أمداحهم كلُّهاج .

- (١) هو الطريق الذي كانت له الولاية على المغرب من قبل الإمبراطور البيزنطي . وقد انفصل عن بيزنطة ، واستقل بالمغرب عند الفتح الإسلامي ؛ والمغرب يسمونه جرجير . وابن الخطيب يشير الى ما كان من الحوادث بين الجيش الإسلامي ، وبين جرجير أيام الفتح .
- (٢) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ كان أحد كتاب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ، وأهدر دمه يوم فتح مكة ؛ وكان محمد بن أبي بكر الصديق يقول عنه حين ولي مصر : انه لم يعد الى الاسلام بعد رده . ابن الأثير ٥٧/٣ ، ٨٢ .
- (٣) النسب : المال والعقار ؛ والسرح : المال يسام في الرعي ، يفدى به ويراغ . وقد صالح أهل افريقية عبد الله بن أبي سرح على مليونين وخمسمائة ألف ديناراً ، وبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار ، وسهم الراجل ألفاً ، وقد أصبح هذا المبلغ مضرب المثل ، والى ذلك ينظر ابن الخطيب . انظر العبر م ٢ .
- (٤) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ؛ كان من الكرماء الأجواد . ولي الكوفة ، ثم السند ، ثم البصرة أيام المهدي ؛ وولي افريقية أيام الرشيد ، وبها توفي سنة ١٧٤ . وفيات الأعيان ٢٣٥/١ .
- (٥) هو الأغب بن سالم ، أحد الذين قاموا مع أبي مسلم الخراساني بالدعوة العباسية ، وتولى الأغب أيام المنصور ولاية القيروان ؛ وابنه ابراهيم بن الاغب ، هو رأس دولة الأغالبة بتونس ، التي ابتدئ سنة ١٨٤ هـ ، وتنتهي سنة ٢٩٦ هـ .
- (٦) زيادة الله هو ثاني ملوك بني الأغب ، (٢٠١ - ٢٢٣) قلده الخليفة المأمون العباسي .
- (٧) هو أبو يزيد ؛ مخلد بن كيداد (أو كنداد) بن سعد الله بن مفيث اليفرني ، وقد عرف أيضاً بصاحب الحمار .

وأعجيب به، وقد عُزِّزَ مِنْهُ مَثْنِي الْبَيَانِ بِثَاكٍ، فَجَلَّبَ
 سِحْرَ الْأَسْمَاعِ، وَاسْتَرْقَاكَ الطَّبَاعُ، بَيْنَ مَثَانٍ لِلْإِبْدَاعِ وَمَثَاكٍ،
 كَيْفَ اقْتَدَرَ عَلَى هَذَا الْمَجِيدِ، وَنَاصَحَ مَعَ التَّثْلِيثِ مَقَامَ التَّوْحِيدِ؛
 نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَوَلِيَّ الْعَوْنِ، عَلَى الصَّمْتِ وَالصَّوْنِ، فَالْقَلَمُ هُوَ الْمُوَحِّدُ
 قَبْلَ الْكَوْنِ، وَالْمُتَّصِفُ مِنْ صِفَاتِ السَّادَةِ، أَوْ لِي الْعِبَادَةِ، بِضُمُورِ
 الْجِسْمِ وَصُفْرَةِ اللَّوْنِ؛ إِنَّمَا هِيَ كَرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ، وَأَثَارَةٌ^(١) مِنْ
 حَدِيثِ سَارِيَّةَ^(٢) وَبَقِيَّةٌ؛ سَفَرٌ وَجْهًا فِي الْأَعْقَابِ، بَعْدَ طَوْلِ
 الْإِنْتِقَابِ، وَتَدَاوُلِ الْأَحْقَابِ؛ وَلِسَانٌ مُنَابٌ، عَنْ كَرِيمِ جَنَابٍ؛

(١) الأثارة البقية .

(٢) يشير الى قصة سارية بن زعيم بن عمر بن عبد الله بن جابر الكناني أمير الجيش الاسلامي في وقعة «نهاوند»؛ فقد كمن له العدو في جبل، ولم يكن قد علم به، فناداه عمر رضي الله عنه من فوق المنبر بالمدينة يحذره «يا سارية! الجبل، الجبل، الجبل!»، فسمع سارية صوت عمر. وهي كرامة ذكروها للفاروق رضي الله عنه. تاج العروس (سرى).

وإصابة السهم لسواه محسوبة ، والى الرامي الذي سدده منسوبة ؛
ولا تَبَكْرٌ على الغمام بارقة ، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامة
خارقة ، فما شاءه الفضل من غرائب برٍّ وجد ، ومحارِبٍ خُلِقَ
كريم رَكَع الشُّكْر فيها وسَجَد ؛ حديقة بيان استشارت نواجم
الأبداع من مَهَبِّها ، واستزارت غمائم الطباع من مَصَبِّها ، فآتت
أكلها مرَّتين بإذن رَبِّها ؛ لا . بل كَتَيْبَةُ عِزٍّ طَاعَتِ بِعَنَّا^(١)
الألفات سُطُورُها ، فلا يرومها النَّدُّ ولا يطورها^(٢) ، ونزعت عن
قِسيِّ النُّونات خطوطها ، وأصطفت من بياض الطرس ، وسواد
النِّس ، بُلُق^(٣) تحوطها .

فما كأسُ المُدير ، على العَدير^(٤) ، بين الحورنق^(٥) والسِّدير^(٦) ،
تقامر بترد^(٧) الحباب ، عُقُولَ ذوي الألباب ، وتُفَرِّقُ كسرى في
العُباب^(٨) ، وتُهْدِي ، — وهي الشَّمْطَاءُ^(٩) — نشاطَ الشَّباب ؛ وقد

- (١) جمع قناة ؛ وهي الرمح .
(٢) لا يطورها : لا يقرب إليها .
(٣) الطرس : الورق . والنقس : الخبر . وبلق : جمع أبلق ، أو بقاء ؛ وهي الخيول التي
في لوها سواد وبياض .
(٤) يشير الى قصة امرئ القيس يوم العدير ، وهو يوم دارة جلجل .
(٥) الحورنق : قصر النعمان بن المنذر بظاهر الحيرة .
(٦) السدير : قصر للنعمان أيضاً بالحيرة ، قريب من الحورنق .
(٧) الترد : أعجمي معرب ، وورد في الحديث : « زردشير » ؛ وهو نوع مما يقامر به .
(٨) بنى كسرى أبرويز — فوق دجلة — بناء اتخذهُ لجمالس أنسه ، ففاضت دجلة وأغرقتهُ مرات ،
أنقذ كسرى فيها من الغرق — والى ذلك يشير ابن الخطيب . انظر الطبري ١٤٤/٢ - ١٤٥ .
(٩) امرأة شمطاء : بيضاء الشعر ؛ ويكنى بذلك عن قدم الحجر .

أَسْرَجَ ابْنُ سُرَيْجٍ^(١) وَأَلْجَمَ ، وَأَفْصَحَ الْغَرِيضُ^(٢) بَعْدَ مَا جَمَّعَهُ ،
وَأَعْرَبَ النَّأْيُ^(٣) الْأَعْجَمَ ، وَوَقَعَ مَعْبَدٌ^(٤) بِالْقَضِيبِ ، وَشَرَعَتْ فِي
حِسَابِ الْعَقْدِ^(٥) بَنَانُ الْكَفِّ الْخَضِيبِ ؛ وَكَأَنَّ الْأَنَامِلَ فَوْقَ
مَثَالِكِ الْعُودِ وَمِثَالِيهِ ، وَعِنْدَ إِغْرَاءِ الشَّقِيلِ بَشَانِيَّةً^(٦) ، وَإِجَابَةَ
صَدَى الْغِنَاءِ بَيْنَ مَغَانِيهِ ، الْمِرَاوِدُ تَشْرَعُ فِي الْوَشْيِ ، أَوْ الْعَنَاكِبِ
تُسْرَعُ فِي الْمَشْيِ ؛ وَمَا الْمُخْبِرُ بِنَيْلِ الرَّغَائِبِ ، أَوْ قُدُومِ الْحَبِيبِ
الْغَائِبِ ؛ لَا . بَلْ إِشَارَةُ الْبَشِيرِ ، بِكُمْ الْمُشِيرِ ، عَلَى الْعَشِيرِ ، بِأَجْلَبِ
لِلسُّرُورِ ، مِنْ زَائِرِهِ الْمُتَلَقَّى بِالْبُرُورِ ، وَأَدْعَى لِلْحُبُورِ ، مِنْ سَفِيرِهِ
الْمُبْهِجِ السَّفُورِ ؛ فَلَمْ نَرِ مِثْلَهُ مِنْ كِتَابِيَّةِ كِتَابِ تَجْنُبِ^(٧) الْأَجْرَدِ ،
تَمَرِّحَ فِي الْأَرْسَانِ^(٨) ، وَتَتَشَوَّفَ بِجَالِي ظُهورِهَا إِلَى عِرَائِشِ الْفَرَسَانِ ،

(١) أبو يحيى عميد الله بن سريج المغني المعروف .

(٢) أبو يزيد ، وأبو مروان : عبد الملك . ولقب بالفريص لأنه كان طري الوجه غض الشباب ؛ وهو من مولدي البربر . أخذ الغناء عن ابن سريج ، وعارضه في كل أصواته .

(٣) النأي : المزمار .

(٤) هو معبد بن وهب المغني المعروف . غنى في دولة بني أمية ، ومات في أيام الوليد بن

يزيد بدمشق .

(٥) حساب العقد ، ويسمى حساب العقود أيضا : نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد ؛ وفي الحديث : « وعقد عقد تسمين » . وقد ألفوا فيه رسائل وأراجيز ، منها أرجوزة أبي الحسن علي الشهير بابن المغربي ، وشرحها عبد القادر بن علي بن شعبان العوفي .

(٦) كذا في الأصول ؛ ومقتضى السياق : « الثقل الأول بثنائه » .

(٧) من الجنب : وهو أن تجنب فرساً عربياً عند الرهان إلى الفرس الذي تسابق عليه ، فإذا فتر المركوب ، تحولت إلى الجنوب . ويريد أن هذه الرسالة بمنزلة خيول احتياطية .

(٨) جمع رسن ؛ وهو الجبل يتخذ زمناً للدابة وغيرها .

وتَهْزُ مَعَاظِفَ^(١) الْارْتِيَا حَ ، مِنْ صَهِيلِهَا الصَّرَا حَ ، بِالنَّعْمَاتِ الْحَسَّانِ ؛
 إِذَا أَوْجَسَتْ الصَّرِيخَ نَازَعَتْ أَفْنََاءَ الْأَعْنَةِ ، وَكَاثَرَتْ بِأَسِنَّةِ آذَانِهَا
 مُشْرَعَةَ الْأَسِنَّةِ ؛ فَإِنْ ادَّعَى الظَّالِمُ^(٢) أَشْكَالَهَا فَهُوَ ظَالِمٌ ، أَوْ نَازَعَهَا
 الظَّنْبِيُّ هَوَادِيَهَا^(٣) وَأَكْفَالَهَا فَهُوَ هَازٍ أَوْ حَالِمٌ ، وَإِنْ سُئِلَ
 الْأَصْمَعِيُّ^(٤) عَنْ عَيُوبِ الثَّرَرِ وَالْأَوْضَاحِ^(٥) ، قَالَ مُشِيرًا إِلَى
 وَجُوهِهَا الصَّبَاحِ^(٦) :

« جَلْدَةٌ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْأَنْفِ سَالِمٌ »^(٧)

مِنْ كُلِّ عَيْبِ الشَّوَى^(٨) ، مُسَابِقٌ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، سَامِي

- (١) المعاطف : الأردنية ؛ والعرب تضع الرداء موضع الهجة ، والحسن ، والبهاء ، والنعمة .
 (٢) الظلم : فرس فضالة بن هند بن شريك الأسدي . والظلم ذكر النعام .
 (٣) هوادي الخيل : أعناقها .
 (٤) عبد الملك بن قريب ، الغوي المشهور (١٢٢ - ٢١٦) ، على خلاف في المولد والوفاة .
 وابن الخطيب يشير إلى ما عرف عن الأصمعي من خبرته الواسعة بالخيل ؛ وله في ذلك مع أبي عبيدة
 معمر بن المنثي قصة طريفة . انظرها في ترجمة الأصمعي في وفيات ابن خلكان ١/٣٦٢ .
 (٥) جمع غرة : وهي البياض ؛ والوضح : البياض أيضاً . ويكنى به في الفرس عن البرص ،
 والجمع أوضاع .

(٦) وجه صبيح : جميل ، والجمع صباح .

(٧) شطر بيت قاله عبد الله بن عمر لما لامه الناس في حب ابنه سالم ، وأوله :

يديروني عن سالم وأريغهم • وجلدة الخ

وجمله لحبته بمنزلة جدادة بن عينه وأنفه . وفي الحديث : « لا تؤذوا عماراً ، فانما عمار جدلة
 ما بين عيني » .

وسالم هذا ، يكنى أبا عمر ، وأبا المنذر ، من خيار الناس ، وفقهائهم . مات بالمدينة سنة ١٠٦ .
 لسان العرب (سلم) .

(٨) شوى الفرس : قوائمه ؛ وعبل الشوى : غليظ القوائم .

التَّلِيل^(١)، عريض ما تحت السَّلِيل^(٢)، مَسْوُوحَةٌ أَعْطَفُهُ بِمَنْدِيلٍ
النَّسِيمِ البَلِيلِ .

من أَحْمَرَ كَالْمُدَامِ، تُجَلَّى عَلَى النَّدَامِ^(٣)، عَقَبَ الْفِدَامِ^(٤)،
أُخْفَ لَوْنُهُ بِالْوَرْدِ، فِي زَمَنِ الْبَرْدِ، وَحَيَّيْ أَفْقُ حَيَّاهُ بِكُوكَبِ
السَّعْدِ، وَتَشَوَّفُ الْوَاصِفُونَ إِلَى عَدِّ مَحَاسِنِهِ فَأَعْيَتَ عَلَى الْعَدِّ؛ بَنَجْرٍ
يُسَاجِلُ الْبَحْرَ عِنْدَ الْمَدِّ، وَرِيحٌ تُبَارِي الرِّيْحَ عِنْدَ الشَّدِّ^(٥)،
بِالذَّرَاعِ الْأَشَدِّ^(٦)؛ حَكَمَ لَهُ مُدِيرٌ فَلَكَ الْكَفْلَ بِاعْتِدَالِ قَاصِلِ الْقَدْرِ،
وَمَيِّزُهُ قَدْرُهُ الْمَيِّزُ عِنْدَ الْإِسْتِبَاقِ، بِقَصَبِ السِّبَاقِ^(٧)، عِنْدَ اعْتِبَارِ
الْحَدِّ، وَوَلَدٌ مُخْتَطٌّ غُرَّتْهُ أَشْكَالُ الْجَمَالِ، عَلَى الْكَمَالِ، بَيْنَ الْبَيَاضِ
وَالْحُمْرَةِ وَنَقَاءِ الْحَدِّ؛ وَحَفِظَ رِوَايَةَ الْخَلْقِ الْوَجِيهَ^(٨)، عَنِ جَدِّهِ

(١) التلليل العنق .

(٢) التلليل المجلس ، والكساء الذي يجعل تحت الرجل .

(٣) جمع نديم وهو الشريب الذي ينادمك .

(٤) الفددام الخرقة التي يضعها الساق من الأعاجم ، والمجرس على فمه عند السقي . وكانت عادتهم ، إذا سقوا ، أن يفدهوا أفواههم . وفددام الأبريق ، والكوز : المصفاة التي توضع عليه .

(٥) الشد : العدو .

(٦) الأشد الأقوى ؛ يقال حلتها بالساعد الأشد ، أي حين لم تقدر على الرنق ، أخذت

الامر بالشددة والقوة .

(٧) كانت الغاية التي يمددونها للسباق تدرع بالقصب ، ثم تركز القصب في منتهى الغاية ؛ فمن سبق اقتلعها واخذها ، ليعلم الناس انه السابق من غير نزاع ، ويقال حاز او احرز قصبه سبق .

تاج (قصب) .

(٨) الوجه : ذو الجاه .

الوجيه^(١)، ولا تُنكر الرواية على الحافظ ابن الجدي^(٢).

وأشقر، أبي الخلق، والوجهُ الطلقُ أن يُحمر، كأنما صيغَ من المسجد، وطرف بالدر وأنعل بالزبرجد، وويم في الحديث بسمه اليمن والبركة^(٣)، واختصَّ بفلج^(٤) الخصام، عند اشتجار المَرَكة، وانفرد بمضاعف السهام، المنكسرة على الهام، في الفرائض المشتركة^(٥)؛ واتَّصفَ فلَكُ كَفَلِه بِحَرَكَتِي الْإِرَادَةِ وَالطَّبَعِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَرَكَةِ، أَصْفَى إِلَى السَّمَاءِ بِأُذُنٍ مُلْهِمٍ؛ وَأَغْرَى لِسَانَ الصَّهِيلِ - عِنْدَ التَّبَاسِ مَعَانِي الْهَمْزِ وَالتَّسْهِيلِ - بَيَانَ التُّبْهِمِ؛ وَفَتِنَتِ الْعُيُونَ مِنْ ذَهَبِ جِسْمِهِ، وَلُجَيْنِ نَجْمِهِ، بِالذِّينَارِ وَالذِّرَاهِمِ؛ فَإِنْ انْقَضَ فَرَجَمُ، أَوْ رِيحَ لَهَا حَجْمُ، وَإِنْ اعْتَرَضَ فَشَقَّ لَاحَ بِهِ لِلنَّجْمِ نَجْمٌ.

وأصفرَ قَيْدَ الْأَوْبَادِ الْحُرَّةِ، وَأَمْسَكَ الْمَحَاسِنَ وَأَطْلَقَ الْغُرَّةَ؛

(١) الوجيه: فرس من خيل العرب نجيب.

(٢) يومي ابن الخطيب الى ابي بكر محمد بن عبد الله بن فرج الفهري المعروف بابن الجدي (٤٩٦ - ٥٨٦). اصله من « لبله »، واستوطن اشبيلية، وعاصر ابن رشد للفقهاء، و ابا بكر ابن العربي.

(٣) يشير الى حديث: « ان بين الخيل في شقرتها »، رواه الإمام احمد في المسند ٢/٢٧٢.

(٤) الفلج: الظفر والفوز.

(٥) يومي الى المعاني التي تعارفها الفقهاء بينهم في باب « التوارث » من الفقه الإسلامي؛ فالسهم: النصيب الذي فرضه الشارع للوارث، وانكسار السهام يكون حيث تضيق التركة عن استيفاء الفرائض كاملة، ويتقرر العول.

وُسئِلَ مَنْ أَنْتَ فِي قُوَادِ الْكُتَّابِ ، وَأُولَى الْأَخْبَارِ الْعَجَائِبِ ؟
فَقَالَ : أَنَا الْمُؤَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ^(١) ؛ نَزَجِسُ هَذِهِ الْأَلْوَانَ ، فِي رِيَاضِ
الْأَكْوَانَ ، تُحْمَسِي بِهِ وَجُوهَ الْحَرْبِ الْعَوَانَ^(٢) ؛ أَغَارَ بِنَخْوَةِ
الصَّائِلِ^(٣) ، عَلَى مُعْصَفَاتِ الْأَصَائِلِ^(٤) ، فَارْتَدَاهَا ، وَعَمِدَ إِلَى
خُيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، عِنْدَ جَانِحَةِ الْأَمْسِ ، فَأَلْحَمَ مِنْهَا حُلَّتَهُ
وَأَسَدَاهَا ، وَاسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْمَحَاسِنَ فَمَا أَعْدَاهَا ؛ فَهُوَ أَصِيلٌ
تَمَّكَ بِذَيْلِ اللَّيْلِ عَرَفَهُ وَذَيْلُهُ ، وَكَوْكَبٌ يُطْلِعُهُ مِنَ الْمَتَامِ لَيْلُهُ ،
فِيَحْسُدُهُ فَرَقَدٌ^(٥) الْأَفْقِ وَسَهِيلُهُ^(٦) .

وَأَشْهَبَ تَغَشَّى مِنْ لَوْنِهِ مُفَاضَةً ، وَتَسْرَبَلَ مِنْهُ لَامَةً فَفَاضَةً ،
قَدْ احْتَقَلَ زَيْتُهُ ، لَمَّا رُقِمَ بِالنِّبَالِ لُجَيْنُهُ ، فَهُوَ الْأَشْمَطُ ، الَّذِي حَقَّهُ لَا
يُغْمَطُ ، وَالذَّارِعُ^(٧) الْمُسَارِعُ ، وَالْأَعْزَلُ الذَّارِعُ^(٨) ، وَرَاقِي الْهِيضَابِ

(١) ابو سعيد الملب بن ابي صفرة الأزدي . له مع الخوارج حروب ومواقع ظهرت فيها شجاعته . وفيات الاعيان ١٩١/٢ - ١٩٥ .

(٢) الحرب العوان : الحرب التي سبقتها حرب اخرى .

(٣) النخوة : العظمة ، والكبر ؛ والصائل : المستطيل المتوذب .

(٤) الأصيل : العشي ، والجمع الأصائل .

(٥) الفرقد : واحد الفرقدين ؛ وهما كوكبان من صورة بنات نعش الصغرى ؛ ويقال للفرقد على الكوكبين معا .

(٦) سهيل : كوكب من الكواكب الجنوبية ؛ ولذلك لا يراه سكان البلدان الشمالية مثل

خراسان ، وارمينية .

(٧) رجل دارع : ذو درع .

(٨) ذرع : أسرع ؛ كأنه أسرعته يقبس المسافات بالذراع .

الفارع، ومكتوبُ الكتيبة البارِع^(١). وأكرم به من مُرتاض
سَالِك، ومُجتهد على غايات السَّابِقين الأولين مُتَهَالِك، وأشهب^(٢)
يروي من الخليفة، ذي الشِّيمِ المُنيفة، عن مالك.

وَحِبَارِي^(٣) كُلِّمَا سَابِقَ وَبَارَى، استعمار جَنَاحِ الحِبَارَى؛
فَإِذَا أَعْمَلَتِ الحِسْبَةَ، قِيلَ مِنْ هُنَا جَاءَتِ النِّسْبَةُ، طَرَدَ التَّمْرَ، لَمَّا
عَظُمَ أَمْرُهُ وَأَمْر^(٤)، فَتَسَخَّ وَجُودَهُ بَعْدَهُ، وَابْتَزَّهُ الفَرَوَةَ مَلَطَّحَةً
بَدَمِهِ؛ وَكَأَنَّ مُضَاعَفَ الوَرْدِ نُثِرَ عَلَيْهِ مِنْ طَبَقِهِ، أَوْ الفَلَكَ، لَمَّا
ذَهَبَ الحَلْكَ، مُزِجَ فِيهِ بِياضَ صُبْحِهِ بِحُمْرَةِ شَفَقِهِ.

وَقِرْطَاسِيَّ حَقَّهُ لَا يُجْهَلُ، «مَتَى مَا تَرَقَى العَيْنُ فِيهِ تَسْفَلُ»^(٥)؛
إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ^(٦)، فَهُوَ نَجْمٌ كُلُّهُ؛ انْفَرَدَ بِمَادَّةِ الأَلْوَانِ، قَبْلَ

(١) الفارع: المرتفع، الحسن. والبارع: التام في كل فضيلة.

(٢) يوري بأشهب بن عبد العزيز المالكي أبو عمر المصري. وقد تقدم ذكره.

(٣) الحباري: لونه لون الحباري. والحباري بضم الحاء، وفتح الباء المخففة، وراء مفتوحة
بعد ألف: طائر رمادي اللون؛ وهو أشد الطير طيراناً، وابعدها شوطاً. ولذلك يقول: إن
سرعة هذا الفرس تأتي من شبهه بالحباري الذي له هذه الصفة. حياة الحيوان للدميري ١٩٦/١.

(٤) امر: كثير.

(٥) عجز بيت لامرئ القيس وصدرة:

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه • متى النخ

وفي الأصول: «..... فيه تسهل». والمثبت رواية الديوان، وشرحه للبليوسي ص ٣٤

طبع التقدم سنة ١٣٢٣ هـ.

(٦) جل الفرس، وجاهه: العطاء الذي تنبسه إياه لتصونه.

أَنْ تَشُوبَهَا يَدَ الْأَكْوَانِ ، أَوْ تَمْرَجَهَا أَقْلَامَ الْمَلَوَانِ ^(١) ؛ يَتَقَدَّمُ
 الْكُتَيْبَةُ مِنْهُ لِيَوَائِئِ نَاصِعٍ ، أَوْ أَيْضَ مَنَاصِعٍ ^(٢) ؛ لَيْسَ وَقَارَ الْمَشِيبِ ،
 فِي رَيْعَانِ الْعُمُرِ الْعَشِيبِ ، وَأَنْصَتَتْ الْأَذَانُ مِنْ صَهِيلِهِ الْمُطِيلِ الْمُطِيبِ ،
 لَمَّا ارْتَدَى بِالْبِيَاضِ إِلَى نِعْمَةِ الْخَطِيبِ ؛ وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأْخِيرِ
 مُتَعَتِّبٌ ، قُلْنَا : الْوَاوُ لَا تُرْتَبُ ^(٣) ، مَا بَيْنَ فَخْلٍ وَحُرَّةٍ ،
 وَبِهْرْمَانَةٍ ^(٤) وَذُرَّةٍ ؛ وَيَأَلَّهُ مِنْ ابْتِسَامِ غُرَّةٍ ، وَوُضُوحِ يُنَى فِي
 طُرَّةٍ ^(٥) ، وَبَهْجَةِ اللَّعِينِ وَقُرَّةٍ ؛ وَإِنْ وَلِعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ الْقَدِيمِ ،
 وَخَشُوا الْحَدِيثَ بِفَرْيِ الْأَدِيمِ ^(٦) ، وَأَوْجَبَ الْمُتَعَصِّبُ ، وَإِنْ أَبِي
 الْمَنْصِبِ ، مَرْتَبَةَ التَّقْدِيمِ ، وَطَمَحَ إِلَى رَتْبَةِ الْمَخْدُومِ طَرْفُ الْحَدِيمِ ،
 وَقُورِنَ الْمُشْرِي بِالْعَدِيمِ ، وَبُجْحَسَ فِي سُوقِ الْكَسَدِ الْكَيْلِ ، وَدَجَا
 اللَّيْلِ ، وَظَهَرَ فِي فَلَكِ الْإِنْصَافِ الْمَيْلِ ، لَمَّا تُذْوَكَرَتِ الْخَيْلُ ؛

(١) الملوان : الليل والنهار .

(٢) الناصع : الخالص من كل شيء ؛ والمناصع : المجالس . جمع مناصع .

(٣) يشير الى قول النحاة : ان العطف بالواو لا يفيد ترتيبا بين معطوفاتها .

(٤) البهرمان : نبات بأرض العرب يصبح به ، يقال له المصفر ؛ ولونه دون الارجوان في

الحمرة .

(٥) الطرة : الناصية ، اشارة الى الحديث : « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة » .

(٦) الاديم : الجلد ؛ وفريه : قطعه . وهو يشير الى قول ابن شرف القيرواني :

أغرى الناس بامتداح القديم • وبينم الحديث غير الذم

ليس الا لانهم حسدوا الحسى ورقوا على العظام الرميم

فَجِيءَ بِالْوَجِيه^(١) وَالْحَطَّار^(٢) ، وَالذَائِد^(٣) وَذِي الْحِمَار^(٤) ، وَدَاحِس^(٥)
وَالسَّكْب^(٦) ، وَالْأَيْجِر^(٧) وَزَادَ الرُّكْب^(٨) ، وَالْجُمُوح^(٩)
وَاليَحْمُوم^(١٠) ، وَالْكَمِيْت^(١١) وَمَكْتُوم^(١٢) ، وَالْأَعْوَج^(١٣) وَحَلْوَان^(١٤) ،
وَلَا حِقَ وَالْفَضْبَان^(١٥) ، وَعَفْزَرَ وَالزَّعْفَرَانِ وَالْمُحْبِرَ وَاللَّعَابَ ،
وَالْأَغْرَ وَالغُرَابَ ، وَشُعْلَةَ وَالْعُمَّابَ ، وَالْفَيَاضَ وَالْيَعْبُوبَ ،

(١) الوجيه: فرس لقي بن أعمر بن سعد بن قيس بن عيلان. وهو مما سمي من جيات الفحول،
والاناث المنجيات. تاج (وجه) ، مخصص ١٩٥/٦ .

(٢) الحطار: فرس حذيفة بن بدر الفزاري . وله ذكر في حرب داحس والغبراء . المخصص
١٩٦/٦ ، تاج (خطر ، دحس) .

(٣) الذائد: فرس نجيب من نسل الحرون ، ومن ابنته اشقر مروان . تاج (ذاد) .

(٤) ذو الحمار: فرس للزبير بن العوام ، ولمالك بن نويرة الشاعر . المخصص ١٩٤/٦ تاج
(حمر) .

(٥) داحس: فرس قيس بن زهير بن جذيمة العبسي . له ذكر في حرب داحس والغبراء
المخصص ١٩٦/٦ ، تاج (دحس) ، وانظر مجمع الأمثال : « أشأم من داحس » ٢٥٦/١ .

(٦) السكب: من أفراس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أول فرس ملكه . المخصص
١٩٣/٦ ، تاج (سكب) .

(٧) الأجير: من خيل غطفان بن سعد ، وهو فرس عنقرة بن شداد العبسي . تاج (بجر) .

(٨) زاد الركب: فرس للأزد ، وهو من أقدم فرسان العرب .

(٩) الجموح (كصبور) : فرس مسلم بن عمرو الباهلي ، وفرس للحكم بن عرفة النميري

تاج (جمع) .

(١٠) البحوم: فرس النعمان بن المنذر ، ولذلك كان يقال للنعمان فارس البحوم . وسمي

بالبحوم عدة أفراس . تاج ٢٦١/٨ .

(١١) الكميته: ذكر في تاج العروس في (كمت) عشرة أفراس باسم الكميته ، مع أسماء

أصحابها .

(١٢) مكتوم: فرس لقي بن أعمر ، من جيات الفحول . تاج (كتم) .

(١٣) أعوج (بلا لام) : فرس لبني هلال ؛ تنسب إليه الأعوجيات ، كان لكندة فأخذته

سليم ، ثم صار الى بني هلال ، بعد أن كان لبني آكل المرار . تاج (عوج) .

والمذَهَب واليَعْسُوب ، والصَّمُوت والقطيب ، وهَيْدَب والصُّيب ،
وأهلُوب وهَدَاج ، والحرُون وخَراج ، وَعَلَوَى والجَنَاح ،
والأَحْوَى ومِجَاح ، والعَصَا والنَّعَامَة ، والبَلَقَاء والحِمامَة ، وسَكاب
والجَرَادَة ، وخَوْصَاء والعرَادَة^(١) ؛ فكم بين الشَّاهد والغائب ،
والفُرُوض والرَّغَائِب^(٢) ، وفرق ما بين الأثر والعِيَان ، غَنِيَّ عن
البيَان ؛ وشَتَّان بين الصَّرِيح والمُشْتَبَة ؛ وللهِ دَرُّ القائل :

« خذ ماتراه ودَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ^(٣) »

والنَّاسِخ^(٤) يَخْتَلَفُ بِهِ الحُكْم ، وَثَمَرُ الدَّوَابِّ عِنْد التَّنْضِيلِ
بين هذه الدَّوَابِّ الصُّمُّ البُكْم^(٥) إلا مار كبه نبي ، أو كان له يوم
الافتخا و برهان خفي^(٦) ، ومُفْضِلٌ ما سَمِعَ على مارأي غبي ؛ فلو
أُنصِفَتْ محاسنها التي وُصِفَتْ ، لَأَقْضِمَتْ^(٧) حَبَّ القلوب علفا ،

(١) العرادة وما قبلها : اسماء افراس لرجال مشهورين من رؤساء قبائل العرب القدامى .

(٢) الرغائب : جمع رغيبية ، وهي الأمر المرغوب فيه . تاج (رغب) .

(٣) صدر بيت للفتني من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ؛ وعجزه عن شرح العكبري ٦٨/٢

طبع الشرفية :

« في طلعة البدر ما يفنيك عن زحل »

(٤) النسخ في مصطلح أهل اصول الفقه : انتهاء حكم شرعي ثبت بنص شرعي ، واحلال حكم آخر بدله بنص شرعي جاء دليلاً على انتهاء الحكم الأول والناسخ : هو النص الأخير الذي يقتضاه يرتفع الحكم الأول ، وباقى النص السابق .

(٥) الإشارة الى الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(٦) خفي : خاف ، مستور .

(٧) القضم : أكل القضم ، وهو شعير الدابة ، وأقضم الدابة : قدم لها القضم .

وأوردت ماء الشَّبِيبَةِ نَطْفًا^(١)؛ واتخذت لها من عُذْر^(٢) الحدود المِلاح
عُذْرٌ مَوْشِيَّةٌ^(٣)، وعلت بصفير الحان القيان كلَّ عَشِيَّةٍ؛ وأنعلت
بالاهلَّة، وغطت بالرياض بَدَلِ الأَجَلَّة^(٤).

الى الرقيق^(٥)، الخليق بالحُسْنِ الحقيق، يسوقه الى مثنوى
الرعاية رُوقة^(٦) الفتيان رُعَاتِه، ويهدي عقيقها من سَبَجِه^(٧) أشكالاً
تشهد للمخترع سبحانه بإحكام مخترعاته، وقفت ناظر الاستحسان
لايريم^(٨)، لما بهره منظرها الوسيم، وتَحَامِلِ الظَّلِيمِ^(٩)، وتضأؤل
الرِّيمِ^(١٠) وأخرس مفوه^(١١) اللسان، وهو بمالكات البيان، الحفيظ
العليم؛ وناب لسانُ الحال، عن لسان المقال، عند الاعتقال^(١٢)، فقال
يُخاطبُ المقام الذي أطلعت أزهارها غماممُ جوده، واقتضت اختيارها

(١) النطفة : الماء الصافي ؛ والجمع نطف .

(٢) العذار : خط لحية الغلام ؛ والجمع عذر .

(٣) العذار من اللجام : السيران اللذان يجتمعان عند قفا الفرس ؛ والجمع عذر .

(٤) جل الدابة : ما تغطي به ، والجمع جلال ؛ وجمع جلال : أجلة .

(٥) الرقيق : الضعيف لا صبر له على شدة البرد ، ونحوه .

(٦) الروقة من الغلمان الملاح منهم ؛ يقال غلمان روقة : أي حسان ، والمفرد رائق .

(٧) السبج : خرز أسود .

(٨) لا يريم : لا يبرح .

(٩) الظليم : ذكر النعام ؛ وفرس فضالة بن شريك الأسدي .

(١٠) الريم : الظلي الخالص البياض .

(١١) رجل مفوه : يجيد القول .

(١٢) اعتقل لسانه : حبس ، ولم يقدر على الكلام .

بركات وجوده : لو علمنا ايها الملك الأصيل ، الذي كُرم منه الاجال والتفصيل ، أن الشاء يوازيها ، لَكَلْنَا لك بِكَيْنِكَ ، او الشُّكْر يعادلها ويُجَازيها ، لتعرضنا بالوشل^(١) الى نِيل نَيْلِكَ^(٢) ، او قلنا هي التي اشار اليها مستصرخ سلفك المستنصر بقوله : « ادرك بخيلك » ، حين شَرِق بدمعه الشَّرِق^(٣) ، وانهزم الجمع واستولى الفرق ، واتسع فيه _ والحكم لله _ الحرق^(٤) ورأى ان مقام التوحيد بالمظاهرة على التثليث ، وحزبه الخبيث ، الاولي والأحق .

والآن قد اغنى الله بتلك النية ، عن اتخاذ الطوال الردينية^(٥) ، وبالذُّعَاء من تلك المثابة الدنيئة الى رب البنية^(٦) ، عن الامداد السنيه والأجواد تخوض بحر الماء الى بحر المنية ، وعن الجُردِ العريية ، في مَقَاوِد الأبيوت الأبية ؛ وجدد برسم هذه الهدية ، مراسيم المهود الوُدِيَّة ، والذِّمِّ المُوَحِّدِيَّة ، لتكون علامة على الأصل ، ومكذبة لدعوى الوقفِ والفصل ، وإشعاراً بالألفة التي لا تزال

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) النيل : نهر مصر ، والنيل (بالفتح) : العطاء .

(٣) يريد شرق الأندلس .

(٤) يشير الى المثل : « اتسع الحرق على الراقع » الذي يقال عند استفحال الأمر ، والمعجز عن اصلاحه . تاج (خرق) .

(٥) الردينية : منسوبة الى رديئة ، وهي امرأة السميري ؛ وكانا يقومان الرماح والقنا بخط

هجر ؛ فيقال : الرماح الردينية ، والخطية ؛ نسبة الى الشخص تارة ، والى الموضع أخرى .

(٦) البنية : الكعبة ، وكانت تسمى بنية ابراهيم ؛ وكثر قسمهم بها فيقولون : « لا ورب هذه

البنية » .

أَلْفُهَا أَلِفَ الْوَصْلِ ، وَأَمُّهَا حَرَاماً عَلَى النَّصْلِ ^(١) .

وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْنَا رَسُولُكُمْ ، فَقَرَّرَ مِنْ فَضْلِكُمْ مَا لَا يُنْكِرُهُ مَنْ عَرَفَ عُلُومَ مِقْدَارِكُمْ ، وَأَصَالَةَ دَارِكُمْ ، وَفَلَكَ إِبْدَارِكُمْ ، وَقُطِبَ مَدَارِكُمْ ؛ وَأَجَبْنَا عَنْهُ بِمُجَهِّدٍ ^(٢) مَا كُنَّا لِنَقْنَعَ مِنْ جَنَاهُ ^(٣) الْمُهْتَصِرِ ^(٤) ، بِالْمُقْتَضَبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا لِنُقَابِلَ طَوْلَ طَوْلِهِ ^(٥) بِالْقِصَرِ ، لَوْلَا طُرُؤُ الْحَصْرِ ^(٦) .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ - وَدَّ أُبْرِمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ مَعَاقِدُهُ ^(٧) ، وَوُثِرَتْ لِلْخُلُوصِ ^(٨) ، الْجَلِيلِيُّ الْإِصْطِصَاصُ ، مَضَاجِعُهُ الْقَارِئَةُ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهَدُ بِالْجَمِيلِ يُوجَعُ لِفَقْدِهِ فَاقِدُهُ ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ، وَالْعَطْفُ بِتَوْكِيدِهِ ؛ فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيَّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيَّ فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ أَوْ نَشْكُرُ ، أَمْفَا تَحْتَكُمُ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا

(١) اللام : جمع لأمة ؛ وهي الدرع . والنصل : حديدة السهم والرمح . اللسان (نصل) .

(٢) الجهد (بالفتح) المشقة .

(٣) الجنى : ما يجتز من الشجر وغيره .

(٤) المهترى : المزال ؛ يقال هصرت الفصن : إذا أملتة اليك .

(٥) الطول (بالضم) : خلاف العرض . والطول (بالفتح) : المن ؛ يقال طال عليه : إذا

امتت .

(٦) الحصر : العي ، وعدم القدرة على الابانة .

(٧) المعاهد : المقعد .

(٨) وثر الفراش (بالضم) : وطؤ ولان .

ففتح ، أم هَدَيْتُكُمْ ، وفي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ سَبِيحٌ ^(١) ، وَلَعَدُوِّ الْإِسْلَامِ
بِحِكْمَةِ حِكْمَتِهَا كَسْبِحٌ ^(٢) ، إِنَّمَا نَكِيلُ الشُّكْرِ لِمَنْ يُؤَيِّ فِي جِزَاءِ الْأَعْمَالِ
الْبَرَّةِ ، وَلَا يَبْخَسُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ وَلَا أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ ،
ذِي الرَّحْمَةِ الشَّرَّةِ ^(٣) ، وَالْأَطَافِ الْمُتَّصِلَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

وإن تشوّفتُم الى الأحوال الرَّاهنة ، وأسبابِ الكُفْرِ الوَاهية -
بمُدرةِ الله - الوَاهية ^(٤) ، فنحن نُظَرِ فُكْمِ بِطَرَفِهَا ^(٥) ، وَنُظَلِّعُكُمْ
على سبيلِ الأجمالِ بِطَرَفِهَا ؛ وهو أننا لما أعادنا الله من التَّمحيصِ ، إلى
مِثَابَةِ التَّخْصِيصِ ، من بَعْدِ المَرَامِ العَوِيصِ ، كَحَلِّنا بتوفيقِ الله
بِصَرِّ البَصِيرَةِ ، ووقفتنا على سبيله مَسَاعِيِ الحِياةِ القَصِيرَةِ ، ورأينا -
كما نُقِلَ إلينا ، وكُرِّرَ على من قَبَلنا وَعَلَيْنَا - أن الدُّنْيَا - وإن
غَرَّ الغُرُورِ ^(٦) وأنام على سُرْرِ العَقَلَةِ السُّرُورِ ، فلم يَنْفَعِ الخُطُورِ ^(٧)
على أَجْدَاثِ ^(٨) الأَحْبَابِ والمُرُورِ ، - جِسْرٌ يُعْبَرُ ، وَمَتَاعٌ لَا يُغْبَطُ
من حَيِّ بِهِ وَلَا يُخْبَرُ ^(٩) ، إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ يُخْبَرُ ؛ وَأَنَّ الحَسْرَةَ بِمِقْدَارِ

(١) السبوح : الجري .

(٢) كسبح الفرس : جذبه إليه بالجمام يمنه عن الجري .

(٣) الرحمة الثرة : الغزيرة الكثيرة .

(٤) وهي وومن : ضعف .

(٥) جمع طرفة (بالضم) ؛ وهي أن يوطى المرء ما لم يملكه فبعجه .

(٦) الغرور (بالفتح) : الشيطان ؛ وفي القرآن : « ولا يفرنكم بالله الغرور » .

(٧) الخطور : التبختر في المشي .

(٨) جمع جدث : وهو القبر .

(٩) يخبر : يعم ويسر ويكرم .

ما على تركه يُخبر، وأن الأعمار أحلام، وأن الناس نيام؛ وربما
 رحل الرّاحلُ عن الحان^(١)، وقد جلّله بالأذى والدُّخان، أو
 ترك به طيباً، وثناً يقوم بعدُ للآتي خطيباً؛ فجعلنا العدلَ في
 الأمورِ ملاكاً^(٢)، والتفقدُ للشُّغورِ مساوِكا، وضيعَ المهادَ،
 حديثَ الجهادِ، وأحكامه مناطَ الاجتهادِ، وقوله: «يأيُّها الذين
 آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ»^(٣) من حجج الاستشهاد؛ وبأدرانا
 رَمَقَ^(٤) الحُصونَ المضاعةَ وجنح^(٥) التقيّة^(٦) دَامَسَ^(٧)،
 وعوّارِها^(٨) لا تردُّ يدَ لَامَسَ^(٩)، وساكنها بائس، والأعصم^(١٠)
 في شَعَفَاتِها^(١١) من العِصمةِ يائس؛ فزَيْنًا بيضَ الشُّرُفاتِ ثناياها،
 وأفعمنا بالعذب الفُراتِ رَكاياها^(١٢) وغشينا بالصفيح المضاعف

(١) الحان المكان الذي ينزله المسافرون، وهو الفندق.

(٢) ملاك الأمر: ما يقوم به ذلك الأمر.

(٣) يشير إلى الآيات (١٠ - ١٣) من سورة الصف.

(٤) الرمق: بقية الحياة والروح. وفي الكلام تجوز.

(٥) جنح الطريق: جانبه، وجنح القوم: ناحيتهم.

(٦) التقيّة: التحفظ.

(٧) ليل دامس: مظلم.

(٨) جمع عارية؛ وهي المنجردة من الثياب. والعورات: الحلال في الثغر وغيره، يتخوف

منه في الحروب.

(٩) يقال للمرأة التي تزني: لا ترد يد لأمس؛ أي لا ترد من يريدتها عن نفسها.

(١٠) الأعصم: الوعل، وعصمته: بياض في رجله.

(١١) الشعفات، جمع شفعة؛ وهي رؤس الجبال.

(١٢) جمع ركية وهي البئر.

أبوآبها ، واحتسبنا عند موتي الأجور ثوابها ، وبيضا بناصع
الكليسِ أوابها ؛ ففي اليوم توهم حس العيان ، أنها قطع من بيض
العنان^(١) ، وتكاد تناول قرص البدر بالبنان ، متكفلة للمؤمنين
من فزع الدنيا والاخرة بالأمان ؛ وأقرضنا الله قرضا ، وأوسعنا
مدونة الجيش^(٢) عرضا ، وفرضنا إنصافه مع الإلهة فرضا ؛
واستندنا من التوكل على الله الغني الحميد الى ظل لواء ، ونبدنا
الى الطاغية عهدَه على سوا^(٣) ، وقلنا : ربنا أنت العزيز ، وكلُّ
جبار لعزك ذليل ، وحزبك هو الكثير ، وما سواه قليل ؛ أنت
الكافي ، ووعدك الوعد الوافي ، فأفرض^(٤) علينا مدارع^(٥)
الصَّابرين ، واكتبنا من الفائزين بحظوظ رضاك الطَّافرين ، وثبت
أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

فتحررنا أول الحركات ، وفاقحة مصحف البركات ، في
خف من الحشود ، واقتصار على ما يحضرتنا من العساكر
المظفرة والجنود ، الى حصن آشر البازي المطل ، وركاب العدو

(١) العنان : السحاب .

(٢) يريد الجيش الرسمي الذي كان مدونا في سجلات الدولة . وفي مقدمة الإحاطة ١٩/١ ،
٣٦ وصف الجيش الأندلسي ، وسلاحه ، وأقسامه ، وذكر مقدار ما كان يأخذه كل شهر .

(٣) نبذ العهد : نقضه ، وألقاه الى من كان بينه وبينه . والتعبير مقتبس من الآية ٥٨ من
سورة الأنفال .

(٤) أفرغ : أفرغ .

(٥) جمع مدرع : وهو ضرب من الثياب .

الضالّ المضلّ، ومُهْدِي نَفَثَاتٍ ^(١) الصِّل ^(٢)، على امتِنَاعِهِ وارتِفاعِهِ،
 وُسُومٍ يَفَاعِهِ ^(٣)، وما بَدَلِ العَدُوِّ فِيهِ مِنْ اسْتِعْدَادِهِ، وَتَوْفِيرِ
 أَسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ، وَانْتِخَابِ انْجِمَادِهِ؛ فَصَلِينَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ، وَزَا حَمْنَا
 عَلَيْهِ الشَّهْدَاءِ نُصَايِرُ أَوَارِهِ ^(٤) وَنَلْقَى بِالْجَوَارِحِ العَزِيزَةَ سِهَامَهُ
 المَسْمُومَةَ، وَجَلَامِدَهُ المَلْمُومَةَ ^(٥) وَأَحْجَارَهُ، حَتَّى فَرَعْنَا ^(٦) —
 بِحَوْلٍ مِنْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ — أَبْرَاجَهُ المَنِيعَةَ وَأَسْوَارَهُ،
 وَكَفَفْنَا عَنِ البِلَادِ وَالعِبَادِ أَضْرَارَهُ، بَعْدَ أَنْ اسْتَضَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ
 السَّهْلَةِ جَارَهُ؛ وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَحَنَاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَةً، وَأَزْوَاداً
 نَامِيَةً، وَعَمَلْنَا بِيَدِنَا فِي رَمِّ مَا نَلَمَ القِتَالَ، وَبَقَّرَ مِنْ بُطُونِ
 مُسَابِقَةِ الرِّجَالِ، وَاقْتَدَيْنَا بِنَيْبِنَا — صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامِهِ —
 فِي الحَنْدَقِ ^(٧) لَمَّا حَمَى ذَلِكَ المَجَالَ، وَوَقَعَ الِارْتِجَازَ المَنْقُولَ
 حَدِيثُهُ وَالِارْتِجَالَ ^(٨)؛ وَمَا كَانَ لِيَقْرَأَ لِلِاسْلَامِ مَعَ تَرَكَه القَرَارَ، وَقَدَ

(١) نفثت الحية السم : اذا لست بأفها ، فاذا عضت بناتها قيل : نثطت .

(٢) الصل (بالكسر) : الحية التي لا تنفع فيها الرقية .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٤) الأوار (بالضم) : حرارة النار ، والشمس ، والعطش .

(٥) جلامدة ، جمع جلد ؛ وهو الصخر . والملمومة : المستديرة الصلبة .

(٦) فرعنا : علونا .

(٧) كانت غزوة الحندق في السنة الخامسة من الهجرة . الطبري ٤٣/٣ .

(٨) نقل السبلي في الروض الأنف عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي : أن النبي صلى

الله عليه وسلم كان يرتجز يوم الحندق فيقول :

بسم الإله وبه بديننا

ولو عبدنا غيره شقيننا

فحبذا ربنا وحب ديننا

كشَبَ الْجَوَارَ ، وَتَدَاعَى الدَّعْرَةَ^(١) وَتَعَاوَى الشَّرَارَ^(٢) .

وَقَدْ كُنَّا أَغْرَيْنَا مَنْ بِالْجَهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَدِينَةِ بُرْغَةَ
الَّتِي سَدَّتْ بَيْنَ الْقَاعِدِ تَيْنِ رُنْدَةَ وَمَالِقَةَ الطَّرِيقِ ، وَالْبَسْتِ
ذُلَّ الْفِرَاقِ ذَلِكَ الْفَرِيقِ ، وَمَنْعَتْهُمَا أَنْ يُسَيِّفَا الرِّيقَ ؛ فَلَا سَهِيلَ
إِلَى الْإِلْمَامِ ، لَطِيفِ الْمَنَامِ ، إِلَّا فِي الْأَحْلَامِ ، وَلَا رِسَالَةَ إِلَّا فِي أَجْنَحَةِ
هُدْلِ^(٣) الْحَمَامِ ؛ فَيَسِّرُ اللَّهُ فَتْحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ، بَعْدَ
حَرْبٍ انْبَتَّتْ فِيهَا النُّحُورُ ، وَتَرَيْنَتِ الْخُورُ . وَتَبِعَ هَذِهِ
الْأُمَّ بَنَاتُ شَهِيرَةَ ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرَةَ^(٤) ، فَشُنِي
الشُّغْرُ مِنْ بُوْسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ النَّاجِيَةِ
بَعْدَ عَبُوسَةٍ .

ثُمَّ أَعْمَلْنَا الْحَرَكَةَ إِلَى مَدِينَةِ إِطْرِيَّةِ ، عَلَى بُعْدِ الْمَدَى ، وَتَغْلَغَلْنَا فِي
بِلَادِ الْعَدَا ، وَاقْتَحَمَ هَوْلَ الْفَلَاوِ غُولِ الرَّدِيِّ ؛ مَدِينَةً تَبَنَّتْهَا حُمْصُ^(٥)

(١) رجل داعر (بالهجمة): يسرق ، ويزني ، ويؤذي الناس ؛ والجمع دعرة.

(٢) تعاوت الشرار: تجمعت للفتنة ، وتعاووا عليه ؛ تعاونا وتساعدوا .

(٣) الهديل : ذكر الحمام . والجمع هدل ، كسرير وسرر .

(٤) الخيرة : المختار من كل شيء ؛ يريد : بقاع مختارة للزرع والضرع .

(٥) يريد أشبيلية ؛ سماها حمص جند بني أمية الذي نزل بها حين جاء من حمص الشام .

وقد فعلوا ذلك في كثير من مدن الأندلس . باقوت ٣/٢٤٤ .

فَأَوْسَعَتِ الدَّارَ ، وَأَغْلَتِ الشَّوَارَ ^(١) ، وَرَاعَتِ
الاسْتِكْثَارَ ، وَبَسَطَتِ الاعْتِيَارَ ^(٢) ؛ رَجَّحَ لَدَيْنَا قَصْدَهَا عَلَى الْبُعْدِ ،
وَالطَّرِيقِ الْجَمْعِ ، مَا أَسْفَتَ ^(٣) بِهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ اسْتِئْصَالِ طَائِفَةٍ
مِنْ أَسْرَاهِمَ ، مَرُّوا بِهَا آمِنِينَ ، وَبِطَائِرِهَا الْمَشْتُومِ مَتَمِّينَ ، قَدْ
أَنهَكَهُمُ ^(٤) الْاِعْتِقَالَ ، وَالْقِيُودُ الشِّقَالَ ، وَأَضْرَعَهُمُ الْاَسَارَ وَجَلَّلَهُمُ
الانْكَسَارَ ، فَجَدُّوهُمْ ^(٥) فِي مَضْرَعٍ وَاحِدٍ ، وَتَرَ كُوْهُمُ عِبْرَةً لِلرَّائِي
وَالْمَشَاهِدِ ، وَأَهْدَوْا بِوَقِيعَتِهِمْ إِلَى الْاِسْلَامِ نُكْلَ الْوَاوِجِدِ ^(٦) ، وَتِرَةً
لِلْمَاجِدِ ^(٧) ؛ فَكَبَسْنَاهَا كَبْسًا ، وَفَجَّأْنَاهَا بِإِلْهَامٍ مَنْ لَا يُضِلُّ وَلَا يَنْسِي
وَصَبَّحَتِهَا الْخَيْلُ ، ثُمَّ تَلَّاحَقَ الرَّجُلُ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، وَحَاقَ بِهَا الْوَيْلُ ؛
فَأَبِيحَ مِنْهَا الدَّمَارَ ^(٨) ، وَاخْذَهَا الدَّمَارَ ، وَوَحِّحَتْ ^(٩) مِنْ مِصَانِعِهَا
الْبَيْضُ الْأَهْلَةَ وَخَسَفَتِ الْاِقَارَ ، وَشَفِيَتْ مِنْ دِمَاءِ أَهْلِهَا الضُّلُوعَ

(١) الشوار : متاع البيت ؛ ويريد به ما تعارف عليه الفقهاء ، مما يشتري من الصداق الذي
يدنسه الزوج ؛ ويجهز به الزوجة من حلى ، وغطاء ، ووظاء الخ ، ذلك لأنه جعل «حصن»
أماً لا طرية قد زوجتها وجيزتها ، فتعالت - لما في الأم من حب لابنتها - في هذا الجهاز الخ .
فجاء بالألفاظ الفقهية بجمانيها التي اصطلحوا عليها .

(٢) يريد بالاعتار : الاستعمار ، والاستغلال .

(٣) أسفاه : أطاشه حله ، وحمله على الطيش .

(٤) انهكهم : أجدهم ، وأضناهم

(٥) فجدلوهم : صرعوهم

(٦) النكل : فقد المرأة ولدها ، وفقد الرجل ولده أيضاً . والواجد : الغضبان .

(٧) الترة : الدحل والنار . والماجد : الكريم ، ومن له آباء متقدمون في الشرف .

(٨) الدمار : ما وراء الرجل مما يحق له ان يجنيه . والدمار (بالهملة) : الهلاك .

(٩) المحق : النقصان وذهاب البركة . لسان العرب (محق)

الحرار^(١) ، وسلطت على هياكلها النار ، واستولى على الآلاف
العديدة من سبيها الاسار ، وانتهى الى إشييليه الشكلي المغار^(٢)
فجئل وجوه من بها من كبار النصرانية الصغار^(٣) ، واستولت
الأيدي على ما لا يسعه الوصف ولا تُقله^(٤) الأوقار^(٥) .

وُعدنا والأرض تموج سنيا ، لم نترك بعفرين شيلا^(٦) ولا
بوجرة ظيبا^(٧) ، والعقائل^(٨) حسري ، والعيون يبهرها الصنع
الأسري^(٩) وُصبح السرى قد حمد من بعد المسرى^(١٠) ، فسبحان
الذي أسرى^(١١) ؛ ولسان الحمية يُنادي ، في تلك الكنائس المخربة
والنوادي : يا لآثارات الأسرى !

-
- (١) الضلوع الحرار : العطشى .
(٢) المغار : مصدر ميمي بمعنى الاغارة .
(٣) جمل وجوهم : عم وجوهم . والصفار : الذل .
(٤) أقل الشيء : أطلق حمله .
(٥) الأوقار : جمع وقر ، وهو الحمل . وأكثر ما يستعمل في حمل البغل والحمار .
(٦) عفرين بلد تكثر فيه الأسود . والشبل : ولد الاسود .
(٧) وجرة : فلاة بوسط نجد ، لا تخلو من شجر ، ومياه ، ومرعى . والوحش فيها كثير .
(٨) تاج - وجر) .
(٩) جمع عقيلة ؛ وهي المرأة الكريمة ، النفيسة .
(١٠) الصنع الأسرى : الأشراف ، والارفع .
(١١) المشقة رجاء ، الراحة . أنظر الميداني ٣/٣٠٤ .
(١١) اقتباس من الآية ١ من سورة الإسراء . واسرى : سار ليلا .

ولم يكن إلا أن نُفِلت الأنفال^(١)، ووُسِّمت بالأوضح
الأغفال^(٢)، وتميَّزت الهوادي والأكفال^(٣)، وكان إلى غزو
مدينة جيان الاحتفال، فُدنا إليها الجرد^(٤) تَلَاعِب الظلال
نشاطا، والأبطال تَقْتَحِم الأخطار رضى بما عند الله واغتباطا،
والمهتدة الدلق^(٥) تَسِيق الي الرقاب استلالا واختراطا،
واستكثرتنا من عدد القتال احتباطا، وأزحنا العِلل عمن أراد
جهادا مُنجيا غباره من دُخان جهنم ورباطا، ونادينا الجهادا الجهادا
يا أمة الجهادا راية النبي الهادا الجنة تحت ظلال السيوف
الحدادا؛ فهِزَّ النداء إلى الله تعالى كلَّ عامر وغامر^(٦)، واثتمر الجمُّ
من دعوى الحق الي أمرٍ أمر، وآتتِ النَّاسُ من الفُجُوجِ العميقة^(٧)
رجالا وعلى كُلمٍ ضامر^(٨)، وكأثرتِ الرِّاياتُ أزهار الإطاح لونا
وعدا، وسدَّت الحشود مسالك الطريق العريضة سدا، ومُدَّ

(١) الأنفال، جمع نفل؛ وهو الغنيمة. ونفلت: أعطيت.

(٢) الأوضح، جمع وضغ؛ وهو البياض. والأغفال: الأراضي الموات؛ يقال أرض غفل: لا علم بها، ولا شيء.

(٣) هو ادى كل شيء؛ أوائله. يريد: تميز الشجعان الذين كانوا يتصدرون المعركة، من الأكفال (جمع كفل)؛ وهم الذين يكونون في مؤخر الموقمة همتهم التأخر، والفرار.

(٤) جمع أجرد؛ وهو الفرس القصير الشعر، وذلك في علامات العتق والكرم.

(٥) سيف دلق: سهل الخروج من غمده؛ والجمع: دلق.

(٦) العامر من الأرض: المستغل. والعامر: الذي يغمره الماء؛ ويراد به الأرض التي لم تستثمر. يريد: أقبل الناس من كل جانب.

(٧) جمع فجع؛ وهو الطريق البعيد، والواسع، والذي بين جبلين.

(٨) الجملة الضامر: الخفيف الجسم.

بجرؤها الزّاخر مدّا ، فلا يجد لها الناظر ولا المناظر حدّا .

وهذه المدينة هي الأمّ الولود ، والجنة التي في النار لسكّانها من الكفّار الخلود ؛ وكُرسيّ الملك ، ومجنّبة^(١) الوُسطى من السّلك ؛ باءت بالمزايا العديدة ونجّحت ، وعند الوِزان بغيرها من أمّات^(٢) البُلدان ، رَجَحَتْ ، غابُ الأسود ، وجُخر الحيات السود ، ومُنصّب^(٣) التّمائيل الهائلة ، ومعلّق النّواقيس المصلصلة .

فأذنيننا إليها المراحل ، وعيننا ببجار المحلّات المُستقلّات منها السّاحل^(٤) ، ولما أكشبتنا^(٥) جوارها ، وكيدنا نلتّمح^(٦) نارها ، تحرّكنا إليها ووشاح^(٧) الأفق المرقوم ، بزهر الشّجوم ، قد دار دائره ، والليل من خوف الصّباح ، على سطحه المُستباح ، قد

(١) المجنبة : التي تأخذ مكانها جانب الجوهرة الوسطى من العقد . يريد ان مدينة جيان تحتل المرتبة الثانية بالقياس الى حضرة الملك .

(٢) أمّات ، جمع أم ؛ ويفاب ان تأتي جمعاً لام ما لا يعقل . وانظر اللسان « أم » ، « أمه » .

(٣) منصب اسم مكان ، بمعنى الموضع الذي أقيمت فيه هذه التّمائيل .

(٤) أحل فلان أهله بمكان كذا : جعلهم يجلونه . واستقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

(٥) أكتب : تارب ، ودنا من الشيء .

(٦) التّمحه : ابصره بنظر خفيف .

(٧) الوشاح : شيء ينسج عربضاً من اديم ، ويرصع بالجواهر ، وتشده المرأة بين عاتقها

وكشحتها .

شَابَتْ غَدَائِرُهُ ، وَالنَّسْرُ^(١) يُرْفَرُ بِالْيَمْنِ طَائِرُهُ ، وَالسِّهْكَ^(٢)
الرَّامِحُ^(٣) يَشَارُ بِعِزِّ الْإِسْلَامِ نَائِرُهُ ، وَالنَّعَامُ رَاعِدَةٌ^(٤) فَرَائِصُ^(٥)
الْجَسَدِ ، مِنْ خَوْفِ الْأَسَدِ^(٦) ، وَالْقَوْسُ^(٧) يُرْسِلُ سَهْمَ السَّعَادَةِ^(٨) ،
بَوْتَرِ الْعَادَةِ ، إِلَى أَهْدَافِ النِّعَمِ الْمُعَادَةِ ، وَالْجُوزَاءُ^(٩) عَابِرَةٌ نَهْرٌ

(١) النسران : كوكبان شاميان ؛ احدهما واقع ، والاخر طائر . فالواقع كوكب ندير ، خلفه كوكبان اصفر منه ، يكونان معه صورة الاثافي ؛ ويقولون : هما جناحه وقد ضمها اليه حين وقع . واما الطائر ؛ فهو ازاء النسر الواقع في ناحية الشمال ، وتفصل بينهما المجرة ؛ وهو كوكب منير بين كوكبين تخيلوها جناحيه قد نشرهما . وانظر كتاب « الانواء » لابن قتيبة ص ١٣٣ لسان (نسر) .

(٢) السهك الرامح : نجم نير شمالي ، خلفه كوكبان بمنزلة الرمح له . وهو نجم لانه له ويقابه السهك الأعزل ؛ وهو من منازل القمر .

(٣) النعام : منزلة من منازل القمر ؛ وهي أربعة كواكب مربعة على طرف المجرة . وهناك نعائم واردة ، ونعائم صادرة ؛ فالواردة منها هي التي ترد في نهر المجرة ، والصادرة قد وردت وصدرت ، أي رجعت عنها . لسان العرب (نعم) .

(٤) راعدة الفرائص : فزعة ، مرتجفة . والفرائص ، جمع فريضة ، وهي مرجع الكتف الى الحاصرة في وسط الجنب .

(٥) الأسد : أحد البروج الشمالية الاثني عشر . وكواكبه ٣٤ كوكبا .

(٦) القوس ، ويسمى الرامي : أحد البروج الاثني عشر من البروج الجنوبية ؛ وهو كوكبة على صورة شخص نصفه الأعلى انسان ، بيده قوس يرمي به ، والنصف الأسفل منه على صورة فرس . وكواكبه ٣١ كوكباً ، ويقع خلف كوكبة العقرب .

(٧) السهم - في مصطلح النجمين : عبارة عن موضع في دائرة فلك البروج ، يقع بين طولتي كوكبين من الكواكب السيارة . ولهم في استخراجهم طرق حسابية معروفة ؛ ولهذا الموضع المعين دلالة خاصة . وأقوى السهام : سهم السعادة ، وسهم الغيب .

(٨) الجوزاء ، وتسمى الترامين : برج من بروج الشمس الشمالية ؛ وهي صورة انسانين رأسها ، وسائر كواكبها في الشمال والمشرق عن المجرة ، وأرجلها الى الجنوب والمغرب في نفس المجرة ؛ وهما كالمتناقضين . كواكبها ٢٥ كوكبا .

المَجْرَّة^(١) ، والزُّهْرَة^(٢) تَقَارُ من الشِّعْرَى العُبُور^(٣) بالضَّرَّة ؛
 وُعْطَارِد^(٤) يُسْنِدِي في حَبْلِ الحُرُوب ، على البَلَدِ المَحْرُوب^(٥)
 وَيُلْحِمُهُ ، وَيُنَاطِرُ على أَشْكَالِهَا الهِنْدَسِيَّةِ فَيُفْحِمُهُ ، وَالْأَحْمَر^(٦)
 يَبْهَرُ ، وَبَعَلَّمَهُ الأَبْيَضُ يُغْرِي وَيَنْهَرُ ، وَالمُشْتَرِي يُبْدِي في فَضْلِ
 الجِهَادِ وَيُعِيدُ ، وَيُزَاحِمُ في الحَلَقَاتِ ، على مَا لِلسَّعَادَةِ من الصَّفَقَاتِ ،

(١) المجرة : البياض الذي يرى في السماء ، وتسمى عند العوام بسبيل التبانين ؛ وهي كواكب صفراء ، متقاربة ، متشابكة لا تتأيز حسا ، بل هي لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطحانات سحابية ؛ والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها . عجائب المخلوقات للقزويني ٣٢/١ وما بعدها .
 (٢) الزهرة ، كتؤدة : نجم أبيض مضيء من الكواكب السبعة السيارة ، ويسمى المنجمون السعد الاصفر ، لأنها في السعادة دون المشتري . تاج العروس (زهر) .

(٣) الشعري العبور (بكسر الشين) : كوكب نير من كوكبة الجوزاء ، في حجم الزهرة ونورها تقريبا ؛ يقال لها الشعري العبور ، ومرزم الشعري ؛ ذكرت في القرآن : « وأنه هو رب الشعري » (٩٤ من سورة النجم) . وقد عبدها قوم من العرب في الجاهلية . وسميت العبور لأنها - فيما يزعمون - عبرت السماء عرضاً ، ولم يعبرها غيرها ، فذلك عبدوها . تاج العروس (شمر) .

(٤) عطارد ، ويسمى - في عرف أهل المغرب - الكاتب : كوكب من السبعة السيارة . واقترانه بزحل يدل على الخسف والزوال ، وبالمرينخ يدل على الشدائد .

(٥) المحروب : المسلوب المال ، المنهوب .

(٦) الأحمر وهو المريخ : دليل على الحروب وأصحابها ؛ فإذا كان في البرج الرابع من الطالع ، دل ذلك على كثرة القتل في الحروب ، وشدة الهول .

وَيَزِيدُ^(١)؛ وَزُحَلُ^(٢) عَنِ الطَّالِعِ^(٣) مُنْزَحِلُ^(٤)، وَعَنِ العَاشِرِ^(٥) مُرْتَحِلُ، وَفِي زَلَقِ السُّعُودِ وَحِلْ؛ وَالبَدْرِ يَطَالِعُ حَجَرَ المِنْجَنِيْقِ^(٦)، كَيْفَ يَهْوِي إِلَى النَّيْقِ^(٧)، وَمَطْلِعُ الشَّمْسِ يُرْقَبُ، وَجِدَارُ الأفقِ يَكَادُ بِالعُيُونِ عَنهَا يُنْقَبُ.

ولما فشا سرُّ الصِّباحِ، واهتزت أعطاف الرِّاياتِ بتحياتِ مُبشِّراتِ الرِّياحِ، أَطَلَّنا^(٨) عليها إطلالِ الاسود على الفرائسِ، والفُحولِ على العرائسِ؛ فنظرنا منظرًا يروع بأساً ومنعةً^(٩)، ويروقُ وضماً وصنعةً، تَلَقَّتْ^(١٠) معاقله الشَّمُّ للسَّحابِ يبرُودُ، ووردت من عُدرِ المِزْنِ في برُودِ^(١١)، وأشرعت لاقتطافِ ازهار النجوم والذراع

(١) زحل، والمشتري، والمريخ، إذا اقترنت بعضها ببعض، أو تناظرت؛ بأن كانت ناظرة بعضها إلى بعض نظر عداوة، وذلك عند التربيع والمقابلة - إذا حصل ذلك عند حلول الشمس برأس الحمل، فإن ذلك يدل على وقوع حرب.

(٢) رحل، وهو كيان؛ إذا اتصل به القمر اتصال عداوة، فإن ذلك يدل على البلايا والرزايا.

(٣) الطالع؛ هو البرج الذي على الأفق الشرقي.

(٤) زحل عن مكانه؛ زل، وحاد.

(٥) العاشر؛ هو البرج الذي يقع فوق سمت الرأس.

(٦) المنجنيق (بفتح الميم وكسرها)؛ آلة لرمي الحجارة على العدو في الحرب. شفاء الغليل

ص ١٣٣.

(٧) اليق؛ أرفع موضع في الجبل.

(٨) أطلنا عليها؛ أشرفنا عليها.

(٩) منعة؛ قوة تمنع من يريده بسوء.

(١٠) تلقت؛ تلحف.

(١١) البرود من الشراب؛ ما يبرد الفلة.

بين النطاق معاصم رُود^(١) ، وبلدًا يعيي الماسح والذارع^(٢) ، وينتظم^(٣) المحاني والأجارع^(٤) ؛ فقلنا : اللهم نقله أيدي عبادك ، وأرنا فيه آيةً من آيات جهادك ؛ وزلنا بساحتها العريضة المتون ، نُزول الغيث الهتون ، وتيمنا من فحصها بسورة « التين والزيتون » ، متبرئةً من امن امان الرحمان للبلد المفتون ؛ وأعجلنا الناس بحمية نفوسهم النفيسة ، وسجية شجاعتهم البئيسة^(٥) ، عن ان تبوأ^(٦) للقتال المقاعد^(٧) ، وتُدني باسراع شهير النفير منهم الاباعد ، وقبل ان يلتقي الحديم بالمخدوم ، ويركع المنجنيق ركعتي القدوم ؛ فدفعوا من اصحر اليهم من الفرسان . وسبق الي حومة الميدان^(٨) ، حتى أحجروهم في البلد ، ولبوهم لباس الجلد^(٩) ، في موقف يذهل الوالد عن الولد ، صابت السهام

(١) رخصة ناعمة .

(٢) مسح الارض : قاس مساحتها . وذرعها : قاسها بالذراع .

(٣) المحاني ، جمع محنية ؛ وهي منعرج الوادي ، وما انحني من الارض . والاجارع ، جمع

أجرع ؛ وهي الارض الطيبة المنبت ، والارض فيها حزونة .

(٤) الشديدة البأس .

(٥) تبوأ : تهبأ .

(٦) المقاعد : مواقف للقتال تعين لكل واحد من المقاتلين ؛ يعني عجلنا بالهجوم قبل ان يتخذ

كل مقاتل مكاناً معيناً . اشارة الى الآية « واذا غدوت من اهلك تبويء المؤمنين مقاعد للقتال »

(١٢١ من سورة آل عمران) .

(٧) حومة الميدان : أشد موضع فيه وقت القتال .

(٨) الجلد : القوة ، والصبر .

فيه غماما^(١)، وطارت كَأَسْرَابِ الحِمامِ تُهْدِي حِمَامًا^(٢)، واضحّت القَنَا-قَصْدًا^(٣)، بعد أن كانت شِهَابًا رَصْدًا؛ ومَاجِ بَحْرِ القَتَامِ^(٤) بأمواج النُّصُولِ، واخذ الأرض الرَجْفَانَ لِرِزَالِ الصِّيَاحِ الموصولِ؛ فلا ترى الا شهِيداً تَظَلُّلُ مَصْرَعَهُ الحُورِ^(٥)، وصريعاً تقذِفُ به الى الساحل تلك البحور؛ ونواشِبَ^(٦) تَبَأَى^(٧) بها الوجوهُ الوجيهة عند الله والنُحُورِ؛ فالمِقْضَبِ^(٨)، فَوْدَهُ^(٩) يُخْضَبُ، والأَسْمَرِ، عَصْنُهُ يُسْتَمَرُ، والمِغْفَرِ^(١٠)، حِمَاهُ يُخْفَرُ، وظُهورُ القِيسِيِّ تَقْصَمُ^(١١)، وعِصَمُ الجُنْدِ الكَوَافِرِ تُقْصَمُ^(١٢)، وورقُ اليَلبِ^(١٣) في المنقلبِ

(١) صابت السهام غماما : نزلت كالغمام لكثرتها .

(٢) الحِمام (بالكسر) : قضاء الموت وقدره .

(٣) قصدا : قطعا ؛ يقال : القنا قُصد أي مكسورة .

(٤) القتام : الفبار .

(٥) جمع حوراء ؛ وهي التي اشتد بياض عيناها ، وسواد سوادها .

(٦) نواشب : سهام ناشبة في وجوه المحاربين ، أو في أعناقهم .

(٧) تبأى بها : تنشق .

(٨) سيف مقضب : قطاع .

(٩) الفود : معظم شعر اللثة مما يلي الأذن . واسناد ذلك للسيف على جهة التوسم .

(١٠) المغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه .

(١١) تقصم : تكسر .

(١٢) عِصَم الكوافر : جمع عصية ، وأصل العصية الخبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه :

والكوافر جمع كافرة . وهو يريد هنا ان الجند جميعات ، فصح له جمع فاعل على فواعل . تقصم :

تقطع وتفصل . مقتبس من الآية : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

(١٣) اليلب : الدروع ، والدرق .

يَسْفُطُ ، وَالْبَيْضُ تُكْتَبُ وَالسُّمْرُ تَنْقُطُ ^(١) ، فَاقْتَحِمِ الرِّبْضُ الْأَعْظَمُ
لِحِينَهُ ، وَظَهَرَ اللَّهُ لِعَيُونِ الْمَبْصِرِينَ وَالْمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ ، وَتَبْرَأُ
الشَّيْطَانَ مِنْ خَدِينِهِ ^(٢) ، وَنَهَبَ الْكَفَّارَ وَخَذَلُوا ، وَبِكَلِّ مَرْصَدٍ
جُدَلُوا ؛ ثُمَّ دَخَلَ الْبَلَدُ بَعْدَهُ غِلَابًا ، وَجَلَّلَ ^(٣) قَتَلًا وَاسْتَلَابًا ؛
فَلَا تَسَلُ إِلَّا الظُّبَا ^(٤) وَالْأَسْلَ ^(٥) عَنْ قِيَامِ سَاعَتِهِ ، وَهَوْلِ يَوْمِهَا
وَشِنَاعَتِهِ ، وَتَحْرِيْبِ الْمَبَائِثِ ^(٦) وَالْمَبَانِي ، وَغِنَى الْأَيْدِي مِنْ
خَزَائِنِ تِلْكَ الْمَعَانِي ، وَنَقَلَ الْوُجُودَ الْأَوَّلَ إِلَى الْوُجُودِ الثَّانِي ^(٧) ؛
وَتَحَارَقَ السَّيْفُ فِجَاءً بَغَيْرِ الْمُعْتَادِ ، وَنَهَلَتْ الْقَنَا الرَّدْيِيَّةَ مِنَ الدِّمَاءِ ،
حَتَّى كَادَتْ تُورِقُ كَالْأَغْصَانِ الْمُقْتَرَسَةِ وَالْأَوْتَادِ ، وَهَمَّتْ أَفْلَاكُ
الْقِسِيِّ وَسَحَّتْ ، وَأَرْنَتْ حَتَّى بُجَّتْ ، وَنَفَدَتْ مَوَادُّهَا فَسَحَّتْ ،
مِمَّا أَلْحَتْ ، وَسَدَّتْ الْمَسَالِكَ جِثُّ الْقَتْلَى فَمَنَعَتْ الْعَابِرَ ، وَاسْتَأْصَلَ

(١) البيض : السيوف . والسمر : الرماح .

(٢) الخدين : الصديق .

(٣) جلال قتل : عمه القتل .

(٤) الظبا ، جمع ظبة ؛ وهي حد السيف ، والسنان ، والنصل ، والخنجر ، ونحوها .

(٥) الأسل : عيدان طوال دقاق مستوية لا ورق لها ؛ وتسمى الرماح والقنأسلا ، على

التشبيه بها في الطول ، والاستواء ، والدقة .

(٦) المبائث ، جمع مبيت ، مكان البيوتة .

(٧) يعني بالوجود الأول : الوجود الخارجي ، وهو المرئي بأمعين الملوس . أما الوجود

الثاني فهو الوجود الذهني ؛ والمعنى أن هذه المدينة قد أصبحت موجودة في الأذهان صورتها بعد أن
كانت موجودة العين . وانظر معيار العلم للقرظي ص ٣٧ . وشرح المقاصد للسيد ١/٥٧ (طبع

إستانبول سنة ١٢٧٧ هـ)

الله من عدوه الشَّافَةَ وقَطَعَ الدَّابِرَ^(١)، وأزَلَفَ الشَّهيدَ وأحسَبَ الصَّابِرَ^(٢)، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الفِتحِ الذي لم يُسَمِعْ بمِثله في الزَّمنِ العَايرِ .
تَنقُلُ البُشرى من أفواهِ المحابرِ ، الى آذانِ المنابرِ .

أَقَمْنَا بها أَياماً نَعقِرُ الأشجارَ^(٣)، ونَسْتَأصلُ بالتَّخريبِ الوِجارَ^(٤)،
ولسانُ الانتقامِ من عِبَدَةِ الأصنامِ ، يُنادي : يا لثاراتِ
الأسْكَندريَّةِ^(٥) تَشْفِيًّا من الفِجارِ^(٦)، ورعيًّا لِحِقِّ الجارِ؛ وقفنا
وأجنحةُ الرِّاياتِ ، برياحِ العِناياتِ ، خافقةً وأوفاقَ^(٧) ، التَّوفيقِ ،

(١) الشَّافَةُ : الأصل ، واستأصل الله شافته أي أصله . وقطع الدابر : استأصل آخرهم .
(٢) أزلف الشهيد : قربه إليه . وأحسب الصابر : أعطاه ما يرضى ، أو أعطاه حتى قال حسي .

(٣) نعفر الأشجار : نقطع رؤوسها ، فنبس .

(٤) الوجار (بالكسر ويفتح) : جحر الضبع ، والاسد ، والتعلب ، والذئب ونحوها .

(٥) يشير ابن الخطيب الى «الواقعة» التي حدثت بالاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ ، ومجملها ان ساءم

قبرص ، انتهز غيبة حاكم الاسكندرية في الحجاز للحج ، فهاجم البلد في اسطول بلغت قطعه نحو ٧٠ فميا قالوا ، وقد خرج اهل الاسكندرية للنزهة غير مقدرين للخطر ، وكانت الحامية الموجودة قليلة ، والأسوار والحصون خالية من المدافعين ، فهاجم العدو الأهالي العزل الآمنين ، ففروا الى المدينة ، وأغلقوا عليهم الابواب ، فأحرقها العدو واقتحم البلد عليهم .. فكانت مذابح هتكت فيها حرمان . وانظر تفصيلها في العبرم ٥ .

(٦) شبه مهاجمة الاسكندرية الآمنة بحرب «الفجار» ، التي سميت بذلك لما استحل فيها من حرمان ، حيث كانت في الاشهر الحرم .

(٧) أوفاق ، جمع وفق ؛ وهي مربعات تحتوي على بيوت مربعة صغيرة ، وتوضع في تلك البيوت ارقام ، أو حروف ، على نظام بحيث لا يتكرر عدد في بيتين ، وبحيث يكون مجموع اضلاع المربع ، ومجموع اقطاره ، متساوياً ؛ ويسمى الوفاق - بعد ذلك - بما في احد اضلاعه من بيوت ؛ فيقال : الملك ، والمربع ، والخمس النح ؛ وقد يحتوي على مئة من البيوت فيقال : الوفاق المثيني . ويقول اصحاب الوفاق : ان للاعداد - في هذا الوضع - خواص روحانية ، وآثاراً عجيبة ، اذا استير العمل بها وقت مناسب ، وساعة شريفة . وكلام ابن الخطيب على التشبيه والتجوز .

النَّاشِئَةَ مِنْ خُطُوطِ الطَّرِيقِ ، مُوَافِقَهُ ، وَأَسْوَاقُ الْعَزَبِ بِاللَّهِ نَافِقَهُ ،
وَحُمَلَاءُ الرَّفِيقِ مَصَاحِبُهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - مُرَافِقَةٌ ؛ وَقَدْ ضَاقَتْ
ذُرُوعُ الْجِبَالِ ، عَنْ أَعْنَاقِ الصُّهْبِ السِّبَالِ ^(١) ، وَرُفِعَتْ عَلَى الْأَكْفَالِ ،
رُدْفَاءُ كِرَامِ الْأَنْفَالِ ، وَقُلِقَلَتْ مِنَ النَّوَاقِيسِ أَجْرَامُ الْجِبَالِ ،
بِالْهِنْدَامِ ^(٢) وَالْأَحْتِيَالِ ؛ وَهَلَكَ يَمْهَلِكُ هَذِهِ الْأَمَّ بَنَاتُ كُنَّ
يَرْتَضِعْنَ ثُدْيَهَا الْحَوَافِلِ ^(٣) ، وَيَسْتَوَثِرْنَ حِجْرَهَا الْكَافِلِ ؛ شَمِلَ
التَّخْرِيبُ أَسْوَارَهَا ، وَعَجَّلَتِ النَّارُ بَوَارَهَا .

ثُمَّ تَحَرَّكَ كُنَّا بَعْدَهَا حَرَكَةَ الْفَتْحِ ، وَأَرْسَلْنَا دِلَاءَ الْأَدْلَاءِ ^(٤) قَبْلَ
الْمَنْحِ ^(٥) ، فَبَشَّرَتْ بِالْمَنْحِ ؛ وَقَصَدْنَا مَدِينَةَ أُبْدَةَ ، وَهِيَ ثَانِيَةُ
الْجَنَاحِينَ ، وَكَبُرَى الْأَخْتِينَ ، وَمُسَاهِمَةُ جِيَانِ فِي حِينِ الْحِينِ ^(٦) ؛
مَدِينَةٌ أَخَذَتْ عَرَضَ الْفَضَاءِ الْأَخْرَقِ ^(٧) ، وَتَمَثَّتْ فِيهِ أَرِبَاضُهَا تَمَثِّي

(١) الصهب : جمع اصهب ، وهو الابيض تخالطه حرة . والسبال : جمع سبله ؛ وهي اللحية ،
او ما على الشارب من شعر ؛ ويقال للاعداء عامة هم صهب السبال ؛ ذلك لان الصهوبة في الروم ،
وقد كانوا اعداء العرب ؛ ثم قالوا لكل الاعداء : هم صهب السبال .

(٢) الهندام آلة يجنال بها على رفع او تحريك الاشياء الثقيلة التي لا تستطيع قوى الانسان
المجردة ان ترفعها ، او تحركها . وقد وصف هذه الآلة ابن خلدون في آخر فصل البناء من مقدمته .

(٣) الحوافل : جمع حافلة ، الضرع الممتلئ ؛ لبناً .

(٤) جمع دلو ؛ وهي ما يستقى به . والادلاء : جمع دليل ، وهو المرشد . ويريد : قلتمنا
- قبل بدء القتال - طلائع لتكشف ما عند العدو من استعداد .

(٥) المنح : الاستقاء .

(٦) الحين : الهلاك .

(٧) الأخرق : البعيد الواسع .

الكتابة الجليحة في المهرق^(١)؛ المشتمة على المتاجر والمكاسب،
والوضع المناسب، والفلح المعيي ريعه^(٢) عمل الحاسب وكوارة^(٣)
الدبر^(٤) اللاسب^(٥) المتعددة العاسب^(٦)؛ فأناخ العفاء^(٧) برُبوعها
العامرة، ودارت كؤؤوس عقار^(٨) الحُتوف^(٩)، ببنان السيوف،
على مُتدِيرِيا المعاقرة^(١٠)، وصَبَحَتْها طلائعُ الفاقرة^(١١)، وأغرِيت
ببطنون أسوارها عوجُ المعاول^(١٢) الباقرة^(١٣)؛ ودخلت مدينتها عنوةُ
السيف، في أسرع من خَطرَةَ الطَّيف، ولا تَسأل عن الكيف،
فلم يَبْلُغ العفاء من مَدِينَةِ حَافِلَة، وَعَقِيلَة في حُللِ المَحاسِن
رافلة^(١٤)، ما بَلَّغ من هذه البائسة^(١٥) التي سَجَدت لالهة النيران

(١) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها .

(٢) الريع : النماء ، والزيادة ؛ وارض مربعة : مخصبة ، وهذا هو المراد هنا .

(٣) الكوار ، والكوار : شيء يتخذ للنحل من القضبان .

(٤) الدبر : النحل .

(٥) لاسبه النحلة ؛ لسعته .

(٦) البصوب : امير النحل . والجمع الصحيح يعاسيب .

(٧) أناخ الجمل : برك . والعفاء : الحو ، والازالة .

(٨) العقار : الخمر .

(٩) الحتوف : جمع حتف ؛ وهو الموت .

(١٠) معاقر الخمر : مدمنها ، والجمع : معاقرة : ولعله يريد بمتدِيرِيا ، دنارِيا .

(١١) الفاقرة : الداهية الكلمرة .

(١٢) جمع معول ؛ وهو الحديد تنقر بها الجبال . او هو الفأس .

(١٣) بقر الشيء بقرأ : فنهج ، ووسعه ، وشقه .

(١٤) امرأة رافلة : تجر ذيلها جراً حسناً اذا مشت .

(١٥) البائسة : الفقيرة . والتي نزلت بها بلية ترحم من اجلها .

أبرأجها ، وتضائل^(١) بالرغام^(٢) مغرأجها ؛ وصفت^(٣) على أعطافها^(٤) ملايس الخذلان ، وأقفر من كئائسها كناس^(٥) الغزلان .

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين^(٦) الوافرة ، ورثة الشهرة السافرة^(٧) ، والأنباء المسافرة ؛ قرطبة ، وما أدراك ماهية ذات الأرجاء الحالية^(٨) الكاسية^(٩) ، والأطواد الراسخة الراسية ، والمباني المباهية ، والزهراء^(١٠) الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ؛ حيث هالة بدر السماء قد استدارت من السور المشيد البناء دارا ، ونهر الحجر من نهرها الفيض ، المسلول حسامه من عمود الفيض^(١١) ، قد لصق بها جارا ، وفلك الدؤلأب ،

(١) تضائل : تصاغر وذل .

(٢) الرغام (بالفتح) : التراب .

(٣) ثوب ضاف : سابغ طويل .

(٤) عطفا كل شيء : جانباه ، والجمع اعطاف .

(٥) الكئاس : موضع في الشجر يستكن فيه الظبي ويستقر ، اذا اشتد الحر .

(٦) المزاين : ما يتزين به .

(٧) السافرة : الذاهبة كل مذهب .

(٨) الحالية : التي ليست حليا .

(٩) الكاسية : المكسية .

(١٠) الزهراء : مدينة في شمال قرطبة على بعد ثلاثة اميال منها ، تحت جبل العروس ؛ بناها

الناصر المرواني ابو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله اول سنة ٣٢٥ هـ ، وسماها باسم جارية كان يحبها ، اشتهت ان يبني لها مدينة في جبل العروس ، ويسميتها بانها . وقد وصفها المقرئ في نوح

الطيب ١ / ٣٤٤ - ٣٧٤ طبع ليدن .

(١١) الفيضة : مفيض ماء يجتمع ، فبنت فيه الشجر ؛ وجعها غياض .

المُعْتَدِلِ الْإِنْقِلَابِ ، قَدْ اسْتَقَامَ مَدَارًا ، وَرَجَعَ الْحَنِينَ اشْتِيَاقًا إِلَى الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ وَادِّكَارًا^(١) حَيْثُ الطَّوْدُ كَالْتَّاجِ ، يَزْدَانُ بِلُجَيْنِ الْعَذْبِ الْمُجَاجِ^(٢) ، فَيُزْرِي بِتَاجِ كَسْرَتِي وَدَارًا ؛ حَيْثُ قِيسِي الْجُسُورِ^(٣) الْمَدِيدَةِ ، كَأَنَّهَا عُوجُ^(٤) الْمَطِيِّ الْعَدِيدَةِ ، تَعْبُرُ النَّهْرَ قَطَارًا ؛ حَيْثُ آثَارُ^(٥) الْعَامِرِيِّ^(٦) الْمُجَاهِدِ^(٧) ، تَعَمَّقُ^(٨) بَيْنَ تِلْكَ

(١) يريد ان قرطبة دائما الحنين الى الحكم الاسلامي الذي انتظما منذ الفتح حتى سنة ٦٣٣ هـ حيث سقطت في ايدي الاسبان .

(٢) المجاج : السسل ، ومجاج المزن : مطرها .

(٣) الذي نعرف ان على نهر قرطبة جسرين ، بني الاعظم منهما - بأمر عمر بن عبد العزيز - السمع بن مالك الحولاني ، او عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ؛ وكانوا يسمونه قنطرة الوادي ، وكانت اقواسه سبع عشرة قوساً ، سمة الواحدة منها خمسون شبراً . نفح الطيب ١/٢٢٦ ، ٢٤٦ بولاق .

(٤) جمع عوجاء ؛ وهي الضامرة من الابل . والمطي : جمع مطية ؛ وهي البعير يمتطي ظهره . (٥) من آثاره : المنية المعروفة بالعامرية ، والمدينة « الزاهرة » التي اتخذها مقراً لحكمه ، والزيادة التي اضافها لمسجد قرطبة في الناحية الشرقية منه . نفح الطيب ١/٢٦٠ ، ٢٧٤ - ٢٧٧ بولاق .

(٦) هو محمد بن عبد الله بن ابي عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافري ، دخل جده الاندلس مع طارق بن زياد . واستوزره الحكم المستنصر لابنه هشام ، فلما مات حجه ابن ابي عامر ، واستولى على الدولة ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجد المنصور . توفي مبطلوناً بمدينة سالم ، بأقصى نفور المسلمين سنة ٣٩٣ او ٣٩٤ . العبر لابن خلدون ٤ .

(٧) كان المنصور بن ابي عامر محباً للجهاد ؛ غزا بنفسه - مدة ملكه - نيفاً وخمسين غزوة ، لم تنتكس له فيها راية ، ولا قل له فيها جيش . ومن شعره في ذلك :

ألم ترني بعت المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وبدلت بعد الزعفران وطيبه صدى الدرغ من مستحكات المسامر
فلا تحسبوا أنني شغلت بلذة ولكن أظعت الله في كل كافر

وكان يأمر ان ينفذ غبار ثيابه التي حضر فيها القتال ، وان يجمع ويحفظ به ؛ فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفته اذا وضع في قبره . رحمه الله . العبرم ٤ .

(٨) عقب الطيب : فاح وانتشر . (تاج) .

المعاهد، شذوى معطارا؛ حيث كرائم السحائب، ترور عرائس
الرياض الجباب، فتحمل لها من الدرّ نثارا؛ حيث شمول الشمال^(١)
تدار على الأذواح^(٢)، بالغدوِّ والرواح، فترى العُصون سُكاري،
وما هي بسُكاري؛ حيث أيدي الافتتاح، تفتضُّ من شقائق^(٣)
اليطاح، أبكارا؛ حيث تُغورُ الأقاح^(٤) الباسم، تُقبِّلها بالسحر
زوار النواسم، فتحفُّق قلوبُ الأجوم الغياري؛ حيث المصلَّى^(٥)
العتيق، قد رُحِبَ مجالاً وطالَ منارا^(٦)، وأزرى ببلاط الوليد^(٧)

(١) الشمول: الحجر. والشال: الريح تهب من القطب؛ ويقال: حمر مشمولة إذا ضربتها ريح الشمال فأصبحت باردة الطعم.

(٢) جمع دوحة: وهي الشجرة العظيمة المنسعة.

(٣) يريد شقائق النعمان، وتسمى الشقر أيضاً، وهي نور احمر، والنعمان اسم الدم، فشبت حمرتها بجمرة الدم، وسُميت شقائق النعمان، وغلب عليها اسم الشقائق.

(٤) جمع اقحوان، وهو نبت طيب الريح، له نور أصفر، وحواليه ورق ابيض، كأنه نمر جارية حدائة السن، وانظر مفردات ابن البيطار ٤٨/١. والصواب: «الاقح البواسم».

(٥) يريد جامع قرطبة، وقد وصفه الحميري في الروض المطار وصفاً مفصلاً ص ١٥٣ - ١٥٥، وانظر نفع الطيب ٣٥٨/١ - ٣٦٠ طبع ليدن.

(٦) وصف منارة جامع قرطبة وصفاً دقيقاً، وقاسها كذلك، الحميري في الروض المطار ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٧) كان الوليد بن عبد الملك من افضل خلفاء بني امية؛ أعطى المجذمين، وقال لهم لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً، وكل ضرير قائداً؛ وكان صاحب بناء وانخذ المصانع والضياع؛ وكان الناس في زمانه، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع؛ وبنى المساجد: مسجد المدينة، ومسجد دمشق، الذي أنفق عليه اموالاً عظيمة، وأحضر له الصنائع من بلاد الروم ومن سائر بلاد الاسلام، وكانت العرب تسميه بلاط الوليد. وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٨ - ٩٧ وتاريخ أبي الفداء ٢١٠/١، مقدمة ابن خلدون ص ٦٤. طبع دار الكتاب اللبناني - بيروت.

احتقاراً؛ حيثُ الظُّهور^(١) المُثارةُ بسلاح^(٢) الفلّاح، تُجَبُّ عن مثلِ
 أُسْنِمَة^(٣). المَهَارَى^(٤)، والبُطون^(٥) كأنها لتَدْمِثِ^(٦) الغمام، بَطونُ
 العَذَارَى، والأذواحِ العالیه، تُخْتَرَقُ أَعْلَامُهَا الهاديه، بالجداولِ
 الحِيَارَى^(٧). فمَاشَتْ من جَوِّ بَقِيلِ^(٨)، ومُعْرَسٍ لِلْحُسْنِ وَمَقِيلِ،
 ومالكٍ للعقلِ وَعَقِيلِ^(٩)؛ وخمائلٍ، كم فيها للبلابل، من قال وقيل،
 وخفيفٍ يَجَاوِرُ بِثَقِيلِ؛ وسَنَابِلَ تَحْكِي من فوق سُوقِهَا، وَقَصَبِ
 بسُوقِهَا، الهمزاتِ على الألفات، والعصا فِيرَ البَدِيعَةِ الصِّفَاتِ، فَوْقَ
 القُضْبِ المُوْتَلِفَاتِ، تَمِيلُ لِهُوبِ الصَّبَا وَالْجَنُوبِ، مَالِئَةٌ
 الجُيُوبِ، بِدُرِّ الجُيُوبِ؛ وَبِطَاحٍ لَا تَعْرِفُ عَيْنَ المَحَلِّ^(١٠)،

(١) الظهر من الارض : ما غلظ وارتفع .

(٢) أثار الارض بالنسب - وهي الحديدة التي تحرث بها الارض - اذا قلبها على الحب بعد ما
 فتحت مرة ، وفي القرآن : « وأثروا الارض » : حرثوها وزرعوها ، واستخرجوا منها بركاتها .

(٣) جب السنام : قطعه . وسنام الناقة : أعلى ظهرها ؛ والجمع أسنمة .

(٤) ابل مهريه : منسوبة الى مهرة بن حيدان أبي قبيله ، وهم حي عظيم ؛ والجمع مهاري .

(٥) جمع بطن ؛ والبطن من الارض : ما لان وسهل واطمأن .

(٦) دمت الشيء : مرسه حتى لان .

(٧) الحيارى : جمع حيران ؛ وهو المتردد في الامر ، لا يدرى وجهة يهتدي اليها .
 ويريد ان الجداول لاتوائها ، وكثرة منعطفاتها ، تشبه في سيرها شخصاً حيران قد التفت
 عليه السبل .

(٨) الجو : المنخفض من الارض . والبقييل : المكان ذو البقل ؛ وكل نبات اخضرت به
 الأرض فهو بقل .

(٩) يوري بمالك وعقيل ابني فارح بن مالك ؛ نديمي جذية الابرش ، ولهما مع عمرو بن
 عدي خبر نجد تفصيله في تاريخ الطبري ٣٠/٢ - ٣١ .

(١٠) المحل : الجذب ؛ وهو انقطاع الطر .

فَتَطَلَّبَهُ بِالذَّحْلِ^(١) ، وَلَا تَصْرِفُ فِي خِدْمَةِ بَيْضِ قَبَابِ الْأَزْهَارِ ،
عِنْدَ افْتِتَاحِ السَّوْسَنِ وَالْبَهَارِ^(٢) ، غَيْرَ الْعُبْدَانِ مِنْ سُودَانَ النَّحْلِ ؛
وَبَحْرِ الْفِلَاحَةِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ سَاحِلُهُ ، وَلَا يَبْلُغُ الطَّيَّةَ^(٣) الْبَعِيدَةَ
رَاحِلُهُ ؛ إِلَى الْوَادِي ، وَسَمَرِ النَّوَادِي^(٤) ، وَقَرَارِ دُمُوعِ
الْعَوَادِي^(٥) ؛ لِتَجَاسُرِ عَلَى تَخَطُّبِهِ ، عِنْدَ تَمَطُّبِهِ^(٦) ، الْجِسْرُ
الْعَادِي ؛ وَالْوَطَنِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ عَمْرٍو وَلَا زَيْدٍ ، وَالْفِرَا الَّذِي فِي
جَوْفِهِ كُلُّ صَيْدٍ^(٧) ؛ أَقْلٌ كَرَسِيَّهُ خِلَافَةُ الْإِسْلَامِ ، وَأَغَارُ
بِالرُّصَافَةِ^(٨) وَالْجِسْرِ دَارَ السَّلَامِ^(٩) ؛ وَمَا عَسَى أَنْ تُطَبِّبَ فِي وَصْفِهِ
أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ أَوْ تُعَبِّرَ بِهِ عَنْ ذَلِكَ الْكَيْمَالِ فَنُونَ الْكَلَامِ .

(١) الذحل : النَّارُ .

(٢) البهار - عند أهل المغرب - : نبات طيب الريح ، له قضبان خضر ، في رؤوسها أفاع
يخرج منها نور ينبسط منه ورق أبيض ، وفي وسط البياض دائرة صفراء من ورق صغير . وهذه
هي الصفة التي اثبتها أهل المشرق للترجس ، حيث قالوا : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد
أخضر . فالبهار عند أهل المغرب هو الترجس عند أهل المشرق .

(٣) الطيئة : الناحية .

(٤) السمر : الحديث بالليل . والنادي : المجلس ، والجمع الصحيح : أندية .

(٥) الغادة : السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، والجمع غواد .

(٦) تمطيه : امتداده . كنى به عن امتلاء النهر بالمياه أيام الشتاء .

(٧) الفرا : الحمار الوحشي ؛ وهو من أعظم ما يصطاده الناس ، وفي الكلام إشارة إلى
المثل : « كل الصيد في جوف الفرا » الذي يضرب لما يفضل على غيره . ميداني ٥٥/٢ .

(٨) الرصافة : قصر بناه عبد الرحمن الداخل ، في الشمال الغربي لقرطبة ، واتخذها لسكناه ،
نقل إليه من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة والأزهار ؛ وسماه باسم رصافة جده هشام بن عبد الملك .
معجم البلدان ٢٥٧/٤ .

(٩) يريد بغداد ، وسماها مدينة السلام أبو جعفر المنصور ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ انظر
تاريخ بغداد ٦٦/١ - ٦٧ .

فَأَعْمَلْنَا إِلَيْهَا السَّرَى وَالسَّيْرَ ، وَقُدْنَا إِلَيْهَا الْحَيْلَ قَدْ عَقَدَ اللَّهُ فِي
نَوَاصِيهَا الْخَيْرَ ^(١) . ولما وَقَفْنَا بظَاهِرِهَا الْمُبْهَتِ الْمُعْجَبِ ، وَاصْطَفَيْنَا
بِخَارِجِهَا الْمُنْبِتِ الْمُنْجِبِ ؛ وَالْقُلُوبُ تَلْتَمِسُ الْإِعَانَةَ مِنْ مُنْعَمٍ
يُجْزِلُ ، وَتَسْتَنْزِلُ مَدَدَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ مُنْجِدٍ مُنْزِلٍ ، وَالرَّكَائِبُ
وَاقِفَةٌ مِنْ خَلْفِنَا بِمَنْزِلٍ ، تَتَنَاشَدُ فِي مَعَاهِدِ الْإِسْلَامِ :

« قِيفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ ^(٢) »

بَرَزَ مِنْ حَامِيَّتِهَا الْمُحَامِيهِ ، وَوَقُودِ النَّارِ الْحَامِيهِ ، وَبِقِيَةِ
السَّيْفِ الْوَافِرَةِ عَلَى الْحِصَادِ النَّامِيَةِ ، قِطْعِ الْغَنَائِمِ الْهَامِيَةِ ، وَأَمْوَاجِ
الْبُحُورِ الطَّامِيَةِ ؛ وَاسْتَجَنَّتْ ^(٣) بِظِلَالِ أَبْطَالِ الْمَجَالِ ، أَعْدَادِ الرِّجَالِ ،
النَّاشِبَةِ ^(٤) وَالرَّامِيَةِ ، وَتَصَدَّى لِلنِّزَالِ ، مِنْ صِنَادِيدِهَا ^(٥) الصُّهْبِ
السَّبَالِ ، أَمْثَالِ الْهِيضَابِ الرَّاسِيَةِ ، تُجَنِّئُهَا ^(٦) جَنَّ ^(٧) السُّوَابِغِ الْكَاسِيَةِ ،

(١) إشارة الى حديث البخاري: « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة » . الجامع
الصحيح ١٨٧/٤ طبع الاستانة .

(٢) مطلع المعقة المشهورة لامرئ القيس .

(٣) استجنت : استترت .

(٤) الناشبة : قوم يرمون بالنشاب ؛ وهي السهام .

(٥) الصناديد : السيد الشجاع . والجمع صناديد .

(٦) تجنئها : تسترها .

(٧) الجفن : جمع جنة ، وهي السترة .

وقواميسها^(١) المفادية للصلبان يوم بوسها بنفوسها المواسية^(٢) ،
 وخنازيرها التي عدتها^(٣) عن قبول حجيج الله ورسوله، سُتور الظلم
 الفاشية ، وصخور القلوب القاسية ؛ فكان بين الفريقين أمام جسرهما
 الذي فرق البحر ، وحلّي بلجّينه ، ولا لي زينه ، منها النحر ،
 حرب لم تنسج الأزمان على منوالها^(٤) ، ولا أتت الايام الحبالى
 بمثل أجنة^(٥) أهوالها ؛ من قاسها بالفجار^(٦) أفك وفجر^(٧) ؛ او
 مثلها يجفّر الهباءة^(٨) خرف وهجر^(٩) ؛ ومن شبّها بحرب داحس
 والغبراء^(١٠) ، فما عرف الخبر ، فليسأل من جرب وخبر ؛ ومن نظرها

- (١) القواميس ، جمع قومس (بوزن جوهر) ؛ وهو مرافق الملك ، وندبه ، والامير .
 (٢) إواسي : المعين .
 (٣) عديته فتعدي : اي تجاوز الحد الذي حد له .
 (٤) المنوال : المنسج تنسج عليه الثياب . يريد لم تأت الايام بمثل هذه الحروب .
 (٥) حبالى : جمع حبل . والاجنة جمع جنين .
 (٦) حروب الفجار عدة ؛ واشهرها - وهي آخرها - تلك التي كانت بين قريش وكنانة ،
 وبين هوازن . وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار ،
 وسميت فجاراً لما استحلوا فيها من حرمة الاشهر الحرم . العقد الفريد ٣/٣٦٨ - ٣٧١ .
 (٧) أفك : كذب . وفجر : مال عن الحق .
 (٨) جفر الهباءة : يوم كان لعيس على ذبيان ، سمي بالموضع الذي كانت فيه موفعتهم ؛ وهو
 مستنقع في ارض غطفان . العقد الفريد ٣/٣١٦ - ٣١٧ ، ياقوت ٨/٤٤٠ ، الميداني ٢/٢٦٩ .
 (٩) خرف : فسد عقله . هجر : خلط في كلامه وهذى .
 (١٠) داحس والغبراء : يوم من اشهر ايامهم ، بلغ من بعد اثره ان اخذوه مبدءاً من مبادئ
 تواريتهم في الجاهلية ؛ ويقال انه دام اربعين سنة . وكان بين عيس وذبيان .
 وداحس والغبراء : فرسان ، وسمي اليوم بهما لما انه كان بسببهما ، انظر العقد الفريد
 ٣/٣١٣ - ٣١٤ .

بيومِ شَعْبِ جَبَلَهَ^(١) فهو ذُو بَلَهَ^(٢) ؛ او عادَلْها ببطنِ عاقلِ^(٣) ،
 ففَيْرُ عاقلِ ؛ او احتجَّ بيومِ ذِي قارِ^(٤) ، فهو الى المعرفة ذُو افتقارِ ؛
 او ناضل بيومِ الكَدِيدِ^(٥) ، فسهمه غير السديد ؛ انما كان مَقاماً غيرَ
 مُعتادِ ، ومرعى نفوس لم يفِ بوصفه لسانُ مُرتادِ^(٦) وِززالِ جبالِ
 اوتادِ^(٧) ، ومَتَلَفِ^(٨) مَذخورِ لسلطانِ الشيطانِ وَعَتادِ^(٩) ؛ اَعْلَمِ^(١٠)
 فيه البَطَلُ الباسلِ^(١١) ، وتورِدُ الابيضُ الباترِ^(١٢) ، وتَأوُدُ الاسمرِ^(١٣)

(١) كان يوم شعب جيلة لعامر وعس على ذبيان ، وكان - فيما يقول ابو عبيدة - قبل
 الاسلام بأربعين سنة (وشعب جيله : هضبة حراء بنجد) . العقد الفريد ٣/٣٠٧ - ٣١٠ ، ياقوت ٣/٥١
 (٢) البله : الغفلة .

(٣) بطن عاقل : يوم كان لذبيان على بني عامر ، (او كان بين بني خثعم ، وبني حضنة) ،
 ذكر سببه في العقد الفريد ٣/٣٠٥ - ٣٠٦ ، وانظر مجمع الامثال ٢/٢٦٤ .

(٤) يوم ذي قار : يوم مشهور كان ايام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثر عنه انه قال : «انه
 اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم » . وتفصيل اخباره ، وأسبابه ، مذكورة في العقد
 ٣/٣٧٤ - ٣٧٨ .

(٥) كان يوم الكديد لسليم على كنانة ، وفيه قتل ربيعة بن مكدم ، فارس كنانة . وانظر
 العقد الفريد ٣/٣٢٦ .

(٦) المرتاد والرائد : الذي يتقدم القوم في التماس النجاة واختيار المرعى الحسن .

(٧) أوتاد الارض : جبالها .

(٨) المتلف : المغارة ، والقفر ؛ سمي بذلك لانه يتلف سالكه .

(٩) العتاد : العدة تعدها للأمر ما .

(١٠) أعلم الفارس : جعل نفسه علامة الشجعان ، وأعلم نفسه : وسماها بسما الحرب .

(١١) الباسل : الشجاع .

(١٢) تورِد : احر . الابيض الباتر : السيف القاطع .

(١٣) تأوُد : اعوج وانثنى . الاسمر : الرمح .

العاسل^(١) ، ودوّم الجلمد^(٢) المتكاسل ، وانبعث من حدب^(٣) الحنيّة^(٤) ، الى هدف الرميّة^(٥) ، الناشر^(٦) النايسل^(٦) ، ورويت^(٦) لمرّسات السهام المرّاسل ؛ ثم أفضى امر الرّماح الى التّشاجر والارتباك ، ونشبت الأسنّة في الدروع نشب السمك في الشباك ؛ ثم اختلط المرعي^(٧) بالهمل^(٧) ، وعزل الرديني عن العمل ؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد أن شقت عُدر السوابغ خلعانا ؛ واتحدت جداول الدروع ، فصارت بحراً ، وكان التّعاق ، فلا ترى الا نحرأ يلازم نحرأ ، عناق وداع ، وموقف شمل ذي انصداع ، وإجابة مناد إلى فراق الأبد وداع ؛ واستكشفت مال الصبر الأنفس الشّفاة^(٨) ، وهبت بريح النصر الطلائع المبشرة الهفاة^(٩) ؛ ثم أمد السيل ذلك العباب ، وصقل الاستبصار الألباب ، واستخلص العزم صفوة اللباب ، وقال لسان النصر : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ فأصبحت طوائف الكفار ، حصائد مناجل

(١) عسل الرمح : اضطرب واهتز ، ورمح عاسل : مضطرب لدن .

(٢) دوم : تحرك ودار . والجلمد : الصخر .

(٣) حدب الحنية : تقوسها وانعطافها .

(٤) الحنية : القوس ؛ فعية بمعنى مفعولة ؛ واكثر ما تكون حنية عند توتيرها ، والرمي بها .

(٥) الرمية : الطريدة التي يرميها الصائد .

(٦) الناشر : المهتز . والنايسل : المسرع .

(٧) هو مثل والمرعي : الابل التي لها راع ، والهمل : الضوال من الاعم لا راعي لها .

(٨) أنفس شفاة : فاضلة .

(٩) الهفاة : السريعة المرور في هبوبها .

الشِّفَار ، فَفَعَا فَرُّهُمْ قَدْرِيضِيَتْ حُرْمَانُهَا بِالْإِخْفَار^(١) ، وَرَدُّهُمْ سَهْمَ
مَحْطُوطَةٍ فِي غَيْرِ مَقَامِ الْإِسْتِغْفَار ، وَعَلَتِ الرَّأْيَاتُ مِنْ فَوْقِ تِلْكَ
الْأَبْرَاجِ الْمَسْتَطْرَقَةِ وَالْأَسْوَار ، وَرَقَرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ جَنَاحُ الْبُورِ ،
لَوْلَا الْإِنْتِهَاءُ إِلَى الْحَدِّ وَالْمِقْدَار ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ اخْتِفَاءِ سِرِّ الْأَقْدَار
ثُمَّ عَبْرْنَا نَهْرَهَا ، وَشَدَدْنَا بِأَيْدِي اللَّهِ قَهْرَهَا ، وَضَيَّقْنَا حَصْرَهَا ،
وَأَدْرْنَا بِلَالِي الْقِيَابِ الْبَيْضِ خَضْرَهَا ؛ وَاقْمَنَا بِهَا إِيَامًا تَحْمُومَ عَقْبَانُ
الْبُنُودِ عَلَى فَرِيضَتِهَا حِيَامًا^(٢) ، وَتَرْمِي الْأَدْوَاحَ بِبُورِهَا ، وَتُسَلِّطُ
النَّيْرَانَ عَلَى أَقْطَارِهَا ؛ فَلَوْلَا عَائِقُ الْمَطَرِ ، لَحَصَلْنَا مِنْ فَتْحِ ذَلِكَ
الْوَطَنِ عَلَى الْوَطْرِ ، فَرَأَيْنَا أَنْ تَرَوْضَهَا بِالْاجْتِثَاتِ^(٣)
وَالْإِنْتِسَافِ^(٤) ، وَنُؤَالِي عَلَى زُرُوعِهَا وَرُبُوعِهَا كَرَّاتِ رِيَّاحِ
الْإِعْتِسَافِ ؛ حَتَّى يَتَّهِيَ لِلْإِسْلَامِ لَوْكُ طَعْمَتِهَا ، وَيَتَهَنَّأَ بِفَضْلِ اللَّهِ إِرْثَ
نِعْمَتِهَا ؛ ثُمَّ كَانَتْ مِنْ مَوْقِفِهَا الْإِفَاضَةَ مِنْ^(٥) بَعْدِ نَحْرِ النُّحُورِ ،
وَقَدَفِ جِمَارِ الدَّمَارِ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَدْحُورِ ، وَتَدَاقَعَتْ خَلْفَنَا
السَّيِّقَاتُ^(٦) الْمَتَّسِقَاتُ تَدَاوَعَ أَمْوَاجِ الْبُحُورِ .

(١) اخفرت الرجل : اذا نقضت عهده ، وذمامه . والهزمة فيه للازالة ؛ أي أزلت خفارته .

(٢) حام الطائر حول الماء حياما : درم ودار .

(٣) الاجتثات : انتزاع الشجر من أصوله .

(٤) انتساف الزرع : اقتلاعه .

(٥) الافاضة : الدفع في السير بكثرة ؛ ولا يكون الا عن تفرق جمع . وفي « الافاضة »

و « الحر » ، و « رمي الجمار » تورية واضحة بالعاني الاسلامية المتعارفة في باب « الحج » .

(٦) السيقات : ما استناه العدو من الدواب ، ويقال لما سبق من النهب فطرد ، سيقه .

وبعد أن الحنا على جناتها المصحرة^(١)، و'كرو'ها المستبحرة
إلحاح الغريم^(٢)، وعوضناها المنظر الكريه من المنظر الكريم،
وطاف عليها طائف من رينا فأصبحت كالصريم^(٣)، وأغرينا
حلاق^(٤) النار يجمم الجميم^(٥)، ورا كمننا في احواف أجرافها^(٦)
غمام الدخان؛ يذكر طيبه البان بيوم الغميم^(٧)، وارسلنا رياح
الغارات « لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم^(٨) »؛
واستقبلنا الوادي يهول مدًا، ويروع سيفه الصقيل حدا؛ فيسره
الله من بعد الاعواز، وانطلقت على الفرصة بتلك الفرصة أيدي
الانتهاز، وسألنا من سائله أسد بن الفرات^(٩) فأفتى برجحان

(١) التسمية؛ يقال أصغر المكان: أي اتسع.

(٢) الغريم: الذي له الدين.

(٣) الصريم: الليل، وأصبحت كالصريم: احترقت وصارت في مثل سواده؛ والاشارة الى الآية: « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ».

(٤) حلاق الشعر: أزالته بالموسى. والكلام على تشبيه احراق النبات بخلق شعر الرأس.

(٥) الجمم: جمع جمه؛ وهي الشعر الكثير. والجميم نبت يطول حتى يصير مثل جمه الشعر.

(٦) الأحواف، جمع حوف وهو الناحية. والأجراف جمع جرف؛ وهو ما أكل السيل من أسفل شق الوادي، وعرض الجبل. ويريد الأمكنة الفائرة، والمطمئنة.

(٧) الغميم: موضع بين مكة والمدينة. ويوم الغميم: من الأيام التي كانت بين كنانة وخزاعة
سيرة ابن هشام ٣٤/٤ - ٣٥.

(٨) الرميم: البالي.

(٩) يوري بأسد بن الفرات بن سنان: أي عبد الله الفقيه المالكي المشهور (١٤٥ - ٢١٣)
على خلاف في الولد والوفاة. وانظر ترتيب المدارك مخطوطة دار الكتب ١١٨/١، معالم الإيمان
٢/٢ - ١٧، ديباج ٩٨.

الجواز ، فعمَّ الاكتِساحُ والاستبَاحُ جميع الاحواز^(١) فأدِيل^(٢) المصون ، وانتهت القرى ، وهدَّت الحُصُون ، واجتثت الأصول ، وحطمت العُصُون ؛ ولم ترفع عنها الى اليوم غارةً تصابحها بالبُوس ، وتطلعُ عليها عُمرها الضاحكة باليوم العَبوس ؛ فهي الآن مجرى السوابق ومجرُّ العوالي^(٣) ، على التوالي ، والحمرات تتجدد في أطلالها البوالي ؛ وكأنَّ بها قد ضرعت ، والى الدعوة المحمّدية أسرع ، بقدره من لو انزل القرآن على الجبال لحشعت من خشية الله وتصدعت^(٤) ، وعِزّة من أذعنت الجبايرة لعزّه وخضعت ، وعدنا والبُود لا يعرفُ اللفُّ نشرها ، والوجوهُ المُجاهدة لا يُخالطُ التَّقْطِيبُ بِشَرّها ؛ والأيدي بالعرّوة الوثقى متعلّقة ، والألسنُ بشُكرِ نِعَمِ الله منطلّقة ، والسُيوفُ في مضاجيع النُمود قَلِقَه ، وسراييلُ الدُرُوع^(٥) خلّقه^(٦) ، والجياد من ردها الى المرابط والأواري^(٧) ، ردَّ العواري ، حنّقة ، وبعبّرات الغيظِ المكظوم

(١) الأحواز : ضواحي المدينة وأطرافها .

(٢) أديل : أهين .

(٣) أجره الرمح : طعنه به وتركه فيه يجره والعالية : أعلى القناة ، والجمع : العوالي . ومجر

العوالي : المكان الذي يقع فيه الإجراء والطنن .

(٤) اقتباس من الآية ٣١ من سورة الحشر .

(٥) السراييل : الدروع ، وكل ما لبس فهو سرايل .

(٦) الخلق : البالي ؛ يقال ثوب خلق ، وجبة خلق بالتذكير فيهما . لسان العرب

(٧) الأواري : جمع آري ؛ وهو مربوط الدابة ومحبسها .

مُخْتَمَةً؛ تَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَ الْعَاتِبِ، وَتَعُودُ مِنْ مَيَادِينِ الْاِخْتِيَالِ
وَالْمَرَّاحِ، تَحْتَ حُلِّ السِّلَاحِ، عَوْدِ الصِّبْيَانِ إِلَى الْمَكَاتِبِ؛ وَالطَّبْلِ
بِلِسَانِ الْعِزِّ هَادِرٍ^(١)، وَالْعِزْمُ إِلَى مُنَادِي الْعَوْدِ الْحَمِيدِ مُبَادِرٍ^(٢)،
وَوُجُودُ نَوْعِ الرَّمَّاحِ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِفَاحِ نَادِرٍ، وَالْقَاسِمُ يَرْتَبُّ
بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ السَّبِيِّ النَّوَادِرِ، وَوَارِدَ مَنَاهِلِ الْأَجُورِ، غَيْرِ الْمُحَلَّاءِ^(٣)،
وَلَا الْمَهْجُورِ، غَيْرُ صَادِرٍ^(٤)، وَوَمُنَاطِرِ الْفِصْلِ الْآتِيِ، عَقِبَ أَخِيهِ
الشَّاقِيِ، عَلَى الْمَطْلُوبِ الْمُوَاقِي مُصَادِرٍ^(٥) وَاللَّهُ عَلَى تَنْسِيرِ الصَّعَابِ،
وَتَحْوِيلِ الْمَنْزِ الْرِغَابِ^(٦)، قَادِرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. فَمَا أَجْمَلَ لَنَا
صُنْعَهُ الْحَفِيَّ^(٧)، وَأَكْرَمَ بِنَا لُطْفَهُ الْحَفِيَّ، اللَّهُمَّ لَا تُحْصِي ثَنَاءً
عَلَيْكَ، وَلَا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، وَلَا نَلْتَمِسُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
إِلَّا لَدَيْكَ؛ فَأَعِدْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ، يَا مُبْدِي، يَا مُعِيدَ، وَأَعِنَّا
مِنْ وَسَائِلِ شُكْرِكَ، عَلَى مَا يَنْثَالُ بِهِ الْمَزِيدُ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا فَعَّالُ
لِيَا يُرِيدُ^(٨).

(١) هَادِرٌ : يردد صوته .

(٢) بَادِرُهُ الْأَمْرُ : عَاجِلُهُ .

(٣) حَلَاءُ الْمَاشِيَةِ عَنِ الْمَاءِ : صَدَّهَا وَجَسَهَا عَنِ الْوَرُودِ .

(٤) الْوَارِدُ الَّذِي يَرُدُّ الْمَاءَ . وَالصَّادِرُ : الَّذِي رَجَعَ مِنَ الْمَاءِ بَعْدَ الْوَرُودِ .

(٥) مُصَادِرٌ : مُرَاجِعٌ ؛ صَادِرُهُ عَلَى كَذَا : رَاجِعُهُ .

(٦) الرِّغْبَةُ : الْعَطَاءُ الْكَثِيرُ ، وَالْأَمْرُ الْمُرْغُوبُ فِيهِ ، وَالْجَمْعُ رِغَابٌ .

(٧) الصَّنْعُ الْحَفِيُّ : اللُّطِيفُ .

(٨) كَذَا فِي الْأَصْلِ : « يَا فَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ » ، وَالْمُنَادِي هُنَا مِمَّا يَجِبُ فِيهِ الصَّبُّ . فَلِذَلِكَ الْأَصْحَحُ :

يَا فَعَّالًا .

وقارنت رسالتكم الميمونة لدينا حَذَقَ فَتَحَ (١) بَعِيدَ صَيْتِهِ (٢)
 مُشْرَبٍ لَيْتِهِ (٣) ، وَفَخِرَ مِنْ فَوْقِ النُّجُومِ الْعَوَائِمِ (٤) مَمِيئُهُ ؛ عَجِبْنَا
 مِنْ تَأْتِي أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقُلْنَا : الْبَرَكَةُ فِي قَدَمِ الْوَارِدِ ؛ وَهُوَ أَنْ
 مَلِكِ النَّصَارَى لِأَطْفَانًا بِجُمْلَةٍ مِنَ الْحِصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ
 الْإِسْلَامِ قَدْ غَضِبَتْ ، وَالتَّمَائِيلُ (٥) فِيهَا بِيُوتِ اللَّهِ قَدْ نُصِبَتْ
 أَدَالهَا (٦) اللَّهُ - بِمُحَاوَلَتِنَا - الطَّيِّبَ مِنَ الْحَيْثِ ، وَالتَّوْحِيدَ مِنْ
 التَّثَلُّثِ ، وَعَادَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ عَوْدَ الْأَبِ الْغَائِبِ ، إِلَى الْبَنَاتِ
 الْحَبَائِبِ ، يَسْأَلُ عَنْ شُؤُونِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرَّقَّةِ مِنْ جُفُونِهَا ؛
 وَهِيَ لِلرُّومِ خُطَّةٌ خَسْفٌ (٧) قَلَمًا ارْتَكَبُوهَا فِيمَا نَعْلَمُ مِنَ الْعُهُودِ ،
 وَنَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ الْوُجُودِ . وَإِلَى اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ عَوَارِفُ (٨) الْجُودِ ،
 وَجَعَلْنَا فِي مَحَارِيبِ الشُّكْرِ مِنَ الرُّكْعِ السُّجُودِ .

(١) حذق الغلام القرآن حذقاً : مهر فيه ؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن : هذا يوم حذاق ، والعادة أن يحتفل بهذا اليوم .

(٢) بعيد الصبت ، مشتهر الذكر بين الناس .

(٣) انتراب : ارتفع وعلا . والليت بالكسر : صفحة العنق .

(٤) النجوم العوائم : التي تظلم من الغبرة التي في السماء ؛ ويكون ذلك في زمن الجذب ؛ لأن نجوم الشتاء أشد اضاءة لقاء السماء .

(٥) التمايل : الأصنام .

(٦) أدالها الله : أبدلها .

(٧) الخططة : الطريقة . والحسف : الذل ، ونحليل الإنسان ما يكرهه .

(٨) العوارف : جمع عارفة ، وهي العطية .

عَرَفْنَاكُمْ بِمَجْمَلَاتِ أُمُورٍ تَحْتَهَا نَنْسِيرُ، وَوَيْمَنُ مِنَ اللَّهِ وَتَنْسِيرُ،
 إِذِ اسْتِيفَاءِ الْجُزْئِيَّاتِ عَسِيرٍ لُنَسِيرٍ كَمَا مَنَحَ اللَّهُ دِينَكُمْ، وَنُتَوِّجُ
 بِعِزِّ الْمَلَّةِ الْخَفِيفَةِ جَبِينَكُمْ، وَنُخَطَّبُ بَعْدَهُ دُعَاءَكُمْ وَتَأْمِينَكُمْ؛
 فَإِنَّ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ يَظْهَرُ الْغَيْبُ سِلَاحُ مَاضٍ، وَكَفَيْلٌ
 بِالْمَوَاهِبِ الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مُتَقَاضٍ^(١)؛ وَأَنْتُمْ أَوْلَى مَنْ
 سَاهَمَ فِي بَرٍّ، وَعَامَلَ اللَّهَ بِخُلُوصٍ بَرٍّ؛ وَأَيْنَ يَذْهَبُ الْفَضْلُ عَنْ
 بَيْتِكُمْ، وَهُوَ صِفَةُ حَيْكَمٍ، وَتَرَاثُ مَيْتِكُمْ؛ وَلَكُمْ مَزِيَّةُ الْقَدَمِ،
 وَرُسُوخُ الْقَدَمِ؛ وَالْخِلَافَةُ مَقْرُهَا إِيْوَانُكُمْ، وَأَصْحَابُ الْإِمَامِ
 مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُسْتَقْرُّهَا قَيْرَ وَأُنْكُمْ، وَهَجِيرَ الْمَنَابِرِ^(٢)
 ذِكْرُ إِمَامِكُمْ، وَالتَّوْحِيدُ إِعْلَامُ أَعْلَامِكُمْ، وَالْوَقَائِعُ الشَّهِيرَةُ فِي
 الْكُفْرِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَيَّامِكُمْ، وَالصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فَتَحَةُ أَوْطَانِكُمْ،
 وَسُلَالَةُ الْفَارُوقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَائِحُ سُلْطَانِكُمْ^(٣)؛ وَنَحْنُ نَسْتَكْثِرُ
 مِنْ بَرَكَةِ خِطَابِكُمْ، وَوَصْلَةِ جَنَابِكُمْ؛ وَلَوْلَا الْأَعْدَارُ لَوَالِنَا
 بِالْمُتَزَيِّدَاتِ تَعْرِيفِ أَبَوَائِكُمْ.

والله - عز وجل - يتولى عنا من شكركم المحثوم، ما قصر

(١) تقاضاه الدين : قبضه منه .

(٢) هجير المنابر : شأنها ودأبها .

(٣) يريد أن الحفصيين من سلالة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد رأى بعض

المؤرخين ذلك .

المكتوب منه عن المكتوم؛ ويُبقيكم لاقامة الرُسوم، ويُجِلُّ
مَحَبَّتِكُمْ مِنَ الْقُلُوبِ حِلًّا الْأَرْوَاحِ مِنَ الْجُسُومِ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَصِلُ
سَعْدَكُمْ، وَيَخْرُسُ مُجَدَّكُمْ، وَيُوَالِي نِعْمَهُ عِنْدَكُمْ.

وَالسَّلَامُ الرَّكِيمُ، الطَّيِّبُ الزَّكِيُّ الْمُبَارَكُ الْبَرُّ الْعَمِيمُ، يُخَصُّكُمْ
كَثِيرًا أَثِيرًا، مَا أَطْلَعَ الصُّبْحُ وَجْهًا مُنِيرًا، بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ النَّسِيمُ
سَفِيرًا، وَكَانَ الْوَمِيضُ^(١) الْبَاسِمُ لَأَكْوَاسِ الْغَنَائِمِ^(٢)، عَلَى أَزْهَارِ
الْكَثَائِمِ^(٣)، مُدِيرًا؛ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبِرْكَاتُهُ.

وَكُتِبَ إِلَيَّ يَهْنِئِي بِمَوْلُودٍ، وَيُعَاتِبُ عَلَى تَأْخِيرِ الْخَبَرِ بَوْلَادِهِ
عِنْدَهُ^(٤):

هَنِيئًا أَبَا الْفَضْلِ الرَّضَا وَأَبَا زَيْدٍ وَأَمْنْتٌ مِنْ بَغْيٍ يُخَافُ وَمَنْ كَيْدٍ
بَطَالِعٍ يُنْمِنُ طَالَ فِي السَّعْدِ شَأُوهُ^(٥) فَمَا هُوَ مِنْ عَمْرِو الرَّجَالِ وَلَا زَيْدٍ
وَقَيْدٍ بِشُكْرِ اللَّهِ أَنْعَمَهُ السُّبْحِيُّ

أَوْ أَبَدُهَا^(٦) تَأْتِي سَوَى الشُّكْرِ مِنْ قَيْدٍ

(١) الوميض: اللامع من البرق لعماء خفيا.

(٢) شبه الفطرات من الماء تنثرها الغمام على الزهور، بكؤوس الخمر تدار على الشارين.

(٣) الكثائم: جمع كمامة، وهي غطاء النور وبرعومه.

(٤) قدم لها ابن الخطيب في ريجانة الكتاب بقوله: ومن ذلك في مخاطبة صاحب قلم الإنشاء أبي

زيد ابن خلدون.

(٥) الشأو: الشوط والغاية.

(٦) جمع أبدة، وهي في الأصل البهيمة توحشت، ونفرت من الانس.

أهلاً بدرِّي المكاتب^(١)، وصدريّ المراتب، وعتبيّ الزمن^(٢)
 العاتب^(٣) وبكرِ المشتريّ والكاتب^(٤)؛ ومرحّباً بالطالع، في أسعدِ
 المطالع، والثاقب^(٥)، في أجلى المراقب؛ وسهلاً بغنيّ البشير،
 وعزّة الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصُرُ عنه كسرى
 وأردشير^(٦)؛ الان اعتصدت الحلة الحضرمية^(٧) بالفارس، وأمّن
 السّارح^(٨) في حمى الحارس، وسعدت بالمُنير الكبير، أذلاكِ
 التدوير^(٩)، من حلقات المدارس، وقرت بأجنىّ الكريم عينِ
 الفارس، واحترت أنظارُ الأبي وأبحاث ابن الدّارس؛ وقيل

(١) كوكب دري : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم المقدار .

(٢) أعتبه : أزال عتبه ؛ والعتي : اسم من الإعتاب . وفي المثل : « لك العتي ولا أعود » .

أي لك مني أن أرضيك ؛ بقوله التائب المعتذر مجمع الأمثال ١٠٢/٢ .

(٣) الزمن العاتب : الفاضل .

(٤) كان ابن الخطيب شغوفاً بأن يوري في كتابته بمصطلحات العلوم ؛ وهو ها ناظر الى ما
 اصطلح عليه المنجدون من أن القمر اذا اتصل - وهو في البروج الصاعدة - بالمشتري ، وهو
 كوكب سعد ، وبالكاتب - وهو عطاردي في عرف أهل المغرب - دل ذلك على أن المولود ذكر ،
 وأن حظله من العلوم العقلية ، والنقلية كبير .

(٥) الثاقب : المرتفع .

(٦) هو أردشير بن بابك ؛ أول ملوك الدولة الساسانية (٢٢٦ - ٢٤١ م) . وقد ورد في
 بعض النسخ ، وتاريخ أبي الفداء : « أردشير » بالزاي . وهو تصحيف قديم ؛ فقد قال ابن حجر :
 « وسعت من يذكره بالزاي » . تاج العروس ٢/٢٨٨ ، الطبري ٥٦/٢ .

(٧) الحلة : البيت ؛ والجمع الحلال . والحضرمية نسبة الى حضرموت ؛ حيث ينتهي نسب ابن
 خلدون .

(٨) السارح : الذي يقنو عليك ويروح .

(٩) فلك التدوير - لكل كوكب - هو فلك صغير لا يحيط بالأرض ، وفيه يكون مسير

الكوكب .

لِلْمُشْكَلَاتِ : طَالَمَا أَلْفَتِ الْخِمْرَةَ ^(١) ، وَأَمْضَيْتِ عَلَى الْأَذْهَانِ
الْأَمْرَةَ ^(٢) ، فَتَأَهَّبِي لِلْغَارَةِ الْمُبِيحَةِ لِحِمَاكَ ، وَتَحْيِزِي إِلَى فِئَةِ الْبَطْلِ
الْمُسْتَأْثَرِ بِرَشْفِ لِمَاكَ . وَاللَّهُ مِنْ نَصَبَةِ ^(٣) أَحْتَفَى فِيهَا الْمُشْتَرِي
وَأَحْتَقَلَ ، وَكَفَى سِنِيَّ تَرْبِيَّتَهَا وَكَفَلَ ، وَاخْتَالَ عَطَارِدُ فِي حُلِّ
الْجَذَلِ لَهَا وَرَفَلَ ، وَأَتَضَّحَتِ الْخُدُودُ ^(٤) ، وَتَهَلَّلَتِ الْوُجُوهُ ^(٥) ،
وَتَنَا فَسْتِ الْمَثَلَاتِ ^(٦) تَوَمَّلِ الْحِظَّ وَتَرْجُوهُ ، وَنَبَّهَ الْبَيْتُ عَلَى ^(٧)

(١) الخمر : الاستتار ، والاختفاء .

(٢) الإمرة : الإمارة .

(٣) النصبة الفلكية : هي الهيئة التي يكون عليها الفلك حين طلب دلالاته على الحوادث .

(٤) قسم النجوم درجات كل برج من البروج الاثني عشر ، بين الكواكب الخمسة المتحيرة ،
قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يحص كوكباً من الكواكب الخمسة ، وسماه حد ذلك
الكوكب .

(٥) وقسموا كذلك كل برج الى ثلاثة أقسام متساوية ، وسوا كل قسم منها وجهاً ، ثم فرفوها
على الكواكب المتحيرة ، وابتدأوا من برج الحمل ، وجعلوا لكل وجه منها كوكباً من السبعة
السيارة ، سواه صاحب ذلك الوجه .

(٦) البروج الاثنا عشر تنقسم الى أربعة أقسام - بعدد الطبائع الأربعة ، وكل ثلاثة بروج منها
تتفق في طبيعة واحدة من الطبائع الأربعة تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية ، أو ترابية ، أو
هوائية ، أو مائية ؛ ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ؛ يكون أحدها
صاحب الثلث المقدم بالنهار ، والثاني المقدم بالليل ، والثالث شريكهما في الليل والنهار . ومعنى ذلك
أن الكوكب اذا كان في واحد من هذه البروج التي تكون مثلثته ، قيل أنه في مثلثته ، أي أنه
في وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه ، وصحته ، وسلامته ؛ ولكل من النيرين : الشمس والقمر ،
بيت واحد . أما بقية الكواكب الخمسة المتحيرة ، فكل واحد منها له بيتان .

واجبه ، وأشار لَحْظُ الشَّرْفِ ^(١) بِجَاجِهِ ، وَأَسْرَعَ نَبِيرُ النَّوْبَةِ ^(٢) فِي
 الْأَوْبَةِ ^(٣) ، قَائِمًا فِي الْإِعْتِدَارِ مَقَامَ التَّوْبَةِ ؛ وَاسْتَأْثَرَ بِالْبُرُوجِ الْمُؤَلِّدَةِ
 بَيْتُ الْبَنِينِ ^(٤) ، وَتَخَطَّتْ خُطَا الْقَمَرِ رَأْسَ الْجَوْزِ هَرِّ ^(٥) وَذَنَبِ
 التَّيْنِ ؛ وَسَاوَقَ مِنْهَا حُكْمَ الْأَصْلِ ، حَدَّوَكِ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ ، تَحْوِيلُ
 السِّنِّ ^(٦) ، وَحَقَّقَ هَذَا الْمُؤَلَّدِينَ الْمُؤَلِّدِ نِسْبَةَ عُمَرِ الْوَالِدِ ،
 فَتَجَاوَزَ دَرَجَةَ الْمِئِينَ ؛ وَاقْتَرَنَ بِعَاشِرِهِ ^(٧) السَّعْدَانِ ^(٨) اقْتِرَانِ الْجَسَدِ ،
 وَثَبَّتْ بِدَقِيقَةِ مَرْكَزِهِ قَلْبُ الْأَسَدِ ، وَسَرَقَ مِنْ بَيْتِ أَعْدَائِهِ ^(٩)

(١) شرف الكوكب : محل عزه ، وعلوه ، وسعاده ؛ ولكل من الكواكب السبعة برج فيه ترفه ، والبرج كله شرف لذلك الكوكب ، الا أن أفوى شرفه درجات معينة من ذلك البرج تنسب الى ذلك الكوكب وتختص به ، فيقال حين يحل بها : انه في شرفه .

(٢) نير النوبة يكون في الغالب الهيلاج (دليل العمر) ، وهو بالنهار الشمس ، وبالليل القمر .

(٣) الأوبة : الرجوع والعودة .

(٤) البيت الذي له دلالة على الأولاد : هو البرج الخامس من البيوت الاثني عشر والابتداء في العد من البرج الطالع ، وهو الواقع على الأفق الشرقي ؛ ويرجعون أنه كلما كان الخامس احد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

(٥) النقطتان اللتان يتقاطع عندهما فلك البروج مع فلك أي كوكب ، تسميان العقدين ، ونقطة التقاطع الشمالية منها ، يسمونها الجوزهر ، ونقطة الرأس ، والتي تقابلها تسمى النوبهر ، ونقطة الذنب . والجوزهر الذي يقصدونه ، والذي دونوا حركته في التقاويم والأزياج ، هو جوزهر القمر خاصة .

(٦) هو تحصيل الحركة الوسطى للشمس عند حلولها برأس احد الفصول الاربعة . ولهم في ذلك طرق حسابية معروفة .

(٧) العاشر : هو بيت السلطان .

(٨) السعدان : المشتري والزهرة ، واكبرها المشتري .

(٩) بيت الاعداء ؛ هو البيت الثاني عشر .

خُرْتِي^(١) الغلِّ والحسد؛ ونُظِّفْتُ طُرُقُ التَّسْيِيرِ^(٢)، كما نفعلُ بينَ
يَدَيِ السَّادَةِ عِنْدَ الْمَسِيرِ، وَسَقَطَ الشَّيْخُ الْهَرَمِ مِنَ الدَّرَجِ فِي الْبَيْرِ،
وَدُفِعَ الْمُقَاتِلُ إِلَى الْوَبَالِ^(٣) الْكَبِيرِ.

لَمْ لَا يَنَالُ الْعُلَا أَوْ يُعَقِّدُ التَّجَاجُ

وَالْمُشْتَرِي طَالِعَ وَالشَّمْسُ هِيَلَاجُ^(٤)

وَالسَّعْدُ يَرَكُضُ فِي مِيدَانِهَا مَرَحًا

جَذْلَانَ وَالْفَلَكَ الدَّوَّارُ هِمْلَاجُ^(٥)

كَأَنَّ بِهِ - وَاللَّهُ يَهْدِيهِ - قَدْ انْتَقَلَ مِنْ مَهْدِ التَّنْوِيمِ، إِلَى التَّهْجِجِ
الْقَوِيمِ؛ وَمِنْ أُرَيْكَةِ الذَّرَاعِ، إِلَى تَصْرِيفِ الْيِرَاعِ^(٦)، وَمِنْ كَتَدِ^(٧)
الدَّأِيَةِ^(٨)، إِلَى مَقَامِ الْهِدَايَةِ، وَالغَايَةِ الْمُخْتَطِّقَةِ^(٩) الْبِدَايَةِ؛ جَعَلَ اللَّهُ

(١) الخُرْتِي (بالضم) : أُنْثَى الْبَيْتِ ، أَوْ أَرْدَا الْمَتَاعِ .

(٢) التَّسْيِيرُ : أَنْ يَنْظُرَ كَمْ بَيْنَ الْهِيَلَاجِ (دَلِيلِ الْعَمْرِ) ، وَبَيْنَ السَّعْدِ أَوْ النَّحْسِ ، فَيُؤْخَذُ
لِكُلِّ دَرَجَةِ سَنَةٍ ؛ وَيُقَالُ تَصْيَبُهُ السَّعَادَةُ أَوْ النَّحْسُ إِلَى كَذَا وَكَذَا سَنَةً .

(٣) الْوَبَالُ : هُوَ الْبُرْجُ الْمَقَابِلُ لِبَيْتِ الْكَوْكَبِ ؛ وَهُوَ الْبُرْجُ السَّابِعُ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ ؛ وَيُسَمَّى
نَظِيرَهُ ، وَمَقَابِلَهُ ؛ وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا سِتَّةُ بُرُوجٍ ، وَهِيَ نِصْفُ الْفَلَكَ .

(٤) الْهِيَلَاجُ : دَلِيلُ الْعَمْرِ ؛ وَالْهِيَالِيحُ خَمْسَةُ : الشَّمْسُ ، وَالْقَمَرُ ، وَالطَّالِعُ ، وَسَهْمُ السَّعَادَةِ ،
وَجُزْءُ الْاجْتِمَاعِ وَالْإِسْتِقْبَالِ . وَأَنَا كَأَنَّ أَدْلَةَ الْعَمْرِ لِأَنَّهَا تَسِيرُ إِلَى السَّعُودِ وَالنَّحُوسِ .

(٥) الْهَمْلَاجُ : الْمَرْكَبُ الْحَسَنُ السَّيْرِ ، وَالْمُسْرَعُ . يَقُولُ : لَمْ لَا يَنَالُ الْعُلَا ، وَقَدْ اتَّخَذَ الْفَلَكَ
مَرْكَبًا لَهُ .

(٦) يَعْنِي بِأُرَيْكَةِ الذَّرَاعِ عَهْدَ الطُّفُولَةِ . وَالْيِرَاعُ : الْقَصْبُ ، وَبِرِيدِ الْإِقْلَامِ .

(٧) الْكَتْدُ : مَجْمَعُ الْكَتْفَيْنِ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَكَأْهَلِهِ .

(٨) الدَّأِيَةُ : الْقَابِلَةُ .

(٩) يَرِيدُ أَنَّهُ سَيَبْلُغُ الْغَايَةَ فِي الْفَضْلِ فِي الزَّمَنِ الْقَصِيرِ .

وقايتة عليه عُوذَةٌ^(١) ، وَقَسَمَ حَسَدَتَهُ قِسْمَةً مُحَرَّمِ اللَّحْمِ ، بَيْنَ
 مُنْخَنَقَةٍ^(٢) وَنَطِيحَةٍ^(٣) وَمُتَرَدِّيَةٍ^(٤) وَمَوْقُوذَةٍ^(٥) ؛ وَحَفِظَ هَلَالَهُ
 فِي الْبِدَارِ^(٦) إِلَى تَمِّهِ وَبَعْدَ تَمِّهِ ، وَأَقْرَبَهُ عَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ . غَيْرَ أَنِّي -
 وَاللَّهِ يَغْفِرُ لِسَيِّدِي - بِيَدِ أَنِّي رَاكِعٌ فِي سَبِيلِ الشُّكْرِ وَسَاجِدٌ ، فَأَنَا
 عَاتِبٌ وَوَاجِدٌ ؛ إِذْ كَانَ ظَنِّي أَنَّ الْبَرِيدَ بِهَذَا الْخَبَرِ إِلَيَّ يُعْمَلُ ، وَأَنَّ
 إِتْحَافِي بِهِ لَا يُهْمَلُ ، فَانْعَكَسَتِ الْقَضِيَّةُ ، وَرَابَتِ الْحَالُ الْمَرِضِيَّةُ ،
 وَفَضَلَتِ الْأُمُورَ الدَّائِيَةَ الْأُمُورَ الْعَرَضِيَّةَ ، وَالْحُكْمَ جَازِمٌ ، وَأَحَدُ
 الْفَرَضَيْنِ لِأَزْمٍ ؛ إِمَّا عَدَمَ السَّوِيَّةِ^(٧) ، وَيُعَارِضُهُ اعْتِنَاءُ حَبْلِهِ
 مُفَارِ^(٨) ، وَعُهْدَةٌ سَلِمٌ لَمْ يَدْخُلْهَا جِزْيَةٌ وَلَا صَنَارٌ ؛ أَوْ جَهْلٌ
 بِمِقْدَارِ الْهَبَةِ ، وَيُعَارِضُهُ عِلْمٌ بِمِقْدَارِ الْحُمُوقِ ، وَرِضَى مُنَافٍ لِلْعُمُوقِ ،
 فَوْقَ الْأَشْكَالِ ؛ وَرَبُّهَا لَطْفٌ عُذْرٌ كَانَ عَلَيْهِ الْإِتِّكَالُ . وَإِذَا لَمْ يُبَيِّنْ
 مِثْلِي بِمِنْحَةِ اللَّهِ قَبْلَ تِلْكَ الذَّاتِ السَّرِيَّةِ ، الْخَلِيقَةَ بِالنِّعَمِ الْحَرِيَّةِ ؛ فَمَنْ

(١) العُوذَةُ : مَا يَمْلُقُ عَلَى الْإِنْسَانِ لِيَقِيَهُ مِنَ الْعَيْنِ وَغَوَاهَا .

(٢) الْمُنْخَنَقَةُ : الشَّاةُ ، وَغَيْرُهَا ؛ تَخْتَقُ بِجِبِلٍ أَوْ غَيْرِهِ .

(٣) النَّطِيحَةُ : الشَّاةُ تَنْطَحُهَا الْآخَرَى بِقَرُونِهَا ، فَعِلَّةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ .

(٤) الْمُتَرَدِّيَةُ . السَّاقِطَةُ مِنْ جِبِلٍ ، أَوْ فِي بَشَرٍ .

(٥) الْمَوْقُوذَةُ . الْمَقْتُولَةُ ضَرْبًا بِالْحَشْبِ أَوْ بِالْحَجَرِ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَصْنَافِ قَدْ حُرِّمَ الْكُلُّهَا الْقُرْآنَ
 عَلَى الْمُسْلِمِ . وَانظُرِ الْآيَةَ رَقْمَ ٣ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَاحْكَامَ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ١/٢٢٣ ، ٢٢٣ .

(٦) يَدْعُو لَهُ بِأَنَّ يَصَاحِبَهُ الْحَفِظَ فِي سَائِرِ أَطْوَارِ نَحْوِهِ إِلَى أَنْ يَكْتَمِلَ .

(٧) السَّوِيَّةُ . الْعَدْلُ ، وَالنِّصْفَةُ .

(٨) حَبْلٌ مُفَارٌ : مَحْكَمُ الْفَعْلِ .

الذي يُبَشِّرُ، وعلى من يُعرضُ بِزُها^(١) أو يُنَشِّرُ، وهي التي واصلت التَّفَقُّدَ^(٢)، وبَهْرَجَتْ^(٣) المُعَامَلَةَ وأَبَتْ أن تَنفُذَ، وَأَنَسَتْ الغُرْبَةَ وُجْرِحَهَا غيرُ مُندَمِلٍ^(٤)، وَنَفَسَتْ الكُرْبَةَ وَجَنَحُهَا^(٥) على الجَوَانِحِ^(٦) مُشْتَمِلٍ؛ فَمَتَى فُرِضَ نِسْيَانُ الحُقُوقِ لم يَنْلَنِي قَرَضٌ، وَلَا شَهِدَ به عليّ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ؛ وَإِنْ قَصَرَ فيما يجب لسَيدي عَمَلٌ، لم يُقَصِّرَ رَجَاءٌ وَلَا أَمَلٌ، وِلي في شَرَحِ حَمْدِهِ نَاقَةٌ وَجَمَلٌ^(٧). وَمِنْهُ جَلٌّ وَعَلَا نَسَأَلُ أن يُرِيَهُ قَرَّةَ العَيْنِ في نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَبَنِيهِ، وَيَجْعَلَ أَكْبَرَ عَطَايَا الهَيَالِجِ أَضْعَفَ سِنِيهِ، وَيُقَلِّدَ عَوَاتِقَ^(٨) الكَوَاكِبِ البَابَانِيَّةِ^(٩) حَمَائِلَ أَمَانِيهِ. وَإِنْ تَشَوَّفَ سَيدي لِحالِ وَلِيٍّ، فَخَلَوَةٌ طَيِّبَةٌ، وَرَحْمَةٌ من جَانِبِ الله صَيِّبَةٌ، وَبِرَقٌ يُشَامُ^(١٠)، فيقالُ: حَدِثْ مَا وَرَاءَكَ يَا هِشَامَ. وَللهُ دَرُّ شَيْخِنَا إِذْ يَقُولُ:

(١) البز: الثياب .

(٢) التفقد: التعرف لاحوال الناس، وتعهدا .

(٣) بهرج: عدل عن الطريق المسلوك .

(٤) اندمل: الجرح . برى .

(٥) الجنح: الظلة .

(٦) الجوانح: الضاوع تحت الترائب بما يلي الصدر .

(٧) هو عكس امنى التل: « لا ناقتي في هذا ، ولا جملي » ، الذي يضرب للتبري من الشيء ،

الميداني ١١٣/٢ ، ١١٤ .

(٨) العواتق: جمع عاتق؛ وهو ما بين النكب والعنق .

(٩) الكواكب الببانيات (او الببانية) : هي التي لا تنزل الشمس بها ، ولا القمر .

(١٠) شام البرق: نظير الى سحابه اين تظلم .

لا بارك الله فيّ إن لم أُصرّف النفسَ في الأهمِّ
وكشّر الله في همومي إن كان غيرُ الخلاصِ همّي

وإن أنعم سيّدي بالاملاء بحاله ، وحال الولد المبارك ، فذلك
من غرر إحسانه ، ومنزله في لحظ لحظي بمنزلة إنسانه ؛
والسلام .

العودة الى المغرب الاقصى

ولما كنتُ في الاعتقال في مُشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب^(١)، كما ذكرتُ تفاصيله، وانا مقيم ببسكرة في جوار صاحبها احمد بن يوسف بن مزني، وهو صاحب زمام رياح، واكثر عطائهم من السلطان مُفترضُ عليه في جباية الزاب^(٢)، وهم يرجعون اليه في الكثير من امورهم؛ فلم اشعر الا وقد حدثت المنافسة منه في استتباع العرب، ووغر صدره^(٣)، وصدق في ظنونه وتوهّماته، وطاوع الوشاة فيما يُوردون على سمعه من التّموّل والاختلاق، وجاش صدره بذلك؛ فكتب الى ونزمار بن عريف، ولي السلطان، وصاحب شواره، يتنفس الصعداء من ذلك، فأنهاه الى السلطان؛ فاستدعاني لوقته، وارتحلتُ من بسكرة بالأهل والولد، في يوم

(١) هو ابو فارس؛ عبد العزيز بن أبي الحسن بن ابي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني، بويع سنة ٧٦٧، وتوفي سنة ٧٧٤. من الملع ملوك بني مرين؛ أعاد الى الدولة قوتها وشبابها، وأزال عنها حجر المستبدن؛ والى أبي فارس هذا أهدي ابن خلدون مقدمته، ولا تزال صيغة الإهداء محفوظة بديباجة النسخة المطبوعة ببولاق.

(٢) بلاد الزاب: منطقة واسعة كانت تشغل المساحة الواقعة في جنوب جبال أوراس، وتشمل بسكرة، وما حولها. ياقوت ٤/٣٦٥.

(٣) ووغر صدره: امتلأ غيظاً وحقداً.

المولد الكريم ، سنة اربعٍ وسبعين ، متوجِّهاً الى السلطان ، وقد كان طَرَقَه المرض ؛ فما هو الا ان وصلتْ مِلْيَانَة من اعمال المغرب الأوسط ؛ فلقيني هنالك خَبْرُ وفاته ، وأنَّ ابنه ابا بكر السَّعيد^(١) نُصِبَ بعده للامر ، في كِفالة الوزير ابي بكر بن غازي وانه ارتحل الى المغرب الاقصى مُغْذاً السير الى فاس ؛ وكان على مِلْيَانَة يومئذ عليُّ بنُ حُسُون بن ابي علي اليناطي من قُوَّاد السلطان وموالي بيته ؛ فارتحلتُ معه الى احياء العَطَّاف ، ونزلنا على اولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم ، وبَدَرَقَ لي بعضهم الى حِلَّة اولاد عَرِيف : أمراء سُويْد ؛ ثم لَحِقَ بنا بعد ايام ، عليُّ بنُ حُسُون في عسكره ، وارتحلنا جميعاً الى المغرب على طريق الصحراء ؛ وكان ابو حَمْو قد رجع بعد مَهْلِك السلطان من مكان انتباهه بالفقر في تيكورارين الى تِلْمَسَان ، فاستولى عليها وعلى سائر اعماله ؛ فأوعزَ الى بَنِي يَنْمُور من سُيُوخ عبيد الله من المَعْقِل ان يعترضونا بحدود بلادهم من رأس العين^(٢) مَخْرَج وادي زاي^(٣) فاعترضونا هنالك ، فنجنا من نجا منَّا على

(١) السعيد محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن . كناه ابن خلدون هنا ، « ابا بكر » . وفي الجذوة لابن القاضي ، والاستقصا للتاسري : أن كنيته « أبو زيان » بويغ - وهو صبي لم يعد سنة الخامسة - سنة ٧٧٤ ، وخلع سنة ٧٧٦ . الاستقصا ١٣٣/٢ .

(٢) يعرف رأس العين الآن بعين بني مطهر ؛ وهي منابع تقع في شرق مدينة دبدو ، وبها مركز حربي تابع لبركان .

(٣) كتبه ابن خلدون صاداً في وسطه زاي - اشارة الى أن نطقه بين الصاد والزاي . ويقع هذا الوادي في جنوب عين البرديل - عن عين وادي ملوية - بنحو ٥١ كيلو متراً .

خيولهم الى جبل دَبْدُو ، وانتهبوا جميع ما كان معنا ، وأرجلوا الكثير من الفرسان و كنتُ فيهم ؛ وبقيتُ يومين في قَفْرِهِ ، ضاحياً^(١) عارياً الى ان خَلَصْتُ الى العُمران ، ولحقتُ باصحابي بجبل دَبْدُو ، ووقع في خلال ذلك من الالطاف ما لا يُعَبَّرُ عنه ، ولا يسع الوفاء بشكره . ثم سِرنا الى فاس ، ووقَدتُ على الوزير ابي بكر ، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس ، في جُمادى من السنة ؛ وكان لي معه قديمُ صحبَةٍ واختصاص ، منذ نَزَع معي الى السلطان ابي سالم بجبل الصَّفِيحَة ؛ عند إجازته من الاندلس ، لطلب ملكه ، كما مرَّ في غير موضع من الكتاب ؛ فلقيني من برِّ الوزير وكرامته ، وتوفير جراته وإقطاعه ، فوق ما أحتسب ، وأقتُ بمكاني من دولتهم اثيرَ المحل ، نابه الرُتَبَة ، عريضَ الجاه ، مُنَوِّه المجلس . ثم انصرم فصلُ الشتاء ، وحدث بين الوزير ابي بكر بن غازي ، وبين السلطان ابن الاحمر ، مُنافرةٌ بسبب ابن الخطيب ، وما دعا اليه ابنُ الاحمر من إبعاده عنهم ؛ وأنفَ الوزير من ذلك ، فأظلم الجوُّ بينهما ؛ وأخذ الوزيرُ في تجهيز بعض القَرابة من بني الأحمَر ، للاجلاب على الاندلس ، فبادرَ ابن الاحمر الى اطلاق الامير عبد الرحمن بن ابي يَفْلُوَسَنَ من

(١) الضاحي : الذي لا يستره حائط ولا غيره ، فيصبيه حر الشمس وأذاها .

ولّد السلطان ابي علي ، والوزير مسعود بن رَحُو بن ماساي^(١) ، كان حبسهما ايام السلطان عبد العزيز ، وبشارته بذلك لابن الخطيب ، حين كان في وزارته بالاندلس ؛ فأطلقهما الان ، وبعضهما لطلب الملك بالمغرب ، وأجازها في الاسطول الي سواحل غساسة ، فنزلوا بها ، ولحقوا بقبائل بطوية^(٢) هنالك ، فاشتملوا عليهم ، وقاموا بدعوة الامير عبد الرحمن . ونهض ابن الاحمر من غرناطة في عساكر الاندلس ؛ فنزل على جبل الفتح يُحاصره . وبلغت الاخبارُ بذلك الي الوزير ابي بكر بن غازي القائم بدولة بني مرين ، فجهز لحينه ابن عمه محمد بن الكاس الي سبتة لامداد الحامية الذين لهم بالجبل ، ونهض هو في العساكر الي بطوية لقتال الامير عبد الرحمن ، فوجده قد ملك تازي ، فأقام عليها يحاصره ؛ وكان السلطان عبد العزيز قد جمع شباباً من بني ابيه المرشحين ، فحبسهم بطنجة ، فلما وافى محمد بن الكاس سبتة ، وقعت المراسلة بينه وبين ابن الاحمر ، وعتب كل منهما صاحبه علي ما كان منه ، واشتدّ عدلُ ابن الاحمر علي إخلالهم الكرسي من كفته ، ونصّبهم السعيد بن عبد العزيز صبيّاً لم يُشفر ؛ فاستعتب له

(١) هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي . تولى محاربة أبي حو ، واخراجه من تلسان سنة ٧٧٠ في أيام أبي عنان . له في حوادث المغرب مواقف تجدها في الاستقصا ٢/١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٣٢ . ورحو - في اللغة البربرية - تصغير عبد الرحمن .

(٢) تقع أرض غساسة عند مصب وادي ملوية ، وهناك أيضاً كانت قبائل بطوية . العبر م ٧ .

محمد ، واستقال من ذلك ؛ فحمله ابنُ الاحمر على ان يُبايع لاحد الابناء المحبوسين بطنجة ؛ وقد كان الوزير ابو بكر اوصاه ايضاً بأنه ان تضايق عليه الامر من الامير عبد الرحمن ، فيفرِّج عنه بالبيعة لاحد اولئك الابناء .

وكان محمد بن الكاس قد استوزرَ السلطان ابو سالم لابنه احمد ايام ملكه ، فبادرَ من وقته الى طنجه ، واخرج احمد بن السلطان ابي سالم^(١) من محبسه ، وبايع له ، وسار به الى سبتة ، وكتب لابن الاحمر يعرفه بذلك ، ويطلبُ منه المدد على ان ينزل له عن جبل الفتح ؛ فأمدّه بما شاء من المال والعسكر ، واستولى على جبل الفتح ، وشحنه بحاميته ؛ وكان احمد بن السلطان ابي سالم ، قد تعاهد مع بني ابيه في محبستهم ، على ان من صار الملك اليه منهم ، يُجيزُ الباقيين الى الاندلس ؛ فله ابويع له ذهب الى الوفاء لهم بعهدهم ، واجازهم جميعاً ؛ فتزلوا على السلطان بن الاحمر ؛ فاكرم نُزلهم ووفّرَ جرياتهم . وبلغ الخبرُ بذلك كله الى الوزير ابي بكر بمكانه من حصار الامير عبد الرحمن بتازة ، فأخذَه المُقيمُ المُقعدُ من فعلةِ ابن عمه ، وقوَّض^(٢) راجعاً

(١) هو السلطان أبو العباس احمد بن أبي سالم : ابراهيم بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق المريني يلقب بالمستنصر بالله . بويغ بطنجة سنة ٧٧٥ ، وقت له البيعة العامة بالدينة البيضاء من فاس الجديد سنة ٧٧٩ ؛ وخلص سنة ٧٨٨ . وفي سجن أبي العباس هذا ، مات ابن الخطيب السلمي لسان الدين . الاستقصا ١٣٣/٢ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .

(٢) قوض خيامه : هدمها . والجيش : فرقه . ولا معنى لها . وفي ب : وكر راجعاً .

الى دار الملك ، وعسكر بكندية العرائس من ظاهرها ، وتوعد ابن عمه محمد بن عثمان ، فاعتذر بأنه إنما امتثل وصيته ، فاستشاط وتهدده ؛ واتسع الحرق بينهما ، وارتحل محمد بن عثمان بسطانه ومدده من عسكر الأندلس الى أن احتل بجبل زرّهون^(١) المطل على مكناسة^(٢) ، وعسكر به ، واشتملوا عليه ؛ وزحف إليهم الوزير أبو بكر ، وصعد الجبل ، فقاتلوه وهزموه ، ورجع الى مكانه بظاهر دار الملك . وكان السلطان ابن الأحمر قد أوصى محمد بن عثمان بالاستعانة بالأمير عبد الرحمن ، والاعتضاد به ، ومساهمته في جانب من أعمال المغرب يستد به لنفسيه ؛ فراسله محمد بن عثمان في ذلك ، واستدعاه ، واستمده . وكان ونزمار بن عريف ولي سلفهم قد أظلم الجوبينه وبين الوزير أبي بكر ، لأنه سأله - وهو يحاصر تازي - في الصلح مع الأمير عبد الرحمن

(١) جبل واقع في شمال مدينة مكناسة الزيتون ، على بعد نحو ٣٠ كيلو مترا منها ، وبه مدفن المولى ادريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب . وبالجبل تقع مدينة وابلج التاريخية .
(٢) مكناسة : مدينة قديمة أسستها قبيلة مكناسة البربرية قبل الإسلام ؛ وقد ازدهرت أيام بني مرين ، فبنوا فيها المساجد ، والفنادق ، والمدارس ؛ ولا تزال مدرسة أبي عنان بها تلفت الأنظار ، ولا سيما أبوابها النحاسية المزخرفة . وقد اتخذها السلطان المولى اسمعيل البلوي عاصمة ملكه سنة ١٠٨٤ هـ .

ولمكناسة - من بين مدن المغرب - تاريخ حافل ، ولذلك حظيت بعناية المؤرخين فكتبوا في تاريخها ما خلد مآثرها . وآخر من خصها بالبحث المؤرخ الضليح ، المرحوم المولى عبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ ؛ فقد ألف فيها كتابه الحافل الذي سماه : « تحاف أعلام الناس ، بجبال أخبار حاضرة مكناس » وقد طبع منه خمسة مجلدات بالمغرب .

فامتنع — وأتهمه بـدخالته، والميل له، فاعتزَم على القَبْض عليه،
ودس إليه بذلك بعضُ عيونه، فرَكِبَ اللَّيْل، ولحق بأحياء
الأحلافِ من المَعْقِل^(١)، وكانوا شِيعَةً لِلأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، ومعهُم
عَلِيُّ بْنُ عَمْرِو الوَيْعَلَانِي^(٢) كَبِيرُ بَنِي وَرْتَأَجْن، كان انْتَقَضَ عَلَى الوَازِرِ
ابنِ غَازِي، وَلَحِقَ بِالسُّوسِ^(٣)، ثم خَاضَ القَمْرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الأَحْلَافِ،
فَنَزَلَ بَيْنَهُمْ مُقِيمًا لِدَعْوَةِ الأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ. فجاءهم ونزمار
مُفْلِتًا مِنْ حِبَالَةِ الوَازِرِ أَبِي بَكْرٍ، وَحَرَضَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ، ثم
بَلَّغَهُمْ خَبَرَ السُّلْطَانِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي سَالِمٍ، وَوَزِيرِهِ مُحَمَّدَ بْنَ عُثْمَانَ؛
وَجَاءَهُمْ وَافِدُ الأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَسْتَدْعِيهِمْ، وَخَرَجَ مِنْ تَازِي
فَلَقِيَهُمْ، وَنَزَلَ بَيْنَ أَحْيَانِهِمْ، وَرَحَلُوا جَمِيعًا إِلَى إِمْدَادِ السُّلْطَانِ أَبِي
العَبَّاسِ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى صَفْوَوِي. ثم اجتمعوا جميعاً على وادي النجا،
وتعاقدوا على شأنهم، وأصبحوا مِنَ العَدَى عَلَى التَّعْبِئَةِ، كُلُّ مَنْ
نَاجِيَتِهِ.

(١) يرجح ابن خلدون — في المعقل — أنهم من عرب اليمن؛ وهم من أوفر القبائل عدداً
بالمغرب الأقصى، وكانت مساكنهم موزعة من تلسان إلى البحر المحيط؛ وقد ملكوا قصور زناتة التي
كانت بالصحرى، والتي منها قصور «تيكورارين». العبر ٦.

(٢) سبق التعريف به هكذا: علي بن عمر بن ويعلان، شيخ بني مرين.

(٣) السوس: إقليم واسع خصب؛ يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس،
ويتخلله واد عظيم يسمى وادي سوس، تتفرع منه فروع عدة؛ وحول الوادي وفروعه مزارع
واجعة، بها أشجار ونخل. وباقليم السوس مدن كبيرة؛ منها تارودانت، وتزنيت. وعلى ساحلي
البحر المحيط، حيث مصب وادي سوس، تقع مدينة أجادير. العبر ٦. أما باقوت فليس في كلامه
هن «سوس» ما يعول عليه.

ورَكِبَ الوَازِرُ ابو بَكْرٍ لِقَاتِلَهُمْ فَلَمْ يُطِيقْ ، وَوَلَّى مُنْهَزِمًا ،
فَانْحَجَرَ بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ ^(١) ، وَخَسِمَ الْقَوْمُ بِكُدِيَةِ الْعِرَائِسِ
مُحَاصِرِينَ لَهُ ، وَذَلِكَ أَيَّامَ عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ خَمْسِ وَسَبْعِينَ ،
فَحَاصِرُوهَا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ، وَأَخَذُوا بِمَخَنَقَتِهَا إِلَى أَنْ جَهَدَ الْحِصَارُ
الْوَزِيرَ وَمَنْ مَعَهُ ، فَأَذْعَنَ لِلصُّلْحِ عَلَى خَلْعِ الصَّيِّ الْمَنْصُوبِ
السَّعِيدِ بْنِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَخُرُوجِهِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ
عَمِّهِ ، وَالْبَيْعَةِ لَهُ ، وَكَانَ السُّلْطَانُ أَبُو الْعَبَّاسِ ، وَالْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ،
قَدْ تَعَاهَدُوا — عِنْدَ الْاجْتِمَاعِ بِوَادِي النَّجَا — عَلَى التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ ،
عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ بِسَائِرِ أَعْمَالِ الْمَغْرِبِ ، وَأَنَّ لِلْأَمِيرِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِلْدًا سِجِلْمَاسَةَ وَدَرْعَةَ ^(٢) ، وَالْأَعْمَالَ الَّتِي كَانَتْ لَجَدِّهِ
السُّلْطَانِ أَبِي عَلِيِّ أَخِي السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ ؛ ثُمَّ بَدَأَ لِلْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

(١) تسمى أيضا المدينة البيضاء ، وفاس الجديد ، بناها يعقوب بن عبد الحق المريني على وادي فاس ملاصقة ؛ وكان ذلك سنة ٧٦٤ هـ وانظر الاستقصا ٢/٢٢٠ .

(٢) درعة (وتنطق اليوم درا) وكذلك تكتب على الخرائط : مقاطعة كبيرة خصبة وراء جبال الأطلس ، تقع في شرق إقليم السوس ، وتمتد من شرقه الى جنوبه ، حيث تتصل بالبحر المحيط ، وتفصل بينها وبين إقليم سلسلة السوس جبال الأطلس الخارجية ؛ وفي هذه المقاطعة واد كبير تدمه روافد تتفرع من جبال الأطلس ، وحول الوادي وفروعه ، تقوم قرى المقاطعة ، ومدنها الصغيرة ؛ وأكبر هذه المدن ورزازت التي تقع في السفح الجنوبي لجبال الأطلس مرتفعة عن سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متراً ؛ وسكان هذه المقاطعة خليط من العرب وبربر صنهاجة . وهذا الاقليم هو الموطن الاصلى لدولة السعديين بالمغرب . وانظر العبرم ٦٠ ، الاستقصا ٣/٢٠٠ . وما في باقوت عن « درعة » أيضاً ليس بشيء .

في ذلك أيام الحصار، واشتطَّ بطلب مرّاكش وأعمالها^(١)، فأغضوا له في ذلك، وشارطوه عليه حتى يتم لهم الفتح؛ فلما انعمد ما بين السلطان أبي العباس، والوزير أبي بكر، وخرج اليه من البلد الجديد، وخالع سلطانَه الصَّيِّ المنصوب، ودخل السلطان أبو العباس الى دار الملك، فاتح ست وسبعين، وارتحل الأمير عبد الرحمن يُغزُّ السَّير الى مرّاكش، وبدا للسلطان أبي العباس، ووزيره محمد ابن عثمان في شأنه، فسرحوا العساكر في اتباعه، وانتهوا خلفه الى وادي بهت^(٢)، فواقفوه ساعة من نهار، ثم أحجموا عنه، وولوا على راياتهم وسار هو الى مرّاكش، ورجع عنه وزيره مسعود بن ماساي، بعد أن طلب منه الاجازة الى الأندلس يتودّع بها، فسرحه لذلك، وسار الى مرّاكش فملكها.

وأما أنا فكنت مقيماً بفاس، في ظلِّ الدَّولة وعنايتها، منذُ قدمتُ على الوزير سنة أربع وسبعين كما مرّ، عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه؛ فلما جاء السلطان أبو العباس، والأمير عبد الرحمن،

(١) في م ٧: « واشتط عايمهم الأمير عبد الرحمن التجاني له عن أعمال مراكش، وأن يدلوه بها من سطاتة ».

(٢) في « المعجب » لعبد الواحد المراكشي ص ٢٤٣: « وفيما بين مكناسة، وسلا نهر يدعى بهتا، ينصب الى البحر الأعظم أيضا »؛ ينبع بالقرب من مدينة أزرو، ثم يتصل بوادي سبو، حيث ينصب وادي سبو في المحيط الأطلسي.

وَعَسَّكَرُوا بِكُدَيْةِ الْعَرَائِسِ ، وَخَرَجَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِمْ ، مِنَ الْفُقَهَاءِ ،
 وَالْكَتَّابِ ، وَالْجُنْدِ ، وَأُذِنَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا فِي مُبَاكَرَةِ أَبْوَابِ
 السُّلْطَانَيْنِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ فِي ذَلِكَ ، فَكَنتُ أَبَا كَرِهًا مَعًا . وَكَانَ
 بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَزِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ مَا مَرَّ ذِكْرَهُ قَبْلَ هَذَا ، فَكَانَ يُظْهِرُ
 لِي رِعَايَةَ ذَلِكَ ، وَيُكْثِرُ مِنَ الْمَوَاعِيدِ ؛ وَكَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
 يَمِيلُ إِلَيَّ وَيَسْتَدْعِينِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ يُشَاوِرُنِي فِي أَحْوَالِهِ ؛ فَفَعَصَّ
 بِذَلِكَ الْوَزِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ ، وَأَغْرَى سُلْطَانَهُ فَقَبَضَ عَلَيَّ . وَسَمِعَ
 الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنِّي إِنَّمَا أَوْتَيْتُ مِنْ جَرَّاءِ ، فَحَلَفَ
 لِيَقْوِيَّ خِيَامَهُ ، وَبَعَثَ وَزِيرَهُ مَسْعُودَ بْنَ مَسَايَ لِذَلِكَ ،
 فَأَطْلَقُونِي مِنَ الْقَدِّ ، ثُمَّ كَانَ افْتِرَاقُهَا لِمَالِكِهِ . وَدَخَلَ السُّلْطَانُ أَبُو
 الْعَبَّاسِ دَارَ الْمَلِكِ ، وَسَارَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى مَرَّاكُشَ ، وَكَنتُ
 أَنَا يَوْمَئِذٍ مَسْتَوْحِشًا ، فَصَحَبْتُ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مُعْتَمِرًا عَلَى
 الْإِجَازَةِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ سَاحِلِ أَسْفِي ، مَعَوَّلًا فِي ذَلِكَ عَلَى صِحَابَةِ
 الْوَزِيرِ مَسْعُودِ بْنِ مَسَايَ لِهَوَايَ فِيهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مَسْعُودُ انشَنَى
 عَزْمِي فِي ذَلِكَ ، وَحَلَفْنَا بِوَتْنِ مَارِ بْنِ عَرِيفٍ بِمَكَانِهِ مِنْ نَوَاحِي
 كَرِّ سَيْفٍ لِنُتَمِّدَهُ وَوَسِيلَةً إِلَى السُّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ ، صَاحِبِ فَاسٍ فِي
 الْجَوَازِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَوَأَفِينَا عِنْدَهُ دَاعِيَ السُّلْطَانِ فَصَحَبْنَاهُ إِلَى

فاس ، واستأذنه في شأني ، فأذن لي بَعْدَ مطاولة ، وعلى كُرهِ من
الوزير مُحَمَّد بن عثمان ، وسليمان بن داود بن أعراب ، ورجال الدولة .

وكان الأخ يَحْيَى لَمَّا رَحَلَ السلطانُ ابو حَمُو من تِلِمَسَانَ ،
رَجَعَ عنه من بلاد زُنْبِةَ الى السلطان عبد العزيز فاستقرَّ في خدمته ،
وبَعْدَهُ في خِدْمَةِ ابنه مُحَمَّد السَّعِيد المنصوب مكانه . ولما استولى
السلطانُ ابو العباس على البلد الجديد ، استأذَنَ الأخُ في اللحاق
بِتِلِمَسَانَ ، فأذِنَ له ، وقَدِمَ على السلطان أبي حَمُو ، فأعادَه الى كِتَابَةِ
سِرِّهِ كما كان أول مرة ، وأذِنَ لي أنا بَعْدَهُ ، فانطَلَقْتُ الى الأندلس
بِقَصْدِ العَرَارِ والدَّعَةِ ، الى أن كان ما نذكُر .

الاجازة ثانية الى الاندلس ، ثم الى تلمسان ، والحقاق

باحياء العرب ، والمقامة عند اولاد عريف

ولما كان ما قصصته من تنكر السلطان أبي العباس صاحب فاس ،
والذهاب مع الأمير عبد الرحمن ، ثم الرجوع عنه الى ونزمار بن
عريف ، طلباً لوسيلته في انصرافي الى الأندلس بقصد القرار
والانقباض ، والعكوف على قراءة العلم ؛ فتم ذلك ، ووقع الاسعاف
به بعد الامتناع ، وأجزت الى الأندلس في ربيع [سنة] ست
وسبعين ؛ ولقيني السلطان بالبر والكرامة وحسن النزول على عادته ،
وكنت لقيت يجبل الفتح كاتب السلطان ابن الأحمر ، من بعد ابن
الخطيب ، الفقيه أبا عبد الله بن زمرك^(١) ، ذاهباً الى فاس في غرض
التهنئة ، وأجاز إلى سبتة في أسطوله ، وأوصيته باجازة أهلي وولدي
إلى غرناطة ؛ فلما وصل إلى فاس ، وتحدث مع أهل الدولة في
إجازتهم ، تنكروا لذلك ، وساء لهم استقرار بالأندلس ، واتهموا

(١) ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي المعروف بابن زمرك .

وزمرك بفتح الزاي والراء ، بينهما ميم ساكنة ؛ وقد اضطرب ضبط ابن خلدون له ؛
فضبطه تارة بفتح الزاي والميم ، وسكون الراء ، وطوراً بفتح الزاي والراء وسكون الميم بينهما .

أَنِي رَبِّمَا أَحْمِلُ السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ،
 الَّذِي اتَّهَمُونِي بِمُلَابَسَتِهِ ، وَمَنْعُوا أَهْلِي مِنَ اللَّحِقِ بِي . وَخَاطَبُوا
 السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ فِي أَنْ يُرْجِعَنِي إِلَيْهِمْ ؛ فَأَبَى مِنْ ذَلِكَ ، فَطَلَبُوا
 مِنْهُ أَنْ يُجِيزَنِي إِلَى عُدْوَةِ تَلِمَسَانَ ؛ وَكَانَ مَسْعُودُ بْنُ مَاسَايَ قَدْ
 أَدْنُوهُ فِي اللَّحِقِ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَحَمَلُوهُ عَلَى مُشَافَهَةِ السُّلْطَانَ بِذَلِكَ ،
 وَأَبَدُوا لَهُ أَنِي كُنْتُ سَاعِيًا فِي خَلَاصِ ابْنِ الْخَطِيبِ ، وَكَانُوا قَدْ
 اعْتَقَلُوهُ لِأَوَّلِ اسْتِيْلَانِهِمْ عَلَى الْبَلَدِ الْجَدِيدِ وَظَفَرِهِمْ بِهِ . وَبَعَثَ إِلَيَّ
 ابْنُ الْخَطِيبِ مِنْ مَحْبِسِهِ مُسْتَصْرِحًا بِي ، وَمَتَوَّسِلًا . فَخَاطَبْتُ فِي
 شَأْنِهِ أَهْلَ الدَّوْلَةِ ، وَعَوَّلْتُ فِيهِ مِنْهُمْ عَلَى وَزَرَ مَارَ ، وَابْنَ مَاسَايَ ،
 فَلَمْ تُنْجِحْ تِلْكَ السَّعْيَةَ ، وَقُتِلَ ابْنُ الْخَطِيبِ بِمَحْبِسِهِ ؛ فَلَمَّا قَدِمَ ابْنُ
 مَاسَايَ عَلَى السُّلْطَانَ ابْنَ الْأَحْمَرِ - وَقَدْ أَغْرَوهُ بِي - فَأَلْفَى إِلَى
 السُّلْطَانَ مَا كَانَ مِنِّي فِي شَأْنِ ابْنِ الْخَطِيبِ ، فَاسْتَوْحَشَ لِذَلِكَ ،
 وَأَسْعَفَهُمْ بِأَجَازَتِي إِلَى الْعُدْوَةِ ، وَنَزَلْتُ بِهَيْتَيْنِ ، وَالْجَوْشَيْنِ وَبَيْنَ
 السُّلْطَانَ أَبِي حَمُو مُظْلَمَ ، بَمَا كَانَ مِنِّي فِي إِجْلَابِ الْعَرَبِ عَلَيْهِ بِالزَّابِ
 كَمَا رَوَّ . فَأَوْعَزَ بِمَقَامِي بِهَيْتَيْنِ ، ثُمَّ وَقَدَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَرِيفٍ فَعَدَلَهُ فِي
 شَأْنِي ، فَبَعَثَ عَنِّي إِلَى تَلِمَسَانَ ، وَاسْتَقَرَّرْتُ بِهَا بِالْعَبَادِ . وَلَحِقَ بِي
 أَهْلِي وَوَلَدِي مِنْ قَاسٍ ، وَأَقَامُوا مَعِي ، وَذَلِكَ فِي عِيدِ النَّظَرِ سَنَةَ

سِتِّ وَسَبْعِينَ ، وَأَخَذْتُ فِي بَثِّ الْعِلْمِ . وَعَرَضَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي حَمُو
أَثْنَاءَ ذَلِكَ رَأْيِي فِي الدَّوَاوِدَةِ ، وَحَاجَةٌ إِلَى امْتِثْلَافِهِمْ ؛ فَاسْتَدْعَانِي ،
وَكَلَّفَنِي السِّفَارَةَ إِلَيْهِمْ فِي هَذَا الْعَرَضِ ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ ، وَنَكَرْتُهُ
عَلَى نَفْسِي ، لِمَا آثَرْتُهُ مِنَ التَّخَايِي وَالْإِنْقِطَاعِ ، وَأَجَبْتُهُ إِلَى ذَلِكَ
ظَاهِرًا ، وَخَرَجْتُ مُسَافِرًا مِنْ تِلْمَسَانَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْبَطْحَاءِ ^(١) ،
فَعَدَلْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى مَنَدَاسَ ، وَحَلِقْتُ بِأَحْيَاءِ أَوْلَادِ عَرِيفِ
قَبْلَةَ جَبَلِ كَزُولِ ^(٢) ، فَتَلَقَّوْنِي بِالتَّحْقِي وَالْكَرَامَةِ ، وَأَقَمْتُ بَيْنَهُمْ
أَيَّامًا حَتَّى بَعَثُوا عَنْ أَهْلِي وَوَلَدِي مِنْ تِلْمَسَانَ ، وَأَحْسَنُوا الْعُدْرَةَ إِلَى
السُّلْطَانِ عَنِّي فِي الْعَجْزِ عَنْ قَضَاءِ خِدْمَتِهِ ، وَأَنْزَلُونِي بِأَهْلِي فِي قَلْعَةِ
ابْنِ سَلَامَةَ ^(٣) ، مِنْ بِلَادِ بَنِي تُوْجِينَ ^(٤) الَّتِي صَارَتْ لَهُمْ بِإِقْطَاعِ
السُّلْطَانِ ^(٥) ، فَأَقَمْتُ بِهَا أَرْبَعَةَ أَعْوَامَ ، مُتَخَلِّيًا عَنِ الشُّبُورِ أَعْلَى كَلْبِهَا ؛

(١) كان موقع البطحاء البسيط الذي بين مدينة الريزان ، وبسيط وادي شلف .

(٢) يقع جبل كزول في الجنوب الغربي لمدينة تيارت على بعد ١٠ كيلو مترات .

(٣) قلعة ابن سلامة (أو بني سلامة) هذه ، وتسمى قلعة تاوغزوت ، تقع في مقاطعة وهران من

بلاد الجزائر .

أما سلامة الذي تنسب إليه ، أو إلى بنيه ، القلعة ؛ فهو سلامة بن علي بن نصر بن سلطان
رئيس بني بدلات من بطون توجين . سكن تاوغزوت ، واختط بها القلعة ، فنسبت إليه ، وإلى
بنيه ، وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المنقطعين من سويد . العبرم ٧ .

(٤) كان لبني توجين من الأراضي ما بين قلعة سعيدة إلى المدية ؛ وكانت لهم قلعة ابن سلامة ،

ومنداس ، ووانشريس . العبرم ٦ .

(٥) في م ٦ : « وأقطع السلطان أبو عنان ، وزمار بن عريف « السرسو » ، وقلعة ابن

سلامة ، وكثيراً في بلاد توجين » .

وشرعت في تأليف هذا الكتاب ، وأنا مُقيمُ بها ، وأكملتُ
المقدِّمةَ منه على ذلك النحو الغريب ، الذي اهتديتُ إليه في تلك
الخلوة ، فسألتُ فيها شأيبُ الكلام والمعاني على الفكر ، حتى
امتخضتُ زبدتها ، وتألّفتُ نتائجها ؛ وكانتُ من بعد ذلك
الفيئةُ الى تونس كما نذكره .

الفيئة الى السلطان ابي العباس بتونس والمقام بها

ولما نزلتُ بقاعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف ، وسكنتُ
منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها ، وكان من أحفل
المساكن وأوثقها . ثم طالُ مقامي هنالك ، وأنا مستوحشٌ من دولة
المغرب وتامسان ، وعاكفٌ على تأليف هذا الكتاب ، وقد
فرغتُ من مُقدّمته الى أخبار العرب والبربر وزناتة ، وتشوّفتُ
الى مُطالعة الكتب والدواوين التي لا تُوجدُ إلا بالأمصار ، بعد أن
أمليتُ الكثيرَ من حِفظي ، وأردتُ التّقيحَ والتّصحيحَ ؛ ثم
طرقني مرضٌ أوفى بي على الشّنية ، لولا ما تدارك من لطف الله ؛
فحدث عِندي ميلٌ الى مُراجعة السلطان أبي العباس ، والرحلة الى
تونس ، حيث قرارُ آبائي ، ومساكنهم ، وآثارهم ، وقبورهم ؛

فَبَادَرْتُ إِلَى خُطَابِ السَّلْطَانِ بِالْفَيْئَةِ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَالْمُرَاجَعَةِ ،
 وَانْتظَرْتُ ، فَمَا كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، وَإِذَا بِخُطَابِهِ وَعُهُودِهِ بِالْأَمَانِ ،
 وَالِاسْتِحْثَاتِ لِلْقُدُومِ ؛ فَكَانَ الْخُفُوفَ لِلرَّحَلَةِ ؛ فَطَعْنْتُ عَنْ
 أَوْلَادِ عَرِيفٍ مَعَ عَرَبِ الْأَخْضَرِ مِنْ بَادِيَةِ رِيَّاحٍ ، كَأَنَّا هُنَاكَ
 يَنْتَجِعُونَ الْمَيْرَةَ بِمَنْدَاسٍ . وَارْتَحَلْنَا فِي رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِينَ ، وَسَلَكْنَا
 الْقَمْرَ إِلَى الدَّوَسَنِ مِنْ أَطْرَافِ الزَّأَبِ . ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى التَّلِّ مَعَ
 حَاشِيَةِ يَعْقُوبِ بْنِ عَلِيٍّ وَجَدْتُهُمْ بِقَرْفَارٍ ^(١) ، الضَّيْعَةَ الَّتِي اخْتَطَّهَا
 بِالزَّأَبِ ، فَرَحَلْتُهُمْ مَعِي ^(٢) إِلَى أَنْ نَزَلْنَا عَلَيْهِ بِضَاحِيَةِ قُسَنْطِينَةَ ، وَمَعَهُ
 صَاحِبُهَا الْأَمِيرُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ بِمَخِيْمِهِ ، وَفِي عَسْكَرِهِ ؛
 فَحَضَرْتُ عِنْدَهُ ، وَقَسَمَ لِي مِنْ يَرِّهِ ، وَكَرَامَتِهِ فَوْقَ الرِّضَى .
 وَأُذِنَ لِي فِي الدُّخُولِ إِلَى قُسَنْطِينَةَ ، وَإِقَامَةِ أَهْلِي فِي كِفَالَةِ إِحْسَانِهِ ،
 بَيْنَمَا أُصَلُّ إِلَى حَضْرَةِ أَبِيهِ . وَبَعَثَ يَعْقُوبُ بْنُ عَلِيٍّ مَعِي ابْنَ أَخِيهِ
 أَبِي دِينَارٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَسَرْنَا إِلَى السَّلْطَانِ أَبِي الْعَبَّاسِ ، وَهُوَ
 يَوْمَئِذٍ قَدْ خَرَجَ مِنْ تُونِسَ فِي الْعَسَاكِرِ إِلَى بِلَادِ الْجَرِيدِ ، لِاسْتِنزَالِ
 شَيْوِخِهَا عَنْ كِرَاسِي الزَّيْتِنةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ، فَوَافَيْتُهُ بِظَلَاهِرِ سُوسَةَ ،

(١) قَرْفَارٌ : وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ تَقَعُ عَلَى بَعْدِ ٣٣ كِيلُو مِتْرًا مِنْ مَدِينَةِ بَسْكَرَةَ ، فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ

لَهَا .

(٢) كَذَا ، وَفِي ب : فَرَحَلْتُ مَعَهُمْ .

فحياً وفادتي ، وبرّ مقدّمي ، وبألغ في تأنيسي ، وشاورني في مهمّات
 أموريه ؛ ثم ردّني الى تونس ، وأوعز الى نائبه بها مولاه فارح
 بتهيئة المنزل ، والكفاية في الجراية ، والعلوفة ، وجزير
 الأحسان ؛ فرجعت الى تونس في شعبان من السنة ، وآويت الى
 ظلّ ظليل من عناية السلطان وحرّمته ، وبعثت عن الأهل
 والولد ، وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة ، وأقيت عصا التسيار ؛
 وطالت غيبة السلطان الى أن افتتح أمصار الجريد ، وذهب
 قلّهم في النواحي ، ولحقّ زعيمهم يحيى بن يملول^(١) ببسكرة ،
 ونزل على صهره ابن مزني ، وقسم السلطان بلاد الجريد بين ولده .
 فأنزل ابنه محمد المنتصر بتوزر^(٢) ، وجعل نفطة ، ونفزاوة^(٣) من
 أعماله ، وأنزل ابنه أبا بكر بقفصة ، وعاد الى تونس مظفراً ، ماهداً ،

(١) يحيى بن محمد بن أحمد بن يلول أمير توزر . يرجع نسبهم - فيما يقولون - الى تنوخ من
 طوابع العرب الداخلة للمغرب . وقد ضبط ابن خلدون « يلول » بفتح الياء وسكون الميم ، وضم
 اللام بعدها واو ، فلام ؛ وتنطق اليوم املول بهجرة مكسورة بدل الياء ؛ وهي قاعده صوتية
 تكاد تطرد في النطق المغربي فيما أوله ياء ، وما قبل آخره حرف مد ؛ فيقولون في مثل : يكون ،
 ويدوم ، ويثام ؛ اكون ، ادوم ، انام - بهزات مكسورات بدل الياء .

(٢) توزر : ضبطها ابن خلدون بضم التاء ، (وفي ياقوت بفتحها) ، وسكون الواو بعدها
 زاي مفتوحة : مدينة واقعة على الحافة الشمالية لسط الجريد ، Chatt El-Djerid ، بينها وبين نفطة
 عشرة فراسخ (مرحلة) .

(٣) نفزاوة . ضبطها ابن خلدون بفتح النون (وفي ياقوت بكسرها) ، ويتفقان على تسكين
 الفاء ، وفتح الزاي المنلوة بألف ، ثم واو مفتوحة تليها هاء . وهي مدينة من مدن الجريد أيضاً ،
 بينها وبين نفطة مرحلة واحدة .

فأقبل عليّ ، واستدّثاني لمجالسته ، والنّجّبيّ في خلّوته ، فنصّ
 يطانته بذلك ، وأفاضوا في السّعايات عند السلطان فلم تُنجح ؛
 وكانوا يعكفون على إمام الجامع ، وشيخ الفُتيا ، محمد بن عرفة^(١) ،
 وكانت في قلبه نُكّته من النيرة من لدن اجتماعنا في المرّبي
 بمجالس الشيوخ ، فكثيراً ما كان يظهرُ شفوي^(٢) عليه ، وإن كان
 أسنّ مني^(٣) ، فاسودّت تلك النكّته في قلبه ، ولم تُفارقهُ . ولما قدّمت
 تونس انشال عليّ طلبة العلم من أصحابه وسواهم ؛ يطلبون
 الافادة والاشتغال ، واسعقتهم بذلك ، فعظم عليه . وكان يسرُّ
 التنفير الى الكثير منهم فلم يقبلوا ، واشتدّت غيرته ،
 ووافق ذلك اجتماعُ البطانة إليه ، فاتفقوا على شأنهم في التّأليب
 عليّ ، والسّعاية بي ، والسّلطان خلال ذلك مُعرض عنهم
 في ذلك ، وقد كلفني بالاكباب على تأليف هذا الكتاب
 لتسوّيه إلى المعارف والاخبار ، واقتناء الفضائل ، فأكملتُ

(١) او عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (٧١٦ - ٨٠٣) . يتبوأ المكانة
 العالية بين علماء المالكية ؛ درس بالزيتونة ، وأم بها خمسين عاماً . دخل مصر حاجاً سنة ٧٩٢ هـ ،
 وأجاز ابن حجر العسقلاني ؛ وله تأليف .

(٢) الشفوف هنا بمعنى الظهور والامتياز . وفي لسان العرب : شف عليه شفوقاً اذا زاد او
 نقص - وهي من الأضداد - وهنا بمعنى الزيادة .

(٣) ولد ابن عرفة قبل ابن خلدون بست عشرة سنة ، حيث كانت ولادته عام ٧١٦ ، وولادة

ابن خلدون عام ٧٣٢ .

منه أخبار البربر ، وزناته . وكتبتُ من أخبار الدولتين
وما قبل الإسلام ما وصل إليّ منها ، وأكملتُ منه نسخةً
رفعتها إلى خزانته . وكان ممّا يُفرون به السلطان عليّ ،
قعودي عن امتداحه ، فإني كنتُ قد أهملتُ الشعر
وانتجاله جملةً ، وتفرّغتُ للعلم فقط ، فكانوا يقولون له
إنما ترك ذلك استهانةً بسُلطانك ، لكثرة امتداحه للملوك
قبلك ، وتناستُ ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من
بطانتهم ؛ فلما رفعتُ له الكتاب ، وتوجّته باسمه ، أنشدته
ذلك اليوم ، هذه القصيدة أمدحُه ، وأذكر سيره
وفتوحاته ، واعتذرُ عن انتحال الشعر ، وأستعطفُه بهدية
الكتاب إليه ؛ وهي هذه :

هل غيرُ باريك للغريب مؤمّلُ أو عن جنابك للأمان مَعْدِلُ
هي همةٌ بعثتُ إليك على النوى عزماً كما شحذَ الحسام الصيقلُ^(١)
مُتَبَوِّأُ الدُنْيَا ومُتَجَجَعُ المُنَى والغيثُ حيثُ العارضُ المتهلّلُ
حيثُ القصورُ الزاهراتُ منيفةٌ تُعنى بهازُ هُرُ النجوم وتَحْفَلُ

(١) الصيقل (كجدر) : شحاذ السيوف ، وجلاؤها .

حيثُ الخيامُ البيضُ يُرَفَعُ للعلَا والمكرُماتِ طرَافُهَا^(١) المتهدِلُ
حيثُ الحمى للعزِ في سَاحَاتِهِ ظلُّ أفاةِتهِ الوَشِيحُ الذَّبَلُ^(٢)
حيثُ الكرامُ يُتَوَبَعْنَ نارِ القِرَى عَرَفُ الكِباءِ بِحِجِّهِمُ والمندلُ^(٣)
حيثُ الرِّمَاحُ يَكادِ يورِقُ عودُها مِمَّا تَمَلُّ منَ الدِّمَاءِ وتُهْتَلُ
حيثُ الجِيَادُ أَمَلَهُنَّ بَنُو الوَغَى مِمَّا أَطالوا في المَنَارِ وَأوغَلوا
حيثُ الوجوهُ الغُرُّ قَنَمَها الحِيا والبِشْرُ في صَفَحَاتِها يَتَهَلَّلُ
حيثُ الملوِكُ الصِّيدُ والنَّفَرُ الألى عزُّ الجِوارِ لِدِيهِمُ والمَنزِلُ
من شِيعَةِ المَهديِّ بل من شِيعَةِ التَّوْحِيدِ^(٤) جاءَ به الكِتابُ يَفْصَلُ
بل شِيعَةِ الرِّحْمَنِ ألقى حَبَّهُمُ في خَلْقِهِ فَسَمَوْا بِذاكِ وَفَضَّلُوا
شَادُوا على التَّقوى مَباني عَزِّهِمُ اللهُ ما شَادُوا بِذاكِ وَأَثَلُوا

(١) الطراف : بيت من أدم ؛ والطراف من الحياء : ما رفت من نواحيه لتنظر الى خارج

- قاموس .

(٢) الوشيج : أصلب القنا . والذبل ، جمع ذابل ؛ وهو القنا الدقيق اللاصق القشر ؛ وذلك

أمتن ما يكون .

(٣) الكياء : المتبخر به كالمندل .

(٤) يريد مهدي الموحدين ؛ وهو محمد بن تومرت ، مؤسس الدولة الموحدية بالمغرب .

وقد جعل أصل دعوته نفي التجسيم الذي آل اليه مذهب أهل المغرب حيث تركوا التأويل

في المشابهة من النصوص الشرعية ؛ وسبى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . العبر م ٦ .

قَوْمٌ أَبُو حَفْصٍ^(١) أَبٌ لَهُمْ وَمَا أَذْرَاكَ أَوِ الْفَارُوقِ^(٢) جَدُّ أَوْ عَلٍ
نَسَبٌ كَمَا أَطْرَدَتْ أَنْبِيَابَ الْغَنَاءِ^(٣) وَأَتَى عَلَى تَقْوِيمِهِنَّ مُعَدِّلٌ
سَامٌ عَلَى هَامِ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ لِلْفَخْرِ تَاجٌ بِالْبُدُورِ مُكَلَّلٌ
فَضَلَ الْأَنَامَ حَدِيثُهُمْ وَقَدِيمُهُمْ وَلَا نْتَ إِذْ فَضَلُوا أَعَزُّ وَأَفْضَلُ
وَبَنُوا عَلَى قَلَلِ النُّجُومِ وَوُطِدُوا وَبِنَاؤِكَ الْعَالِيِ أَشَدُّ وَأَطْوَلُ

وَلَقَدْ أَقُولُ لِحَائِضِ بَحْرِ الْفَلَاحِ وَاللَّيْلِ مُزْبِدُ الْجَوَانِبِ أَيْلٍ^(٤)
مَاضٍ عَلَى غَوْلِ الدُّجَى لَا يَتَّقِي تَيْهًا وَذَائِلُهُ ذُبَالٌ مُشَعَلٌ^(٥)
مُتَقَلِّبٍ فَوْقَ الرَّحَالِ كَأَنَّهُ طَيْفٌ بِأَطْرَافِ الْمِهَادِ مُوَكَّلٌ
يَبْغِي مَنَالَ الْفَوْزِ مِنْ طُرُقِ الْغَنَى وَيَرُودُ مُخَصَّبَهَا الَّذِي لَا يُمَجِّلُ
أَرِحِ الرَّكَّابَ فَقَدْ ظَفِرَتْ بِوَاهِبٍ
يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعِمِينَ فَيُجْزِلُ

- (١) هو أبو حفص عمر بن عبد الله الصنهاجي ، ويعرف بأزواج ، وعمر ومزال ؛ وكان يسمى قبل « فصفة » ، أو « فارصكات » ، فسماه ابن تومرت عمر ويعرفونه بعمر انبي ، من أهل تينمل من قبيلة مسكالة . كان من أوائل اصحاب ابن تومرت منشيء دولة الموحدين ، ووزر لعبد المؤمن بن علي واليه تنتسب الدولة الحفصية . العبر م ٦ ، العجب ص ١٢٥ وما بعدها .
- (٢) ذكر ابن خلدون في العبر ٦/٢٧٥ : أن نسب الحفصيين ينتهي الى عمر بن الخطاب ونقل ذلك عن ابن نخيل وغيره من الموحدين والى ذلك يشير هنا .
- (٣) أنبوب الرمح ، والقصة : كعبهما . والجمع انابيب .
- (٤) بحر مزبد : مائج يقذف بالزبد ؛ والكلام على التوسع . وليل أيل : شديد طول .
- (٥) الذابل : الفنا الدقيق اللاصق الليط . والذبال ، جمع ذبابة ؛ وهي الفتيله .

اللهُ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ فِي النَّدَى كَلَرَوْضِ حَيَّاهُ نَدِيٌّ مُخْضِلٌ
 هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامُنَا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَيْهِ الْمَوْتَلُ
 هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ خَيْرُ خَلِيفَةِ شَهِدَتْ لَهُ الشِّيمُ الَّتِي لَا تُجْبَلُ
 مُسْتَنْصِرٌ بِاللَّهِ فِي قَهْرِ الْعِدَا وَعَلَى إِعَانَةِ رَبِّهِ مُتَوَكِّلٌ
 سَبَقَ الْمُلُوكَ إِلَى الْعِلْمِ مُتَمَهِّلاً اللَّهُ مِنْكَ السَّابِقُ الْمُتَمَهِّلُ
 فَلَانَتْ أَعْلَى الْمَالِكِينَ وَإِنْ غَدَاوَا يَتَسَابِثُونَ إِلَى الْعِلَاءِ وَأَكْمَلُ
 قَائِسٌ قَدِيمًا مِنْكُمْ بِقَدِيمِهِمْ فَالْأَمْرُ فِيهِ وَاضِحٌ لَا يُجْهَلُ
 دَانُوا لِقَوْمِكُمْ بِأَقْوَمِ طَاعَةٍ هِيَ عُرْوَةُ الدِّينِ الَّتِي لَا تُفْصَلُ
 سَائِلٌ تِلْمَسَانَا بِهَا وَزَنَانَةً وَمَرِينَ قَبْلَهُمْ كَمَا قَدْ يُنْقَلُ
 وَأَسْأَلُ بِأَنْدَلُسٍ مَدَائِنِ مُلْكِهَا

تَخِيرُكَ حِينَ اسْتِيَأَسُوا وَاسْتَوْهَلُوا
 وَأَسْأَلُ بِدَا مَرَّا كُشَاً وَقُصُورَهَا وَلَقَدْ تُجِيبُ رُسُومَهَا مَنْ يَسْأَلُ

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي فِي نَعْتِهِ مِلَّةُ الْقُلُوبِ وَفَوْقَ مَا يُتَمَثَّلُ
 لِلَّهِ مِنْكَ مُؤَيَّدٌ ، عَزَمَاتِهِ تَمْضِي كَمَا يَمْضِي الْقَضَاءُ الْمُرْسَلُ

جئت الزمان بحيث أعضل خطبه فافتتر عنه وهو أكلح أعصل^(١)
والشمل من أبنائه متصدع وحمى خلافته مضاع مهمل
والخلق قد صرفوا إليك قلوبهم

ورجوا صلاح الحال منك وأملوا

فمجلته لما انتدبت لأمره بالبأس والعزم الذي لا يُنهل
ذلت منه جامعاً لا ينثني سهلت وعرأ كاداً لا يتسهل
وأنت من شرس العتاة وذذتهم عن ذلك الحرم الذي قد حللوا
كانت لصولة صولة ولقومه يعدوا ذؤيب بها وتسطو المعقل
ومهلل تسدي وتلجم في التي ما أحكموها بعد فهي مهليل

المراد بصولة هنا صولة بن خالد بن حمزة أمير اولاد ابي الليل .

وذؤيب : هو ابن عمه أحمد بن حمزة . والمعقل فريق من العرب من
أحلافهم . ومهلل : هم بنو مهليل بن قاسم انظارهم
وأقتالهم^(٢) . ثم رجعت إلى وصف العرب وأحيائهم :

عجيب الأنام لشأنهم باذون قد قذفت بجهم المطيئ الذلل

(١) الكلوح : تكشر في عبوس ، ودمر كالج على التل . وأعضل : معوج
شديد ملتو .

(٢) انظار : جمع نظر ؛ كمثل وزننا ومعنى . والاقبال ؛ جمع قتل (بكسر القاف) ؛ وهو
القرن في القتال وغيره .

رَفَعُوا الْقِيَابَ عَلَى الْعِمَادِ وَعِنْدَهَا الْجُرْدُ السَّلَاهِبُ^(١) وَالرِّمَاحُ الْعُسَلُ^(٢)
 فِي كُلِّ ظَايِمِي التُّرْبِ مَتَدِدِ الْحَصَى تَهْوِي لِلْجَيْتِهِ الظِّمَاءُ فَتَنْهَلُ
 جَنُّ شَرَابِهِمُ السَّرَابُ وَرَزَقَهُمْ رُمَحٌ يَرُوحُ بِهِ الْكَمِيُّ وَمَنْصُلٌ
 حَيٌّ حُلُولٌ بِالْعَرَاءِ وَدُونَهُمْ قَذْفُ النُّوَى^(٣) إِنْ يَطْعَنُوا أَوْ يُقْبِلُوا
 كَانُوا يَرُوعُونَ الْمُلُوكَ بِمَا بَدَوْا وَغَدَتِ تَرْفَهُ بِالنِّعِيمِ وَتَحْضُلُ
 فَبَدَوَتْ لَا تَلْوِي عَلَى دَعَةٍ وَلَا تَأْوِي إِلَى ظُلْلِ الْقُصُورِ تُهْدَلُ
 طَوْرًا يُصَافِحُكَ الْهَجِيرُ وَتَارَةً فِيهِ بِخَفَاقِ الْبُنُودِ تُظَلَّلُ
 وَإِذَا تُعَاطِي ضَمْرًا يَوْمَ الْوَعَى كَأَسِ النَّجِيعِ فَبِالضَّهِيلِ تُعَلِّلُ
 مُخْشَوِشِنَا فِي الْعَزِّ مُعْتَمِلًا لَهُ فِي مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ الْمُسْتَعْمَلُ
 تَقْرِي حَشَا الْبَيْدَاءِ لَا يَسْرِي بِهَا رَكْبٌ وَلَا يَهْوِي إِلَيْهَا جِحْفَلُ
 وَتَجْرُ أذْيَالُ الْكُتَّابِ فَوْقَهَا تَخْتَالُ فِي السَّمْرِ الطَّوَالِ وَتَرْفُلُ
 تَرْمِيهِمْ مِنْهَا بِكُلِّ مُدَجَّجٍ شَاكِي السَّلَاحِ إِذَا اسْتَعَارَ الْأَعْزَلُ
 وَبِكُلِّ أَسْمَرَ غُضْنَهُ مَتَأَوَّدٌ وَبِكُلِّ أَبْيَضَ شَطَّهُ مُتَهَدِّلُ
 حَتَّى تَفَرِّقَ ذَلِكَ الْجَمْعُ الْأُلَى عَصَفَتْ بِهِمْ رِيحُ الْجِلَادِ فَرَزُّوْا
 ثُمَّ اسْتَمَلَتْهُمْ بِأَنْعَمِكَ الَّتِي خَضَعُوا لِعِزِّكَ بَعْدَهَا وَتَذَلُّوْا
 وَتَزَعَّتْ مِنْ أَهْلِ الْجَرِيدِ غَوَايَةَ كَانَتْ بِهِمْ أَبْدًا تَجِدُّ وَتَهْزِلُ

(١) السلاهيب ، جمع سلاهيب : وهو الطويل العظيم من الخيل .

(٢) رمح عاسل : لدن مضطرب ؛ والجمع عسل .

(٣) نية قذف (بضم نين) : بعيدة . والنوى ، والنبة : الوجه بشويه المسافر من قرب

أو بعد . وهي مؤنثة .

خَرَّبْتَ مِنْ بُيَانِهَا مَا شِيدُوا وَقَطَعْتَ مِنْ أَسْبَابِهَا مَا أَصَلُوا
 وَنَظَّمْتَ مِنْ أَمْصَارِهِ وَتُغُورِهِ لِلْمُلْكِ عِقْدًا بِالْفَتْوحِ يُفْضَلُ
 فَسَدَدْتَ مُطَّلِعَ النَّفَاقِ وَأَنْتَ لَا تَنْبُو طُبَّكَ وَلَا الْعَزِيمَةَ تَنْكُلُ^(١)
 بِشَكِيمَةٍ مَرُهَوْبَةٍ وَسِيَّاسَةٍ تَجْرِي كَمَا يَجْرِي فِرَاتٌ سَدَسَلُ
 عَذْبَ الزَّمَانِ لَهَا وَلَدٌ مَذَاقُهُ مِنْ بَعْدِ مَا قَدِمَ مِنْهُ الْخَنْظَلُ
 فَضْوَى الْأَنَامِ لِعِزِّ أَرْوَعِ مَا لَكَ سَهْلِ الْخَلِيقَةِ ، مَا جَدُّ مُتَفَضَّلُ
 وَتَطَابَقَتْ فِيكَ الْقُلُوبُ عَلَى الرَّضَى سَيَّانَ مِنْهَا الطِّفْلِ وَالْمَتَكَهَّلُ
 يَا مَالِكًا وَسِعَ الزَّمَانُ وَأَهْلَهُ دَعَا وَأَمَّنَا فَوْقَ مَا قَدِ أَمَلُوا
 فَلْأَرْضُ لَا يُخْشَى بِهَا غُولٌ وَلَا يَعْدُو بِسَاحَتِهَا الْهَزْبُ الْمُسِيلُ
 وَالسَّفَرُ يَجْتَابُونَ كُلَّ تَنُوقَةٍ^(٢) سَرِبَ الْقَطَامَا رَاعَهُنَّ الْأَجْدَلُ^(٣)
 سُبْحَانَ مَنْ يِعْلَاكَ قَدْ أَحْيَا الْمُنَى وَأَعَادَ حَلِيَّ الْجِيدِ وَهُوَ مُعْطَلُ
 سُبْحَانَ مَنْ يَهْدَاكَ أَوْضَحَ لِلْوَرَى

قَصْدَ السَّيْلِ فَأَبْصَرَ الْمُتَأَمِّلُ^(٤)

فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا عَرُوسٌ تُجْتَلَى فَتَمِيسُ فِي حُلَلِ الْجَمَالِ وَتَرْفُلُ
 وَكَأَنَّ مُطَبَّقَةَ الْبِلَادِ يَعْدِلُهُ عَادَتْ فَسِيحًا لَيْسَ فِيهِ مَجْهَلُ
 وَكَأَنَّ أَنْوَارَ الْكَوَاكِبِ ضَوْعِفَتْ مِنْ نُورِ غُرَّتِهِ الَّتِي هِيَ أَجْمَلُ

(١) تنكل : تجين ، وتنكص

(٢) التنوفة : القفر من الارض لا ماء فيه .

(٣) الاجدل : الصقر .

(٤) سقط هذا البيت من احدي النسخ .

وكأَنَّمَا رُفِعَ الْحِجَابُ لِنَاظِرٍ فَرَأَى الْحَقِيقَةَ فِي الَّذِي يَتَخَيَّلُ

ومنها في العذر عن مدحه :

مولاي غاصت فكري وتبلدت مني الطباع فكل شيء مشكل
تسمو الى درك الحقائق همتي فأصد عن إدراكهن وأعزل
وأجد ليلى في امتراء قريحتي^(١) وتعود غوراً بينما تسترسل
فأبيت يعتلج الكلام بخاطري والنظم يشرذم والقوافي تجفل
من بعد حول أنثيه ولم يكن في الشعر حولي يعاب ويهمل^(٢)
فأصونه عن أهله متوارياً أن لا يضمهم وشعري محفل
وهي البضاعة في القبول نفاؤها سيان فيها الفحل والمتطفل
وبنات فكري إن أتتك كليله مرهأ^(٣) تخطر في القصور وتخطل
فلها الفخار إذا منحت قبولها وأنا على ذلك البليغ المقول

ومنها في ذكر الكتاب المؤلف لخزانتة :

وإليك من سير الزمان وأهله عبراً يدين بفضلها من يعدل
صحفاً تترجم عن أحاديث الآلي غبروا فتجمل عنهم وتقص

(١) امتراء القريجة : استدرارها .

(٢) يشير الى ما عرف عن زهير بن ابي سلمى الشاعر ، من انه عمل سبع قصائد في سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زهير ، لانه كان يحوك القصيدة في سنة .

(٣) امرأة مرهأ : غير مكتحة ؛ وعين مرهأ : خالية من الكحل . ويريد أن قصيدته هذه ، تنقصها الزينة والاحتفال .

تُبْدِي التَّبَاعُ وَالْعَمَالِقُ سِرَّهَا وَثَمُودُ قَبْلَهُمْ وَعَادُ الْأَوَّلُ
 وَالْقَائِمُونَ بِيَمَلَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مُضَرٍّ وَبَرِّبَرِهِمْ إِذَا مَا حُصِّلُوا
 لَخَصَّتْ كُتُبَ الْأَوَّلِينَ لَجْمِعِهَا وَأَتَيْتُ أَوْلَهَا بِمَا قَدْ أَغْفَلُوا
 وَأَلَنْتُ حَوْشِي الْكَلَامِ كَأَنَّا سُرْدُ اللُّغَاتِ بِهَا لِنُطْقِي ذُلُّ
 أَهْدَيْتُ مِنْهُ إِلَى عِلَاكَ جَوَاهِرًا مَكُونَةٌ وَكَوَا كِبًا لَا تَأْفَلُ
 وَجَعَلْتَهُ لِصَوَانِ مُلْكِكَ مَفْخَرًا

يَبْأَى (١) النَّدِيُّ بِهِ وَيَزْهُو الْمَخْفِلُ
 وَاللَّهِ مَا أَسْرَفْتُ فِيمَا قَلْتُهُ شَيْئًا وَلَا الْأَسْرَافُ مِمَّا يَجْمَلُ
 وَلَأَنْتَ أَرْسَخُ فِي الْمَعَارِفِ رُتَبَةً مِنْ أَنْ يُمَوِّرَ عِنْدَهُ مَتَطْفَلُ
 فِيمَا لَكَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَحَقِيقَةٍ بِيَدَيْكَ تَعْرِفُ وَضَعَهَا إِنْ بَدَّلُوا
 وَالْحَقُّ عِنْدَكَ فِي الْأُمُورِ مُقَدَّمٌ أَبْدًا فَاذَا يَدَّعِيهِ الْمُبْطَلُ
 وَاللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا فَاحْكُمْ بِمَا تَرْضَى فَأَنْتَ الْأَعْدَلُ
 أَبْقَاكَ رَبُّكَ لِلْعِبَادِ تَرْبُهُمْ فَاللَّهُ يَخْلُقُهُمْ وَرَعِيكَ يَكْفُلُ

وَكُنْتُ لَمَّا انصرفتُ عنه من مَعَسَاكَرِهِ عَلَى سُوَسَاةِ إِلَى تُونِسَ ،
 بَلَغَنِي - وَأَنَا مُقِيمٌ بِهَا - أَنَّهُ أَصَابَهُ فِي طَرِيقِهِ مَرَضٌ ، وَعَقِبَهُ إِبْلَالٌ ،
 فَخَاطَبْتُهُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

ضحكت وُجوهُ الدهر بعد عبوس وتجلأتنا رحمةً من بوس
 وتوضحت غرر البشائر بعد ما انبهمت فأطلعها حداة العيس^(١)
 صدعوا بها ليلَ الهموم كأنها صدعوا الظلام بجذوة المقبوس
 فكأنهم بشوا حياةً في الورى نشرت لها الآمال من رموس^(٢)
 قرَّت عيونُ الخلق منها بالتي أضفت من النعماء خير لبوس
 فكان قومي نادمتهم قرقف^(٣) شربوا النعيم لها بغير كؤوس
 يتمايلون من المسرة والرضي ويقابلون أهلةً بشموس
 من راكب وافى يُجيب راجبا وجلس أنسٍ قاده جليس
 ومشفع لله يُونسُ عنده أثر الهدى في المعبد المانوس
 يعتدُّ منها رحمةً قدسيةً فيبوء للرحمن بالتقديس
 طبُّ بإخلاص الدعاء وإنه يشفي من الداء العيا ويوسي

والمعني به إمام الجامع الأعظم ، جامع الزيتونة بتونس .

يا ابن الخلائف والذين بنورهم نهجت سبيل الحق بعد دروس
 والناصر الدين القويم بعزيمة طرد استقامتها بغير عكوس
 هجر المنى فيها ولذات المنى في لذة التهجير والتغليس^(٤)

(١) جمع أعبس ، او عيساء ؛ وهي التي في لونها أدمة .

(٢) المرعوس : المقبور .

(٣) القرقف : الخمر .

(٤) التهجير الى الصلاة : التبكير والمبادرة اليها ؛ وفي الحديث : لو يعلم الناس ما في التهجير

لاستبقوا اليه . والتغليس : السير الى صلاة الصبح وقت الغلس ، وهو ظلة آخر الليل .

حاط الرعية بالسياسة فانضوت منه لأكرم مالك وسؤوس
 أسد يُجامي عن حمى أشباله حتى ضوا منه لأمع خيس^(١)
 قسماً بموشي البطاح وقد غدت تختال زهواً في ثياب عروس
 والمائلات من الخنايا جشماً يُخبرن عن طسم وقل جديس^(٢)
 خوص^(٣) مضمرة البطون كأنها أنضاء^(٤) ركب في الفلاة حيس^(٥)
 وخز البلى منها الغوارب والذرى

فلفتن خزرأ بالعيون الشوس^(٦)

لبك حرز للأنام وعصمة وحياة أرواح لنا ونفوس
 ولأنت كافل ديننا بحماية لولاك ضيع عهدها وتوسي
 الله أعطاك التي لا فوقها وحبك حظاً ليس بالموكوس^(٧)
 تنو القلوب إليك قبل وجوهنا سيان من رأس ومن مرءوس
 فإذا أقت فإن رعبك راحل يُحمي على الأعداء كل وطيس

(١) ضوا: لجأوا، والخيس؛ موضع الاسد.

(٢) طسم وجديس: حيان من العرب البائدة؛ كان مسكنها البحرين، واليامة. وقد

أوقع حسان بن تبع بقبيلة جديس، والى ذلك ينظر ابن خلدون. الطبري ٣٨/٢ - ٣٩.

(٣) خوص: لونها اشهب، مثلما يصبح لون الرأس عندما يستوي فيه سواد الشعر وبياضه. لسان العرب.

(٤) جمع نضو؛ وهو المهزول.

(٥) حيس: محبوس.

(٦) الغوارب: جمع غارب، وهو مقدم سنام البعير. والذرى: جمع ذروة؛ وهي أعلى

سنام البعير؛ يعني أن البلى قد عمها. والشوس: النظر بمؤخر العين غيظاً وغضباً.

(٧) الموكوس: المنقوص.

وَإِذَا رَحَلَتْ فَلِلسَّعَادَةِ آيَةٌ تَقْتَادُهَا فِي مَوْكِبٍ وَخَيْسٍ
وَإِذَا الْأَدِلَّةُ فِي الْكَمَالِ تَطَابَقَتْ جَاءَتْ بِمَسْمُوعٍ لَهَا وَمَقِيسٍ
فَانْعَمَ بِمُلْكِكَ دَوْلَةً عَادِيَةً^(١) تُشْقِي الْأَعَادِيَّ بِالْعَذَابِ الْيَسِيرِ

∴

وَإِلَيْكُمَا مَنِّي عَلَى خَجَلٍ بِهَا عِذْرَاءٌ قَدْ حَلَيْتِ بِكُلِّ نَفْسٍ
عُذْرًا فَقَدْ طُمَسَ الشَّبَابُ وَنُورُهُ وَأَضَاءُ صُبْحِ الشَّيْبِ عِنْدَ طُمُوسٍ
لَوْلَا عِنَايَتُكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي مَا كُنْتُ أُعْنَى بَعْدَهَا بِطُرُوسٍ
وَاللَّهِ مَا أَبَقْتُ مُمَارَسَةَ النَّوَى مَنِّي سِوَى مَرَسِ أَحْمَدَ دَرِيْسٍ^(٢)
أَنْحَى الزَّمَانَ عَلَيَّ فِي الْأَدَبِ الَّذِي دَارَسْتُهُ بِمَجَامِعِ وَدُرُوسِ
فَسَطًا عَلَيَّ وَفَرِي وَرَوْعَ مَا مَنِي وَأَجْتَحْتُ مِنْ دَوْحِ النَّشَاطِ غُرُوسِي
وَرِضَاكَ رَحْمَتِي الَّتِي أَعْتَدْتُهَا تُحْيِي مَنِّي نَفْسِي وَتُدْهِبُ بُوْسِي

ثُمَّ كَثُرَتْ سَعَايَةُ الْبِطَانَةِ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّعَايَاتِ ، وَابْنُ
عَرَفَةَ يَزِيدُ فِي إِغْرَائِهِمْ مَتَى اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، إِلَى أَنْ أَغْرَاوَا السُّلْطَانَ
بِسَفَرِي مَعَهُ ، وَلَقَّنُوا النَّائِبَ بَتُونِسَ الْقَائِدَ فَارِيحَ مِنْ مَوَالِي
السُّلْطَانَ أَنْ يَتَّقَادَى مِنْ مُقَامَتِي مَعَهُ ، خَشِيَةً عَلَى أَمْرِهِ مَنِي بِزَعْمِهِ ،

(١) نسبة الى عاد، الامة المعروفة . ويريد أنها طويلة الامد .

(٢) المرس (بفتح الميم والراء) : الحبل . والاحم : الاسود . والدريس : الحناق ، البالي .

وتواطوا على أن يشهد ابنُ عَرَفةَ بذلك للسلطان ، فشَهِد به في غيبةِ
مَنِّي ، ونَكَرَ السُّلْطَانُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ وَأَمَرَنِي بِالسَّفَرِ مَعَهُ ،
فَسَارَعْتُ إِلَى الْإِمْتِثَالِ ، وَقَدْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَحِيصاً
[عنه] ، فَخَرَجْتُ مَعَهُ ، وَأَنْتَهَيْتُ إِلَى تَيْسَةَ ، وَسَطَ تَلُولِ إِفْرِيقِيَّةَ ،
وَكَانَ مَنْحَدِراً فِي عَسَاكِرِهِ وَتَوَالِيْفِهِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى تَوْزَرَ ؛ لِأَنَّ
ابْنَ يَمْلُولَ كَانَ أَجْلَبَ عَلَيْهَا سَنَةً ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ ، وَاسْتَنْقَذَهَا مِنْ يَدِ
ابْنِهِ ، فَسَارَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ ، وَشَرَّدَهُ عَنْهَا ، وَأَعَادَ إِلَيْهَا ابْنَهِ وَأَوْلِيَاءَهُ .
وَلَمَّا نَهَضَ مِنْ تَيْسَةَ ، رَجَعَنِي إِلَى تُونِسَ ؛ فَأَقَمْتُ بِضَيْعَتِي الرِّيَاحِينَ
مِنْ نَوَاحِيهَا لَضَمِّ زُرُوعِي^(١) بِهَا ، إِلَى أَنْ قَفَلَ السُّلْطَانُ ظَافِراً
مَنْصُوراً ، فَصَحَبْتَهُ إِلَى تُونِسَ .

ولما كان شهرُ شعبانٍ من سَنَةِ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ ، أَجْمَعَ السُّلْطَانُ
الْحُرُوكَةَ إِلَى الزَّابِ ؛ بِمَا كَانَ صَاحِبُهُ ابْنُ مَزْنِي قَدْ آوَى ابْنَ يَمْلُولَ
إِلَيْهِ ، وَتَهَدَّلَهُ فِي جَوَارِهِ ؛ فَخَشِيتُ أَنْ يَعُودَ فِي شَأْنِي مَا كَانَ فِي
السَّفَرَةِ قَبْلَهَا . وَكَانَتْ بِالْمَرَسِيِّ سَفِينَةٌ لِتِجَارِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ قَدْ شَحَنَهَا
التِّجَارُ بِأَمْتَعَتِهِمْ وَعُرُوضِهِمْ ، وَهِيَ مُقْلِعَةٌ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ،
فَتَطَارَحْتُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ فِي تَحْلِيَةِ سَبِيلِي لِقَضَاءِ فِرَاضِي ،

(١) كذا ، وفي ب : لضم زراعتي :

فأذن لي في ذلك ، وخرجت الى المرسي ، والناس متسائلون علي
 أثري من أعيان الدولة والبلد وطلبية العلم . فودعتم ، وركبت
 البحر منتصفا شعبان من السنة ، وقوضت عنهم بحيث كانت
 الخيرة من الله سبحانه ، وتفرغت لتجديد ما كان عندي من آثار
 العلم ، والله ولي الأمور سبحانه .

الرحاة الى المشرق ، وولاية القضاء بمصر

ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين ،
 أقمتنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الاسكندرية
 يوم الفطر . ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت ،
 واقْتِعاد كرسى الملك دون أهله بني قلاون ؛ وكنا على ترقب
 ذلك ، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك ، وتمهيد له .
 وأقت بالاسكندرية شهراً لتهيئة اسباب الحج ولم يُقدّر عامئذ ،
 فانتقلت الى القاهرة اول ذي القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان
 العالم ، ومحشر الامم ، ومدراج الذر^(١) من البشر ، وإيوان الاسلام ،
 وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وترهر
 الحوانك^(٢) والمدارس بأفاقه ، وتضي البدور والكواكب من
 علمائه ؛ قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة^(٣) ومدفع مياه السماء ،

(١) المدرج : الطريق . والذر : النمل الاحمر الصغير .

(٢) جمع خانقاه .

(٣) يشير ابن خلدون هنا الى ما يقص حول نهر النيل من انه احد انهار الجنة ، كدجلة
 والفرات ، وسيحان . خطط القريرى ١/٨٠-٨١ طبع مصر سنة ١٢٣٤ . على ان ابن خلدون
 لم يلتفت الى هذا حين تحدث عن هذه الأنهار في مقدمته ؛ وقد نقدا بقوت هذه الاقاصيص بأنها
 « حديث خرافة » .

يَسْقِيهِمَ النَّهْلَ وَالْعَلَلَ سَيْحُهُ^(١) وَيَجْنِي اليهم الثمرات والخيرات
 ثَجُّهُ^(٢)؛ ومررتُ في سكك المدينة تنصُّ بزحام المارَّةِ ، واسواقها
 ترخر بالنِّعم . وما زلنا نحدِّثُ عن هذا البلد ، وبعده مداه في العمران ،
 واتساع الاحوال ؛ ولقد اختلفت عباراتُ من لقيناه من شيوخنا
 واصحابنا ، حاجيهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألتُ صاحبنا قاضي
 الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ؛ أبا عبدالله المقرِّي ، مقدِّمه من
 الحج سنة اربعين ، فقلتُ له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم
 يرها لم يعرف عزَّ الاسلام .

وسألتُ شيخنا ابا العباس ابن إدريس^(٣) كبير العلماء ببجاية مثلَ
 ذلك فقال : كأننا انطلقَ اهلُه من الحساب ؛ يُشير الى كثرة أممه
 وأمنهم العواقب^(٤) .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس ، الفقيهُ الكاتب ابو القاسم
 البرجي بمجلس السلطان ابي عنان ، منصرفه من السفارة عنه الى

(١) السبح : الماء الجاري على وجه الارض .

(٢) الثج : الصب الكثير . وفي القرآن : « وأنزلنا من المصرات ماءً ثجاجاً » وثجيج

الوادي : سيله .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن إدريس البجائي المالكي المتوفى بعد سنة ٧٦٠ .

(٤) يقول المقرِّي : « ... قال شيخنا الاستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون - رحمه الله

تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب » . الخطط ٧٩/١ طبع مصر سنة ١٣٢٤ .

ملوك مصر ، وتأدية رسالته النبوية ^(١) الى الضريح الكريم ، سنة
ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال :

اقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : ان الذي يتخيله
الانسان ، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل
محسوس ، الا القاهرة ، فانها اوسع من كل ما يُتخيل فيها . فأعجب
السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها ، أقت أياماً ، وانثال علي طلبية العلم بها ، يلتمسون
الافادة مع قلة البضاعة ، ولم يُسعوني عُذراً ؛ فجلست للتدريس
بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتّصال بالسلطان ، فأبرّ اللّقاء ، وأنس الغربة ، ووفّر
الجرّاية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلي
وولدي من تونس ، وقد صدّهم السلطان هنالك عن السّفْر ، اغتباطاً
بعوذي إليه ، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشّفاة إليه في تخلية

(١) هي رسالة اعتادوا ان يكتبوها في مناسبات مختلفة ، ويبعثونها الي قبر الرسول صلى
الله عليه وسلم ؛ يحملها رسول خاص الى الروضة الشريفة حيث تقرأ قرب القبر النبوي الكريم .
وفي نفع الطيب أمثلة لهذا النوع من الرسائل .

(٢) جاء في « السلوك » : « وفي هذا الشهر (رمضان) ، قدم شيخنا أبو زيد عبد الرحمن
ابن خلدون من بلاد المغرب ، واتصل بالامير الطنبغا الجوباني وتصدى للاشتغال بالجامع الأزهر ،
فأقبل الناس عليه ، وأعجبوا به . »

سليهم ، فخطبه في ذلك بما نصه^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم^(٢) .

عبدُ الله ووليُّه أخوه برقوق^(٣) [.....]^(٤)

السلطان الأعظم ، المالك الملك الظاهر ، السيد الأجل ، العالم العادل ، المؤيد المجاهد ، الرابط المثار ، المظفر ، الشاهنشاه ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، أسكندر الزمان ، مولي الاحسان ، مملك أصحاب التخوت والأسرة والتيجان ، واهب الأقاليم والأقطار ، مبيد الطاعة

(١) سقط نص هذه الرسالة في اكثر النسخ .

(٢) حافظت في هذه الرسالة على الطريقة الرسمية التي كانت متبعة في ذلك العهد ، والتي يقول عنها الفلقشندي في صبح الاعشى (٣٧٨/٧) ، في رسم الكتابة الى صاحب فاس ، وغيره من ملوك المغرب :

« ... وهو أن يكتب بعد البسمة ، بحيث يكون تحتها سواء ، في الجانب الايمن من غير بياض ، ما مثاله : « عبد الله ووليه » : ثم يجلي مقدار بيت العلامة ، ثم يكتب الالقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسمة ، وهي : السلطان الاعظم الخ » .

(٣) في خطط القرظي ٢/٣١١ بولاق : « واما البريد ، وخلص الحقوق والظلمات ، فانه (السلطان) يكتب ايضا اسمه ، وربما كرم المكتوب اليه ، مكتب اليه : « اخوه فلان ، او والده فلان ، وأخوه » .

(٤) هذا البياض هو بيت العلامة ، وكانت علامة الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملي » ، وعمل ذلك الملوك بعده . خطط القرظي ٢/٣١١ بولاق ، والاستقصا ٢/٧٢ ، صبح الاعشى

والبُغاة والكفَّار ، مَلِكَ البَحْرَيْنِ ، مُسَلِّكَ سَبِيلِ القِبْلَتَيْنِ ، خَادِمَ
الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، ظَلَّ اللهُ فِي أَرْضِهِ ، القَائِمَ بِسُنَّتِهِ وَفَرَضِهِ ، سُلْطَانَ
البَّسِيطَةِ مُؤَمِّنَ الأَرْضِ المُحِيطَةِ ، سَيِّدَ المُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، قَسِيمٌ^(١)
أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ^(٢) ، أَبُو سَعِيدِ بَرِّقُوقِ ابْنِ الشَّهِيدِ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ
أَبِي المَعَالِي أَنَسٍ^(٣) . خَلَدَ اللهُ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جِيوشَهُ وَأَعْوَانَهُ .
يُخْصِ الحَضْرَةَ السَّنِيَّةَ السَّرِيَّةَ ، المَظْفَرَةَ المَيْمُونَةَ ، المَنْصُورَةَ المَنْصُونَةَ ،
حَضْرَةَ السُّلْطَانَ العَالِمِ ، العَادِلِ المُوَيْدِ ، المُجَاهِدِ الأَوْحَدِ ، أَبِي العَبَّاسِ ،
ذُخْرِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ، عُدَّةَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، قُدُوةَ المُؤَحِّدِينَ ،
نَاصِرِ الغُزَاةِ وَالمُجَاهِدِينَ ، سَيْفِ جَمَاعَةِ الشَّاكِرِينَ ، صَلاَحِ الدُّوَلِ . لا
زَالَتْ مَمْلَكَتُهُ بِثَوْتِهِ عَامِرَةً ، وَمَهَابَتُهُ لِنَفُوسِ الجَبَابِرَةِ قَاهِرَةً ، وَمَعْدَلَتُهُ
تُبَوِّئُهُ عُرْفَاتِ العِزِّ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ . سَلامٌ صَفَا وَرَدُّهُ وَضَفَا
بُرْدُهُ ، وَثَنَاءٌ فَاحَ نَدُّهُ ، وَلا حَ سَعْدُهُ ، وَوَدَادٌ زَادَ وَجْدَهُ ، وَجَادَ
جَدُّهُ .

أما بعد حمد الله الذي جعل القلوب اجناداً مجنّدة ، واسباب الوداد

(١) القسيم بمعنى المقاسم ؛ والمراد انه قاسم امير المؤمنين الملك ، وسامه في الامر ، فصارا
فيه مشتركين . صبح الاعشى ٧/٦٥، ١١٣ .

(٢) هو المتوكل على الله ، ابو عبدالله محمد بن المعتضد الخليفة العباسي . ولي سنة ٧٦٣ هـ
وامتدت ايامه ٤٥ سنة ، حبس فيها وخلص ؛ ومات سنة ٨٠٨ هـ . « تاريخ الخلفاء »
ص ٢٠٣، ٢٠٢ .

(٣) كذا ، وهو سيف الدين اتز الجركسي الثماني التوفي سنة ٧٨٣ هـ .

على العباد مؤكدة ، ووسائل المحبة بين الملوك في كل يوم مجددة؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله، الذي نصره الله بالرعب مسيرة شهر وأيده^(١) وأعلى به منار الدين وشيده؛ وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا طريقه وسؤدده، صلاة دائمة مؤبدة . فاننا نوضح لعالمه الكريم، أن الله - وله الحمد - جعل جليلتنا الشريفة مجبولة على تعظيم العلم الشريف واهله، ورفعته شأنه، ونشر اعلامه، ومحبة اهله وخدومه، وتيسير مقاصدهم، وتحقيق املمهم، والاحسان اليهم، والتقرب الى الله بذلك في السر والعلانية؛ فان العلماء رضي الله عنهم ورثة الانبياء وقرّة عين الاولياء، وهداة خلق الله في ارضه؛ لاسيما من رزقه الله الدراية فيما علمه من ذلك، وهداه للدخول اليه من احسن المسالك، مثل من سطرنا هذه المكاتبة بسببه: المجلس^(٢) السامي، الشّيخي، الأجايبى، الكبيرى، العالمى، الفاضلى، الاثيلي، الاثيرى، الامامى، العلمى القدوة، المقتدى، الفريدى، المحمّقى، الأصيلى، الاوحدى، الماجدى، الوكوى^(٣)، جمال الاسلام

(١) يشير الى حديث الصحيحين : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » . (كنوز الحقائق)

للمناوي .

(٢) هذا النوع من الخلق والالقب الخاصة بأرباب الوظائف الدينية ، يأتي في المرتبة الثالثة ؛ فالاول : درجة « المقر » ؛ والثانية : درجة « الجنب » ، والثالثة : درجة « المجلس » ؛ ولكل من الدرجات فروع ؛ و « المجلس السامي » احد فروع درجة « المجلس » . وانظر تفصيل القول عن هذه الاستعمالات في صبح الاعشى ١٥/٧ ، ١٥٤-١٥٩ .

(٣) هذه النسبة الى « ولي الدين » .

والمسلمين ، جمال العلماء في العالمين ، اوحدهم الفضلاء ، قدوة البُلغاء ،
 علامة الامة ، امام الأئمة ، مفيد الطالبين ، خالصه الملوك والسلاطين^(١)
 عبد الرحمن بن خلدون المالكي . أدام الله نعمته ؛ فانه أولى بالاكرام ،
 وأحرى ، وأحقُّ بالرعاية وأجلُّ قدراً ؛ وقد هاجر الى ممالكنا الشريفة ،
 وآثر الإقامة عندنا بالديار المصرية ، لا رغبة عن بلاده ، بل تحبباً
 لنا ، وتقرباً الى مواطننا ، بالجواهر النفيسة ، من ذاته الحسنة ،
 وِصفاته الجميلة ؛ ووجدنا منه فوق ما في النفوس ، مما يجِلُّ عن
 الوصف ويُربي على التعداد . ياله من غريبٍ وِصفٍ ودار ، قد أتى
 عنكم بكل غريب ؛ وما برح — من حين ورد علينا — يُبالغ في شكر
 الحضرة العلية ، ومدح صفاتها الجميلة ، الى ان استمال مواطننا الشريفة
 الى حُبِّها ، وآثرنا المكاتبه اليها .

« والعين تعشق قبل الاذن احياناً »^(٢)

وذكر لنا في اثناء ذلك ، ان اهله واولاده ، في مملكة تونس

(١) اصطَلحوا على ان يلحقوا بآباء النسب بآخر الالقاب المفردة للبالغة في التعظيم ، ثم
 جعلوا النسبة الى نفس صاحب اللقب أرفع رتبة من النسبة الى شيء خارج عنه . ومن هنا كان
 « الاجلي » و « القاضوي » ارفع رتبة من « الجلاي » ، و « القضائي » . صبح الاعشى
 ١٠٠٠ ، ٧٨/٦ . ثم ان لهذه الالقاب دلالات متعارفة خاصة . تولى تحديدها الفلكنندي في صبح
 الاعشى ٧٧٣-٢٠/٧ .

(٢) عجز بيت لبشر بن برد ؛ وصدريه — كما في الاغانى ١٩/٣ بولاق :

يا قوم أذني لبعض الحبي عاشقه والاذن

تحت نظر الحضرة العلية ، وقصد إحضارهم اليه ليقيموا عنده ، ويجتمع
شمله بهم مدة إقامته عندنا ، فافتضت آراؤنا الشريفة ، الكتابة الى
الحضرة العلية لهذين السبيين الجميلين ؛ وقد آثرنا إعلام الحضرة العلية
بذلك ، ليكون على خاطره الكريم ، والقصد من محبته ، يُقدّم
امرّه العالي بطلب اهل الشيخ وليّ الدين المشار اليه ، وإزاحة
اعذارهم ، وإزالة عوائقهم ، والوصية بهم ، وتجهيزهم اليه مُكرّمين ،
محترمين ، على اجل الوجوه صُحبة قاصده الشيخ الصالح ، العارف
السالك الاوحد ، سعد الدين مسعود المكناسي ، الواصل بهذه المكاتبة
اعزه الله ؛ ويكون تجهيزهم على مركب من مراكب الحضرة العلية ،
مع توصية من بها من البحرية بمضاعفة إكرام المشار اليهم ورعايتهم ،
والتأكيد عليهم في هذا المعنى ، واذا وصل من بها من البحرية ، كان
لهم الأمن والاحسان فوق ما في أنفسهم ، ويُزني على أملهم ؛ بحيث
يَهْتَمُ بذلك على ما عهد من محبته ، وجميل اعتياده ، مع ما يُتحف به
من مراسلاته ، ومقاصده ومكاتباته . والله تعالى يجرّسه بملائكته
وآياته ، بيّنه ويبيّنه إن شاء الله .

كُتِبَ خَامِسَ عَشْرَ صَفَرِ الْمُبَارَكِ مِنْ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ
حَسَبَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ وَصَلَوَاتِهِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

ثم هلك بعضُ المدرِّسين بمدرسة القمحية^(١) بمصر ، من رَاقف صلاح الدين بن أيُّوب ، فولائي تدرّسها مكانه^(٢) ، وبيننا أنا في ذلك ، إذ سَخِطَ السلطانُ قاضي المالكية^(٣) في دولته ، لبعض النزعات فعزله ، وهو رابعُ أربعة بعدد المذاهب ، يُدعى كلُّ منهم قاضي القضاة ، تمييزاً عن الحُكَّام بالتيابة عنهم ، لاتِّساع خُطَّة هذا المعمور ، وكثرة عوالمه ، وما يرتفعُ من الخصومات في جوانبه ؛ وكبيرُ جماعتهم قاضي الشافعية ، لعموم ولايته في الأعمال شرقاً وغرباً ، وبالصَّعيد^(٤) والفيوم^(٥) ، واستقلاله بالنظر في أموال الأيتام ،

(١) كان موقع القمحية بجوار الجامع العتيق (جامع عمرو) بمصر ، وكان موضعها يعرف بدار الغزل ؛ وهو قيسارية كان يباع فيها الغزل ، فهدمها صلاح الدين ، وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، ورتب فيها مدرسين ، وجعل لها أوقافاً كانت منها ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان مدرسوها يتقاسمونه ، ولذلك صارت لا تعرف الا بالمدرسة القمحية . خطط المقرئزي ٣٦٤/٢ بولاق .

(٢) في السلوك في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفي ٢٥ محرم ، دّرس شيخنا أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، بالمدرسة القمحية بمصر ، عوضاً عن علم الدين سليمان البساطي بعد موته ، وحضر معه الأمير الطنبقا الجوباني ، والأمير يونس الدوادار ، وقضاة القضاة والأعيان » .

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير المالكي (٧٢١ - ٧٩١) .

(٤) كان القدماء يعتبرون مبدأ الصعيد الشبلي من قرب القاهرة ، ويمتد على ضفتي الوادي جنوباً حتى يصل الى أسوان الذي كان عندهم نهاية الصعيد الجنوبية ؛ وفيما بين أسوان ، واخميم ، كان الصعيد الأعلى ؛ ومن اخميم الى مدينة بهنسا الواقعة على الضفة الغربية لوادي النيل ، كان يسمى الصعيد الأوسط ؛ أما الصعيد الأدنى فكانت بدايته بهنسا ، ونهايته في الشمال ، قرب الفسطاط . ياقوت ٣٦٠/٥ .

(٥) تقع الفيوم المدينة المعروفة ، في الجنوب الشرقي لبحيرة قارون ، في الغرب من وادي النيل .

والوصايا؛ ولقد يقال بأن مباشرة السلطان قديماً بالولاية إنما كانت تكون له .

فما عزل هذا القاضي المالكي سنة ست وثمانين، اختصني السلطان بهذه الولاية، تأهيلاً لمكاني، وتنويهاً بذكري؛ وشافته بالتفادي من ذلك، فأبى إلا إمضاءه؛ وخلع عليّ بإيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقمدي بمجلس الحكم^(١) بالمدرسة الصالحة^(٢) بين القصرين، فقامت بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعي عنه جاه ولا سطوة، مسوياً في ذلك بين الخصمين، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين^(٣)، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين؛ جانحاً الى الثبوت في سماع البيّنات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبث، والحكام مسكون عن انتقادهم،

(١) في السلوك :

« وفي يوم الاثنين تاسع عشرة (جادى الثانية) ، استدعي شيخنا ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون الى القلعة ، وفوض اليه السلطان قضاء المالكية ، وخلع عليه ، واقب « ولي الدين » ، واستقر قاضي القضاة عوضاً عن جمال الدين عبد الرحمن بن خير ؛ وذلك بسفارة الأمير الطنبا الجوباني أمير مجلس ، وقرىء تقليده في المدرسة الناصرية بين القصرين على العادة ؛ وتكلم على قوله تعالى : « انا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض والجبال الآية » .

(٢) نسبة الى بانها الملك الصالح نجم الدين أبوب .

(٣) كذا بالاصول ؛ والمراد « المنكمن » .

متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم ، لما يُموهون^(١) به من الاعتصام بأهل الشُّوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمرء ، مُعلِّمين للقرآن ، وأئمة في الصَّلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنون بهم الخير ، ويقسون لهم الحظَّ من الجاه في تركيتهم عند القضاة ؛ والتوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفتت المفاصد بالتزوير والتدليس بين النَّاس منهم ؛ ووقفتُ على بعضها فعاقتُ فيه بموجع العقاب ، وموالم النِّكال ؛ وتأدَّى إليَّ العِلْمُ بِالْجُرْحِ فِي طائفةٍ منهم ، فننعتهم من تحمُّل الشهادة ؛ وكان منهم كتاب لدواوين القضاة ، والتوقيع في مجالسهم ، قد درُّوا^(٢) على إِملاء الدَّعاوى ، وتسجيل الحكومات^(٣) ، واستخدموا للأمرء فيما يعرض لهم من العقود ، بإحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها ؛ فصار لهم بذلك شُفوف^(٤) على أهل طبقتهم ، وتمويهٌ على القضاة بجاههم ، يدُرُّعون^(٥) به مما يتوقعونه من عتبيهم ، لثعرضهم لذلك بفعالاتهم ؛ وقد يُسلِّط بعضُهم قلمه على العقود المحكَّمة ، فيوجدُ السَّبيل إلى حلِّها بوجهٍ فقهيٍّ ، أو كتابيٍّ ؛ ويبادر إلى ذلك متى دعا إليه داعي جاهٍ أو منحةٍ ؛ وخصوصاً في الأوقاف

(١) التمويه : التلبس والخداع .

(٢) دربوا : مرتوا .

(٣) جمع حكومة ، وهي الحكم .

(٤) الشفوف : الفضل .

(٥) ادرع : لبس الدرع ، والمراد يمتنون .

التي جاوزت حدود النهاية في هذا المصر بكثرة عوالمه ؛ فأصبحت خافية الشهرة ، مجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان ، باختلاف المذاهب المنصوبة للحكام بالبلد ؛ فمن اختار فيها بيعاً أو تملكاً ، شارطوه وأجابوه ، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سد الحظر والمنع حماية عن التلاعب ؛ وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الفرر^(١) في العقود والأملاك .

فعاملت الله في حسم ذلك بما أسفهم عليّ وأحقدهم ؛ ثم التفت الى الفتيا بالمدّهب ، وكان الحكماء منهم على جانب من الخبرة ، لكثرة معارضتهم ، وتلقيهم الخصوم ، وفتياهم بعد نفوذ الحكم ؛ وإذا فيهم أصاغر ، بينهم يتشّبثون بأذيال الطلب والعدالة ولا يكادون ؛ إذا بهم طفروا الى مراتب الفتيا والتدريس ، فاقعدوها ، وتناولوها بالجزاف ، واحتازوها من غير مئرب^(٢) ولا منتقد للأهلية ولا مرشح ؛ اذ الكثرة فيهم بالغة ، ومن كثرة الساكن مشتقة ، وقلم الفتيا في هذا المصر طلق ، وعنائها مرسل ، يتجاذب كل الخصوم منه رسنا ، ويتناول من حافته شقماً^(٣) ، يروم به الفلج^(٤) .

(١) الفرر : الخطر . وهي مستعملة في العقود بمعنى الخداع ، وهو استعمال خاطئ . . .

(٢) المئرب : اللاتم .

(٣) الشق (بالكسر) : الجانب .

(٤) الفلج : الظفر والفوز ، والاسم بالضم .

على خصمه، ويستظهر به لارغامه، فيعطيه المفتي من ذلك ملء رضاء، وكفاء أمنيته، متتبعاً آياه في شعاب الخلاف؛ فتعارض الفتاوى وتتناقض، ويعظم الشغب ان وقعت بعد نفوذ الحكم؛ والخلاف في المذاهب كثير، والانصاف متعذر، وأهلية المفتي أو شهرة الفتيا ليس تميزها للعامة؛ فلا يكاد هذا المدد ينحصر^(١)، ولا الشغب ينقطع.

فصدعت في ذلك بالحق، وكبحت أجنة أهل البهوى والجليل، ورددتهم على أعقابهم. وكان فيهم ملتقطون سقطوا من المغرب؛ يشعرون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك، لا ينتمون الى شيخ مشهور، ولا يعرف لهم كتاب في فن، قد اتخذوا الناس هزواً، وعقدوا المجالس مثلبة للأعراض، ومأبنة^(٢) للحرم؛ فأرغمهم ذلك مني، وملاهم حسداً وحقداً علي، وخلوا الى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، يشترون بها الجاه ليُجبروا به على الله؛ وربما اضطر أهل الحقوق الى تحكيمهم، فيحكّمون بما يليق الشيطان على أسنتهم يترخصون به للإصلاح، لا يذرعهم الدين عن التعرض لأحكام الله بالجليل؛ فقطعت الجبل في أيديهم، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه، فلم يُغنوا عنه من الله

(١) ينحصر : ينقطع .

(٢) مأبنة : مكانا للاتهام بالشر .

شيئا ، وأصبحت زواياهم مهجورة ، وبسرهم التي يمتأحون منها
معلّمة . وانطلقوا يُرَاطِنُونَ^(١) السفهاء في النيل من عرضي ، وسوء
الأحدوثه عني بمُخْتَلَقِ الافك ، وقول الزور ، يثوّنه في الناس ،
ويدسّون الى السلطان التظلم مني فلا يُصْنِي اليهم ؛ وأنا في ذلك
محتسب عند الله ما منيت به من هذا الأمر ، ومعرض فيه عن
الجاهلين ؛ وماض على سبيل سواء من الصرامة ، وقوة الشكيمة ،
وتحرّي المعدلة ، وخلص المحقوق ، والتتكب عن خطة الباطل متى
دعيت اليها ، وصلابة العود عن الجاه والأغراض متى غمزني
لامسها ؛ ولم يكن ذلك شأن من رافقته من الفضاة ، فنكروه علي ،
ودعوني الى تبعهم فيما يصطلحون عليه من مرّضات الأكارب ،
ومراعاة الأعيان ، والقضاء للجاه بالصور الظاهرة ، أو دفع الخصوم
إذا تعذرت ، بناء على أن الحاكم لا يتعين عليه الحكم مع وجود
غيره ، وهم يعلمون أن قد تمالأوا عليه .

ولبت شعري اما عذرهم في الصور الظاهرة ، إذا علموا
خلافها ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في ذلك : « من قضيت له
من حق أخيه شيئا فإنما أفضي له من النار »^(٢) .

(١) يراطنونهم : يكلمونهم بالعجبية .

(٢) ورد نص هذا الحديث في صحيح البخاري بروايات مختلفة ، لا توافق الصيغة التي أوردها
عليها ابن خلدون . الموطأ مع شرحه : « تنوير الحوالك » ١٠٦/٢ ، ١٠٧ . طبع التجارية سنة

فَأَبَيْتُ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً إِلَّا إِعْطَاءَ الْمُهْدَةِ حَقَّهَا ، وَالْوَفَاءَ لَهَا وَلَمَنْ
 قَلَّدْنِيهَا ، فَأَصْبَحَ الْجَمِيعُ عَلِيًّا أَلْبَا^(١) ، وَلَمَنْ يَنَادِي بِالتَّأْفُفِ مِنِّي عَوْنًا ،
 وَفِي النِّكَيرِ عَلِيًّا أُمَّةً ؛ وَأَسْمَعُوا الشُّهُودَ الْمَمْنُوعِينَ أَنْ قَدْ قَضَيْتُ فِيهِمْ
 بَغَيْرِ الْحَقِّ ، لِاعْتِمَادِي عَلَى عِلْمِي فِي الْجَرْحِ ، وَهِيَ قَضِيَّةٌ إِجْمَاعٌ ؛
 وَانْطَلَقْتُ الْأَلْسِنَةَ ، وَارْتَفَعَ الصَّخَبُ ، وَأَرَادَنِي بَعْضُ عَلِيِّ الْحَكْمِ
 بِفِرَاضِهِمْ فَوَقَفْتُ ، وَأَغْرَوَا بِي الْخُصُومَ فَتَنَادَوْا بِالتَّظْلِمِ عِنْدَ السُّلْطَانِ ؛
 وَجَمَعَ الْقَضَاءَ وَأَهْلَ الْفِتْيَانِ فِي مَجْلِسٍ حَفَلٌ لِلنَّظَرِ فِي ذَلِكَ ، فَخَلَّصْتُ
 تِلْكَ الْحُكُومَةَ مِنَ الْبَاطِلِ خُلُوصَ الْإِبْرِيزِ ، وَتَبَيَّنَ أَرْهَمُ لِلسُّلْطَانِ ،
 وَامضيت فيها حُكْمَ اللَّهِ إِرْغَامًا لَهُمْ ، فَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدَ قَادِرِينَ ، وَدُسُّوا
 لِأَوْلِيَاءِ السُّلْطَانِ وَعِظَاءِ الْخَاصَّةِ ، يَقْبَحُونَ لَهُمْ إِهْمَالُ جَاهِهِمْ ، وَرَدُّ
 شِفَاعَتِهِمْ مَمُوهِينَ بِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَى ذَلِكَ جَهْلُ الْمِصْطَلَحِ ، وَيَنْهَقُونَ هَذَا
 الْبَاطِلَ بِعِظَائِمٍ يَنْسُبُونَهَا إِلَيَّ ، تَبَعْتُ الْحَلِيمَ ، وَتَغْرِي الرَّشِيدَ ،
 يَسْتَشِيرُونَ حِفَائِظَهُمْ عَلَيَّ ، وَيُشْرِبُونَهُمُ الْبَغْضَاءَ لِي ؛ وَاللَّهُ مُجَازِيهِمْ
 وَمُسَائِلُهُمْ .

فَكَثُرَ الشُّغْبُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَظْلَمَ الْجُودُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِ

(١) أَلْبَا (بِالْفَتْحِ) : التَّنْبِيهُ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ حَيْثُ لَا يَمُرُّ .

الدولة . ووافق ذلك مُصابي بالأهل والولد^(١) ، وصالوا من المغرب في السفين^(٢) ، فأصابها قاصف^(٣) من الريح ففرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه النصيح^(٤) ممن استشرته ، خشية من نكير السلطان وسخطه ؛ فوقفت بين الورد والصدّر ، وعلى صراط الرجاء واليأس ؛ وعن قريب تدار كني اللطف الرباني ، وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة ، وتخليه سبيلي من هذا المهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت - كما زعموا - مصطلحها ؛ فردّها الى صاحبها الأول^(٥) ، وأنشطني من

(١) في تاريخ ابن قاضي شعبة ، في حوادث سنة ٧٨٦ :

« وفيه (رمضان) غرق مركب كبير يقال له « ربيع الدنيا » ، حضر من المغرب ، وفيه هدايا جليلة من صاحب المغرب ، وغرقت فيه زوجة القاضي ولي الدين بن خلدون ، وخمس بنات له ، وما كان ممن من الأموال والكتب ؛ وكان السلطان قد أرسل رسولا الى صاحب تونس بسبب أولاد الشيخ ولي الدين بن خلدون . وسلم ولداه : محمد وعلي ، فقدموا القاهرة . على أن انفراد ابن قاضي شعبة بهذه التفاصيل مما يعث على التثبت والحذر . »

(٢) السفين : جمع سفينة ؛ غير ان ابن خلدون يستعمل السفين ويريد السفينة .

(٣) قصف الريح : اشتد صوته .

(٤) النصيح : الناصح .

(٥) في « السلوك » سنة ٧٨٧ :

« وفي سابع عشر جمادى الأولى ، خلع على جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، وأعيد الى قضاء القضاة المالكية عوضاً عن ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون ... وفي ٢٢ منه قرىء تقايد ابن خير بالدرسة الناصرية على العادة . »

عَاقِلًا ؛ فَانْطَلَقْتُ حَمِيدَ الْاِثْرِ ، مُشِيْعًا مِنْ الْكَاْفَةِ بِالْاَسْفِ وَالدُّعَا .
 وَحَمِيدَ الشَّنَاءِ ؛ تَلْحَظُنِي الْعُيُوْنُ بِالرَّحْمَةِ ، وَتَتَنَاجَى الْاَمَالَ فِي الْعُوْدَةِ ؛
 وَرَتَعْتُ فِيْمَا كُنْتُ رَاتِعًا فِيْهِ قَبْلُ مِنْ مَرَاعِي نِعْمَتِهِ وَظَلِّ رِضَاهِ
 وَعِنَايَتِهِ ، قَانِعًا بِالْعَافِيَةِ الَّتِي سَأَلَهَا رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى وَسَلَّمَ مِنْ رَبِّهِ ،
 عَا كِفَاً عَلٰى تَدْرِيسِ عِلْمٍ ، اَوْ قِرَاةِ كِتَابٍ ، اَوْ اِعْمَالِ قَلَمٍ فِي تَدْوِيْنٍ اَوْ
 تَاْلِيْفٍ ، مُؤْمَلًا مِنْ اللهِ . قَطَعَ صِبَاْبَةُ الْعُمْرِ (١) فِي الْعِبَادَةِ ، وَنَحْوِ
 عَوَائِقِ السَّعَادَةِ بِفَضْلِ اللهِ وَنِعْمَتِهِ .

(١) صِبَاْبَةُ الْعُمْرِ : بَقِيَّتُهُ .

السفر لقضاء الحج

ثم مكثتُ بعد العزل ثلاثَ سنين ، واعتزمتُ على قضاء الفريضة ؛ فودعتُ السلطان والأمرء ، وزودوا وأعانوا فوق الكفاية . وخرجتُ من القاهرة منتصفَ رمضان [سنة] تسعِ وثمانين ، إلى مَرَسَى الطُّور^(١) بالجانِبِ الشَّرْقِيِّ من بحرِ السُّويس ؛ وركبتُ البَحْرَ من هنالك ، عاشرَ الفِطْرِ ، ووَصَلنا إلى اليَنْبَعِ^(٢) لشهر ، فوَأَفِينَا المَحْمِلَ ، ورافقتُهُم من هنالك إلى مَكَّةَ^(٣) ، ودخلتُها ثانيَ ذي الحِجَّةِ ، فقَضَيْتُ الفَرِيضَةَ في هذه السَّنَةِ ، ثمُ عُدتُ إلى اليَنْبَعِ ، فأقمتُ به خمسينَ ليلةً حتى تهيأَ لنا ركوبَ البَحْرِ ، ثمُ سافرنا إلى أن قاربنا مَرَسَى الطُّورِ ، فاعترضتنا الرِّياحُ ، فما وَسِعنا إلا قطعُ البَحْرِ إلى جانبِهِ الغرْبِيِّ ونزلنا بِساحِلِ القُصَيْرِ^(٤) ، ثمُ بَدَرْنَا^(٥) مع أعرابِ تلك

(١) الطور : مدينة على الساحل الغربي لشبه جزيرة سيناء . ياقوت ٦٧/٦ ، ٦٩ .

(٢) ينبع : مدينة من مدن الجزيرة العربية ، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ؛ وهي بفتح الياء المثناة التحتية ، وضم الباء الموحدة ، بينها نون ساكنة . ياقوت ٥٢٩/٨ .

(٣) مكة : قبلة المسلمين ، أم القرى ، وبيت الله الحرام . تحدث عنها ياقوت ١٣٣/٨ =

١٤٣ .

(٤) القصير بلفظ تصغير قصر : مرفأ على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، تؤمه السفن التجارية

من الجزيرة الغربية واليمن ، بينه وبين قوس قبة الصعيد خمسة أيام . ياقوت ١١٥/٧ .

(٥) البدرقة (بالذال المهملة ، وبالعين الموحدة أيضا) : الحفارة .

النّاحية الى مدينة قوص^(١) قاعدة الصعيد ، فأرخنا بها أياما ، ثم ركبنا في بحر النيل الى مصر ، فوصلنا اليها لشهر من سفرنا ، ودخلتها في جمادى [سنة] تسعين ؛ وقضيت حق السلطان في لقائه ، وإعلامه بما اجتهدت فيه من الدعاء له ، فتقبل ذلك (مني) بقبول حسن ، وأقت فيما عهدت من رعايته وظل إحسانه .

و كنت لما نزلت بالينبع ، لقيت بها الفقيه الأديب الحقن ، أبا القاسم بن محمد ابن شيخ الجماعة ، وفارس الأدباء ، ومُنْفِق سوق البلاغة ، أبي إسحق إبراهيم السّاحلي المعروف جدّه بالطوّيجين^(٢) ، وقد قدم حاجا ، وفي صحبته كتاب رسالة من صاحبنا الوزير الكبير العالم ، كاتب سر السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة ، الحظيّ لديه ، أبي عبد الله بن زمرّك ؛ خاطبني فيه بنظم ونثر يتشوق ، ويُذكّر بعهود الصّحبة نصّه :

سلوا البارِقَ اَنْجِدِيّ من عَلَمِي نَجْدِ
تَبَسَّم فَاسْتَبَكِي جَفُونِي من الوَجْدِ

(١) قوص : مدينة واسعة ؛ كانت قسبة صعيد مصر ، وكان أهلها أرباب ثروة واسعة ، لأنها كانت محط التجار القادمين من عدن ؛ وأكثر تجار عدن من مدينة قوص . ياقوت ٧ / ١٨٣ .

(٢) الطّويجين ، بضم الطاء ، وفتح الواو ، وبسكون النجمة المثناة ، وكسر الجيم هكذا كان يضبط اسمه بخطه ؛ وفي « نثير الجمان » ، و « نفع الطيب » : أنه بفتح الجيم .

أَجَادَ رَبُّوعِي بِاللَّوَى بُورِكَ اللَّوَى^(١)

وَسَحَّ بِهِ صَوْبُ الْعِبَائِمِ مِنْ بَعْدِي

وَيَا زَا جَرِي الْأَظْعَانَ وَهِيَ ضَوَائِرُ

دَعُوها تَرِدُ هَيْمًا عِطَاشًا عَلَى نَجْدِ

وَلَا تَنْشَفُوا الْأَنْفَاسَ مِنْهَا مَعَ الصَّبَا

فَإِنَّ زَفِيرَ الشَّوْقِ مِنْ مِثْلِهَا يُعْدِي

بِرَاهَا الْهَوَى بَرِّي الْقِدَاحِ وَخَطَّهَا

حُرُوفًا عَلَى صَاحِحٍ مِنَ الْعَقْرِ مُمْتَدِّ^(٢)

عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي تُجَاذِبُنِي الْهَوَى

وَمَا شَوْقُهَا شَوْقِي وَلَا وَجْدُهَا وَجْدِي

لَكِنِ شَاقَّهَا بَيْنَ الْمُذَيِّبِ وَبَارِقِ مِيَاهُ بَقِيَّةِ الظِّلِّ لِلْبَانِ وَالرَّئِدِ^(٣)

فَمَا شَاقَّنِي إِلَّا بُدُورُ خُدُورِهَا

وَقَدْ لُحِنَ يَوْمَ النَّفْرِ فِي قُضْبِ مُلْدِ^(٤)

(١) اللوى : واد من أودية بني سليم .

(٢) براهها الهوى : نختها ، وشفها . والقداح : السهام قبل أن تراش وتنصر .

(٣) المذيب : ماء لبني تميم ، وكذلك بارق . وكانت هذه الأمانة دياراً لبني تميم باليامة . واللبان : شجر يسمو ويطول في استواء ؛ ومنه يستخرج دهن اللبان . والرند : هو شجر الفار ؛ وهو نبات طيب الريح يستخرج منه دهن .

(٤) جمع أملد ؛ وهو الناهم الين من الفصون وغيرها .

فكم في قباب الحمي من شمس كlette وفي قلبك الأزرار من قمر سعد
 وكم صارم قد سئل من لحظ أحور وكم ذابل قد هز من ناعم القدر
 خذوا الخذر من سكان رامة إنها

ضميمات كرا اللحظ تفتك بالأسد^(١)

سهم جفون عن قسي حواجب يُصاب بها قلب البري، على عمد
 وروض جمال ضاع عرف نسيه وماضاع غير الورد في صفحة الحد
 ونرجس لحظ أرسل الدمع لؤلؤاً فرش بماء الورد روضاً من الورد
 وكم غصن قد عانق الغصن مثله وكل على كل من الشوق يستعدي
 قبيح وداع قد جلا نعنونا محاسن من روض الجمال بلا عمد
 رعى الله ليلى لو علمت طريقها فرشت لأخفاف المطي به خدي
 وما شاقني والطيف يهرب أذ معي ويسبح في بحر من الليل مزبد
 وقد سئل خفاق الذؤابة بارق كما سئل لماع الصقال من الغمد^(٢)
 وهزت محلاة يد الشوق في الدجى

فحل الذي أبرمت للصبر من عقدي

وأفلق خفاق الجوانح نسمة تنم مع الاصبح خافقة البرد

(١) رامة : موضع بالعقيق.

(٢) خفاق : مضطرب . وذؤابة كل شيء : أعلاه . والبارق : سحب ذو برق .

وهبَّ عليلٌ لَفَّ طِيَّ بُرُودِهِ

أَحَادِيثَ أَهْدَاهَا إِلَى الْغُورِ مِنْ نَجْدِ^(١)

سَوَى صَادِحٍ فِي الْأَيْكَ لَمْ يَدْرِ مَا الْيُوسَى

وَلَكِنْ دَعَا مِنِّي الشُّجُونَ عَلَى وَعْدِ

فَهَلْ عِنْدَ لَيْلَى نَعَمَ اللَّهُ لَيْلَهَا بَأَنَّ جُفُونِي مَا تَمَلُّ مِنْ السُّهْدِ

وَلَيْلَةَ إِذْ وَلى الْحَجِيجُ^(٢) عَلَى مِنَى^(٣)

وَفَتَّ لِي الْمَنَى مِنْهَا بِمَا شِئْتُ مِنْ قَصْدِ

فَقَضَيْتُ مِنْهَا - فَوْقَ مَا أَحْسَبُ - الْمَنَى

وَبُرْدُ عَفَافِي صَانَهُ اللَّهُ مِنْ بُرْدِ

وَلَيْسَ سَوَى لَحْظٍ خَفِيٍّ نَجِيلُهُ وَشَكْوَى كَمَا أَرَفَضَ الْجَانُ مِنَ الْعَيْدِ

غَفَرْتُ لِدَهْرِي بَعْدَهَا كُلَّ مَا جَنَى

سَوَى مَا جَنَى وَفَدُّ الْمَشِيبِ عَلَى قَوْدِي

عَرَفْتُ بِهَذَا الشَّيْبِ فَضْلَ شَيْبَتِي وَمَا زَالَ فَضْلُ الضِّدِّ يُعْرِفُ بِالضِّدِّ

(١) الغور : غور تهامة ، وهو ما بين ذات عرق الى البحر ، وكل ما انحدر سبله مغرباً عن

تهامة فهو غور . ياقوت ٦ / ٣١١ .

(٢) الحجيج : جماعة الحاج .

(٣) موضع في جبل عرفة بجانب مكة ، يذكر كثيراً في باب « الحج » من حيث صلته بكثير

من أعمال الحجاج .

ومن نام في ليل الشباب ضلالةً سيوقظه صبح المشيب الى الرشيد
أما والهوى ما حلت عن سنن الهوى

ولا جرت في طرق الصبابة عن قصدي
تجاوزت حد العاشقين الألى قضاوا

وأصبحت في دين الهوى أمةً وحدي
نسيت وما أنسى وفائي خلتي وأقفر ربع القلب إلا من الوجد

∴

إليك أبا زيد شكاةً رفعها

وما أنت من عمرو لدي ولا زيد^(١)

بعيشك خيرني وما زلت مفضلاً

أعندك من شوق كمثل الذي عندي

فكم ناربي شوق إليك مبرح

فظلت يد الأشواق تتدح من زندي

وصفق حتى الريح في لثم^(٢) الربي وأشفق حتى الطفل في كيد المهدي

يقابلني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياه الذي تبدي

(١) الشكاة : الشكوى .

(٢) جمع لمة (بالكسر) ؛ وهي شعر الرأس اذا كان فوق الوفرة .

وَتُوهِمُنِي الشَّمْسُ الْمُنِيرَةَ غُرَّةً ۖ بَوَجْهِكَ صَانَ اللَّهُ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّ
 نُحَيْيَاكَ أَجَلِي فِي الْعُيُونِ مِنَ الضُّحَى

وَذِكْرُكَ أَحْلَى فِي الشِّفَاهِ مِنَ الشَّهَدِ
 وَمَا أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي عُلُوِّ أَفْقِهَا ۖ تُفِيدُكَ مِنْ قُرْبٍ وَتُلْحَظُ مِنْ بُعْدِ
 وَفِي عَمَةٍ ^(١) مَنْ لَا تَرَى الشَّمْسَ عَيْنَهُ

وَمَا نَفَعُ نُورِ الشَّمْسِ فِي الْأَعْيُنِ الرَّشْمِ
 مِنَ الْعَوْمِ صَانُوا الْمَجْدَ صَوْنًا ۖ عُيُونِهِمْ

كَمَا قَدْ أَبْأَحُوا الْمَالَ يُنْهَبُ لِلرَّفْدِ
 إِذَا أزدَحَمَتْ يَوْمًا عَلَى الْمَالِ أُسْرَةٌ ۖ فَمَا أزدَحَمُوا إِلَّا عَلَى مَوْرِدِ الْمَجْدِ
 وَهَمَّا أَغَارُوا مُنْجِدِينَ صَرِيحَهُمْ ^(٢)

يَشْبُونَ نَارَ الْحَرْبِ فِي الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ
 وَلَمْ يَفْتَتُوا بَعْدَ الْبِنَاءِ ذَخِيرَةً

سِوَى الصَّارِمِ الْمَصْفُولِ وَالصَّافِنِ النَّهْدِ ^(٣)
 وَمَا اقْتَسَمَ الْأَنْفَالِ إِلَّا مُدَّحٌ ۖ بَلَاهَا بِأَعْرَافِ الْمُطَهَّمَةِ الْجُرْدِ ^(٤)

(١) العمه في البصيرة ؛ كالعنى في البصر .

(٢) الصريح كالصارخ ؛ المستغيث .

(٣) الصافن (من الخيل) ؛ القائم على ثلاث ، وعدوا ذلك دليلا على كرم الأصل . والنهد :
 الفرس الجميل الحسن .

(٤) الأعراف ؛ جمع عرف ؛ وهو شعر عنق الفرس . والمطهمة ؛ البارعة الجمال التامة .
 والجرد ؛ القصيرة الشعر .

أَتَنَسَى وَلَا تَنَسَى لِيَالِينَا الَّتِي خَلَسْنَا بِهِنَّ الْعَيْشَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ
 رَكِبْنَا إِلَى اللِّذَاتِ فِي طَلَقِ الصَّبَا مَطَايَا اللَّيَالِي وَادْعِينَ إِلَى حَدِّ
 فَإِنْ لَمْ نَزِدْ فِيهَا الْكُؤُوسَ فَإِنَّا وَرَدْنَا بِهِنَّ اللَّائِسَ مُسْتَعْدِبَ الْوَرْدِ
 أَتَيْتُكَ فِي غَرْبٍ وَأَنْتَ رَئِيسُهُ وَبَابُكَ لِلْأَعْلَامِ مُجْتَمَعِ الْوَفْدِ
 فَانْتَسَتْ حَتَّى مَا شَكَّوتُ بِغُرْبَةٍ وَوَالَيْتَ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مَضْضَ الْفَقْدِ
 وَوَعَدْتُ لِقَاطِرِي شَاكِرًا مَا بَلَّوْتَهُ

مِنَ الْخُلُقِ الْمَحْمُودِ وَالْحَسَبِ الْعِدِّ^(١)

إِلَى أَنْ أَجَزْتَ الْبَحْرَ بِأَبْحَرٍ نَحْوَنَا وَزُرْتَ مَزَارَ الْغَيْثِ فِي عَقَبِ الْجَهْدِ
 أَلَدَّ مِنَ النُّعْمَى عَلَى حَالِ فَاقَةٍ وَأَشْهَى مِنَ الْوَصْلِ الْهَنِيِّ عَلَى صَدِّ
 وَإِنْ سَأَنِي أَنْ قَوَّضْتَ رِحْلَكَ النَّوَى

وَعَوَّضْتَ عَنَّا بِالذِّمِيلِ وَبِالْوَخْدِ^(٢)

لَقَدْ سَرَّني أَنْ لُحِتَ فِي أَفْقِ الْعُلَا عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالطَّلَاعِ السَّعْدِ
 طَلَعَتْ بِأَفْقِ الشَّرْقِ نَجْمَ هِدَايَةٍ فَجِئْتُ مَعَ الْأَنْوَارِ فِيهِ عَلَى وَعْدِ

∴

(١) الحسب العد : القديم .

(٢) الذميل : السير الابن . والوخد الاسراع في المشي ، أو سعة الخطو .

يَمِيناً بِمَنْ تَسْرِي الْمَطِيَّ سَوَاهِمَا

عَلَيْهَا سِهَامٌ قَدْ رَمَتْ هَدَفَ الْقَصْدِ ^(١)
 إِلَى بَيْتِهِ كَيْمَا تَرُورَ مَعَاهِدًا ^(٢) أَبَانَ بِهَا جَبْرِيلُ عَنْ كَرَمِ الْعَهْدِ
 لَأَنْتَ الَّذِي مَهْمَا دَجَائِلُ مُشْكِلٍ قَدَحْتَ بِهِ لِلأُورِ وَاوَارِيَةَ الزُّنْدِ
 وَحَيْثُ اسْتَقَلَّتْ بِي رِكَابٌ لَطِيَّةٌ ^(٣)
 فَأَنْتَ نَجِيُّ النَّفْسِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ

∴

وَإِنِّي بِيَابِ الْمَلِكِ حَيْثُ عَهْدْتَنِي

مَدِيدَ ظِلَالِ الْجَاهِ مُسْتَحْصَفَ الْعَقْدِ ^(٤)

أَجْهَزَ بِالْإِنْشَاءِ كُلَّ كِتَابِيَّةٍ

مِنَ الْكُتُبِ؛ وَالْكِتَابُ فِي عَرَضِهَا جُنْدِي

فَلَوْذُ مَنْ الْمَوْلَى الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ بِظِلِّ عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ مُمْتَدِّ
 إِذَا فَاضَ مِنْ يُمْنَاهُ بِحَرِّ سَهَابَةٍ وَعَمَّ بِهِ الطُّوفَانُ فِي النُّجْدِ وَالْوَهْدِ
 رَكَبْنَا إِلَى الْإِحْسَانِ فِي سُفُنِ الرَّجَا بِحُورِ عَطَاءِ لَيْسَ تَجْزُرُ عَنْ مَدِّ

(١) جمع ساهمة ؛ وهي الناقة الضامرة .

(٢) يريد بيت الله ؛ وهو الكعبة الشريفة .

(٣) الطيبة (بالكسر) ؛ الناحية .

(٤) استحصف ؛ استحکم ؛ ويريد متمكن المنزلة .

فَمَنْ مُبْلِغُ الْأَمْصَارِ عَنِ الْوَكَاةِ

مُغْلَغَلَةً فِي الصِّدْقِ مُنْجَزَةً الْوَعْدِ^(١)

بِأَيِّ مَا أَعْطَى الْخَلِيفَةَ رَبُّهُ مَفَاتِيحَ فَتْحٍ سَاقَهَا سَائِقُ السَّعْدِ
وَدُونِكَ مِنْ رَوْضِ الْحَامِدِ نَفْحَةَ

تَفَوْتُ إِذَا اصْطَفَى النَّدِيَّ عَنِ النَّدِيِّ^(٢)

ثَنَاءً يَقُولُ الْمَسْكُ إِنْ ضَاعَ عَرْفُهُ أَيَّا لَكَ مِنْ نَدٍّ أَمَا لَكَ مِنْ نَدِيٍّ^(٣)

وَمَا الْمَاءُ فِي جَوْفِ السَّحَابِ مُرَوِّقًا بِأَطْرَافِ ذَاتِ أَمْنِكَ فِي كَنْفِ الْمَهْدِ^(٤)

فَكَيْفَ وَقَدْ حَلَّتْكَ أَسْرَابُهَا الْخَلَى وَبَاهَتْ بِكَ الْأَعْلَامُ بِالْعَلَمِ الْقَرْدِ

وَمَا الطَّلُّ فِي تَغْرِ مِنَ الدَّهْرِ بِاسْمِ

بِأَصْفَى وَأَدْكَى مِنْ ثَنَائِي وَمِنْ وُدِّي

وَلَا الْبَدْرُ مَعْضُوبًا بِتَاجِ تَمَامِهِ بِأَبْهَرِ مِنْ وُدِّي وَأَسِيرَ مِنْ حَمْدِي

بَقِيَّتَ ابْنِ خَلْدُونَ إِمَامَ هِدَايَةِ وَلَا زِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ

ووصلها بقوله : سَيِّدِي عِلْمُ الْأَعْلَامِ ، كَبِيرَ رُؤْسَاءِ الْإِسْلَامِ ،

مُشْرِفَ حَمَلَةِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ، جَمَالَ الْخَوَاصِّ وَالظُّهْرَاءِ ، أَثِيرَ

(١) الألوكة : الرسالة .

(٢) اصطفوا : قاموا صفوفا . والندي ، والنادي : مجلس القوم ؛ ويريد القوم أنفسهم .

(٣) الند (بالفتح) الطيب ؛ والند (بالكسر) : المثل .

(٤) الماء المروق : الصافي .

الدُّوَل ، خَالِصَةَ الْمُلُوكِ ، مُجْتَبَى الْخُلَفَاءِ ، نَيْرَ أَفْقِ الْعَلَاءِ ، أَوْحَدِ
الْفُضَّلَاءِ ، قُدْوَةَ الْعُلَمَاءِ ، حِجَّةَ الْبَلْغَاءِ .

أَبْقَاكُمْ اللَّهُ بَقَاءً جَمِيلاً يَعْقِدُ لَوَاءَ الْفَخْرِ ، وَيُعْلِي مَنَارَ الْفَضْلِ ،
وَيَرْفَعُ عِمَادَ الْمَجْدِ ، وَيُوضِحُ مَعَالِمَ السُّودُدِ ، وَيُرْسِلُ أَشْعَةَ
السَّعَادَةِ ، وَيُفِيضُ أَنْوَارَ الْهَدَايَةِ ، وَيُطْلِقُ أَلْسِنَةَ الْحَامِدِ ، وَيَنْشُرُ
أَفْقَ الْمَعَارِفِ ، وَيُعَذِّبُ مَوَارِدَ الْعِنَايَةِ وَيُمْتَعُ بِعَمْرِ النَّهَايَةِ وَلَا
نِهَايَةَ .

بِأَيِّ التَّحِيَّاتِ أَفَاتِحُكَ وَقَدْرُكَ أَعْلَى ، وَمَطْلِعَ فَضْلِكَ
أَوْضَحُ وَأَجْلَى ؛ إِنْ قُلْتَ تَحِيَّةُ كَسْرَى فِي السَّنَاءِ وَتُبَّعٌ ^(١) فَأَثْرٌ لَا
يُقْتَفَرُ ^(٢) وَلَا يُتَّبَعُ ، تِلْكَ تَحِيَّةٌ عَجْمَاءٌ لَا تَبِينُ وَلَا تُبَيِّنُ ، وَزَمْزَمَةٌ
نَافِرَةٌ لِلسَّانِ الْعَرَبِيِّ الْمَبِينِ ، وَهَذِهِ جِهَالَةٌ جِهْلَاءٌ ، لَا يَنْطَبِقُ عَلَيَّ
حُرُوفُهَا الْإِسْتِعْلَاءُ ، قَدْ حَارَسُوهَا الْجَفَاءُ ، وَعَلَى آثَارِ دِمْنَتِهَا الْعَفَاءُ ؛

(١) ابن زمرق ينظر الى قول أبي العلاء المعري :

تحية كسرى في السناء وتبع لربك لا ارضى تحية أربع

وكانت تحية كسرى السجود له ، اما تحية ملوك العرب من لحم وجذام ، فكانت : « أبيت
اللعن » ، ويقول ابن قتيبة في « المعارف » : ان قحطان أول من من حياه ولده بتحية الملوك :
« أبيت اللعن » . وكانت تحية ملوك غسان : « يا خير الفتيان » . لسان العرب « كفسر » ،
تاريخ الطبري ١٦١/٢ .

(٢) يقتفر : يقنفي ، ويتبع .

وإن كانت التَّحِيَّتَانِ طالما أَوْجَفَ بِهَا الرِّكَابَ وَقَمَعَ الْبَرِيدَ ،
ولكن أين يَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ .

تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ آصِلٌ فِي الْفَخْرِ نَسَبًا ، وَأَوْصَلُ بِالشَّرْعِ سَبَابًا ،
فَالْأَوْلَى أَنْ أُحْيِيكَ بِمَا حَيَّا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ رُسُلَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ ، وَحَيَّتْ بِهِ
مَلَائِكَتُهُ فِي جَوَارِهِ أَوْلِيَاءَهُ فَأَقُولُ :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يُرْسِلُ مِنْ رَحْمَاتِ اللَّهِ غَمَامًا ، وَيَفْتَقُ مِنْ الطُّرُوسِ
عَنْ أَزْهَارِ الْمَحَامِدِ كِهَامًا ، وَيَسْتَضْحِبُ مِنَ الْبَرَكَاتِ مَا يَكُونُ عَلَى
الَّذِي أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ تَبَامًا ؛ وَأَجِدُّ السُّؤَالَ عَنِ الْحَالِ الْحَالِيَةِ بِالْعِلْمِ
وَالدِّينِ ، الْمُسْتَمِدَّةَ مِنْ أَنْوَارِهَا سُرُجُ الْمُهْتَدِينَ . زَادَهَا اللَّهُ صَلَاحًا ،
وَعَرَفَهَا نَجَاحًا يَتَّبِعُ فَلَاحًا ؛ وَأَقْرَرُ مَا عِنْدِي مِنْ تَعْظِيمِ أَرْتَقِي
كُلِّ آوْنَةٍ تُشْرِفُهُ ، وَاعْتِقَادِ جَمِيلٍ يَرْفَعُ عَنِ وَجْهِ الْبَدْرِ كُأَفَّهُ ،
وَنَلَاءِ أَنْشُرِ يَدِ التُّرُكِ صُحُفَهُ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْمَالِكُ ، فَقَدْ
تَشَعَّبَتْ عَلَيَّ فِي مُخَاطَبَتِكَ الْمَسَالِكُ ؛ إِنْ أَخَذْتُ فِي تَقْرِيرِ فَخْرِكَ
الضَّمِيمِ ، وَحَسَبِكَ الضَّمِيمِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّ ثَنِيَّةٍ لِلْفَخْرِ يُرْفَعُ
الْعَلَمُ ، وَفِي أَيِّ بَحْرِ مِنْ ثَنَائِكَ يَسْبَحُ الْعَلَمُ ، الْأَمْرُ جَلَلٌ ،
« وَالشَّمْسُ تَكْبُرُ عَنْ حَلِي وَعَنْ حُلِّ » ، وَإِنْ أَخَذْتُ فِي شِكَاةٍ

الفراق ، والاستعداد على الأشواق ، اتسع المجال ، وحصرت^(١)
 الروية والارتجال ، فالأولى أن أترك عذبة اللسان تلعب بها
 رياح الأشواق ، وأسلة^(٢) اليراع تخضب مفارق الطروس بنجيع
 الحبر المراق ؛ وغيرك من تركض في مخاطبته جياذ اليراع ، في
 مجال الرقاع ، مستولية على أمد الابداع والاختراع ؛ إنما هو
 بث يبكى ، وفراق يشكى ، فيعلم الله حرصي على أن أشافه عن
 أنبائك ثنور البروق البوايم ، وأن أحملك الرسائل حتى مع سفراء
 النوايم ، وأن ، أجتلي غرر ذلك الجبين في محيا الشارق^(٣) ،
 ولمح البارق .

ولقد وجهت لك جملة من الكتب والقصائد ، ولا كالمصيدة
 الفريدة في تأيين الجواهر التي استأثر بهن البحر ؛ قدس الله
 أرواحهم ، وأعظم أجرك فيهم ؛ فإنها أنافت على مائة وخمسين بيتاً ،
 ولا أدري هل بلغكم ذلك أم غاله الضياع ، وغدر وُصوله بعد
 المسافة ؛ والذي يطرق لي سوء الظن بذلك ، ما صدر في مقايله
 منكم . فإني على علم من كرم قصدكم ، وحسن عهدكم .

(١) حجر : عبي .

(٢) أسلة اللسان : طرف شبائه الى مستدقه . وأسالة النصل : مستدته .

(٣) الشارق : الشمس ؛ وبه نسر الازهري قولهم : لا آفك ماذر شارق .

ومن حين استقل نيرُكم بذلك الأفق الشرقي ، لم يصلني منكم كتاب ، مع علمي بضياح اثنين منها بهذا الأفق الغربي . انتهى .

وفي الكتاب إشارة إلى أنه بعث قصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر ، ويطلب مني رفعها إلى السلطان ، وعرضها عليه بحسب الامكان ؛ وهي على روي الهزمة ، ومطلها :

أمدامعٌ منهلةٌ أم لؤلؤٌ لَمَّا استهلَّ العارضُ المتألي .

وبعثها في طيِّ الكتاب ، واعتذر بأنه استتاب في نسخها ، فكتبت همزة رويها ألفا ، قال وحطها أن تكتب بالواو ، لأنها تُبدل بالواو ، وتسهل بين الهمزة والواو ، وحرف الاطلاق أيضاً يسوقها واوا . هذا مقتضى الصناعة ، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفاً على كل حال ، على لغة من لا يسهل ، لكنه ليس بشيء .

وأذن لي في نسخ القصيدة المذكورة بالخط المشرقي لتسهل قراءتها عليهم ففعلت ذلك ، ورفعت النسخة والأصل للسلطان ، وقرأها كاتب سرِّه عليه ، ولم يرجع إليَّ منها شيء ، ولم أستجز أن أنسخها قبل رفعها إلى السلطان ، فصاعت من يدي .

وكان في الكتاب فصلٌ عرفني فيه بشأن الوزير مسعود بن

رُحُو الْمَسْتَبَدِّ بِأَمْرِ الْمَغْرِبِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْإِنْتِقَاضِ عَلَيْهِمْ ، وَالْكَفْرَانِ لَصَنِيعِهِمْ ، يَقُولُ فِيهِ :

كَانَ مَسْعُودُ بْنُ رَحُو الَّذِي أَقَامَ بِالْأَنْدَلُسِ عِشْرِينَ عَامًا يَتَبَنَّىكَ
النَّعِيمُ ^(١) ، وَيَقُودُ الدُّنْيَا ، وَيَتَخَيَّرُ الْعَيْشَ وَالْجَاهَ ، قَدْ أَجِيزُ صُحْبَةَ
وَلَدِ أَبِي عِنَانَ ، كَمَا تَعَرَّفْتُمْ مِنْ نُسْخَةِ كِتَابِ أَنْشَأْتِهِ بِجَبَلِ الْفَتْحِ
لِأَهْلِ الْخَضْرَاءِ ، فَاسْتَوَلَى عَلَى الْمَمْلُوكَةِ ، وَحَصَلَ عَلَى الدُّنْيَا ، وَانْفَرَدَ
بِرِيَاسَةِ دَارِ الْمَغْرِبِ ، لَضَعْفِ السُّلْطَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ
كُفِرَتْ الْحُقُوقُ ، وَحُظِّلَتْ ^(٢) نَخْلَتُهُ السَّحُوقُ ^(٣) ؛ وَشَفَّ ^(٤) عَلَى
سَوَادِ جِلْدَتِهِ الْعُقُوقُ ^(٥) ؛ وَدَاخَلَ مِنْ سِبْطَةِ ، فَاثْتَقَضَتْ طَاعَةَ
أَهْلِهَا ، وَظَنُّوا أَنَّ الْقَصَبَةَ لَا تَثْبُتُ لَهُمْ ؛ وَكَانَ قَائِدُهَا الشَّيْخُ الْبُهْمَةُ ،
فَلُ احْتِصَارًا وَحَلِي الْقِتَالِ ، وَمِحْشُ الْحَرْبِ ، أَبُو زَكْرِيَاءَ بْنُ شَعِيبٍ ،
فَثَبَتْ لِلصَّدْمَةِ ، وَنُورَ لِلْأَنْدَلُسِ ^(٦) فَبَادَرَهُ الْمَدَدُ مِنَ الْجَبَلِ ، وَمِنْ
مَالِقَةَ . وَتَوَالَتْ الْأَمْدَادُ ، وَخَافَ أَهْلُ الْبَلَدِ ، وَرَاجَعَ شُرَفَاؤُهُ ،
وَدَخَلُوا الْقَصَبَةَ . وَاسْتَفَاثَ أَهْلُ الْبَلَدِ مِنْ جَاوَرِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَدَدُ

(١) تبنيك في النعيم : أقام به ، وتمكن .

(٢) حظلت النخلة : فسدت أصول بعضها . وفي الأصول « حظلت » ، وهي لغة انكرتها

جمهرتهم . تاج العروس « حظل » ٣٩٢/٧ ، ٣٩٣ .

(٣) نخلة سحوق : طويلة .

(٤) شف : وضع وظهر .

(٥) انظر خبر تمرده على ابن الأحمر في الاستقصا ١٣٨/٢ وما بعدها .

(٦) نور : أضاء ؛ ويريد أوقد نار استغاثة ، وطلب النجدة .

أيضاً . ثم دَخَلَ الصَّالِحُونَ فِي رَغْبَةِ هَذَا الْمَقَامِ ، وَرَفَعَ الْقِتَالَ . وَفِي
 أَثْنَاءِ ذَلِكَ غَدَرُوا ثَانِيَةً ، فَاسْتَدْعَى الْحَالُ إِجَازَةَ السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ أَبِي
 الْعَبَّاسِ لِتَبَادُرِ الْقَصْبَةِ بِهِ ، وَيَتَوَجَّهَ مِنْهَا إِلَى الْمَغْرِبِ ، لِرَغْبَةِ (بَنِي)
 مَرْيَمَ وَغَيْرِهِمْ فِيهِ ، وَهُوَ وَوَلَدُ السُّلْطَانِ الْمَرْحُومِ أَبِي سَالِمِ الَّذِي
 قَلَّدَ كُمْ رِيَاسَةَ دَارِهِ ، وَأَوْجَبَ لَكُمْ الْمَرْيَةَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَأَنْصَارِهِ
 . انتهى .

وبعدَه فصلٌ آخرٌ يطلبُ فيه كُتُباً من مصر يقول فيه :

والمُرغوب من سَيدي أن يبعثَ لي ما أمكن من كلامٍ فضلاء
 الوقتِ وأشياخهم على « الفاتحة » ، إذ لا يمكن بعثُ تفسيرٍ كاملٍ ؛
 لأنِّي أثبت في تفسيرها ما أرجو النفعَ به عندَ الله . وقد أعلمتكم أن
 عندي التفسيرَ أوصله إلى المغربِ عثمانُ التَّجاني من تأليفِ الطَّيِّبِي^(١) ،

(١) الحسين بن محمد (او عبدالله) بن عبدالله شرف الدين الطيبي (توفي سنة ٧٤٣) له
 حاشية قيمة على « الكشاف » في اربع مجلدات ضخمة ، وجاء في الدرر الكامنة : « ثم شرع في
 جمع كتاب في التفسير » فلا ندري أي الكتابين يطلب ابن زسرك .

والسفر الأول من تفسير أبي حيان^(١)، ومُلخَص إعرابه^(٢)، وكتاب المعني لابن هشام^(٣) وسمعتُ عن بداية تفسير للامام بهاء الدين بن عقيل^(٤)، ووصلت إليّ بداية من كلام أكل الدين الأثيري^(٥) رضي الله عن جميعهم. ولكن لم يصل إلا للبسمة، وذكر أبو حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب^(٦)، أو أبو سليمان. لا أدري الآن، صَنَّف كتاباً في البيان في سفرين، جعله

(١) ابن الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف النحوي الغرناطي (٦٥٤-٧٤٥). دخل مصر ودرس بها النحو والتفسير، فكان في طليعة من وطد قواعد المدرسة النحوية الأندلسية بمصر. ومن قرأ كتبه في النحو عامة، ومقدمة تفسيره «البحر المحيط خاصة»، عرف أي مكانة عليه كان يحتلها بين نخبة العربية، تحدث عن نفسه كثيراً في أول «البحر» الذي طبع بمصر في ٨ مجلدات سنة ١٣٢٨ هـ على نفقة سلطان المغرب الأقصى سابقاً المرحوم المولى عبد الحفيظ.

(٢) لخص أعراب «البحر المحيط» شخصان كلاهما كان تلميذاً لأبي حيان؛ أحدهما برهان الدين السفاقي وسمي كتابه «المجيد»، في إعراب القرآن المجيد. والثاني منها شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي الشافعي الشهير بالسمين وسمي كتابه «الدر المصون في علم الكتاب المكنون»

(٣) جمال الدين عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الانصاري (٧٠٨-٧٦١) النحوي المصري الطائر الصيت. وفيه وردت كلمة ابن خلدون: «مازلنا ونحن بالغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيويه». وقد طبع كتابه القيم «المعني» مراراً. وانظر كلمة لابن خلدون عن كتاب «المعني» في «مقدمته» في آخر فصل النحو منها.

(٤) عبدالله بن عبد الرحمن بن عبدالله... بن عقيل القرشي الهاشمي (٦٩٨-٧٦٩) بهاء الدين النحوي المعروف. من تأليفه تفسير للقرآن، وصل فيه إلى آخر سورة «آل عمران». (٥) له أتمل الدين محمد بن محمود (أو محمد) البابرقي الحنفي المتوفى سنة ٧٨٦، له حاشية

على «الكشاف»

(٦) هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحسين بن الحسين المقدسي الحنفي عرف بابن النقيب (٦١١-٦٩٨). أخذ عنه أبو حيان، واعتمد عليه كثيراً في تفسيره.

مُقَدِّمَةٌ فِي كِتَابِ تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ ، فَإِنْ أُمِكنَ سَيِّدِي تَوَجُّيهُهُ .
انتهى .

وَفِي الْكِتَابِ فُصُولٌ أُخْرَى فِي أَغْرَاضٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِاحْتِاجَةِ الْإِلَى
ذِكْرَهَا هُنَا . ثُمَّ خَتَمَ الْكِتَابَ بِالسَّلَامِ ، وَكَتَبَ اسْمَهُ : مُحَمَّدُ بْنُ يُوْسُفَ
ابْنَ زَمْرُكَ الصَّرِيحِي ، وَتَارِيخُهُ الْعَشْرُونَ مِنْ مُحْرَمٍ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ .

وَكَتَبَ إِلَيَّ قَاضِي الْجَمَاعَةِ بَغْرَنَاطَةَ ؛ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ
الْبُنِّي (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ .

يَا سَيِّدِي وَوَاوَا حِدِي وَوَدَّاءَ وَحُبَّاءَ ، وَنَجِيَّ الرُّوحِ بَعْدَ اقْرَبَاءِ . أَنْقَاكُمْ
اللَّهُ ، وَثَوَّبُ سَيَادَتِكُمْ سَابِغَ ، وَقَمَرِ سَعَادَتِكُمْ - كُلَّمَا أَفَلَّتْ
الْأَقَارُ - بَازِغَ ، أُسَلِّمُ بِأَتَمِّ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ ، وَأَقْرَبِ بَعْضِ مَا لَدَيَّ
مِنَ الْأَشْوَاقِ إِلَيْكُمْ ، مِنْ حَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ - تَهْدَاهَا اللَّهُ - ، عَنْ ذِكْرِي
لَكُمْ يَتَضَوَّعُ طَيْبُهُ ، وَشُكْرِي لَا يَذْوِي - وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ -
رَطْبِيهِ ، وَقَدْ كَانَ بَلَغَ مَا جَرَى مِنْ تَأْخِيرِكُمْ عَنِ الْوِلَايَةِ الَّتِي تَقُلَّدْتُمْ
أَمْرَهَا ، وَتَحَمَّلْتُمْ مَرَّهَا ، فَتَمَثَّلْتُ بِمَا قَالَهُ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ ابْنَ

(١) ضبطه ابن خلدون بالحركات بضم الباء ، وبكسرهما . وهو نسبة الى (بنة) وقد
ذكرها ياقوت ٢٩٤/١ ، وصاحب تاج العروس ، (بن) ولم يذكرها فيها بضم الباء .

الجِيَاب^(١) ، عند انفصال صاحبه الشريف أبي القاسم^(٢) عن خِيَاة
القضاء :

لا مرحباً بالناشز الفاركِ اذ جهلت رفعةً مقداركِ
لو أنّها قد أوتيت رُشدَها ما برحت تعشو الى ناركِ^(٣)

ثم تعرفتُ كيفية انفصالكم ، وأنه كان عن رغبة من السلطان
المؤيد هنالكُم ، فرددتُ - وقد توهمتُ مشاهدتكم - هذه
الآبيات^(٤) :

لك الله يا بدر السباحة والبشر
لقد حُزت في الأحكام منزلة الفخرِ
:

ولكنك استعفيت عنها تورعاً وتلك الصالحين كما تدرِي
:

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن عي بن سليمان الغرناطي الشهير بابن الجياب
(٦٧٣ - ٧٤٩) .

(٢) هو ابو القاسم محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله الحسيني السبتي المعروف بالشريف الغرناطي
(٦٩٨ - ٧٦٠) الإحاطة ١٢٩/٢ .

(٣) انظر « رفع الحجب المستورة » ١٨/١ للشريف الغرناطي هذا حيث اورد البيتين ضمن
ابيات اخر ، والإحاطة ١٢٠/٢ .

(٤) الآبيات من قصيدة لأبي الحسن انباهي ، اوردها في كتابه « المرقبة العليا » ص ١٥٨
وما بعدها . وفي نفع الطيب ٣/٢٠٣ بولاق . يختلف المروي منها عما في « المرقبة العليا » .

جريت على نهج السلامة في الذي تخيرته أبشر بأمنك في الحشر

∴

وَحَقِّقْ بَانَ الْعِلْمِ وَلَاكْ خَطَّةً مِنْ الْعِزِّ لَا تَنْفَكْ عَنْهَا مَدَى الْعُمُرِ
تريدُ على مرَّ الجديدينِ جدَّةً

وَتَسْرِي النُّجُومَ الزَّاهِرَاتُ وَلَا تَسْرِي

وَمَنْ لَاحِظَ الْأَحْوَالَ وَازَانَ بَيْنَهَا وَلَمْ يَرَ لِلدُّنْيَا الدَّيَّةَ مِنْ خَطَرِ
وَأَمْسَى لِأَنْوَاعِ الْوِلَايَاتِ نَابِذًا فَغَيْرُ نَكِيرٍ أَنْ تُوَاجِهَ بِالنُّكْرِ
فِيهِنِكَ يَهْنِكُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ مِنْ الزُّهْدِ فِيهَا وَالتَّوَقِّي مِنَ الْوِزْرِ
وَلَا تَكْتَرِثْ مِنْ حَاسِدِكَ فَإِنَّهُمْ

حَصَى وَالْحَصَى لَا يَرْتَقِي مُرْتَقَى الْبَدْرِ

وَمَنْ عَامَلَ الْأَقْوَامَ بِاللَّهِ مُخْلِصًا لَهُ مِنْهُمْ نَالَ الْجَزِيلَ مِنَ الْأَجْرِ
بَقِيَتْ لِرُبْعِ الْفَضْلِ تَحْمِي ذِمَارَهُ وَخَارَكَ الرَّحْمَنُ فِي كُلِّ مَا تُجْرِي

إِيهِ سَيِّدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَأَرْضَاكُمْ ، وَأَطْنَبْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ فِي

الثناء على السلطان الذي أنعم بالبقاء ، والمساعدة على الانفصال عن

خطة القضاء ، واستوهمتم الدعاء له ممن هنا من الأولياء ، والله

درؤكم في التثية على الارشاد الى ذلكم ، فالدعاء له من الواجب ،

إذ فيه استقامة الأمور ، وصلاح الخاصة والجمهور ، وعند ذلك

ارتفعت أصوات العلماء والصلحاء بهذا الفطر له ولكم بجميل الدعاء.
 أجاب الله فيكم أحسنه وأجمله ، وبلغ كل واحد منكم ما قصده
 وأمله . وأنتم أيضاً من أنتم من أهل العلم والجلالة . والفضل
 والأصالة ، وقد بلغتم بهذه البلاد الغاية من التنويه ، والحظ الشريف
 النبیه ؛ لكن أراد الله سبحانه أن يكون لمحاسنكم في تلك البلاد
 المعظمة ظهور ، وتحدث بعد الأمور أمور ؛ وبكل اعتبار ،
 فالزمنا بكم - حيث كنتم - مباح ، والمحامد مجموعة لكم جمع
 تناء . ولما وقف على مكتوبكم إلي مولانا السلطان أبو عبد الله ،
 أطال الشناء على مقاصدكم ، وتحقق صحيح ودادكم ، وجميل
 اعتقادكم ، وعمر مجلسه يومئذ بالشناء عليكم ، والشكر لما لديكم .

ثم ختم الكتاب بالسلام من كاتبه علي بن عبد الله بن الحسن
 مؤرخاً بصفر تسعين .

وفي طيه مدرجة بخطه ، وقد قصر فيها عن الاجادة نصها :

سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم ، وأظفر يمينكم بدوائب
 مناكم .

أعتذر لكم عن الكتاب المدرج هذا طيه بغير خطي ، فإني في
 الوقت بحال مرض من عيني ، ولكم العافية الواقية ، فيسعني

سَمَحُكُمْ؛ وربما أن لديكم تشوقاً لما نَزَلَ في هذه المدَّة بالمقرب من
الهرج حاطه الله، وأمنَ جميعَ بلاد المسلمين .

والموجب أن الحصة الموجهة لتك البلاد في خدمة أميرهم
الوائق، ظهر له ولوزيره ومن ساعده على رأيه إمساكها رهينة،
وجعلهم في القيود الى أن يقع الخروج لهم عن مدينة سبته . وكان
القائد على هذه الحصة العليج المسمى مهَّد، وصاحبه الفتى المدعو نصر
الله . وكثر التردد في القضية، الى أن أبرز القدرُ توجيهَ السلطان
أبي العباس - تولاه الله - صحبة فرج بن رضوان بحصة ثانية،
وكان ما كان، حسباً تلقيتهم من الركبان، هذا ما وسع الوقت من
الكلام . ثم دعا، وختم .

وإنما كتبتُ هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض هذا
التعريف بالمؤلف، لأن فيها تحقيقاً لهذه الواقعات، وهي مذكورة
في أماكنها من الكتاب، فرجماً يحتاج الناظر الى تحقيقها من هذا
الموضع .

وبعد قضاء الفريضة، رجعتُ الى القاهرة محفوفاً بستر الله
ولطفه ولقيتُ السلطان، فتلقاني أيده الله - بمعهود مبرته
وعنايته . وكانت فتنة الناصري بعدها سنة إحدى وتسعين . ولحقت

السلطان النكبة التي محصه الله فيها وأقاله ، وجعل الى الخير فيها
عاقبته ومآله ؛ ثم أعاده الى كرسيه للنظر في مصالح عباده ؛ فطوقه
القيادة التي ألبسه كما كانت ؛ فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته ،
ولزمت كسر البيت ممتعا بالعافية ، لابسا بُرد العزلة ، عاكفاً على
قراءة العلم وتدريسه ، لهذا العهد فاتح سبع وتسعين .

ولاية الدروس والخوانق

أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون - على القدام منذ عهد مواليم ملوك بني أيوب - بإنشاء المدارس لتدريس العلم ، والخوانق لاقامة رؤسوم الفقراء في التخلق بأداب الصوفية السنية في مطارحة الأذكار ، ونوافل الصلوات . أخذوا ذلك عن قبلهم من الدول الخلافية ؛ فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للانفاق منها على طلبه العلم ، ومترري الفقراء . وإن استفضل الربيع شيئاً عن ذلك ، جعلوه في أعقابهم خوفاً على الذرية الضعاف من العيلة^(١) . واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية ، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية ، وآثارها الجميلة الخالدة .

(١) العيلة (بفتح العين) : الفقر والفاقة .

و كنت لأوّل قُدومي على القاهرة ، وُحصولي في كِفالة
السلطان ، شَفَرَت مُدرَسةٌ بِمِصرَ من إنِشاء صلاح الدين بن أيّوب ،
وَقَفها على المالِكيّة يتدارسون بها الفِقه ، ووقَف عليها أراضِي من
الفيوم تُغَلُّ القمح ، فسُمِّيت لذلك القمحيّة ؛ كما وقَف أخرى على
الشافعية هنالك ؛ وتُوفى مُدرّسها حينئذ ، فولّاني السلطانُ
تدريسها ، وأَعقبه بولاية قضاء المالكية سنة ستٍ وثمانين ، كما
ذَكَرت ذلك من قَبْل ؛ وحضرتني يومَ جُلوسِي للتدريس فيها جماعةٌ من
أكابر الأُمراء تنويهاً بذكري ، وعنايةً من السلطان ومنهم بجانبي ؛
وخطبتُ يومَ جُلوسِي في ذلك الحفل بِخُطبة أَلَمّتُ فيها بذكر القوم
بما يُناسِبهم ، ويُوفي حَقَّهم ، وَوصَفَتُ المَقامَ ، وكان نَصّها :

الحمد لله الذي بدأ بالنعم قبل سُؤالها ، ووفقَ مَنْ هَداه
لِلشُّكرِ على مَنالِها ، وجعلَ جزاءَ المُحسِنين في مَحَبَّتِهِ ، ففازوا
بِعَظِيمِ نَوالِها . وَعَلِمَ الإنسانَ الأَسْماءَ والبيانَ ، وما لَمْ يَعْلَمْ
من أمثالِها ، وَمَيَّزَهُ بالعقلَ الذي فَضَّلَهُ على أصنافِ المَوجوداتِ
وأجْيالِها ، وهَداه لِقَبولِ أمانةِ التَّكليفِ ، وَحَمَلَ أثقالِها
وَخَلَقَ الجِنَّ وَالإنسَ لِلإمبادةِ ، فَفازَ مِنْهُمُ بالسَّعادةِ مَنْ جَدَّ في
امْتثالِها ؛ وَيَسَّرَ كلاًّ لِمَا خَلَقَ لَهُ ^(١) ، من هِدايةِ نَفْسِهِ أوِ إِضلالِها ؛

(١) يشير الى الحديث : « كل ميسر لما خلق له » ، والذي رواه الإمام احمد في مسنده .

وَفَرَّغَ رَبُّكَ مِنْ خَلْقِهَا وَخَلَقَهَا وَأَرْزَاقَهَا وَأَجَالَهَا . وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نُكْتَةُ الْأَكْوَانِ وَجَمَالُهَا ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ لِلَّهِ عَلَى كَمَالِهَا ، الَّذِي رَقَّاهُ فِي أَطْوَارِ الْأَصْطِفَاءِ ، وَآدَمُ بَيْنَ الطِّينِ وَالْمَاءِ ؛ فَجَاءَ خَاتِمَ أَنْبِيَائِهَا وَأَرْسَالَهَا ^(١) ؛ وَنَسَخَ الْمَلَلَ بِشَرِيعَتِهِ الْبَيْضَاءِ فَتَمَيَّزَ حَرَامُهَا مِنْ حَلَالِهَا ؛ وَرَضِيَ لَنَا الْإِسْلَامَ دِينًا ؛ فَأَتَمَّ عَلَيْنَا النِّعْمَةَ بِأِكْمَالِهَا ^(٢) .

وَالرَّضَى عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ غِيُوثِ رَحْمَتِهِ الْمُنْسَجِمَةِ وَطِلَالِهَا ^(٣) ، وَلِيُوثِ مَلَاحِمِهِ ^(٤) الْمَشْتَهَرَةِ وَأَبْطَالِهَا ، وَخَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، فِي تَوْسُطِهَا وَعِتْدَالِهَا ، وَظُهُورِ الْهَدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي أَحْوَالِهَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ صَلَاةً تَتَّصِلُ الْخَيْرَاتُ بِاتِّصَالِهَا ، وَتُنَالُ الْبَرَكَاتُ مِنْ خِلَالِهَا .

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمَّا أَقْرَأَ هَذِهِ الْمَلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي نِصَابِهَا ، وَشَفَّاهَا مِنْ أَدْوَانِهَا وَأَوْصَابِهَا ^(٥) ، وَأَوْرَثَ الْأَرْضَ عِبَادَهُ

(١) ورد في كلام كثير من علماء المغرب والأندلس ، جمع رسول على ارسال . ولم يرد في معاجم اللغة هذا الجمع .

(٢) يشير إلى الآية ٣ من سورة المائدة : اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .

(٣) الطلال جمع ظل ؛ وهو اخف المطر .

(٤) الملاحم جمع ملحمة ؛ وهي الوقعة العظيمة القتل ، وموضع القتال ، والحرب .

(٥) الوصب : الوجع ، والمرض ؛ والجمع اوصاب .

الصَّالِحِينَ مِنْ أَيْدِي غُصَّابِهَا ، بَعْدَ أَنْ بَاهَتَ فَارِسُ بِتَاجِهَا ،
وِعِصَابِهَا^(١) ، وَخَلَّتْ الرُّومُ إِلَى تَمَائِيلِهَا وَأَنْصَابِهَا ؛ وَجَعَلَ لَهَا مِنْ
الْعُلَمَاءِ حَفْظَةً وَقُوَّامًا ، وَنُجُومًا يَهْتَدِي بِهَا التَّابِعُ وَأَعْلَامًا ،
يَقْرَبُونَهَا لِلدِّرَايَةِ تَبَيَّنًا وَإِفْهَامًا ، وَيُوسِعُونَهَا بِالتَّدْوِينِ تَرْتِيبًا
وَإِحْكَامًا ، وَتَهْذِيبًا لِأَصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَنِظَامِهَا . ثُمَّ اخْتَارَ لَهَا
الْمُلُوكَ يَرْفَعُونَ عَمْدَهَا ، وَيُقِيمُونَ صَعَاهَا^(٢) بِإِقَامَةِ السِّيَاسَةِ
وَأَوْدَهَا ، وَيَدْفَعُونَ بِعِزَّتِهِمُ الْمَاضِيَةَ فِي صَدْرٍ مِنْ أَرَادَهَا بِنَكْيَادِ
أَوْ قَصْدِهَا ؛ فَكَانَ لَهَا بِالْعُلَمَاءِ الظُّهُورُ وَالْإِنْتِشَارُ ، وَالذِّكْرُ السِّيَّارُ ،
وَالْبَرَكَاتُ الْمُخَلَّدَةُ وَالْآثَارُ ؛ وَلَهَا بِالْمُلُوكِ الْعِزُّ وَالْفَخَارُ ،
وَالصَّوْلَةُ الَّتِي يَلِينُ لَهَا الْجَبَّارُ ، وَيَذِلُّ لِعِزَّتِهَا الْمُؤْمِنِينَ بِهَا الْكُفَّارُ ،
وَتُجَلَّلُ وَجُوهَ الشَّرِكِ مَعَهَا الصَّغَارُ ؛ وَلَمْ تَزَلِ الْأَجْيَالُ تَتَدَاوَلُ عَلَى
ذَلِكَ وَالْأَعْصَارُ ، وَالذُّوْلُ تَحْتَفِلُ وَالْأَمْصَارُ ، وَاللَّيْلُ يَخْتَلِفُ
وَالنَّهَارُ ، حَتَّى أَظَلَّتِ الْإِسْلَامَ دَوْلُ هَذِهِ الْعِصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ مِنْ
التُّرْكِ ، الْمَاجِحِينَ بِأَنْوَارِ أَسْنَتِهِمْ ظَلَمَ الضَّلَالَةَ وَالشَّكَّ ، الْقَاطِعِينَ
بِنِصَالِهِمُ الْمَرْهَفَةَ عَلَاتِقَ الْمَيْنِ وَالْأَفْكَ ، الْمُصِيبِينَ بِسَهَامِهِمُ النَّافِذَةَ
تَفْرُ الْجِهَاتَةَ وَالشَّرِكِ ، الْمُظْهِرِينَ سِرَّ قَوْلِهِ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ

(١) العصاب : ما يعصب به الرأس من عمامة او نحوها .

(٢) الصفا : الميل

أُمَّتِي»^(١) فِيمَا يَتَنَاوَلُونَهُ مِنَ الْأَخْذِ وَالتَّرْكِ ؛ فَفَسَحُوا خِطَّةَ
 الْإِسْلَامِ ، وَقَامُوا بِالدَّعْوَةِ الْخِلَافِيَّةِ أَحْسَنَ الْقِيَامِ ، وَبَشَّوْهَا فِي أَقْصَى
 التُّخُومِ مِنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ ؛ وَاعْتَمَدُوا فِي خِدْمَةِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مَا
 فَضَّلُوا بِهِ مُلُوكَ الْأَنْبَاءِ . وَاقْتَعَدُوا كُرْسِيَّ مِصْرَ الَّذِي أَلْقَتْ لَهُ
 الْأَقَالِيمُ يَدَ الْإِسْتِسْلَامِ ، عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ ؛ فَزَخَرَ بِهَا مِنْذُ
 دَوْلَتِهِمْ بَحْرُ الْعُمَرَانِ ، وَتَجَاوَبَتْ فِيهَا الْمَدَارِسُ بِتَرْجِيحِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ
 وَوَعْمِرَتِ الْمَسَاجِدُ بِالصَّلَوَاتِ وَالْأَذَانِ ، تَكَاثُرُ عَدَدِ الْحَصَى
 وَالشُّهْبَانِ . وَقَامَتِ الْمَآذِنُ عَلَى قَدَمِ الْإِسْتِغْفَارِ وَالسُّبْحَانَ^(٢) مُعْلَنَةً
 بِشِعَارِ الْإِيمَانِ ، وَازْدَانَ جَوْهَا بِالْقَصْرِ فَالْقَصْرَ وَالْإِيوَانَ فَالْإِيوَانَ .
 وَنُظِمَ دَسْتُهَا بِالْعَزِيزِ ، وَالظَّاهِرِ ، وَالْأَمِيرِ ، وَالسُّلْطَانَ . فَمَا شِئْتَ
 مِنْ مَلِكٍ يُجْفِقُ الْعِزُّ فِي أَعْلَامِهِ ، وَتَتَوَقَّدُ فِي لَيْلِ الْمَوَآكِبِ
 نِيرَانُ الْكَوَاكِبِ مِنْ أَسِنَّتِهِ وَسَهَامِهِ ؛ وَمِنْ أَسْرَةِ الْعُلَمَاءِ تَتَنَاوَلُ
 الْعِلْمَ بُوَعْدِ الصَّادِقِ وَلَوْ تَعَلَّقَ بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ^(٣) ، وَتُنِيرُ سِرَاجَهُ فِي
 جَوَانِبِ الشُّبُهَةِ الْمُدْهَمَّةِ الظُّلُمَاتِ ؛ وَمِنْ قُضَاةٍ يُبَاهُونَ بِالْعِلْمِ وَالسُّؤُودِ

(١) حديث رواه البخاري في آخر باب « علامة النبوة في الإسلام » ، ومسلم في بابي
 « الامارة » ، و « الايمان » . شرح العيني على « صحيح » البخاري ٥٧٩/٧ ، وشرح النووي
 على « صحيح » مسلم ٥٥/١ ، ٢٠٦/٢ .

(٢) السبحان : التسبيح .

(٣) اعنان السماء : نواحيها ، وما اعترض من اقطارها .

عند الانتماء ، ويشتملون الفضائل والمناقب اشتمال الصفاء^(١) ،
ويَنْصِلون الخُصوماتِ برأي يفرق بين اللبن والماء .

ولَا كَدَوَلة السُّلطانِ الظَّاهِرِ ، والعزير القاهر ، يعسوب^(٢)
العصائب والجماهر ، ومُطِيع أنواع العزِّ الباهر ، ومُصَرِّفِ الكُتائبِ
تُزْرِي بِالْبَحْرِ الزَّاحِرِ ، وتَقُومُ بِالْحِجَةِ لِلْقِسِيِّ عَلَى الْأَهْلَةِ فِي
المُفَاخِرِ ؛ سَيْفِ اللَّهِ الْمُتَنَضِّي عَلَى الْعَدُوِّ الْكَافِرِ ، وَرُحْمَتِهِ الْمُتَكَفِّلَةَ
لِلْعِبَادِ بِاللُّطْفِ السَّاتِرِ ؛ رَبِّ التَّيْجَانِ وَالْأَسْرَةِ وَالْمَنَارِ ، وَالْأَوَاوِينَ
الْعَالِيَةِ وَالْقُصُورِ الْأَزَاهِرِ ، وَالْمُلْكِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَيْضِ الْبَوَاتِرِ ،
وَالرِّمَاحِ الشَّوَاجِرِ^(٣) ، وَالْأَقْلَامِ الْمُرْتَضِعَةَ أَخْلَافِ^(٤) الْعِزِّ فِي مُهُودِ
المُحَايِرِ ، وَالْفَيْضِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي فَاقَ قُدْرَةَ الْقَادِرِ ، وَسَبَقَتْ بِهِ الْعِنَايَةُ
لِلْأَوَاخِرِ . سَيِّدُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، كَافِلُ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبُو سَعِيدِ
أَمْدِهِ اللَّهُ بِالنَّصْرِ الْمُصَاحِبِ . وَالسَّعْدِ الْمُؤَازِرِ ، وَعَرَافَةُ آثَارِ عِنَايَتِهِ
فِي الْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَرَاهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ فِي الْأُولَى وَسُرُورَ
الْمُنْقَلَبِ فِي الْآخِرِ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا تَنَاوَلَ الْأَمْرَ بِعِزَائِمِهِ وَعِزِّمِهِ ، وَأَوَى

(١) اشتمال الصفاء ان تجل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيتهم ؛ وهي ان يرد الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى ، وعاتقه الأيسر ، ثم يردّه ثانية من خلفه على يده اليمنى ، وعاتقه الأيمن فيغطيها جميعاً .

(٢) يعسوب أمير النحل .

(٣) الشواجر من الرماح : المتداخلة حين القتال .

(٤) أخلاف الضرع : أطرافه . والكلام على التشبيه .

المُلكَ الي كَنَفَه العزیز وَحَزَمِه ، أَصاب شاکلَہ الرأی عندما سدَد من سَهْمِه ، وَأَوَقَعَ الرَّعَايَا فِي ظِلِّ مَنْ أَمِنِه ، وَعَدَلِي مِنْ حُكْمِه ، وَقَسَمَ البأسَ وَالْجُودَ بَيْنَ حَرْبِه وَسَلْمِه ؛ ثُمَّ أَقَامَ دَوْلَتَه بِالْأَمْرَاءِ الَّذِينَ اخْتَارَهُم بِاخْتِيَارِ اللَّهِ لِأَرْكَانِهَا ، وَشَدَّ بِهِمْ أَرْزَاقَهُ فِي رَفْعِ القَوَاعِدِ مِنْ بُنْيَانِهَا ؛ مِنْ بَيْنِ مُصْرَفِ لِعِنَانِهَا ، مَتَعَدِّمِ القَدَمِ عَلَى أَعْيَانِهَا ، فِي بَسَاطِ إِيْوَانِهَا ؛ وَرَبِّ مَشُورَةٍ تُضِي جَوَانِبَ المُلْكِ بِلَمَعَانِهَا ، وَلَا يَذْهَبُ الصَّوَابُ عَنْ مَكَانِهَا ؛ وَمِنْفَذِ أَحْكَامِ يُشْرِقُ الحَقُّ فِي بَيَانِهَا ، وَيَضُوعُ العَدْلُ مِنْ أَرْدَانِهَا^(١) وَنَجِيَّ خَلْوَةٍ^(٢) فِي المِهمِ الأَعْظَمِ مِنْ شَانِهَا ؛ وَصاحبِ قَلَمِ يُفْضِي بِالْأَسْرَارِ إِلَى الأَسْلِ الجَرَّارِ ، فَيَشْفِي الغَلِيلَ بِإِعْلَانِهَا . حَفِظَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ وَشَمَلَ بِالسَّعَادَةِ وَالخَيْرَاتِ المَبْدَأَةَ المُعَادَةَ تَابِعَهُمْ وَمَتَّبَعَهُمْ .

وَلَمَّا سَبَّحَتْ فِي اللُّجِّ الأَزْرَقِ ، وَخَطَّوَتْ مِنْ أَفْقِ المَغْرِبِ إِلَى أَفْقِ المَشْرِقِ ، حَيْثُ نَهَرُ النَّهَارِ يَنْصَبُ مِنْ صَفْحِهِ المَشْرِقِ ، وَشَجَرَةُ المُلْكِ الَّتِي اعْتَرَبَ بِهَا الإِسْلَامُ تَهْتَزُّ فِي دَوِحِهِ المَعْرِقِ ، وَأَزْهَارُ الفنونِ تَسْقُطُ عَلَيْنَا مِنْ غُصْنِهِ المُورِقِ ، وَيُنَابِيعُ العُلُومِ وَالْفَضَائِلِ تَمِدُّ وَشَانَا^(٣) مِنْ فُرَاتِهِ المَعْدِقِ ؛ أَوْ لَوْنِي عِنَايَةً وَتَشْرِيفًا ،

(١) الأردان : الأكام . وفي الكلام تجوز .

(٢) النجي : الشخص الذي تساره ، وفلان نجي فلان ، أي يناجيه دون سواه .

(٣) الوشل : الماء القليل .

وَعَمَرُونِي إِحْسَانًا وَمَعْرُوفًا ، وَأَوْسَعُوا بُهْمَتِي ^(١) إِيْضَاحًا ، وَنَكَرْتِي
تَعْرِيفًا ؛ ثُمَّ أَهْلُونِي لِلْقِيَامِ بِوِظِيفَةِ السَّادَةِ الْمَالِكِيَةِ بِهَذَا الْوَقْفِ
الشَّرِيفِ ، مِنْ حَسَنَاتِ السُّلْطَانِ صَاحِبِ الدِّينِ أَيُّوبَ مَلِكِ الْجِلَادِ
وَالْجِهَادِ ، وَمَاحِي آثَارِ التَّثْلِيثِ وَالرَّفْضِ الْحَبِيثِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَمُطَهِّرِ
الْقُدْسِ الشَّرِيفِ مِنْ رَجَسِ الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ التَّوَاقِيسُ وَالصُّلْبَانُ
فِيهِ بِمَكَانِ الْعُقُودِ مِنَ الْأَجْيَادِ . وَصَاحِبِ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ يَسْعَى
نُورُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي يَوْمِ التَّنَادِ ^(٢) ؛ فَأَقَامَنِي السُّلْطَانُ - أَيْدَهُ اللَّهُ -
لِتَدْرِيسِ الْعِلْمِ بِهَذَا الْمَكَانِ ، لَا تَقْدُمًا عَلَى الْأَعْيَانِ ، وَلَا رَغْبَةً عَنْ
الْفَضْلِ ، مِنْ أَهْلِ الشَّانِ ؛ وَإِنِّي مَوْقِنٌ بِالْفُصُورِ ، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ ،
مُعْتَرِفٌ بِالْعِزِّ عَنِ الْمَضَاءِ فِي هَذَا الْقَضَاءِ ؛ وَأَنَا أَرْغَبُ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ
الْبَيْضَاءِ ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَسِّعَةِ الْفَضَاءِ ، أَنْ يَلْمَحُوا بَعِينَ الْإِرْتِضَاءِ ،
وَيَتَعَمَّدُوا بِالصَّفْحِ وَالْإِعْضَاءِ ، وَالْبِضَاعَةَ بَيْنَهُمْ مُزْجَاةً ^(٣) ، وَالْإِعْتِرَافُ
مِنَ اللُّؤْمِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنْجَاةٌ ؛ وَالْحُسْنَى مِنَ الْإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ .
وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْفَعُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي مَدَارِجِ الْقَبُولِ أَعْمَالَهُ ، وَيَبْلُغُهُ فِي
الدَّارَيْنِ آمَالَهُ ، وَيَجْعَلُ لِلْحُسْنَى وَالْمَقَرِّ الْأَسْنَى ، مُنْقَلَبَهُ وَمَالَهُ ؛
وَيُدِمُّ عَلَى السَّادَةِ الْأَمْرَاءِ نِعْمَتَهُ ، وَيَحْفَظُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِنْتَظَامِ

(١) البهمة : السواد ، ويريد بها ما يقابل الوضع .

(٢) يوم التناد : يوم ينادي « أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما

رزقكم الله » . لسان العرب .

(٣) بضاعة مزجاة : قليلة .

الشَّمْل دَوْلَتِهِمْ وَدَوْلَتِهِ ، وَوَيْدُ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَّامِهِمْ بِالْعَوْنِ
وَالتَّسَدِيدِ ، وَوَيْتِنًا بِانْفِسَاحِ آجَالِهِمْ إِلَى الْأَمَدِ الْبَعِيدِ ، وَيَشْمَلُ
الْحَاضِرِينَ بِرِضْوَانِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ ، بِبَنِّهِ وَكِرْمِهِ .

وَانْفِضَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ ، وَقَدْ شَيْعَتْنِي الْعُيُونُ بِالتَّجَلُّةِ وَالْوَقَارِ ،
وَتَنَاجَتِ الْفُؤُوسُ بِالْأَهْلِيَّةِ لِلْمَنَاصِبِ ؛ وَاقَمْتُ عَلَى الْإِسْتِغْفَالِ بِالْعِلْمِ
وَتَدْرِيسِهِ إِلَى أَنْ سَخِطَ السُّلْطَانُ قَاضِيَ الْمَالِكِيَّةِ يَوْمَئِذٍ فِي زُرْعَةٍ
مِنَ النَّزْعَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ، فَعَزَلَهُ ، وَاسْتَدْعَانِي لِلْوِلَايَةِ فِي مَجْلِسِهِ ، وَبَيْنَ
أَمْرَائِهِ ؛ فَتَفَادَيْتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَبَى إِلَّا إِمْضَاءَهُ . وَخَلَعَ عَلَيَّ ، وَبَعَثَ
مَعِيَ مِنْ أَجْلَسَتِي بِمَقْعَدِ الْحَكْمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الصَّالِحِيَّةِ^(١) فِي رَجَبِ سَنَةِ
وِثْمَانِينَ ؛ فَضَمْتُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمُحْمُودِ ، وَوَفَّيْتُ عَهْدَ اللَّهِ فِي إِقَامَةِ
رُسُومِ الْحَقِّ ، وَتَحْرِيرِ الْمَعْدَلَةِ ، حَتَّى سَخِطَنِي مِنْ لَمْ تُرِضْهُ أَحْكَامُ
اللَّهِ ، وَوَقَعَ مِنْ شَغَبِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَالْمِرَاءِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وَكَنتُ عِنْدَ وَصُولِي إِلَى مِصْرَ بَعَثْتُ عَنْ وَادِي مِنْ تُونِسَ ؛
فَمَنَعَهُمْ سُلْطَانُ تُونِسَ مِنَ اللَّحَاقِ بِي اغْتِبَاطًا بِمَكَانِي ؛ فَرَغِبْتُ مِنْ
السُّلْطَانِ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ فِي شَأْنِهِمْ ، فَأَجَابَ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالشَّفَاعَةِ ؛
فَرَكِبُوا الْبَحْرَ مِنْ تُونِسَ فِي السَّفِينِ ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَصَلُوا إِلَى مَرْتَبِي

(١) نسبة إلى بانيها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

الأسكندرية ؛ فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه ، وما فيه ، وذهب الموجود والمولود ؛ فعظم الأسف ، واختلط الفكر ، وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وأراحني ، وفرغتُ لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً .

ثم فرغ السلطان من اختطاط مدرسته^(١) بين القصرين ، وجعل فيها مدافن أهله ، وعيّن لي فيها تدريس المالكية ؛ فأنشأتُ خطبةً أقومُ بها في يومٍ مُفتّح التّدرّيس على عاداتهم في ذلك ونصّها :

« الحمد لله الذي منّ على عباده ، بنعمة خلقه وإيجاده ، وصرفهم في أطوار استعباده بين قدره ومزاده ، وعرفهم أسرار توحيدهِ ، في مظاهر وجوده ، وآثار لطفه في وقائع عباده ، وعرضهم على أمانة التكاليف ليبلّوهم بصادق وعده وإبعاده^(٢) ، ويسرّ كلاً لما خلق له ، من هدايته أو إضلاله ، وغيبه أو رشاده ، واستخلف الانسان في الأرض بعد أن هداه النّجدين^(٣) لصلاحه أو فساده ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، من مدارك سمعه وبصره والبيان عمّا في

(١) هي المدرسة الظاهرية ، وتسمى البروقية أيضاً . عهد في بنائها الى الامير جهر كس الخليلي ، فشرع في بنائها سنة ٨٨٦ ، وأنهاها سنة ٨٨٨ .

(٢) ينظر الى الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان » .

(٣) النجدان : طريق الخير ، وطريق الشر .

فؤاده؛ وجعل منهم أنبياء وملوكاً يُجاهدون في الله حقَّ جهاده،
ويُثابرون على مرضاته في اعتمال العدل واعتماده؛ ورفع البيوت
المقدَّسة بسبجات^(١) الذِّكر وأوراده.

والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ مِنْ نَسْلِ
آدَمَ وَأَوْلَادِهِ، لَا. بَلِ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ^(٢) فِي الْعَالَمِ مِنْ إِنْسِهِ وَجَنِّهِ
وَأَرْوَاحِهِ وَأَجْسَادِهِ، لَا. بَلِ سَيِّدِ الْمَلَائِكَةِ وَالتَّيِّبِينَ، الَّذِي خَتَمَ
[الله] كَمَالَهُمْ بِكَمَالِهِ وَأَمَادَهُمْ بِأَمَادِهِ، الَّذِي شَرَّفَ بِهِ الْأَكْوَانَ
فَأَضَاءَتْ أَرْجَاءَ الْعَالَمِ لِنُورِ وِلَادِهِ؛ وَفَصَّلَ لَهُ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ
تَفْصِيلاً، كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ مِنْ فُؤَادِهِ^(٣) وَأَلْقَى عَلَى قَلْبِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ
بِتَنْزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِعِبَادِهِ^(٤)؛ فَدَعَا إِلَى اللَّهِ
عَلَى بَصِيرَةٍ بِصَادِقِ جِدَالِهِ وَجِلَادِهِ^(٥) وَأُنزِلَ عَلَيْهِ النَّصْرَ الْعَزِيزَ،
وَكَانَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ مِنْ إِمْدَادِهِ، حَتَّى ظَهَرَ نُورُ اللَّهِ عَلَى رَغْمٍ مِنْ
رَغْمٍ^(٦). بِإِطْفَائِهِ وَإِخْمَادِهِ، وَكَمُلَ الدِّينُ الْخَنِيفُ فَلَا تُخَشَى وَالْحَمْدُ

(١) السبجات جمع سبجة؛ وهي التطوع في الذكر، والصلاة.

(٢) الثقلان: الجن والإنس.

(٣) يشير إلى الآية ٣٢ من سورة الفرقان: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن
جئت واحدة، كذلك لبثت به فؤادك».

(٤) يشير كذلك إلى الآيتين ١٩٣، ١٩٤ من سورة الشعراء: «نزل به الروح الأمين على
قلبك لتكلمن من المنذرين».

(٥) الجلال: الجهاد.

(٦) على رغم من رغم: من أساء؛ والإشارة إلى الآية ٣٢ من سورة التوبة: «يريدون
أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأفئ الله إلا أن يتم نوره».

لله غائلة انقطاعه ولا نفاذه ؛ ثمَّ أَعَدَّ له من الكرامات ما أَعَدَّ في معاده ، وفضَّله بالمقام المحمود في عرصات القيامة بين أشهادِهِ ، وجعل له الشَّفاعةَ فيمن انتظَمَ في أمته ، واعتَصَمَ بمقادِهِ .

والرَّضى عن آله وأصحابه ، غيوث رُحمتِهِ ، ولُيُوثِ إنجاده ، من ذوي رَحِمِهِ الطَّاهرةِ وأهلِ وِدَادِهِ المتزوِّدين بالتَّقوى من خَيْرِ أزوادِهِ ، والمُراغمين بسُيُوفِهِم من جاهِرٍ بمكابرةِ الحقِّ وعِنادِهِ ، وأرادَ في الدِّينِ بظلمه وإلحاده ، حتَّى استقام المِيسَمُ^(١) في دين الله وبلادِهِ ، وانتظمت دعوةُ الاسلامِ أقطارَ العالمِ ، وشُعوبَ الأنامِ ، من عربيهِ وعَجِبِهِ وفارسِهِ ورُومِهِ وتُرِكِهِ وأكرادِهِ . صلَّى اللهُ عليه وعليهِم صلاةً تُؤَدِّنُ بِاتِّصَالِ الخَيْرِ واعتياده ، وتُؤَهِّلُ لِاقتناءِ الثَّوابِ وزِيادِهِ ، وسلَّمَ كَثِيراً ؛ وعن الأئمَّةِ الأربعةِ^(٢) ، علماءِ السُنَّةِ المُتَّبِعَةِ ، والفئةِ المُجْتَبِيةِ المُصْطَنَعَةِ ؛ وعن إمامنا من بينِهِم الذي حمل الشريعةَ وبيَّنَها ، وحرَّرَ مقاصدَها الشريفةَ وعيَّنَها ، وتعرَّضَ في الآفاقِ منها والمطالعِ ، بين شُهَبِها اللوامعِ ؛ فزَيَّنَها . نُكَّتَةُ الهدايةِ إذا حَقَّقَ مناطَها ، وشرَّطُ التَّحْصِيلِ والدِّرَايَةِ إذا رُوِعِيَتْ أَشْرَاطُها ،

(١) المِيسَمُ : الجمال .

(٢) هم المُتَّبِعُونَ أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة : مالك ، والشافعي ، وأبو حنيفة ،

وأحمد بن حنبل .

وَقَصْدُ الرَّكَّابِ إِذَا ضُرِبَتْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَبْطُهَا^(١)؛ عَالِمُ الْمَدِينَةِ
وَأِمَامُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْأَمِينَةِ ، وَمُقْبِسُ أَنْوَارِ التُّبُوَّةِ مِنْ مَشْكَاتِهَا
الْمُيْنَةِ ، الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ . الْحَقُّهُ اللَّهُ بِرِضْوَانِهِ ، وَعَرَفْنَا
بِرَكَّةِ الْإِقْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَعِرْفَانِهِ ؛ وَعَنْ سَلَفِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهْتَدِينَ ،
وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ يَكْفُهُمْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَيَكْفُلُهُمْ
بِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَيُيَسِّرُهُمْ لِأَسْبَابِ السَّعَادَةِ بِآدَابِ دِينِهِ وَشِرَاعَتِهِ ،
وَيَجْمَلُهُمْ فِي الْعِنَايَةِ بِأُمُورِهِمْ ، وَالرَّعَايَةِ لِلْجُمْهُورِهِمْ ، عَلَى مَنَاهِجِ
سُنَّتِهِ وَلَطَائِفِ حِكْمَتِهِ . وَلِذَلِكَ اخْتَارَهُمُ الْمُلُوكُ الَّذِينَ جَبَلَهُمْ عَلَى
الْعَدْلِ وَفَطَرْتَهُ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى التَّمَسُّكِ بِكَلِمَتِهِ . ثُمَّ فَضَّلَهُمْ بِمَا خَوَّلَهُمْ
مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ وَبَسْطَتَهُ وَاشْتِقَاقِ التَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ مِنْ قُدْرَتِهِ ،
فَتَسَابَقُوا بِالْخَيْرَاتِ إِلَى جَزَائِهِ وَمَثُوبَتِهِ ، وَذَهَبُوا بِالدرجاتِ الْعُلَى
فِي وَفُورِ الْأَجْرِ وَمَزِيَّتِهِ .

وَإِنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ ، الْعَزِيزَ الْقَاهِرَ ، الْعَادِلَ
الظَّاهِرَ ، الْقَائِمَ بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ عِنْدَمَا أُعْيَا حَمْلُهَا الْإِكْتَادَ^(٢) ، وَوُقُطِبَ

(١) يشير إلى الحديث : « تضرب أكباد الأبل في طلب العلم ، فلا يوجد عالم أعلم من عالم
المدينة » ، وسيأتي له بعد .

(٢) جمع كتند ؛ وهو جمع الكتفين من الإنسان .

دائرة المذك الذي أطلع الله من حاشيته الأبدال^(١) وأنبت الأوتاد^(٢)، ومُنْفَق أسواق العز بما بذل فيها من جميل نظره المدخور والعتاد؛ رحمة الله الكافلة للخلق، ويدها المبسوطتان بالأجل والرّزق، وظله الوافي للعباد بما اكتتفهم من العدل والحق، قاصم الجبارة، والمعقي على آثار الأعاظم من القياصرة، وذوي التيجان من التبابعة والأكاسرة، أولي الأقيال^(٣) والأساورة^(٤)؛ وحائز قصب السبق في الملوك عند المناضلة والمفاخرة، ومفوض الأمور بإخلاصه الى ولي الدنيا والآخرة؛ مؤيد كلمة الموحدين، ورافع دعائم الدين، وظهير خلافة المؤمنين، سلطان المسلمين أبو سعيد. صدق الله فيما يقتفي من الله ظنونه، وجعل النصر ظهيره، كما جعل السعد قرينه، والعزّ خدينه^(٥)، وكان وليه على القيام بأمور المسلمين ومعيته، وبلغ الأئمة في اتصال أيامه، ودوام

(١) يوري بالابدال في مصطلح الصوفية، وهم اشخاص سبعة: يسافرون بأرواحهم من مكان الى اخر، ويتركون جسد في موضعهم الاول، بحيث لا يحس احد بسفرهم. عن «تعريفات» الجرجاني ص ٢٧، و«تعريفات» ابن العربي ص ٢.

(٢) والاوتاد عند الصوفية ايضاً: عبارة عن اربعة رجال، منازلهم على منازل الأربعة الأركان من العالم: الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب؛ كل واحد منهم مقامه في تلك الجهة. عن الجرجاني في «التعريفات» ص ٢٧، وابن العربي ص ٢. ويريد ان الدولة غنية بالرجال.

(٣) جمع قيل وهو، في مملكة حير، بمنزلة الوزير بالنسبة للملك. (عن التاج).

(٤) جمع اسوار، وهو الرامي او الفارس.

(٥) الحدين: الصديق.

سلطانه ، ما يرجونه من الله ويؤملونه . لما قلده الله هذا الأمر الذي استوى له على كرسي الملك ، وانتظمت عقود الدول في كبات الأيام ، وكانت دولته واسطة السلك وجمع له الدين بولاية الحرّمين ، والدنيا بسطان الترك . وأجرى له أنهار مصر من الماء والمال ؛ فكان مجازه فيها بالعدل في الأخذ والترك . وجمع عليه قلوب العباد . فشهد سرّها بمحبّه الله [له] شهادة خالصة من الرّيب ، بريئة من الشك . حتى استوى من العز والمك على المقام الذي رضيّه وحمده . ثم تآقت نفسه إلى ما عند الله ، فصرف قصده إليه واعتمده ، وسارع إلى فعل الخيرات بنفس مطمئنة ، لا يسأل عليها أجراً ولا يكدرها بالئنة ، وأحسن رعاية الدين والمك تشهد بها الانس والجنّة ، لا ؛ بل النّسم والأجنّة . ثم آوى الخلق إلى عدله تصديقاً بأن الله يؤوّه يوم القيامة إلى ظلاله المستجينة ، ونافس في اتخاذ المدارس والرّبوط لتعليم الكتاب والسنة ، وبناء المساجد المقدّسة يبني له بها الله البيوت في الجنّة ، والله لا يضيع عمل عامل فيما أظهره أو أكنّه .

وإنّ ما أنتجته قرائح همّته وعنايته ، وأطلعت آفاق عدله وهدايته ، ووضحت شواهدُه على بُعد مداه في الفخر وغايته ، ونجح مقاصده في الدين وسعائته ؛ هذا المصنّع الشّريف ، والهيكّل

السَّامِي المُنِيف ، الذي راق الكواكب حُسْنُهُ وظَرْفُهُ ، وأعجزَ
 الهَمَّ البَشْرِيَّةَ تَرْتِيبُهُ وِرْصَفُهُ ، لا ابل الكَلَمَ السَّحْرِيَّةَ تَمَثِيلُهُ وَوَصْفُهُ
 وشمخ بِمِطَاوَلَةِ السُّحْبِ وَمَنَاوَلَةِ الشَّهْبِ مَارُنُهُ ^(١) العَزِيزُ وَأَنْفُهُ ، وازدهى
 بلبُوسِ السَّعَادَةِ وَالقَبُولِ مِنَ اللَّهِ عِظْفُهُ ؛ إِنْ فَآخِرَ بِلَاطِ الْوَلِيدِ ،
 كَانَ لَهُ الْفَخَارُ ؛ أَوْ بَاهِي الْقَصْرِ ^(٢) وَالْأَيَّانِ ، شَهِدَ لَهُ الْمَحْرَابُ
 وَالْمَنَارُ ؛ أَوْ نَاطِرَ صَنْعَاءَ وَغَمْدَانَ ، قَامَتْ بِحِجَّتِهِ الْإِثَارُ . إِنَّمَا
 هُوَ بِهِؤُ مِلْؤُهُ دِينَ وَإِسْلَامَ ، وَقَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامَ ، وَفَضَاءُ
 رَبَانِي يَنْشَأُ فِي جَوْهٍ لِلرَّحْمَةِ وَالسَّكِينَةِ ظِلَّةٌ وَغَمَامَ ، وَكَوْكَبُ
 شَرْقٍ يُضَاحِكُ وَجَهَ الشَّمْسِ مِنْهُ ثَغْرٌ بِسَامَ ؛ دَفَعَ إِلَى تَشْيِيدِ
 أَرْكَانِهِ ، وَرَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنْ بُنْيَانِهِ ، سَيْفَ دَوْلَتِهِ الَّذِي اسْتَلَّهُ مِنْ
 قِرَابِ مُلْكِهِ وَانْتِضَاهُ ، وَسَهْمَهُ الَّذِي عَجَمَ عِيدَانَ كِنَانَتِهِ
 فَارْتِضَاهُ ، وَحَسَامَ أَمْرِهِ الَّذِي صَقَلَ فِرْنَدَهُ بِالْعَزِزِ وَالْعَزْمِ وَأَمْضَاهُ ،
 وَحَاكَمَتِهِ الْمُؤَيَّدَ الَّذِي طَالِبَ غَرِيمِ الْأَيَّامِ ، بِالْأَمَلِ الْعَزِيزِ الْمَرَامِ ؛
 فَاسْتَوْفَى دَيْنَهُ وَاقْتَضَاهُ ، الْأَمِيرَ الْأَعَزَّ الْأَعْلَى جَهْرَكَسَ ^(٣)

(١) المارن : الانف .

(٢) لعله يريد قصر غمدان .

(٣) هو الأمير سيف الدين جهركس (ويكتب : جهاركس ، وجاركس) بن عبد الله
 اليلبغاوي الخليلي ، الذي ينسب إليه « خان الخليلي » المعروف اليوم بالقاهرة . قتل بظاهر دمشق
 سنة ٨٩١ هـ في الواقعة بين منطاش ، والظاهر برقوق . خطط المقرئ ١٥٢/٣ - ١٥٣ ، طبع
 مصر . وقد ضبط في « المنهل » : « جاركس » وهو لفظ أعجمي معناه أربعة أنفس .

الخليلي أمير المأخورية باسطبله المنيع . حرسه الله من خطوب الأيام ، وقسم له من عناية السلطان أوفرَ الحُظوظ والسِّهام ؛ فقام بالخطو الوَساع ، لأمره المُطاع ، وأغرَى بها أيدي الاتقان والابداع . واختصها من أصناف الفعلة بالماهر الصَّناع ، يتناظرون في إجادة الأشكال منها والأوضاع ، ويتناولون الأعمال بالهندام إذا توارت عن قُدرتهم بالامتناع ؛ فكأنَّ العَبْقَرِيَّ^(١) ، يَفْرِي - الفَرِيَّ^(٢) ، أو العَفَارِيَّتْ ، قَدِمَتْ من أماريت^(٣) . وكأنما حشِرَت الجنُّ والشَّياطين ، أو نُشِرَت القَهَارِمَةُ^(٤) من الحُكْماء الأوَّل والأساطين ، جاؤا لها الصَّخْر بالآذواد^(٥) لا بالواد ، واستنزَلوا صمَّ الأطوادِ على مطايا الأعواد ، ورفعوا سَمَكها الى أقصَى الآماد ، على بعيد المَهْوَى من العِمَاد . وغَشَّوها من الوَشْي الأزهر ، المُضَاعَف الصَّدَف والمرَمَر ، ومائِع اللُّجَيْن الأبيض والذَّهَب الأحمر ، بِكُلِّ مُسَهَّم الحواشي حالي الأبراد ؛ وقَدَّروه مساجدَ للصَّلوات والأذكار ، ومقاعدَ

(١) العبقرى نسبة الى «عبقر» ، وهي قرية تسكنها الجن فيما زعموا . ويقولون اذا تمجبا من جودة شيء او غرابته ، او دقة صنعه : هو عبقرى ، ثم توسعوا فسوموا الرجل ، والسيد ، والكبير - عبقرياً . لسان العرب .

(٢) يقال هو يفري الفري : اذا عمل عملاً فأجاده .

(٣) أماريت : جمع الجمع لمرت : وهي المفازة والقفرة لا نبات فيه .

(٤) القهارة : جمع قهرمان ، وهو الأمر ، صاحب الحكمة . لسان العرب .

(٥) الأزواد جمع زود ؛ وهو الجماعة من الابل . وفي تحديد عددها خلاف مذكور في

للسُّبُحَاتِ ^(١) بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ، وَمَجَالِسَ اللَّتْلَاوَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، فِي الْأَصَالِ وَالْأَسْحَارِ ، وَزَوَايَا اللَّتَخَلِّيِّ عَنِ مَلَاظِمَةِ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْفَتْوحِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْأَنْوَارِ ؛ وَمَدَارِسَ لِقَدْحِ زِنَادِ الْأَفْكَارِ ، وَنِتَاجِ الْمَعَارِفِ الْأَبْكَارِ ، وَصَوَغِ اللَّجَيْنِ وَالنُّضَارِ ، فِي مَحَاكٍ الْقَرَائِحِ وَالْأَبْصَارِ . تَتَفَجَّرُ يَنْابِيعُ الْحِكْمَةِ فِي رِيَاضِهِ وَبُيُوتَانِهِ ، وَتَتَفَتَّحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ مِنْ غُرْفِهِ وَإِيْوَانِهِ ، وَتُتْقَادُ غُرُ السَّوَابِقِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحَقَائِقِ ، فِي طَلْقِ ^(٢) مَيْدَانِهِ ، وَيَصْعَدُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى اللَّهِ مِنْ نَوَاحِي أَرْضِ كَانِهِ ؛ وَتُوفَّرُ الْأَجُورُ لِعَاشِيَتِهِ مُحْتَسِبَةً عِنْدَ اللَّهِ فِي دِيْوَانِهِ ، رَاجِحَةً فِي مِيزَانِهِ .

ثُمَّ اخْتَارَ لَهَا مِنْ أُمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ أَعْيَانًا ، وَمِنْ شِيُوخِ الْحَقَائِقِ الصُّوفِيَّةِ فُرْسَانًا ؛ تَصَفَّحَ لَهُمْ أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ إِنْسَانًا إِنْسَانًا ، وَأَشَادَ بِمَدْرِهِمْ عِنَايَةً وَإِحْسَانًا ، وَدَفَعَهُمْ إِلَى وِظَائِفِهِ تَوْسَعًا فِي مَذَاهِبِ الْخَيْرِ وَافْتِنَانًا . وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ بَرِيَاضَةَ الْمُرِيدِينَ ، وَإِفَادَةَ الْمُسْتَفِيدِينَ ، احْتِسَابًا لِلَّهِ وَقَرْبَانًا ، وَتَقْيِيلًا ^(٣) لِمَذَاهِبِ الْمُلُوكِ مِنْ قَوْمِهِ وَاسْتِنَانًا ؛ ثُمَّ نَظَّمَنِي مَعَهُمْ تَطَوُّلاً وَامْتِنَانًا ، وَنِعْمَةً عَظُمَتْ مَوْقِعًا وَجَلَّتْ شَانًا ؛ وَأَنَا وَإِنْ كُنْتُ لِقُصُورِ الْبُضَاعَةِ ، مَتَأَخَّرًا عَنِ الْجَمَاعَةِ ، وَلِقُعُودِ الْهَمَّةِ ، عِيَالًا

(١) جمع سبحة ؛ وهي التطوع في الدعاء والصلاة .

(٢) الطلق : الشوط الواحد في جري الخيل ، والغاب التي يجري إليها الفرس في السباق .

(٣) بمعنى من تقيل أباه ؛ أشبهه ، وعمل عمله .

على هؤلاء الأئمة ، فسَمَحَهُمْ يَغْطِي وَيُلْحِف ، وبمواهب العَفْو والتَّجَاوُزِ يَمْنَحُ وَيُتَحَف . وَإِنَّمَا هِيَ رَحْمَةٌ مِنْ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - أَيْدِهِ اللَّهُ - خَصَّتْ كَمَا عَمَّتْ ، وَوَسَمَتْ أَغْفَالَ النَّكْرَةِ وَالْإِهْمَالَ وَسَمَّتْ ؛ وَكَمَلَتْ بِهَا مَوَاهِبَ عَطْفِهِ وَجَبْرَدَ وَتَمَّتْ ؛ وَقَدْ يَنْتَظِمُ الدَّرُّ مَعَ الْمَرْجَانِ ، وَتُلْتَبَسُ الْعَصَائِبُ بِالتَّيْجَانِ ؛ وَتُرَاضُ الْمُسَوِّمَةُ ^(١) الْعِرَابُ ^(٢) عَلَى مُسَابِقَةِ الْهَجَانِ ^(٣) ؛ وَالْكَلُّ فِي نَظَرِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَتَصْرِيفِهِ ، وَالْأَهْلِيَّةُ بِتَأْهِيلِهِ وَالْمَعْرِفَةُ بِتَعْرِيفِهِ ، وَقِيَامُ الْحَيَاةِ وَالْإِمَالِ بِلَطَائِفِ إِحْسَانِهِ وَصُنُوفِهِ ؛ وَاللَّهُ يُوزِعُنَا شُكْرَ مَعْرُوفِهِ ، وَيُوقِنُنَا لِلْوَفَاءِ بِشَرْطِهِ فِي هَذَا الْوَقْفِ وَتَكْلِيفِهِ ، وَيَنْجِي سِجَاهَ مَنْ غَيْرَ الدَّهْرِ وَصُرُوفِهِ ، وَيُفِيءُ عَلَى مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ ظِلَالَ أَعْلَامِهِ وَرِمَاحِهِ وَسُيُوفِهِ ، وَيُرِيهِ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَبَيْنِهِ ، وَحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ ، وَخَاصَّتِهِ وَنَفِيْفِهِ ، بِمَنْ اللَّهُ وَفَضْلُهُ .

ثم تعاون العِدَاةُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمَأْخُورِيَّةِ ، الْقَائِمِ لِلسُّلْطَانَ بِأُمُورِ مَدْرَسَتِهِ ، وَأَعْرَوَهُ بِصَدْدِي عَنْهَا ، وَقَطَعَ أَسْبَابِي مِنْ وِلَايَتِهَا ، وَلَمْ يُمْكِنِ السُّلْطَانَ إِلَّا إِسْعَافُهُ فَأَعْرَضَتْ عَنْ ذَلِكَ ، وَشَغِلَتْ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ التَّدْرِيسِ وَالتَّأْلِيفِ .

(١) السومة من الخيل : المرعية ، والمعلمة .

(٢) العراب من الأبل ، والخيل : التي ليس فيها عرق هجين .

(٣) الهجان : جمع هجين ؛ وهو الفرس الذي ليس بعقيق .

ثم خرجت عام تسعة وثمانين للحج، واقتضيت إذن السلطان في ذلك فأسعف، وزود هو وأمراؤه بما أوسع الحال وأرغده؛ وركبت بحر السويس من الطور الى ينبع؛ ثم صعدت مع المحمل الى مكة؛ ففضيت القرص عامئذ. وُعدت في البحر؛ فزلت بساحل القصير؛ ثم سافرت منه الى مدينة قوص في آخر الصعيد، وركبت منها بحر النيل الى مصر، ولقيت السلطان، وأخبرته بدعائي له في أماكن الاجابة، وأعادني الى ما عهدت من كرامته، وتفقي، ظلّه.

ثم شغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتمش^(١) فولاني اياها بدلاً من مدرسته وجلست للتدريس فيها في محرم أحد وتسعين، ووقمت ذلك اليوم - على العادة - بخطبة نصّها:

« الحمد لله اجلالاً واعظاماً، واعترافاً بحقوق النعم والتزاماً، واقتباساً للمزيد منها واغتناماً، وشكراً على الذي أحسن وتاماً، وسع كل شيء رحمةً وانعاماً، وأقام على توحيده من أكوانه ووجوده آيات واضحة وأعلاماً، وصرف الكائنات في قبضة قدرته ظهوراً وخفاءً وإيجاداً وانعاماً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هداه الى مصالحه

(١) كذا في الاصل: « صلغتمش »، واملها كانت تنطق باللام فسجلها ابن خلدون كما سماها. والمدرسة الصرغتمشية هذه التي تقع بجوار جامع احمد بن طولون، تنسب الى بانيها الامير سيف الدين صرغتمش الناصري امير رأس نوبة، المتوفى سجيناً في الاسكندرية سنة ٧٥٩. خطط المقرئ ٢٥٦/٤ - ٢٥٨ طبع مصر.

الهاماً، وأودع مقدور قضاؤه في مسطور كتابه، فلا يجدُ محيصاً عنه ولا مراماً.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمدٍ نبيِّ الرِّحمة الهامية غماماً^(١) واللمحة التي أراقت من الكفر نجيعاً وحطمت أصناماً، والعروة الوثقى، فاز من اتخذها عصاماً^(٢)، أول التبيين رتبةً وآخرهم ختاماً، وسيدهم ليلة قاب قوسين^(٣) اذبات للملائكة والرسل اماماً؛ وعلى آله وأصحابه الذين كانوا رُكناً لدعوته وسناماً^(٤) و حرباً على عدوه وسماماً^(٥)، وصلوا في مظهرته جدياً واعتزماً، وقطعوا في ذات الله وابتغاء مرضاته أنساباً وأرحاماً، حتى ملأوا الارض إيماناً وأسلاماً، وأوسعوا الجاحد والمعاند تبكيتاً^(٦) وارغاماً^(٧) فأصبح ثغر الدين بساماً ووجه الكفر والباطل عبوساً جهماً^(٨). صلى الله عليه وعليهم ما عاقب ضياء ظلاماً، صلاة ترجح القبول ميزاناً، وتبوي عند الله مقاماً.

(١) همت السماء : امطرت ؛ والغمام : القطر نفسه .

(٢) الغمام : رباط كل شيء . من جبل ونحوه .

(٣) قاب قوسين : قدر قوسين ، او طول قوسين .

(٤) السنام : المرتفع من الرمل ، والجبل ، والمراد انه ملجأ .

(٥) السام : جمع سم ؛ وفي حديث عن علي رضي الله عنه : (الدنيا غذاؤها سام) .

(٦) التبكيت : التقريع والتننيف .

(٧) الارغام : الاكراه والاهانة .

(٨) الجمام : السحاب لا ماء فيه ، ويريد : كريهاً لا خير فيه .

والرضى عن الأئمة الأربعة ، الهداة المتبعة ، مصابيح الامان
ومفاتيح السنة الذين أحسنوا بالعلم قياما وكانوا للمتقين إماما .

أما بعد فإن الله سبحانه تكفل لهذا الدين بالعلاء والظهور ،
والعز الخالد على الظهور^(١) ، وانفساح خطته في افاق المعمور ،
فلم يزل دولة عظيمة الآثار ، غزيرة الانصار ، بعيدة الصيت عالية
المقدار ، جامعة — بحاسن ادابه وعزة جنبه — معاني الفخار ،
مُنْفَقَةٌ بضائع علومه في الاقطار ، مَفَجَّرَةٌ ينابيعها كالبهار ، مُطْلَعَةٌ
كواكبها المنيرة في الافاق أضوا من النهار ؛ ولا كالدولة التي
استأثرت بقبلة الاسلام ومنابره ، وفاخرت بجرمات الله وشعائره
واعتمدت بركة الايمان وُيْمَنَ طائرته ، في خدمة الحرمين الشريفين
— بالميتين من أسباب الدين وأواصره ، واعتملت في اقامة رؤسوم
العلم ليكون من مفاخره ، وشاهداً بالكمال لاوِّله واخره .

وان مولانا السلطان الملك الظاهر ، العزيز القاهر ، شرف
الاولائل والاواخر ، ورافع لواء المعالي والمفاخر ، رب التيجان
والاسرة والمنابر ، والمجاسي في ميدان السابقين من الملوك الاكابر ،
في الزمن الغابر ، حامل الامة بنظره الرشيد ورأيه الظافر ، وكافل

(١) كذا في الاصل ، ولعلها : « الدهور » .

الرعايا في ظله المديد وعدله الوافر ، ومُطِيع انوار العز والسعادة من أفقه السافر ؛ واسطة السلك من هذا النظام ، والتأج المحلى في مفارق الدول والايام ، سيد الملوك والسلاطين ، بركة الاسلام والمسلمين ، كافل امير المؤمنين ، أبو سعيد . أعلى الله مقامه ، وكافاً عن الامّة احسانه الجزيل وانعامه ، واطال في السعادة والخيرات المبدأة المعادة لياليه وايامه ؛ لما اوسع الدين والمك نظراً جميلاً من عنايته ، وأنام الخلق في حجر كفالتة ، ومهاد كفايته ، وايقظ لتفقد الأمور ، وصلاح الخاصة والجمهور ، عين كلاءته ، كما قلده الله رعايته^(١) وأقام حكام الشريعة والسياسة يُوسعون نطاق الحق الى غايته ، ويُطلعون وجه العدل سافراً عن ايته . ونصب في دست النيابة من وثق بعدله وسياسته ، ورضي الدين بحسن ايلته ، وأمنه على سلطانة ودولته ، وهو الوفيُّ - والحمد لله - بأمانته ؛ ثم صرف نظره الى بيوت الله يُعنى بإنشائها وتأسيسها ، ويعمل النظر الجميل في اشادتها وتقديسها ، ويقرض الله القرض الحسن في وقفها وتجبسها وينصب فيها لبت العلم من يُؤهله لوظائفها ودروسها ؛ فيضفي عليه بذلك من العناية أفضر لبوسها ، حتى زهت الدولة بملكها ومصرها ، وفاخرت الانام بزمانها الزاهر وعصرها .

(١) كذا في الاصل ؛ ولعلها : « قلده الله حق رعايته » ، او « واجب رعايته » ، او نحو هذا

وخضعت الاواوين لايوانها العالي وقصرها ؛ فابتهج العالم سرورا
بمكانها ، واهتزت الاكوان للفاخرة بشانها ، وتكفل الرحمن ،
لمن اعتز به الايمان ، وصلح على يده الزمان ، بوفور المشوبة ورُجحانها

وكان مما قدم به الان تدريس الحديث بهذه المدرسة وقف
الأمير صرغتمش من سلف أمراء الترك ، خفف الله حسابه وثقل في
الميزان - يوم يُعرض على الرحمن - كتابه ، وأعظم جزاءه في هذه
الصدقة الجارية وثوابه ، عناية جددي لباسها ، وإيثاراً بالنعمة
التي صححت قياسها ، وعرفت منه انواعها وأجناسها ، فامتثلت
المرسوم ، وانطلقت اقيم الرسوم ، واشكر من الله وسُلطانه الحظ
المقسوم . وأنا مع هذا مُعترف بالفُصور ، بين أهل العصور ، مُستعيد
بالله وبركة هؤلاء ، الحضور ، السادة الصدور ، أن يفتح بي مركب
الغرور ، أو يلج شيطان الدعوى والزور ، في شيء من الأمور .
والله تعالى ينفع مولانا السلطان بصالح أعماله ، ويُعرفه الحسنى وزيادة
الحظ الأسنى في عاقبته وماله ، ويُريه في سُلطانه وبنيه وحاشيته
وذويه قرّة عينه ورضى آماله ، ويديم على السادة الأمراء ما خولهم
من رضاه وإقباله ، ويحفظ المسلمين في هذا الأمر السعيد بدوامه
واتصاله ، ويسدّد قضايتهم وحكائهم لاعتماد الحق واعتماله بمن الله
وإفضاله .

وقد رأيتُ أن أقرّر للقراءة في هذا الدّرس ، كتاب الموطأ
 للإمام مالك ابن أنس ، رضي الله عنه ، فإنه من أصول السنن ،
 وأمهات الحديث ، وهو مع ذلك أصلُ مذهبنا الذي عليه مدار
 مسأله ، ومناطُ أحكامه ، وإلى آثاره يرجع الكثير من فقهه .

فلنفتّح الكلام بالتعريف بمؤلفه - رضي الله عنه ، ومكانه
 من الأمانة والديانة ، ومنزلة كتابه «الموطأ» من كتب الحديث .
 ثم نذكر الروايات والطرق التي وقعت في هذا الكتاب ،
 وكيف اقتصر الناس منها على رواية يحيى بن يحيى ، ونذكر
 أسانيد فيها ، ثم نرجع إلى الكلام على متن الكتاب .

أما الامام مالك - رضي الله عنه ، فهو إمام دار الهجرة ،
 وشيخ أهل الحجاز في الحديث والفقه غير منازع ، والمقلد المتبوع
 لأهل الأمتصار وخصوصاً أهل المغرب .

قال البخارى : مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي . كنيته
 أبو عبد الله ، حليف عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله الفرشي التميمي
 ابن أخي طلحة بن عبيد الله . كان إماماً ، روى عنه يحيى بن
 سعيد . انتهى كلام البخاري .

وجدّه أبو عامر بن عمرو بن الحرث بن عثمان ويقال : غيمان بغين

معجمة مفتوحة ، وياء تحتانية ساكنة ، ابن جُثَيْل بجم مضمومة وناء .
 مثلثة مفتوحة ، وياء تحتانية ساكنة ؛ ويقال حُثِيل أو خُثِيل بحاء
 مضمومة مهملة أو مُعْجِمة ، عوض الجيم ؛ ويقال حِثْل بحاء مهملة
 مكسورة ، وسين مهملة ساكنة ، ابن عمرو بن الحَرِث ؛ وهو ذو
 أَصْبَح . وَذُو أَصْبَح بطنٌ من حَمِير ، وهم إخوة يُجْنُصِب ،
 ونسبهم معروف ؛ فهو حَمِيرِي صليبة ، وقُرَشِي حلفاء . وُلد سنة
 إحدى وتسعين^(١) — فيما قال ابن بُكَيْر^(٢) ، وأربع وتسعين — فيما قال
 محمد بن عبد الله بن عبد الحكم^(٣) ؛ ونشأ بالمدينة ، وتفقه بها . أخذ عن
 ربيعة الرأي^(٤) ، وابن شهاب^(٥) وعن عمه أبي سهيل^(٦) ، وعن جماعة
 ممن عاصروهم من التابعين وتابعي التابعين ؛ وجلس للفتيا والحديث

- (١) في مولد مالك أقال اخر غير ما ذكر ابن خلدون تجدها في « الانساب » للسماني ،
 و « وفيات » ابن خلكان ؛ و « الانتقاء » لابن عبد البر ص ١٠ .
 (٢) هو يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي الخزومي بالولاء المصري [١٥٤ - ٢٣١] احد رواة
 « الموطأ » عن مالك .
 (٣) ابو عبد الله محمد بن عبد الحكم الفقيه الشافعي المصري المشهور [١٨٢ - ٢٦٨] .
 « وفيات » ٥٧٨/١ .
 (٤) هو ابو عثمان ربيعة بن ابي عبدالرحمن فروخ مولى آل المنكدر ... المعروف بريبعة
 الرأي . فقيه مدني جليل . أدرك جماعة من الصحابة . توفي بالانبار بمدينة « الهاشمية » سنة ١٣٦
 على خلاف . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، (وفيات) ٢٢٨/١ .
 (٥) ابو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبيد الله بن شهاب الزهري القرشي . من اجل
 فقهاء التابعين بالمدينة . ادرك جماعة من الصحابة [٥١ - ١٤٢] على خلاف في المولد والوفاء .
 (وفيات) ابن خلكان ٥٧١/١ - ٥٧٢ .
 (٦) نافع بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو سهيل التيمي . مات في اماره أبي العباس .
 تهذيب التهذيب ٤٠٩/١٠ .

في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شاباً يُناهز العشرين ، وأقام مُفتياً بالمدينة ستين سنة . وأخذَ عنه أَلْمُ الْفَقِيرِ من العلماء الأعلام ، وارتحل إليه من الأمصار من لا يُحصَى كَثْرَةٌ ؛ وأعظمُ من أخذَ عنه الامام محمد بن إدريس الشَّافعي ^(١) ، وابنُ وهب ^(٢) ، والأوزاعي ^(٣) ، وسفيانُ الثَّوْرِي ^(٤) ، وابنُ المُبارك ^(٥) — في أمثال لهم وأنظار . وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة باتفاق من الناقلين لوفاته ، وقال الواقدي ^(٦) : عاشَ مالكٌ تسعين سنة ، وقال سَحْنُونُ ^(٧) عن ابن نافع ^(٨) : توفي مالك ابن سبع وثمانين سنة ، ولم

(١) الامام المجتهد أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ينتمي نسبه الى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [١٥٠ - ٢٠٤ . « الانتقاء » لابن عبد البرص ٦٦ - ١٢٢ .

(٢) ابو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (١٢٥ - ١٩٧) ، لازم مالكا مدة طويلة .

(٣) ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمى الأوزاعي ، ونسبته اما الى « الأوزاع » بطن من همدان ، او من ذي كلاع من اليمن ، او الى « الأوزاع » قرية بدمشق نزل بها فنسب اليها أَدخِته أمه « بروت » فسكنها ، وبها مات سنة ١٥٧ ، وهو ولدُ بعلبك سنة ٨٨ ، او ٩٣ . « المعارف » لابن قتيبة ص ٢١٧ ، « وفيات » ٣٤٥/١ .

(٤) ابو عبد الله سفيان بن سعيد المعروف بالثوري ، احد الأئمة المجتهدين ، ولاء المهدي قضاء الكوفة فامتنع ، ورمى بصك الولاية في دجلة . « وفيات الاعيان » ٢٦٣/١ .

(٥) ابو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي مولى بني حنظلة . أحد رواة « الموطأ » عن مالك . « وفيات » ٣١١/١ .

(٦) ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني صاحب « المغازي » ؛ تولى القضاء ببغداد في أيام المأمون . ضعفه في الحديث [١٣٠ - ٢٠٧] . « وفيات » ١ / ٦٤٠ .

(٧) ابو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المشهور . [١٦٠ - ٢٤٠] .

(٨) ابو محمد عبد الله بن نافع بن أبي نافع . الصائغ الخزومي ، يروي عن مالك كثيراً ، ولهم في الثقة به كلام .

يُخْتَلِفُ أَهْلُ زَمَانِهِ فِي أَمَانَتِهِ ، وَإِتْقَانِهِ ، وَحِفْظِهِ وَتَمَيُّنِهِ وَوَرَعِهِ ،
حَتَّى لَقَدْ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ^(١) : كُنَّا نَزَيُّ فِي الْحَدِيثِ الْوَارِدِ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تُضْرَبُ أَكْبَادُ الْإِبِلِ فِي طَلَبِ
الْعِلْمِ فَلَا يُوجَدُ عَالِمٌ أَعْلَمُ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ » أَنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : إِذَا جَاءَ الْأَثْرُ فَالِكِ النَّجْمِ ، وَقَالَ : إِذَا جَاءَكَ
الْحَدِيثُ عَنْ مَالِكٍ ، فَشُدَّ بِهِ يَدَيْكَ ؛ وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ^(٢) : إِذَا
ذَكَرَ الْحَدِيثَ فَالِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي فَضَائِلِهِ كِتَابًا ، وَشَأْنُهُ مَشْهُورٌ .

وَأَمَّا الَّذِي بَعَثَهُ عَلَيَّ تَصْنِيفَ « الْمَوْطَأِ » - فِيمَا نَقَلَ أَبُو عُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْبَرِّ - فَهُوَ أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونَ^(٣) ،
عَمِلَ كِتَابًا عَلَيَّ مِثَالِ « الْمَوْطَأِ » ، ذَكَرَ فِيهِ مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الْحَدِيثِ ، فَأَتَيْتُ بِهِ مَالِكًا ، وَوَقَفَ
عَلَيْهِ وَأَعْجَبَهُ ، وَقَالَ : مَا أَحْسَنَ مَا عَمِلَ هَذَا ! وَلَوْ كُنْتُ أَنَا الَّذِي

(١) سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بْنُ أَبِي عَمْرَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ (١٠٧ - ١٩٨) « وَفِيَاتِ »

٢٦٤ / ١ .

(٢) أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الْإِمَامُ الْمُجْتَهِدُ الْمَعْرُوفُ ، يَتَمَيَّنُ نَسَبُهُ إِلَى بَنِي شَيْبَانَ (١٦٤ -

٢٤٩) . « وَفِيَاتِ » ٢٠ / ١ .

(٣) عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونَ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٦٤ بِبَغْدَادٍ فِي خِلَافَةِ الْمَدِينِيِّ .

« الْمَعَارِفِ » ص ٢٠٣ ، « تَهْذِيبُ التَهْذِيبِ » ٦ / ٣٤٣ .

عَمِلَتْ لِبِدَاتِ بِالْأَثَارِ ، ثُمَّ شَدَّدَتْ ذَلِكَ بِالْكَلامِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : حَجَّ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ^(١) ، وَلَقِبَهُ مَالِكُ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَكْرَمَهُ وَفَاوَضَهُ . وَكَانَ فِيمَا فَاوَضَهُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ وَجْهُ الْأَرْضِ أَعْلَمَ مِنِّي وَمَنْكَ ، وَقَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلاَفَةُ ، فَضَعِ انْتِ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، تَجَنَّبُ فِيهِ رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٢) وَشَدَائِدَ ابْنِ عُمَرَ ^(٣) وَوَطْئَهُ لِلنَّاسِ تَوَطُّةً . قَالَ مَالِكُ : فَلَقَدْ عَلِمَنِي التَّأْلِيفَ ؛ فَكَانَتْ هَذِهِ وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْبِوَاعِثِ لِمَالِكٍ عَلَى تَصْنِيفِ هَذَا الْكِتَابِ ، فَصَنَّفَهُ وَسَمَّاهُ « الْمَوْطَأُ » أَي الْمُسَهَّلُ ^(٤) . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَطَّؤُ يُوَطُّوهُ وَطَاءَةٌ ، أَي صَارَ وَطِيئًا ؛ وَوَطَّأْتُهُ تَوَطُّةً ؛ وَلَا يُقَالُ وَطِيئَتُهُ ^(٥) . وَلَمَّا شَغِلَ بِتَصْنِيفِهِ أَخَذَ النَّاسُ بِالْمَدِينَةِ يَوْمئِذٍ فِي تَصْنِيفِ مُوَطَّأَتِ ، فَقَالَ لِمَالِكٍ

(١) أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الخليفة العباسي الثاني تولى الخلافة سنة ١٣٦ ، وتوفي سنة ١٥٨ . له ترجمة واسعة في « تاريخ الطبري » ٢٥٤/٩ - ٣٢٣ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وتوفي سنة ٦٨ على خلاف في سنة الوفاة . تاريخ الاسلام للذهبي ٣ / ٣٠ - ٣٧ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي صاحب رسول الله ، وابن صاحبه . توفي سنة ٧٣ ، وكان عمره يوم الخندق ٢٥ سنة . تاريخ الاسلام للذهبي ٣ / ٢٧٧ - ٢٨٤ .

(٤) ذكر الزرقاني في شرحه للموطأ ١ / ٨ ، نقلاً عن ابن فهد ، وجهاً آخرًا اتسميته بالموطأ ، قال : « ... قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم وإطاني عليه ، فسميته بالموطأ » .

(٥) انظر لسان العرب (وطأ) .

أصحابه : نراك شغلت نفسك بأمرٍ قد شرَكَكَ فيه النَّاسُ ؛ وأتَى
ببعضها فنظرَ فيه ، ثم طرحه من يده وقال : ليعلمنَّ أن هذا لا يرتفعُ
منه إلا ما أريد به وجهُ الله ؛ فكأنما أَلْقَيْتَ تلكَ الكُتُبَ في الآبارِ ،
وما سَمِعَ لشيءٍ منها بعدَ ذلكَ ذِكرَ ، وأقبلَ مالكُ على تهذيب
كتابه وتوطئته ؛ فيقالُ إنه أكمله في أربعين سنة . وتلقت الأمة هذا
الكتابَ بالقبولِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها ، ومن لدُنْ صُنِفَ إلى
هلم^(١) . وطلَّ ثناءُ العلماءِ في كلِّ عصرٍ عليه ، ولم يَخْتَلَفْ في ذلكَ
إثنان . قال الشَّافعيُّ ، وعبدُ الرَّحْمَنِ بنُ مَهْدِيٍّ^(٢) : ما في الأرضِ
كتابٌ بعدَ كتابِ اللهِ أنفعَ ، وفي روايةٍ أصحُّ ، وفي روايةٍ أكثرَ
صواباً ، من « موطأ » مالك^(٣) . وقال يُونُسُ بنُ عَبْدِ الأَعْلَى^(٤) :
ما رأيتُ كتاباً أَلْفَ في العلمِ أكثرَ صواباً من « موطأ » مالك .

- (١) كذا في الأصلين ، وهو استعمال غريب . وقد استعمله في « مقدمته » في فصل الكيمياء
ص . وانظر شرح الشريشي على مقامات الحريري ٨٤/١ ، تاج العروس (جر) .
- (٢) أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري المتوفي
سنة ١٩٨ . « تهذيب التهذيب » ٢٨١/٦ ، « المعارف » ص ٢٢٤ .
- (٣) بعد أن أَلْفَ البخاري ، ومسلم صحيحها ، لم تبق الموطأ هذه المكانة ، ومن هنا أولوا
قول الشافعي هذا بأنه كان قبل وجود الصحيحين . وانظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٤ ، تدريب
الراوي ص ٢٥ ، مقدمة شرح الزرقاني على الموطأ ١ / ٩ ، مقدمة موطأ محمد بن الحسن للكتوبي
ص ٢٦ طبع الهند سنة ١٣٠٦ .
- (٤) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن مسرة المحدث المقرئ المصري (١٧٠ -
٢٦٤) . تهذيب التهذيب ١١ / ٤٤٠ ، طبقات القراء ٢ / ٤٠٦ .

وأما الطرقُ والرواياتُ التي وقعت في هذا الكتاب ، فإنه
 كتبه عن مالك جماعة نُسبَ الموطنُ إليهم بتلك الرواية ، وقيل موطناً
 فلان لراويهِ عنه^(١) فمنها موطنُ الإمام محمد بن إدريس الشافعي^(٢) ،
 ومنها موطنُ عبد الله بن وهب ، ومنها موطنُ عبد الله بن مسلمة
 القَعْنَبِيِّ^(٣) ، ومنها موطنُ مطرف بن عبد الله اليساري^(٤) نسبةً إلى
 سليمان بن يسار ، ومنها موطنُ عبد الرحمن بن القاسم^(٥) رواه عنه
 سُحْنُونُ بن سعيد ؛ ومنها موطنُ يحيى بن يحيى الأندلسي^(٦) . رحل

(١) في « ترتيب المدارك » ٣٤/١ ظ (نسخة خاصة) ، وشرح الزرقاني على الموطن ٦/١ -
 كلمة جماعة عن الذين رَووا الموطنَ عن مالك . وفي مقدمة عبد الحي الكندي لموطن محمد بن الحسن :
 ان احد علماء « دهلي » ، اورد في كتاب له بالفارسية سماه « بستان المحدثين » القول المستفيض عن
 الموطن ، ومؤلفه ، ونسخه ؛ ويتبين من الخلاصة التي عرّبها عن الفارسية عبد الحي الكندي ان
 صاحب « البستان » كاد ان يستقصي الموضوع .

(٢) قال احمد بن حنبل : كنت سمعت الموطنَ من بضعة عشر رجلا من حفاظ اصحاب مالك ،
 فُعدته على الشافعي لأنه اقومهم . زرقاني ٧/١ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعني الحارثي المدني المتوفى سنة ٢٢١ او
 ٢٢٠ . سمع من الامام مالك نصف الموطنَ بقراءة الامام ، وقرأ هو النصف الباقي على الإمام .

(٤) مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان اليساري الهلالي ابو مصعب المدني ابن اخت
 الامام مالك (١٣٧ - ٢١٤) ، على خلاف في وفاته . بهذيب التهذيب ١٠/١٧٥ الانتقاء ص ٥٨ .

(٥) ابو عبدالله عبد الرحمن بن القاسم بن حنادة المتقي المصري المالكي (١٢٨ - ١٩١) ،
 اول من نقل الموطنَ الى مصر . وكان ابو الحسن القابسي يقدم روايته للموطن على غيره : ويقول
 في ذلك انه - مع ما يتصف به من الفهم والورع - قد اختص بمالك ، ولم يكثر من النقل عن غيره ،
 فخلص بذلك من ان تختلط عليه الفاظ الرواة ، او تبدل الاسانيد ، وانما نقل كتاباً مصنفاً ، فهو
 وافر الحظ من السلامة في النقل .

(٦) هو ابو محمد يحيى بن يحيى بن كسير بن وسلسن المصمودي البربري الليثي بالولاء .

(١٥٢ - ٢٣٤) وفيات ٢/٢٨٥ - ٢٨٧ .

الى مالك بن انس من الاندلس واخذ عنه الفقه والحديث ، ورَجَعَ بعلمٍ كثيرٍ وحديثٍ جمٍّ ؛ وكان فيما اخذَ عنه «الموطأ» ، وادخله الاندلسَ والمغربَ ؛ فأكبَّ الناسُ عليه ، واقتَصَرُوا على روايته دونَ ما سواها (١) ، وعَوَّلُوا على نَسَقِهَا وترتيبها في شرحهم لكتاب «الموطأ» وتقاسيرهم ، ويشيرون الى الروايات الاخرى اذا عرضت في امكنتها ، فهجرت الروايات الاخرى ، وسائرُ تلك الطُرُق ، ودرست تلك الموطآت الا موطأ يحيى بن يحيى ، فبروايته اخذ الناس في هذا الكتاب لهذا العهد شرقاً وغرباً .

وأما سندي في هذا الكتاب المتصل بيحيى بن يحيى فعلى ما أصفه :

حدثني به جماعةٌ من شيوخنا رحمة الله عليهم . منهم إمام المالكية ، قاضي الجماعة بتونس وشيخ الفُتيا بها ، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ابن يوسف الهواري ، سمعته عليه بمنزله بتونس ، من أوله إلى آخره . ومنهم شيخ المُسندين بتونس ، الرَّحالة أبو عبد الله محمد بن جابر بن سلطان القيسي الوادي آشي ، سمعتُ عليه بَعْضَهُ ، وأجازني بساثره . ومنهم شيخُ المُحدِّثين بالاندلس ، وكبيرُ القضاة بها ، أبو البركات

(١) كان بقي بن مخلد المحدث الأندلسي يقدم على رواية يحيى هذه ، رواية أبي المصعب الزهري ، ورواية يحيى بن بكير ، وعاتبه في ذلك عبيد الله بن يحيى ، وأخوه اسحق بن يحيى ، فاحتج لفعله بأن أبا المصعب قرشي فاستحق التقديم ، وبأن يحيى بن بكير أكبر من أبيهما في السن ، وبأنه سمع الموطأ من مالك سبع عشرة مرة ، ويحتمل أبوها لم يسمعه الا مرة واحدة .

محمد بن محمد بن محمد - ثلاثة من المحدثين - بن إبراهيم بن الحاج البلفيقي، لقيته بفاس سنة ست وخمسين من هذه المائة الثامنة، مقدمه من السفارة بين ملك الأندلس وملك المغرب. وحضرت مجلسه بجامع القرويين من فاس؛ فسمعت عليه بعضاً من هذا الكتاب، وأجازني بسأئره. ثم لقيته لقاءً أخرى سنة اثنتين وستين، استقدمه ملك المغرب، السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن للأخذ عنه؛ وكنت أنا القارىء فيما يأخذه عنه، فقرأت عليه صدراً من كتاب «الموطأ»، وأجازني بسأئره إجازةً أخرى.

ومنهم شيخ أهل المغرب لعصره في العلوم العقلية، ومفيد جماعتهم، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قرأت عليه بعضه، وأجازني بسأئره، قالوا كلهم: حدثنا الشيخ المعمر، أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائي^(١)، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بَقي^(٢)، عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي^(٣).

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن هرون بن محمد بن عبد العزيز الطائي القرطبي ثم التونسي الامم المسند. أخذ عنه الوادي آشي وغيره من مشايخ العلم والحديث (٦٠٣-٧٠٢). ديباج ص ١٤٣ الدرر الكامنة ٢/٣٠٣.

(٢) أبو القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن... بن بقي بن مخلد (٥٣٣ - ٦٢٥). «التكملة لكتاب الصلة» ص ١٤١ طبع الجزائر سنة ١٣٣٧ هـ، «تكميل الديباج» ص ٧٣.

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي. سمع من ابن الطلاع. ذكره ابن الأبار في «التكملة» ٢١٤/١ طبع مدريد سنة ١٨٨٩ م؛ وقال انه لم يقف على وفاته.

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو البركات ، عن إمام المالكية بجاية ،
 ناصر الدين أبي علي ، منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي^(١) ، عن
 الامام شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي ، عن أبي الحسن علي
 ابن موسى بن النقرات^(٢) عن أبي الحسن علي بن أحمد الكِنَاني^(٣) . قال
 الخزرجي والكناني : حدثنا أبو عبد الله محمد بن فرج^(٤) مولى ابن
 الطَّلَاع ، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث ابن الصَّفَّار
 قاضي الجماعة بقرطبة .

وحدثني به أيضاً شيخنا أبو عبد الله بن جابر عن القاضي أبي العباس

(١) منصور بن محمد بن أحمد بن عبد الحق الزَّواوي المشدالي ناصر الدين . وهو لقب لزمه
 من المشرق ، حيث انه رحل اليه ، وأخذ عن علمائه ؛ ويقول البغدادي في « رحلته » : انه لم
 تكن له عناية بالرواية ؛ ومشدالة قبيلة من زواوة .

(٢) علي بن موسى بن علي (ويقال ابن القاسم) بن علي الأنصاري الجباني يعرف بابن
 النقرات يكنى أبا الحسن ، ويعرف أيضاً بابن أرفع رأسه (٥١٥ - ٥٩٣) ، ويقول ابن القاضي
 في جنوة الاقتباس انه كان حياً في سنة ٥٩٣ . طبقات القراء ١/٥٨١ ، الجذوة ص ٣٠٥ ، فوات
 الوفيات ٢/٩٢ ، تكملة الصلة ٢/٦٧٤ .

(٣) علي بن أحمد بن أبي بكر الكِنَاني ، يعرف بابن حنين ، يكنى أبا الحسن (٤٧٦ -
 ٥٦٩) سمع من ابن الطَّلَاع موطأ مالك . جذوة الاقتباس ص ٣٠٤ .

(٤) هو الحافظ أبو عبد الله محمد بن فرج بن الطَّلَاع بالهمزة ، وكان أبو مروان بن سراج
 يقول : كان فرج يطلي مع سيده اللحم في الرض الشرقي عند الباب الجديد من قرطبة ، قال : ومن
 قال الطَّلَاع بالعين فقد أخطأ ، وكذلك قال أبو الوليد بن خيرة . وقالوا أيضاً : ان الطَّلَاع بالعين
 هو والد مولاه محمد بن يحيى البكري المعروف بابن الطَّلَاع . اما أبو بكر ابن برنجال الداني
 فيقول : هو بالعين لأن اباه كان يطلع النخل في قرطبة لاجتماعها فمرف بذلك . وقد رحل الناس الى
 ابن فرج من كل قطر لسباع الموطأ والمدونة ، وكان يحفظ الموطأ ، وله فيه سند عال . ديباج
 ص ٢٥٧ .

أحمد ابن محمد بن النَّمَّاز ، عن شيخه أبي الرَّبِيعِ سُلَيْمان بن موسى بن سالم^(١) الكلاعي ، عن القَاضِي أبي القاسم عبد الرحمن بن حَيْش ، وأبي عبد الله محمد بن سَعِيد بن زَرْقُون^(٢) ، شارح كتاب «الموطأ» ، قال ابن زَرْقُون : حدثنا به أبو عبد الله الخَوْلَاني^(٣) ، عن أبي عمرو عثمان بن أحمد القَيْجَاطِي^(٤) ، وقال ابن حَيْش : حدثنا به القاضي أبو عبد الله بن أَصْبَغ^(٥) ويونس بن محمد بن مُغِيث ، قالوا : قرأناه على أبي عبد الله محمد بن الطَّلَّاع^(٦) . وقال ابن حَيْش أيضاً : حدثنا به أبو القاسم أحمد بن محمد ورد^(٧) ، عن القاضي أبي عبد الله محمد بن خَلْف ابن المُرَابِط^(٨) ، عن المقرئ أبي عَمْرٍو أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري

(١) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان يعرف بابن سالم الكلاعي (٥٦٥ - ٦٣٤) .

(٢) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد العزيز زرقون (٥٠٢ - ٥٨٦) ، آخر من حدث بالإجازة عن الخولاني ، وكان عالي الرواية . ديباج ص ٢٨٥ .

(٣) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن غلبون الخولاني (٤١٨ - ٥٠٨) روى عن جماعة ، منهم أبو عمرو عثمان بن أحمد القيشطالي (القيجاطي) صلة ٧٦/١ .

(٤) عثمان بن أحمد بن محمد بن يوسف المعافري القرطبي يكنى أبا عمرو ، ويعرف بالقيشطيالي (القيشطالي ، القيجاطي ، توفي سنة ٤٣١ عن ٨٠ سنة . صلة ٣٩٧/٢ .

(٥) محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ الأزدي أبو عبد الله . سمع من أبي عبد الله محمد بن فرج ، توفي سنة ٥٣٦ ، وهو من أبناء الستين . صلة ٥٢٨/٢ .

(٦) محمد بن يحيى البكري المتوفى سنة ٤٩٧ . الاستقصا ١٢٩/١ .

(٧) أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي أبو القاسم (٤٦٥ - ٥٤٠) ، سمع الموطأ من أبي علي الغساني . احاطة ٥٧/١ .

(٨) القاضي أبو عبد الله محمد بن خلف بن سعيد المعروف بابن المرابط . اجازته أبو عمر الطلنكي ، توفي بالمدينة بعد سنة ٤٨٠ . ديباج ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

الطَّلْمَنَكِي^(١)؛ قال القاضي ابو الوليد بن مُعَيْث ، والمَيْجَاطِي ،
والطَّلْمَنَكِي : حدَّثنا ابو عيسى يَحْيَى بن عبد الله بن يَحْيَى عن عم ابيه
أبي مروان عبيد الله بن يَحْيَى عن أبيه يَحْيَى بن يَحْيَى . وقال
الطَّلْمَنَكِي : حدَّثنا ابو جعفر احمد بن محمد بن حُدَيْرِ الْبَزَّاز ، قال
حدَّثنا ابو محمد قاسم بن أَصْبَغ^(٢) ، قال حدَّثنا ابو عبد الله محمد بن
وَضَّاح^(٣) ، قال حدَّثنا يَحْيَى بن يَحْيَى عن مالك ، إلا ثلاثة ابواب من
آخر كتاب الاعتكاف ، اولها خروج المعتكف الى العيد فإن يَحْيَى
شكَّ في سماعها عن مالك ، فسمعها من زياد بن عبد الرحمن الملقَّب
شَبْطُون^(٤) عن مالك .

ولي في هذا الكتاب طرق أخرى لم يخضرنى الآن اتصال
سندي فيها .

فنها عن شيخنا أبي محمد عبد المهيم بن محمد الحَضْرَمِيّ كاتب

(١) احمد بن محمد بن ابي عبد الله بن ابي عيسى المعافري ابو عمر الطلمنكي ، المتوفى سنة
٤٢٩ ديباج ص ٣٩ .

(٢) قاسم بن اصبع بن محمد بن يوسف بن ناصح ابو محمد البياضي القرطبي (٢٤٤ - ٣٤٠) ،
سمع من ابن وضاح . تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ٢٩٧/١ .

(٣) محمد بن وضاح بن بديع القرطبي ابو عبدالله (١٩٩ - ٢٨٦) ، على خلاف في مولده ،
ووفاته . سمع من يحيى بن يحيى . ديباج ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٤) زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطين [بنين معجمة مفتوحة فباء موحدة
ساكنة ، وبعدها طاء تليها واو ساكنة فتون] . اول من أدخل مذهب مالك الى الاندلس ، وكان
اهلها قبله على مذهب الازواعي . توفي سنة ٢٠٤ على خلاف . نفتح الطيب ٣٤٩/١ .

السلطان أبي الحسن ، لقيته بتونس عند استيلاء السلطان عليها ، وهو في جلته سنة ثمان وأربعين ، وحضرت مجلسه ، وأخذتُ عنه كثيراً ، وسمعتُ عليه بعض « الموطأ » ، وأجازني بالاجازة العامة ، وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وعن شيخه الأستاذ أبي إسحق الغافقي ، وعن أبي القاسم القبتوري ، وجماعة من مشيخة أهل سبتة ؛ ويتصل سنده فيه بالقاضي عياض ، وأبي العباس العزفي صاحب كتاب (الدر المنظم في المولد المعظم) .

ومنها عن شيخنا أبي عبد الله الكوسي خطيب الجامع الأعظم بقرنطة ، سمعتُ عليه بعضه وأجازني بسائره وهو يرويه عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير عن القاضي أبي عبد الله بن بكار ، وجماعة من مشيخة أهل الأندلس ، ويتصل سنده فيه بالقاضي أبي الوليد الباجي ^(١) ، والحافظ أبي عمر بن عبد البر بسندهما .

ومنها عن شيخنا المكيّ أبي عبد الله محمد بن سعد بن برّال الأنصاري شيخ القراءة بتونس ، ومعلمي كتاب الله ؛ قرأتُ عليه القرآن العظيم بالقراءات السبع وعرضتُ عليه قصيدتي الشاطبي ^(٢) في

(١) سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبو الوليد القاضي . رحل الى المشرق ، وعاد الى الأندلس بعلم كثير . (٤٠٣ - ٤٩٤) . ديباج ص ١٢٠ .

(٢) اللامية المسماة بجزر الأمان ، والمشهورة بالساطبية ، والرائية ، وتسمى « حقلية اتراب القصائد » .

القراءة ، وفي الرِّسْم ، وعَرَضْتُ عليه كتابَ التَّقْصِي لَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ ،
وغير ذلك ، وأجازني بالاجازة العامة ، وفي هذه بالاجازة الخاصة ،
وهو يروي هذا الكتاب عن القاضي ابي العباس أحمد بن محمد بن
القَمَّاز ، وعن شيخه ابي العباس احمد بن موسى البَطْرَني بسندهما .

ومنها عن شيخنا الأستاذ ابي عبد الله محمد بن الصَّقَّار
المَرَّاكُشي ، شيخ القراءات بالمغرب ، سمعت عليه بعض هذا
الكتاب بمجلس السلطان أبي عثمان مَلِكِ الْمَغْرِبِ ، وهو يُسَمَّعُه إياه ،
وأجازني بسائره ؛ وهو يروي عن شيخه مُحَدِّثِ الْمَغْرِبِ ابي عبد
الله محمد بن رُشيدِ الْفَهْرِيِّ السَّبْتِيِّ ^(١) عن مَشِيخَةِ اهل سَبْتَةَ ، واهل
الأندلس ، حَسَبًا ذلك مذكور في كُتُبِ رواياتهم وطُرُقِ آسانيدهم ،
إلا أَنَّهُم لم تحضرنِي الان ، وفيما ذكرناه كفاية والله يوفِّقنا أجمعين
لطاقته وهذا حينَ أبتدي ، وبالله أهتدي .

وانفَضُ ذلك المجلس ، وقد لآحظتني بالتَّجِلَّةِ والوَقَارِ العِيُونِ ،
واستشعرتْ أهليتي للمناصب القلوب ، وأخلص النَّجِيَّ في ذلك
الخاصة والجمهور ، وأنا أنتابُ مجلسِ السلطان في أكثر الأحيان ،
لتأدية الواجب من التَّحِيَّةِ والمُشَافَهَةِ بالدُّعَاءِ ، الى أن سَخِطَ السلطانُ

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي

قاضي المالكية يومئذ في نزعته من النزعات الملوكية، فأبعده، وأخره
 عن خطة القضاء في رجب ستّ وثمانين وسبعمائة، ودعاني للولاية في
 مجلسه، وبين أمرائه فتفاديت من ذلك، وأبى إلا إمضاءه، وخلع
 عليّ، وبعث الأمراء معي إلى مقعد الحكم بمدرسة القضاء، ففُتت في
 ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد الله وعهده في إقامة رسوم الحق،
 وتحرّي المعدلة، حتى سخّطني من لم تُرضه أحكام الله، ووقع في
 ذلك ما تقدّم ذكره، وكثير شغب أهل الباطل والمراء، فأعفاني
 السلطان منها لحول من يوم الولاية، وكان تقدّمها وصول الخبر
 بفرق السفين الواصل من تونس إلى الإسكندرية، وتلف
 الموجود والمولود، وعظم الأسف، وحسن العزاء، والله قادر
 علي ما يشاء.

ثم خرجت عام تسعة وثمانين لقضاء الفرض، وركبت بحر
 السويس من الطور إلى ينبع، ورافقت المحمل إلى مكة، فقضيت
 الحج عامئذ، وعدت إلى مصر في البحر كما سافرت أولاً.
 وشغرت وظيفة الحديث بمدرسة صلغتميش، قولاني السلطان
 إياها بدلاً من مدرسته في محرم أحد وتسعين، ومضيت على
 حالي من الانقباض، والتدريس، والتأليف، حتى ولاني خائفه
 بيبرس، ثم عزّلتني عنها بعد سنة أو يزيد، بسبب أنا أذكره الآن.

ولاية خانقاه بيبرس ، والعزل منها

لما رجعت من قضاء الفرض سنة تسعين ، ومضيتُ على حالي من التدريس والتأليف ، وتعاهد السلطان بالبقاء والتحية والدعاء ، وهو ينظر اليّ بعين الشفقة ، ويُحسن المواعيد . وكانت بالقاهرة خانقاه شيدّها السلطان بيبرس ، ثم من ملوك الترك الذي استبدّ على الناصر محمد بن قلاوون ^(١) هو ورفيقه سلار ^(٢) وأنف الناصر من استبداديهما ، وخرج للصيد ، فلما حاذى الكرك امتنع به ، وتركهم وشأنهم ، فجلس بيبرس على التخت مكانه ، وكاتب الناصر أمراء الشام من ممالك أبيه ، واستدعوه للقيام معه ، وزحف بهم الى مصر ، وعاد الى سلطانيه ، وقتل بيبرس وسلار سنة ثمان

(١) هو الملك الناصر محمد بن الملك المنصور ابن قلاوون . تولى الملك ثلاث مرات كانت الاخيرة منها في سنة ٧٠٩ ، وبقي ملكاً حتى مات سنة ٧٤١ ، وعمره ٥٨ سنة . الخطط طبع

مصر ٩٨/٤ - ١٠٢ .

(٢) الامير سيف الدين سلار المنصوري ، كان من اسرى التتار ، فخلص وصار مولى لعلاء الدين علي بن المنصور بن قلاوون ، واليه ينسب ؛ سادت علاقته بالناصر ، فاعتقله ، واستصفي امواله وقتله . العبرم ٥ .

وسبعائة^(١) . وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر^(٢) من أعظم المصانع وأحفلها ، وأوفرها رعيماً ، وأكثرها أوقافاً ، وعين مشيختها ، ونظرها لمن يستعدّ له بشرطه في وقفه ، فكان رزقُ النَّظَرِ فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه ، وكان ناظرها يومئذ شرف الدين الأشقر إمام السلطان الظاهر . فتوفي عند منصرفي من قضاء الفروض ، فولّاني السلطان مكانه توسعة عليّ ، وإحساناً إليّ ، وأقتُ على ذلك إلى أن وقعت فتنة الناصري .

(١) في العبره : ان ذلك كان في سنة ٧١٠ وهو الأشبه بالصواب ، لان الناصر عاد الى الملك في سنة ٧٠٩ .

(٢) كذا بالأصل . ويظهر ان هنا كلمة سقطت أثناء السخ . ومقتضى السياق : « وشيّد بيبرس هذا أيام سلطانه داخل باب النصر خافقاه ، وهي من اعظم المصانع واحفلها... الخ » .

فتنة الناصري

وسياقه الخبر عنها بعد تقديم كلام في أحوال الدول
يليق بهذا الموضوع ، ويطلعك على أسرار في تنقل
أحوال الدول بالتدريج الى الضخامة والاستيلاء ، ثم
الى الضعف والاضمحلال ، والله بالبع أمره .

وذلك أن الدول الكليّة ، وهي التي تتعاقب فيها الملوك واحداً
بعد واحد ، في مدة طويلة ، قائمين على ذلك بعصبيّة النسب أو الولاة ،
وهذا كان الأصل في استيلائهم وتغلّبهم ، فلا يزالون كذلك الى
انقراضهم ، وغلب مستحقين آخرين ينزّعونهم من أيديهم بالعصبيّة
التي يقتدرون بها على ذلك ، ويحوزون الأعمال التي كانت بأيدي الدولة
الأولى ؛ يفضون جبايتها بينهم على تفاضل البأس والرّجولة
والكثرة في العصابة او القلة ؛ وهم على حالهم من الحشونة لمعانة
البأس ، والأقلال من العيش لاستصحاب حال البداوة ، وعدم
الثروة من قبل . ثم تنمو الثروة فيهم بنمو الجباية التي ملكوها ،
ويؤنّ حُب الشهوات للاقتدار عليها ، فيعظم الترف في الملابس

والمطاعم والمسكن والمراكب والممالك ، وسائر الأحوال ، ويتزايد شيئاً فشيئاً بتزاييد النعم وتوسع الأحوال أوسع مما تكون ، ويقتصر الدخل عن الخرج ، وتضييق الجباية عن أرزاق الجند وأحوالهم ، ويحصل ذلك لكل أحد ممن تحت أيديهم ، لأن الناس تبع للموكلهم ودولتهم ، ويراجع كل أحد نظره فيما هو فيه من ذلك ، فيرجع وراءه ، ويطلب كفاء خروجه بدخله .

ثم إن البأس يقل من أهل الدولة بما ذهب لهم من الحشونة ، وما صاروا إليه من رقة الحاشية والتنعم ؛ فيتناول من بقي من رؤساء الدولة إلى الاستبداد بها غيرة عليها من الخلل الواقع بها . ويستعد لذلك بما بقي عنده من الحشونة ، ويحملهم على الاقلاع عن الترف ، ويستأنف لذلك العصابة بعشيرته أو بمن يدعو له ؛ فيستولي على الدولة ، ويأخذ في دوائها من الخلل الواقع ، وهو أحق الناس به ، وأقربهم إليه ؛ فيصير الملك له ، وفي عشيرته ؛ وتصير كأنها دولة أخرى ، تمر عليها الأوقات . ويقع فيها ما وقع في الأولى ؛ فيستولي آخر منهم كذلك إلى ان تنقرض الدولة بأسرها ، وتخرج عن القوم الأولين أجمع . وتأتي دولة أخرى مباينة لعصابة هؤلاء في النسب ، أو الولاء . سنة الله في عباده .

وكان مبدأ هذه الدولة التركية ، أن بني أيوب لما ملكوا

مصرَ والشام ، كما قصصناه عليك في أخبارهم واستقلَّ بها كبيرُهم صلاح الدين ، وشغلَ بالجهاد وانتزاع القلاع والحصون من أيدي الفرنج الذين ملكوها بالسَّواحل ، وكان قليلَ العِصَابَةِ ، وإنما كان عَشِيرُهُ مِنَ الْكُرْدِ يُعْرَفُونَ بِبَنِي هَذَانَ ^(١) ، وهم قليلون ، وإنما كَثُرَ مِنْهُمْ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ ، بِهَمَّةِ الْجِهَادِ الَّذِي كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ يَدْعُو إِلَيْهِ ؛ فَعَظُمَتْ عِصَابَتُهُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْمَعَ دَاعِيَهُ ، وَنَصَرَ اللَّهُ الدِّينَ عَلَى يَدِهِ . وَانْتَزَعَ السَّوَاحِلَ كُلَّهَا مِنْ أَيْدِي نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، حَتَّى مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مَلِكُوهُ وَافْحَشُوا فِيهِ بِالْقَتْلِ وَالسَّبِيِّ ؛ فَأَذْهَبَ اللَّهُ هَذِهِ الْوَسْمَةَ عَلَى يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ ، وَانْقَسَمَ مُلْكُ بَنِي أَيُوبَ بَعْدَهُ بَيْنَ وَوَلَدِهِ وَوَلَدِ أَخِيهِ . وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ ؛ وَاقْتَسَمُوا مَدُنَ الشَّامِ ، وَمَصْرَ بَيْنَهُمْ ، إِلَى أَنْ جَاءَ آخِرُهُمُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّينِ أَيُوبُ ابْنُ الْكَامِلِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ ، وَأَرَادَ الْاسْتِكْثَارَ مِنَ الْعِصَابَةِ لِحَايَةِ الدَّوْلَةِ ، وَإِقَامَةَ رِسُومِ الْمَلِكِ ، وَأَنْ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِاتِّخَاذِ الْمَالِيكِ ، وَالْأَكْثَارِ مِنْهُمْ ، كَمَا كَانَ آخِرًا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ؛ وَأَخَذَ التُّجَّارَ فِي جُلْبِهِمْ إِلَيْهِ ، فَاشْتَرَى مِنْهُمْ أَعْدَادًا ، وَأَقَامَ لِتَرْبِيَّتِهِمْ أَسَاتِيذَ مُعَلِّمِينَ لِحِرْفَةِ الْجُلْدِيَّةِ ، مِنَ الشَّقَافَةِ وَالرَّمِيِّ ، بَعْدَ تَعْلِيمِ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالْحُلُقِيَّةِ

(١) بفتح الهاء، والذال المعجمة، وبعدها ألف، ثم نون؛ وهي قبيلة كبيرة من قبائل الأحرار

الى ان اجتمع له منهم عددٌ جمٌ يناهز الألف ؛ وكان مقياً بأحواز
 دِمياط^(١) في حماية البلاد من طوارق الفرنج المتغلبين على حصنها
 دِمياط . وكان أبوه قد اتخذ لنزله هنالك قلعةً سَمَّاهَا المنصورة^(٢) ،
 وبها توفي رحمه الله ، فكان نجم الدين نازلاً بها في مُدافعة ساكني دِمياط
 من الفرنج ، فأصابه هنالك حادث الموت ، وكان ابنه المعظم
 ثورنشاہ نائباً في حصن كَيْفَا^(٣) من ديار بكر وراء القُرات ،
 فاجتمع الجندُ على بيعته ، وبعثوا عنه ، وانتظروا . وتَفَطَّن الفرنج
 لشأنهم ، فهجموا عليهم ، واقتتلوا فنَصَرَ اللهُ المسلمين ، وأَسِرَ
 مَلِكُ الفرنج رَيْدُ إِفْرَنْسْ ؛ فبعثوا به الى مصر . وحَسِبَ بدار
 نُقْمَان ، الى أن فادَوْه بِدِمِياط ، كما هو مذکور في أخبار بني أيوب .
 ونصبوا - للملك ، ولهذا اللقَاء - زَوْجَةَ الصالحِ أَيُوبِ واسمُهَا

(١) وقد ضبطها ابن خلدون بخطه بالحركات ، بكسر الهمزة المعجمة ؛ وقد حكى الاعجام
 الزبيدي في « تاج العروس » ، والسماعي في « الانساب » عن ابي محمد بن أبي حبيب الاندلسي
 قال السمعاني معقياً : « وما عرفناه الا بالبدال المهملة » . ياقوت ٤ / ٨٤ - ٨٨ ، تاج العروس
 (دمط ، ذمط) .

(٢) بلدة أنشأها الملك الكامل بن المادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط فيها في
 وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ، ولم يزل بها حتى استنقذ دمياط في رجب
 سنة ٦١٨ . ياقوت ٨ / ١٧٨ .

(٣) حصن كيفا : قلعة عظيمة مشرفة على دجلة ، بين آمد وجيزة ابن عمر من ديار بكر .
 ياقوت ٣ / ٢٨٦ .

شَجَرُ الدَّرِّ^(١)، فكانت تحكم بين الجند، وتكتب على المراسيم^(٢)،
ورَكبت يوم لقاء الفرنج، تحت الصَّنَاجِقِ^(٣)، والجندُ مُخَدِّقُونَ
بِهَا، حتى أعزَّ اللهُ دينه، وأتمَّ نصره. ثم وصل تورنشاہ المعظم؛
فأقاموه في خَطَّةِ المُلْكِ مكان أبيه الصالح أيوب، ووَصَلَ معه ممالِكُ
يُدِلُّونَ بمكانهم منه، ولهم به اختصاص، ومنه مكان؛ وكان رؤساء
الترك يومئذ القائلون بالدولة من عهد أبيه وجدِّه. أَقْطَايَ الجَمْدَارِ^(٤)
وأبيك التُّرْكْمَانِي، وَقَلَاوُنَ الصَّالِحِي، فَأَنْفُوا من تصرفات ممالِكِ
تورنشاہ، واستعملتهم بِالْحِظِّ من السلطان، وَسَخَطُوهم وَسَخَطُوا،
وَأَجْمَعُوا قَتْلَهُ. فلما رحل الى القاهرة اغتالوه في طريقه بفارُسْكُو،
وقتلوه، ونصبوا للأمر أَيْبَكَ التُّرْكْمَانِي منهم، واستحدثوا هذه الدولة
التركية كما شرحناه في أخبارها؛ وهلك بعد أَيْبَكَ ابنه علي المنصور،

(١) بعضهم يكتبها: «شجرة الدر»، وكان يحطب باسمها على المنابر، ونقشت على «السكة»،
وكان نقشها: «السكة المستعمية الصالحة، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل»، وخليل
هذا ابنها من الملك الصالح توفي في حياة أبيه، وكانت تكنى به. العبر ٥ الحطط ٢/٢٣٧. ولاق
(٢) يعني اتخذت لها «علامة» تختم بها على المراسيم، وكانت علامتها - فيما يرى ابن خلدون:
«أم خليل»، أما ابن الوردي فيقول: «والدة خليل». العبر م ٥، ابن الوردي
١٨٣/٢

(٣) جمع سنجق وهو في الاصل الرمح، وكانت تجعل في رأسه الراية، ومن ثم أصبح معناها:
الراية مباشرة. صبح الاعشى ٥/٥٥٨.

(٤) أخبار أقطاي مفصلة في العبر م. والجمدار: هو الذي يتولى لباس السلطان، أو
الامير ثيابه؛ وأصله جاما دار فعذف المد منه فقليل: جدار، وهو مركب من كلمتين فارسيين:
«جاما». ومعناها ثوب، و«دار»، ومعناها: ممسك. صبح الاعشى ٥/٥٥٩.

ثم مولاه قُطز ، ثم الظاهر بَيْرَس البُندُقداري ^(١) . ثم ظهر أمر الطَّطَّر ^(٢) ، واستفحل ملكهم . وزحف هولاءكو بن طولي بن جنكيزخان من خراسان الى بغداد ؛ فملكها ، وقتل الخليفة المستعصم آخر بني العباس . ثم زحف الى الشام ؛ فملك مدنه وحواضره من أيدي بني أيوب ، الى أن استوعبها . وجاء الخبر بأن بركة صاحب صراي شريكه في نسب جنكيزخان ، زحف الى خراسان ؛ فامتعض لذلك ، وكرراً رجعاً ، وشغل بالفتنة معه الى ان هلك . وخرج قُطز من مصر عندما شغل هولاءكو بفتنة بركة ؛ فملك الشام كله ، أمصاره ومدنه ، وأصاره للترك موالي بني أيوب . واستفحلت دولة هؤلاء المماليك ، واتصلت أيامها واحداً بعد واحد ، كما ذكرنا في أخبارهم . ثم جاء قلاوون عندما ملك بَيْرَس الظاهر منهم ؛ فتظاهر به ، وأصهر اليه ، والترف يومئذ لم يأخذ منهم ، والشدة والشكيمة موجودة فيهم ، والبأس والرجولة شعار لهم ؛ وهلك الظاهر بَيْرَس ، وابناه من بعده ، كما في أخبارهم . وقام قلاوون بالأمر ، فأتسع نطاق ملكه ، وطال ذرع سلطانه ، وقصرت أيدي الطَّطَّر عن الشام بمهلك هولاءكو ، وولاية الأصاغر من ولده ؛ فعظم ملك قلاوون ،

(١) انظر ترجمته في الخطط ٢/٣٠٠ ، ٢٣٨ بلاق . وخبر توليه السلطنة في العبر .
 ٥ . والبندقاري : هو الذي يحمل غرارة البندق خلف السلطان . والبندق : الذي يرمي به وأصله البندق الذي يؤكل ، وهو في العربية الجلوز ؛ صبح الاعشى ٥/٥٧ .
 (٢) كذا بالأصل ، وهي : النتر .

وَحَسُنَتْ آثارُ سياسته ، وَأَصْبَحَ حجةً على من بعده ؛ ثم ملك بعده ابنه : خَلِيلُ الأَشْرَفِ ، ثم مُحَمَّدُ الناصر . وطالت أَيامُه ، وكثُرَتْ عصابته من ممالِكه ، حتى كَمُلَ منهم عَدَدٌ لم يَقَعْ لغيره . ورتب للدولة المراتب ، وقَدَّمَ منهم في كل رُتبة الأُمراء ، وأوسع لهم الاقطاع والولايات ، حتى توفرت أرزاقهم واتسعت بالتَّرفِ أحوالهم . ورحل أربابُ البضائع من العلماء والتُّجَّارِ الى مصر ؛ فأوسعهم حِباءً وبراً . وتنافست أمراءُ دولته في اتخاذ المدارس والرُّبُطِ والخوانق ، وأصبحت دولتهم غُرَّةً في الزمان ، وواسطةً في الدُّولِ . ثم هلك الناصر بعد أربعين وسبعائة ، فظفِقَ أمراءُ دولته يَنصُبُونَ بنيه للملك ، واحداً بعد آخر ، مستبدِّين عليهم ، متنافسين في الملك ، حتى يغلب واحد منهم الآخر ، فيقتله ، ويقتلَ سلطانه من أولاد الناصر ، ويَنصِبَ آخرَ منهم مكانه ، الى أن انساق الأمرُ لولده حَسَنِ الناصر ؛ فقتل مُستبدِّه شيخون ، وملك أمره . وألقى زمام الدولة بيد مملوكه يَلْبُغا ؛ فقام بها ، وناقسه أقرانه ، وأغرَّوا به سلطانه ؛ فأجمع قتله . ونُمي اليه الخبرُ وهو في علوفة البرسيم عند خيله المُرْتَبطة لذلك ؛ فاعتزم على الامتناع ، واستعدَّ للقاء . واستدعاه سلطانه ؛ فتناقل عن القُدوم . واستشاط السلطان ، وركب في خاصته اليه ، فركب هو لمصادمته . وهاجم السلطانَ فقلَّه ، ورجع الى القلعة ، وهو في اتِّباعه ، فلم يُلْفِه بقصره ، وأغرَّى به البحث فتقبَّض عليه ،

واستصفاه ، وقتله ؛ ونصّب للملك محمد المنصور بن المظفر حاجي بن
الناصر . وقام بالدولة أحسن قيام ، وأغرّى نفسه بالاستيكاثر من
المماليك ، وتهذيبهم بالتربية ، وتوفير النعم عندهم بالاقطاع ،
والولايات ، حتى كمل منهم عدد لم تعده الدولة . ثم خلع المنصور بن
المظفر لسنتين ، ونصّب مكانه للملك شعبان الأشرف بن حسين بن
الناصر ؛ فأقام على التخت وهو في كفالتة ؛ وهو على أوله في إعزاز
الدولة ، وإظهار الترف والثروة ، حتى ظهرت مخايل العز والنعم ، في
المساكن والجياد والماليك والزينة ؛ ثم بطروا النعمة ؛ وكفروا
الحقوق ، فحنقوا عليه لما كان يتجاوز الحدود بهم في الآداب ؛
فهموا بقتله وخلصوا نجيا لذلك في متصيدهم الشتوي ، وقد برزوا
له بنجياهم وسلطانهم على عادتهم . ولما أحس بذلك ركب ناجيا بنفسه
الى القاهرة ؛ فدخلوا على السلطان الأشرف ، وجاءوا به على إثره ،
وأجازوا البحر ؛ فقبضوا عليه عشي يومهم ، ثم قتلوه في محبس
عشاء . وانطلقت أيديهم على أهل البلد بمعرات لم يعدها من أول
دولتهم ، من النهب والتخطف وطروق المنازل والحمامات للعبث
بالحرّم ، وإطلاق أعنة الشهوات والبغي في كل ناحية ؛ فمرج أمر
الناس ، ورفع الأمر الى السلطان ، وكثر الدعاء واللجأ الى الله
واجتمع أكابر الأمر الى السلطان ، وفاوضوه في كف عاديّتهم ؛
فأمرهم بالركوب ، ونادى في جنده ورعيته بانطلاق الأيدي عليهم ،

والاحتياط بهم في قبضة القهر؛ فلم يكن إلا كَلَمَحَ البَصَرِ، وإذا بهم في قبضة الأسر. ثم عَمِرَتْ بهم السُّجُونُ، وَصُقِدُوا وَطِيفَ بِهِمْ عَلَى الْجَمَالِ ينادى بهم، إبلاغاً في الشهرة؛ ثم وَسَطَ^(١) أكثرهم، وَتُبِعَ البَقِيَّةُ بالنَّفْيِ وَالْحَبْسِ بالشُّمُورِ القَصِيَّةِ، ثم أُطْلِقُوا بعد ذلك. وكان فيمن أطلق جماعة منهم بحبس الكرك: فيهم برقوق الذي ملك أمرهم بعد ذلك، وبركة الجوباني^(٢)، وأطنبغا الجوباني^(٣) وجهر كس الخليلي.

وكان طشتمر^(٤)، دوادار يلبغا^(٥)، قد لطف محله عند السلطان الأشرف، ووالي الدوادارية له، وكان يؤمل الاستبداد كما كان أستاذه يلبغا، فكان يمتال في ذلك بجمع هؤلاء المماليك اليلبغاوية من حيث سقطوا، يريد بذلك اجتماعهم عُصبةً له على هواه، ويُغري السلطان بها شفاهاً ورسالة، إلى أن اجتمع أكثرهم

(١) وسطه توسطاً: قطعه نصفين، ويقال قتل فلان موًسطاً.

(٢) هو بركة بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير زين الدين. كان أميراً شجاعاً يحب العلماء؛

له مآثر خيرية بمكة، والحرم، وبطريق المدينة. قتل سنة ٨٧٢ هـ.

(٣) علاء الدين الطنبغا بن عبد الله الجوباني اليلبغاوي الأمير؛ كان من خيار الأمراء. دينا، وعقلاً وشجاعاً. مات في الواقعة بين منطاش والناصرى خارج دمشق سنة ٧٩٢ هـ، وكان صديقاً لابن خلدون، وقد عرف به وأثنى عليه في العبرم هـ.

(٤) طشتمر بن عبد الله العلائي الدوادار الأمير سيف الدين، توفي في دمياط منفياً سنة

أثنى عليه ابن تغري بردي كثيراً بمقدار ما قدح في بركة، والظاهر برقوق.

(٥) لقب للذي يملك دواة السلطان أو الأمير، ويتولى من الأمور ما

حكم، أو تنفيذ أمور، أو غير ذلك. صحح الأعرشي ٤٦٢/٥.

بباب السلطان الأشرف ، وجعلهم في خدمة ابنه علي وليّ عهده . فلما كثروا ، وأخذتهم أَرْيحيةُ العزِّ بعصبيّتهم ، صاروا يَشْتَطُون علي السلطان في المطالب ، ويعتزُّون بعصية اليُلبغاوية . واعتزم السلطان الأشرفُ عام سبة وسبعين على قضاء الفرض ، فخرج لذلك خروجاً فخمأً ، واستناب ابنه علياً على قلعتة ومملكه في كفالة قرطاي^(١) من أكابر اليُلبغاوية ، وأخرج معه الخليفة والقضاة . فلما بلغ العقبة^(٢) اشتطّ المماليك في طلب جرايتهم من العلوقة والزّاد ، واشتطّ الذين عصر كذلك في طلب أرزاقهم من المتولّين للجباية . وصار الذين مع السلطان الي المكاشفة في ذلك بالأقوال والأفعال ، وطشتمر الدّوادار يُغضي عنهم ، يَحْسَبُ وقت استبداده قد أزرَف ، الي أن رانغمهم السلطان بالزّجر ؛ فركبوا عليه هنالك ، وركب من خيامه مع لفيف من خاصّته ، فنضجوه بالنبل ، ورجع الي خيامه ، ثم ركب الهُجن مَساءً ، وسار فصَبَّح القاهرة ، وعَرَس هو ولفيفه بُقبة النّصر .

وكان قرطاي كافلُ ابنه علي المنصور ، حدّث بينه وبين ناظر

(١) قرطاي (أو قرطاي) بن عبد الله المزني الأشرفي سيف الدين ، رفيق أئبنيك ، وصره ، وكان من أصاغر الأمراء في دولة الأشرف شعبان بن حسين ، ولكنه أصبح في أيام ولده علي أمير منة ، ثم مقدم ألف . واختلف مع صديقه أئبنيك ، فحبسه الي ان مات سنة ٧٧٩ .
(٢) موقعها في النهاية الشرقية الشالية لخليج العقبة .

الخاص المَسِيّ مكالمة عند مغيب السلطان أَحَدَتَهُ . وجاشت بما كان في نفسه ؛ فأغرى علياً المنصورَ بن السلطان بالتوثب على الملك ، فارتاح لذلك وأجابه ، وأصبح يوم ثورة المماليك بالعقبه ؛ وقد أجلسَ علياً مكفولاً بباب الاسطبل ، وعقد له الراية بالنداء على جلوسه بالتخت ؛ وبينما هم في ذلك ، صبَّحهم الخبر بوصول السلطان الأشرف الى قبة النصر لِيَلْتَمِذَ ، فطاروا اليه زرافاتٍ ووحدانا ؛ فوجدوا أصحابه نياماً هنالك ، وقد تسلل من بينهم هو وَيَلْبُغَا النَّاصِرِيُّ^(١) من أكابر اليلبغاوية ؛ فقطعوا رؤوسهم جميعاً ، ورجعوا بها تسيل دماً . ووجهوا لفقدان الأشرف ، وتابَعُوا النِّدَاءَ عليه ، واذا بامرأة قد دلَّتهم عليه في مكانٍ عرفتُه ؛ فتسابقوا إليه ، وجاءوا به فقتلوه لوقتِه بخلعٍ أكتافه ، وانعمدت بيعة ابنه المنصور . وجاء طشتمر الدوادار من الغد بمن بقي بالعقبه من الحرَم ، ومُخْلِيفَ السلطان ، واعتزَم على قتالهم طمعاً في الاستبداد الذي في نفسه ؛ فذاعفوه وغلبوه وحصل في قبضتهم ؛ فخلعوا عليه بناية الشام ، وصرفوه لذلك ، واقاموا في سلطانهم . وكان أَيْبُكُ أميراً آخر من اليلبغاوية^(٢)

(١) يلغا بن عبد الله الناصري الأتابكي الأمير سيف الدين ، وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بظاهر دمشق . الدرر الكامنة ٤ / ٤٤٠ - ٤٤٢ .
(٢) أَيْبُكُ بن عبد الله البدري الأمير سيف الدين ، كان هو وفرطاي صاحبي الحل والمقد في الدولة . استبد بالمنصور بن الأشرف ، ثم قلب عليه يلغا الناصري وأودعه سجن الاسكندرية .

قد ساهم قُرطاي في هذا الحادث ، وأصهر إليه في بعض حُرَمه ؛ فاستنام له قُرطاي ، وطمع هو في الاستيلاء . وكان قُرطاي مواصلاً صَبُوحة بَغْبُوقة ، ويستغرق في ذلك ؛ فركب في بعض أيامه ؛ وأركب معه السلطان عليا ، واحتاز الأمر من يد قُرطاي ، وصيره إلى صَفَد^(١) ، واستقلَّ بالدولة ، ثم انتقض طشتمر بالشام مع سائر امرائه ؛ فخرج أَيْنَبك في العساكر ، وسرَّح المقدِّمة مع جماعة من الأمراء ؛ وكان منهم بَرقوق وبركة المستوليان عَقِب ذلك ؛ وخرج هو والسلطان في السَّاقَة^(٢) ؛ فلما انتهوا إلى بُلييس ، ثار الأمراء الذين في المقدِّمة عليه ، ورجع إليه أخوه مُنْهزما ؛ فرجع إلى القلعة . ثم اختلف عليه الأمراء ، وطالبوه بالحرب في قُبَّة النَّصر ؛ فسرح العساكر لذلك ؛ فلما فصلوا فرَّ هو هاربا ، وقُبِض عليه وثُقِف بالأسكندرية . واجتمع أمراء اليُلبغاوية يقدمهم قطلقتمر العلاتي ، ويُلبغا النَّاصري ودُمُرْدَاش اليوسفي وبركة وبرقوق ؛ فتصدى دُمُرْدَاش ويُلبغا وبركة وبرقوق ، إلى الاستقلال بالأمر وتغلبوا على سائر الأمراء ؛ واعتقلوهم بالاسكندرية . وفوضوا الأمر إلى يُلبغا النَّاصري ، وهم يرونه غير خبير ، فأشاروا

(١) صفد : مدينة في شمالي فلسطين ، واقعة في الشَّهال الغربي لبحيرة طبرية ، قريبة من حدود سوريا في الجنوب الغربي ، ومن حدود لبنان في الجنوب .

(٢) ساقَة الجيش : مؤخره .

باستدعاء طشتمر ، وبعثوا اليه ، وانتظروا . فلما جاءه الخبر بذلك
 ظنّها مُنيّةً نفسه ، وسار الى مصر ؛ فدفَعوا الامر اليه ، وجعلوا له
 التولية والعزل وأخذ برقوق ، وبركة يستكثران من الماليك ،
 بالاستخدام والجاه ، وتوفير الاقطاع ، إكثافاً لعصبيتها ؛ فانصرفت
 الوجوه عن سواهما ، وارتاب طشتمر بنفسه ، وأغراه أصحابه
 بالتوثب ؛ ولما كان الاضحى في سنة تسعٍ وسبعين استعجل اصحابه
 على غير رويّة ، وركبوا وبعثوا اليه فأحجم ، وقاتلوا فانهزموا .
 وتقبض على طشتمر ، وحبس بالاسكندرية ، وبعث معه يلْبغا
 الناصري ، وخلت الدولةُ للأُميرين برقوق وبركة من المنازعين ،
 وعمّروا المراتب بأصحابها . ثم كثر شغبُ التُرْكُمَان والعرب
 بنواحي الشّام ، فدفعوا يلبغا الناصري إلى النّيابة بحلب ليستكفوا
 به في تلك النّاحية . ثم تنافس برقوق وبركة في الاستقلال ،
 وأضمر كلُّ واحد منها لصاحبه ، وخشي منه ؛ فقبض برقوق على
 بطانة بركة من عصابته ليخصّ بذلك جنّاحه ؛ فارتاع لذلك بركة ،
 وخرّج بعصابته إلى قبة النصر ليواضع برقوقاً وأصحابه الحرب
 هنالك ، ورَجَا ان تكون الدائرة له . وأقام برقوق بمكانه من
 الاسطبل ، وسرّب أصحابه في جموعهم إلى محاولة أولئك . وأقاموا
 كذلك أياماً يُغادونهم ويأوونهم ثلاثاً ، الى أن عصّت بركة
 واصحابه الحرب ؛ فانفضوا عنه ، وجي ببركة ، وبعث به إلى

الاسكندرية ؛ فحُيس هنالك الى ان قتله ابن عَرَام نائب
الاسكندرية . وارتفع أصحابه الى برقوق شاكين ؛ فأرهم منه
بإطلاق أيديهم في النَّصْفَة ؛ فانتصفوا منه بقتله في ساحة القلعة ، بعد
أن سُيِّر ، وُحْمِلَ على جَمَلٍ عقاباً له ؛ ولم يُقنمهم ذلك ، فأطلق أيديهم
فيما شاءوا منه ، ففعلوا ما فعلوا . وانفرد برقوق — بعد ذلك — بحمل
الدولة ينظر في أعطافها ^(١) بالتهديد ، والتسديد ، والمقاربة ^(٢) ،
والحرص على مكافأة الدَّخْل بِالخَرْج . ونَقَصَ ما أفاض فيه بنو
قَلاوُن من الامعان في الترف ، والسرف في العوائد والتنفقات ،
حتى صار الكيلُ في الخرج بالمكيال الرَّاجِح ، وعجزت الدولة عن
تمشية أحوالها ؛ وراقب ذلك كله برقوق ، ونظر في سدَّ خَلَلِ
الدولة منه ، وإصلاحها من مَفسادِها ، يَعْتَدُّ ذلك ذريعةً للجلوس على
التَّخْت ، وحيازة اسم السلطان من أولاد قَلاوُن ، بما أفسد الترفُ
منهم ، وأحال الدولة بسببهم ، الى أن حصل من ذلك على البُنية ،
ورَضِيَ به أصحابه وعصابته ؛ فجلس على التَّخْت في تاسع عشر
رمضان من سنة أربع وثمانين ، وتلقب بالظاهر . ورتب أهل عصابته
في مراتب الدولة ؛ فقام وقاموا بها أحسن قيام ، وانقلبت الدولة من
آل قلاون الى برقوق الظاهر وبنيه . واستمر الحال على ذلك ،

(١) الأعطاف : الجواب .

(٢) المقاربة : ترك الغلو في الأمور ، وقصد السداد فيها .

وَنافَسَهُ الْيَلْبُغَاوِيَةُ - رَفَقَاؤُهُ فِي وِلَايَتِهِ يَلْبُغَا - فِيمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ ،
 وَخُصُوصًا يَلْبُغَا نَائِبَ حَلَبَ ، فَاعْتَزَمَ عَلَى الْإِنْتِقَاضِ . وَشَعَرَ بِهِ
 الظَّاهِرُ فَبِعَثَ بِاسْتِدْعَائِهِ ؛ فِجَاءَ وَحَبْسِهِ مُدَّةً ، ثُمَّ رَجَعَهُ إِلَى نِيَابَةِ
 حَلَبَ ، وَقَدْ وَغَرَ صَدْرُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ . وَارْتَابَ بِهِ الظَّاهِرُ ؛
 فَبِعَثَ سَنَةَ تِسْعِينَ دَوَادِرَهُ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَعِينُ فِي ذَلِكَ بِالْحَاجِبِ .
 وَانْتَقَضَ ، وَاسْتَدْعَى نَائِبَ مَلَطِيَّةَ ^(١) ، وَهُوَ مَنْطَاشُ مِنْ أَمْرَاءِ
 الْيَلْبُغَاوِيَةِ ، وَكَانَ قَدْ انْتَقَضَ قَبْلَهُ ، وَدَعَا نَوَابَ الشَّامِ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى
 مِصْرَ إِبْلَاءً عَلَى الظَّاهِرِ ؛ فَأَجَابُوهُ ، وَسَارُوا فِي نُجْلَتِهِ ، وَتَحْتَ لَوَائِهِ ؛
 وَبَلَغَ الْخَبْرَ إِلَى الظَّاهِرِ بَرْقُوقَ ؛ فَأَخْرَجَ عَسَاكِرَهُ مَعَ أَمْرَاءِ الْيَلْبُغَاوِيَةِ
 مِنْ أَصْحَابِهِ : وَهُمْ الدَّوَادِرُ الْأَكْبَرُ يُونُسَ ^(٢) ، وَجِهَرَ كَسَّ
 الْخَلِيلِي أَمِيرَ الْإِسْطَبِلِ ، وَالْأَتَابِكِي أَيْتَمَشَ ، وَأَيَّدَكَارَ حَاجِبَ الْحِجَابِ ^(٣)
 وَأَحْمَدَ بْنَ يَلْبُغَا اسْتَاذَهُمْ ^(٤) . وَخَرَجَ النَّاصِرِيُّ مِنْ حَلَبَ فِي عَسَاكِرِهِ ،

(١) بفتح الميم واللام ، وسكون الطاء ، ثم ياء مفتوحة ؛ والعامية تكسر الطاء ، وتشد الياء .
 تقع في الشمال الغربي لديار بكر من الجمهورية التركية . ياقوت ٨ / ١٥٠ - ١٥١ ، تاج العروس
 (ملط) .

(٢) يونس بن عبد الله الأمير سيف الدين الدوادار الأكبر للملك الظاهر ، ويعرف
 بالنوروري (نسبة إلى معتقه الأمير جرجي النوروري) . كان من أعظم دولة الظاهر برقوق ،
 حارب منطاش ، والناصرى ، وعاد في جيش منهزم إلى القاهرة ، وفي طريقه قتل سنة ٧٩١ عن
 نيف وستين سنة . خطط المقرئ ٢ / ٤٢٦ بولاق .

(٣) أيديكار بن عبد الله العمري سيف الدين ، كان أحد أعيان الملك الظاهر ، وولاه حجابة
 الحجاب . ثم انحاز إلى حزب منطاش ، ولما عاد برقوق إلى الملك قبض عليه في سنة ٧٩٤ ، وقتله .
 (٤) الأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا العمري الخاصكي ، كان برقوق مملوكاً لوالده ، ولذلك
 عفا عنه حين انحاز إلى الناصري ومنطاش . ولما مات الظاهر ، ثار أيتمش وآخرون بانقسام ؛ فانضم
 إليهم أحمد بن يلبغا هذا ، وحاربهم فرج بن الظاهر ؛ فانصر عليهم ، وقبض على أحمد بن يلبغا ،

واستنفر العرب والتركمان وامراء الشام؛ ولما تراءى الجمعان بناحية دمشق، تزع كثير من عسكر السلطان اليهم، وصدقوا الحملة على من بقي فانفضوا. ونجا ايتمش الى قلعة دمشق؛ فدخلها، وقتل جهر كس. ويونس، ودخل الناصري دمشق؛ ثم أجمع المسير الى مصر، وعميت أنباؤهم حتى أطلوا على مصر.

وفي خلال ذلك أطلق السلطان الخليفة من مخبئه كان بعض الغواة أنمى عنه، أنه داخله شيطان من شياطين الجند، يعرف بشرط^(١) في قتل السلطان يوم ركوبه الى الميدان قبل ملكه بسنين، فلما صح الخبر أمر بقتله، وحبس الخليفة سبعا الى تلك السنة، فأطلقه عند هذا الواقع؛ ولما وصل الى قيطا اجتمعت العساكر، ووقف السلطان أمام القلعة يومه حتى غشيه الليل، ثم دخل الى بيته وخرج متنكراً، وتسرب في غيابات المدينة، وباكر الناصري وأصحابه القلعة، وأمير حاج بن الأشرف؛ فأعادوه الى التخت ولقبوه المنصور. وبعثوا عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية، وكان فيهم الطنبغا الجوباني الذي كان أمير مجلس^(٢)، وقبض السلطان الظاهر عليه،

(١) قرط بن عمر من التركمان المستخدمين في الدولة، وكان له اقدم وشجاعة وصل بها الى مرادفة الامراء في مذاهبهم. قتل سنة ٧٨٥.

(٢) معناه صاحب الشورى في الدولة، وهو ثاني الأتابك، وتلور تبتته. العبره صبح الاعشى

وحبسه أياماً ، ثم أطلقه وبعثه نائباً على دمشق ، ثم ارتفعت عنه الأقاليم بأنه يروم الانتقاض ، ودأخل الناصري نائب حلب في ذلك ، وأكد ذلك عند السلطان ما كان بينه وبين الناصري من المصافاة والمخالصة ، فبعث عنه . ولما جاء حبسه بالاسكندرية ؛ فلما ملك الناصري مصر ، وأجلس أمير حاج بن الأشرف^(١) على التخت ، بعث عنه ليستعين به على أمره ؛ وارتابوا الغيبة الظاهر ، وبالغوا في البحث عنه ، فاستدعى الجوباني واستناب له ، واستحلفه على الأمان ؛ فحلف له ، وجاء به الي القلعة بعد أن ساور صاحبه الناصري في المضي اليه وتأمينه . وحبسوه في بعض قصور الملك ، وتشاوروا في أمره ؛ فأشار امراء السلبغاوية كلهم بقتله ، وبالغ في ذلك منطاش ، ووصل نعيم أمير بني مهنا^(٢) بالشام للصحابة بينه وبين الناصري ، فحضهم على قتله ، ومنع الجوباني من ذلك وفاءً بيمينه ، ففعلت صدورهم منه . واعتزموا على بعثه الي الكرك ، ودافعوا منطاشاً بأنهم يبعثونه الي الاسكندرية ، فيعترضه عند البحر بما شاء من رأيه . ووثق بذلك ،

(١) الملك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، يلقب بالنصور (غير لقبه من الصالح الي المنصور) ، وخلع نفسه يوم أن عاد برقوق الي الملك .

(٢) نعيم بن محمد بن حيار بن مهنا بن مانع ، لبته القدم الراسخة في الإمارة . وفي ظفر برقوق به ، ومنطاش ، يقول الشيخ زين الدين بن ظاهر :

الملك الظاهر في عزه أذل من ضل ومن طاشنا
ورد في قبضته طائماً نعيماً العاصي ومنطاشنا

فقد له عند المرساة ، وخالفوا به الطريق الى الكرك ، ووثوا عليها
 نائباً وأوصوه به ؛ فأخفق مَسْعَى منطاش ، ودبر في اغتيال الدولة ،
 وتمارض في بيته . وجاءه الجوباني عائداً فقبض عليه ، وحبسه
 بالأسكندرية ، وركب مُنتَهِضاً ، ووقف عند مدرسة الناصر حسن
 يحاصر الناصري بالقلعة . واستحاش هو بأمراء اليلبغاوية ؛ فداهنوا
 في إجابته ، ووقفوا بالرُّميلة امام القلعة . ولم يزل ذلك بينهم أياماً
 حتى انفضَّ جمع النَّاصري ، وخرج هارباً ؛ فاعترضه أصحاب الطريق
 بفارسكو ، وردَّوه ؛ فَحَبَسَهُ منطاش بالأسكندرية مع صاحبه ،
 واستقلَّ بأمر الملك . وبعث الى الكرك بقتل الظاهر ؛ فامتنع النَّائب ،
 واعتذر بوقوفه على خط السلطان والخليفة والقضاة . وبثَّ الظاهر
 عطاءه في عامة اهل الكرك ؛ فانتدبت طائفة منهم لقتل البريدي
 الذي جاء في ذلك ؛ فقتلوه ؛ وأخرجوا الظاهر من محبسه فأصحروا .
 واستألف أفارين من العرب ، واتصل به بعض مماليكه ، وسار الى
 الشام . واعترضه ابن باكيش ^(١) نائب غزّة ^(٢) ، فأوقع به الظاهر ،
 وسار الى دمشق ، وأخرج منطاش العساكر مع سلطانه امير حاج ،
 وسار على التعبئة ليانع الظاهر عن دمشق . وسبَّقه الظاهر فثمنه

(١) الحسن بن باكيش الامير بدر الدين التركماني ، نائب غزّة من قبل منطاش . قتله الظاهر
 بالقاهرة سنة ٧٩٣ ، وكان مشهوراً بالشجاعة .

(٢) مدينة بفسطين قرب الساحل ، بها ولد الإمام الشافعي ، ويروى له فيها شعر . ياقوت

جنتمر نائب دمشق^(١)؛ فواقعه، وأقام محاصرًا له. ووصل إليه كمشبغا^(٢) الحموي نائب حلب، وكان قد أظهر دعوته في عمله، وتجهز للقائه بعسكره؛ فلقيه وأزال عله، فأقام له أبهة الملك. وبيناهم في الحصار إذ جاء الخبر بوصول منطاش بسلاطه وعساكره لقتالهم، فلقبهم الظاهر بشقحب^(٣)، فلما تراءى الجمعان، حمل الظاهر على السلطان امير حاج وعساكره ففضهم، وانهزم كمشبغا الى حلب. وسار منطاش في اتباعه؛ فهجم الظاهر على تعبئة امير حاج؛ ففضها، واحتاز السلطان، والخليفة والقضاة، ووكل بهم. واختلط الفريقان، وصاروا في عمياء من امرهم، وفر منطاش الى دمشق. واضطرب الظاهر أخببته^(٤)، ونزل على دمشق محاصرًا لها. وخرج اليه منطاش من الغد فهزمه، وجمع القضاة والخليفة؛ فشهدوا على امير حاج بالخلع، وعلى الخليفة بإعادة الظاهر الى ملكه. ورحل الى مصر فلقبه بالطريق خبير القلعة بمصر، وتغلب مماليكه عليها؛ وذلك أن القلعة لما خلت من السلطان ومنطاش والحامية، وكان مماليك السلطان محبوسين هنالك في مطبق أعد لهم، فتناجوا في

(١) الامير جنتمر التركياني .

(٢) كمشبغا بن عبد الله الحموي اليلبغاوي الامير سيف الدين . توفي سنة ٨٠١ .

(٣) شقحب (كصفير) : موضع قرب دمشق ، نسب اليه جماعة من المحدثين . (تاج العروس) .

(٤) كذا في الاصول ، وهي مكررة في أماكن متعددة من تاريخ العبر . وأظنها محرقة أثناء

النسخ عن كلمة (ضرب) . فتصبح العبارة : « وضرب الظاهر أخببته » .

التَّسَوُّرُ منه الى ظاهره ، والتوثُّبُ على القلعة والملك ، فخرجوا ،
وهرب دوادار منطاش الذي كان هنالك بمن كان معه من الحاشية .
وملك مماليك الظاهر القلعة ، ورأسهم مملوكه بَطَّأ^(١) ، وساس أمرهم ،
وانتظر خبر سلطانه ، فلما وصل الخبر بذلك الى الظاهر ، أَعَدَّ السَّيْرَ
الى مصر . وتلقاه الناس فرحين مسرورين بعوده وجبره . ودخل
مُتَّصِفَ صَفر من سنة إحدى وتسعين ، ووَلَّى بَطَّأ دَوَاداراً ، وبعث
عن الأمراء المحبوسين بالأسكندرية ، وأعتبهم ، وأعادهم الى مراتبهم .
وبعث الجوباني الى دمشق ، والناصري الى حلب كما كانا ، وعادت
الدولة الى ما كانت عليه . ووَلَّى سَوْدُون على نيابته ، وكان ناظراً
بالخانقاه التي كنت فيها ، وكان يَنْقِمُ عليَّ أحوالاً من مُعاصاته فيما
يريد من الأحكام في القضاء أزمان كنت عليه ، ومن تصرفات
دَوَاداره بما لئانقاه ، وكان يستنيه عليها ؛ فوَغَرَ صدره من ذلك ؛

(١) الأمير بطا الطولونجي ، خلع عليه الظاهر برقوق في سنة ٧٩٢ دوادارا ، ثم نائب
دمشق ، وليها من قبل استاذة في ذم ، القعدة سنة ٧٩٣ الى ان توفي بها سنة ٧٩٤ . وانظر تفصيل
ثورة بطا ومن كان معه من المسجونين ، في « العبر » ص ٥٠ .

وكان الظاهر يَنْقِم علينا مَعشَرَ الفقهاء فتاوى^(١) استدعاها مِنَّا مَنْطاش ، وأكرهنا على كتابها ؛ فكتبناها ، وورينا فيها بما قدرنا عليه . ولم يقبل السلطان ذلك ، وعتب عليه ، وخصوصاً علي ؛ فصادف سودون منه إجابةً في إخراج الخانقاه عَنِّي ، فوَلَّى فيها غيري وعزَلني عنها . وكتبت الى الجوباني بأبيات أعتذر عن ذلك ليطالعهُ بها ؛ فتغافل عنها ، وأعرض عني مُدَّة ، ثم عاد الى ما أعرف من رضاه وإحسانه ، ونصُّ الأبيات :

سيدي والظنونُ فيك جميلةٌ وأياديكُ بالأُماني كَفِيْلَةٌ

(١) في السلوك : « في ٢٥ قعدة ، احضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر ، وزيد بها : « واستعان على قتل المسلمين بالكفار ، وحضر الخليفة التوكل ، وقضاة القضاة : بدر الدين محمد بن ابي البقاء الشافعي . وابن خلدون ، وسراج الدين عمر بن الملحن الشافعي ، وعدة ذون هؤلاء ، في القصر الأبلق ، بحضرة الملك المنصور ، ومنطاش ، وقدمت اليهم الفتوى ، فكتبوا عليها باجمعهم ، وانصرفوا » .

وفي تاريخ ابن الفرات :

« وفي يوم الاثنين اجتمعت الأمراء بالقصر الابلق بقلعة الجبل ، بحضرة السلطان الملك المنصور وحاجي ، والأمير منطاش ، والخليفة محمد ، والقضاة الأربعة ، والشيخ سراج الدين البلقيني ، وولده القاضي جلال الدين عبدالرحمن قاضي العسكر ، وقاضي القضاة بدر الدين بن ابي البقاء الشافعي ، وقضاة العسكر ، ومفتون (كذا) دار العدل ، وكتبت فتاوى تتضمن : هل يجوز قتال الملك الظاهر برفوق ام لا ؟ وذكروا في الفتاوى اشياء تخالف الشرع الشريف ، ومما تضمنته الفتاوى : انه يستين على قتال المسلمين بالناصرى ، فسألوم (كذا) الجماعة عن ذلك ، فقيل لهم ان الملك الظاهر معه جماعة من نصارى الشوبك نحو ٦٠٠ نفس يقاتل بهم في عسكره ، ولم يكن الأمر كذلك ، وانما ارادوا التنيس على العلماء المفتين ، فندد ذلك وضموا (كذا) المذكورون خطوطهم على الفتاوى المذكورة بجواز قتاله ، وانفصل المجلس على ذلك ونودي في بكرة هذا النهار في التاهرة لأجناد الحلقة : أن لا يتأخر احد منهم عن العرض ، ومن لم يحضر قطع خبزه » .

لا تحل عن جميل رأيك إني مالي اليوم غير رأيك حيلة
واصطنعتني كما اصطنعت بإسدا يد من شفاعة أو وسيلة
لا تضعني فلست منك مضيعاً ذمة الحب، والأأيادي الجميلة
وأجرني فالخطب عض بنائيه وأجرى الى حمائي خيوله
ولو أنني دعا بنصري داع كنت لي خير معشر وفصيلة
أنه أمري الى الذي جعل الله أمور الدنيا له مكفولة
وأراه في ملكه الآية الكبرى فولاه ثم كان مديله
أشهدته عناية الله في التمحيص أن كان عونته ومنيته
العزیزُ السلطان والملكُ الظا هرُ فخرُ الدنيا وعزُّ القبيلة
ومجیرُ الاسلام من كل خطب كاد ززالُ بأسه أن يُزيله
ومُدیلُ العدو بالطعنة النجلا . تُقرِّي ماذيه ونصوله (١)
وشكور لأنعم الله يُفني في رضاه غدوه وأصيله
وتلطف في وصف حالي وشكوى خلتي (٢) يا صفيه وخليه
قل له والمقالُ يكرُم من مثلك في تحفلُ العُلا أن يقوله
يا خوند الملوك يا معدل الد هر إذا عدل (٣) الزمان فصوله
لا تقصر في جبر كسرى فما زلت أرجيك للأأيادي الطويلة

(١) الطعنة النجلاء : الواسعة العريضة . وتفري : تشق . والملاذي (بالعجمة) : كل سلاح من الحديد . والنصول جمع فصل ؛ وهو حديدة السهم .
(٢) الحلة (بالفتح) : الحاجة ، والفقر .
(٣) عدل الحكم : اقامته ، والميزان سواء .

أنا جارٌ لكم منعم حماء ونهجتم الى المعالي سبيله
وغريب أنستموه على الوحشة والحزن بالرضى والسهولة
وجمعتم من شمله فقضى الله فراقاً وما قضى مأموله
غاله الدهرُ في البنين وفي الأهـ ل وما كان ظنه أن يقوله ^(١)
ورمته النوى ^(٢) فقيداً قد اجتاحت عليه فروعـه وأصوله
فجذبتـم بضبعه ^(٣) وأنلتـم كل ما شاءت العلاء أن تُنبله
ورفعتـم من قدره قبل أن يشكو إليكم عيائه وخموله
وفرضتم له حقيقةً ودٍ حاش لله أن تُرى مُستحيلة
همةً ما عرفتها لسواكم وأنا من خبرت دهرى وجيله
والعدا نمقوا أحاديث إفكٍ كلها في طرائق معلولة
روّجوا في شأني غرائب زور نصبوها لأمرهم أجولة
ورموا بالذي أرادوا من السبهتان ظناً بأنها مقبولة
زعموا أنني أتيت من الأقوا ل ما لا يُظنُّ بي أن أقوله
كيف لي أغمطُ الحقوق وأني شكرُ نعماكم عليّ الجزيلة ؟
كيف لي أنكرُ الأيادي التي تع رفها الشمسُ والظلالُ الظليلة ؟
إن يكن ذا فقد برئت من الله تعالى وُخنتُ جهرأ رسوله

(١) يشير الى غرق اهله في المركب الذي اقلهم من المغرب ، وقد تقدم له ذكر هذا .

(٢) النوى : الوجه الذي ينويه المسافر من قرب او بعد . وهي مؤنثه لا غير .

(٣) الضبع : العضد .

طوقونا أمر الكتاب فكانت لقداح الظنون فينا مُجيلة^(١)
لا وربّ الكتاب أنزله الله على قلب من وعى تنزيله
ما رضينا بذاك فعلاً ولا جنّاه طوعاً ولا اقتفينا دليلاً
إنما سامنا الكتاب ظلوم لا يُرجى دفاعه بالحيلة
سَخَطُ ناجزٌ وحلمٌ بطني وسلاح^(٢) للوخز فينا صقيلة
ودعوني ولست من منصب الحكم ولا ساجباً لديهم ذبوله
غير أنّي وشى بذكري واش يتقسى أوتاره وذُحوله^(٣)
فكتبنا معولين على حلمك تحموا الاصار عنا الشقيلة
ما أشرنا به لزيد ولا عمرو ولا عيّنوا لنا تفصيله
إنما يذكرون عنّ وفيمن مُبهماتٍ أحكامها منقولة
ويظنون أنّ ذلك على ما اضمروا من شناعة او رذيلة
وهو ظنٌّ عن الصواب بعيدٌ وظلامٌ لم يُحسِنوا تأويله
وجناب السطان نزّهه الله عن العاب^(٤) بالهدى والفضيلة
وأجلّ الملوك قدراً صفوحٌ يرتجي ذنب دهره ليقلبه
فاقبلوا العذر إنّنا اليوم نرجو بجماعة السطان منكم قبوله

(١) يشير الى الفتوى السالفة الذكر عن القريري وابن الفرات .

(٢) السلاح : آلة الحرب ، او حديدته ، ويؤنث .

(٣) اوتار جمع وتر ، بمعنى الدحل . والدحل : العداوة ، والجمع ذحول .

(٤) العاب : العيب .

واعينوا على الزمان غريباً
 جاركم ضيفكم نزيل حاكم
 جددوا عنده رسوم رضاكم
 داركوه برحمة فلقد أم
 وانحلوه جبراً فليس يرجي
 يا حميد الآثار في الدهر يا
 كيف بالخانقاه ينقل عني
 بل تقلدتها شعوراً بمرسو
 ولقد كنت أملاً لسواها
 وتوثقت للزمان عليها
 أبلغن قصتي فثلك من ية
 واغتموا من مشوبتي ودعائي
 يشتكي جذب عيشه ومحو له
 لا يضيع الكريم يوماً نزيله
 فرسوم الكرام غير محيلة
 ست عقود اصطباره محلولة
 غير إحسانكم لهدي التحينة
 الطنبغايا روض الملا ومقبله
 لا لذنب او جنة منقولة
 م شريف وخلة مسدولة
 وسواها بوعد ان ينيله
 بعقود ما خلتها محلولة
 صد فعل الحسنى بمن ينتمي له
 قرينة عند ربكم مقبولة

وفي التعريض بسفره الى الشام :

واصحب العز ظافراً بالأمانى
 واعتل في سعادة الملك الظأ
 وتعيد الدنيا لأحسن شمل
 واطلب النصر من سعادته يصحبك دأباً في الطعن والجليولة
 واترك العصابة العدا مفلولة
 هر أن تمحو الأذى وتزيله
 حين تضحى بسعده مشمولة
 واطلب النصر من سعادته يصحبك دأباً في الطعن والجليولة

وَارْتَقِبَ مَا يُحِلُّهُ بِالْأَعَادِي فِي جُمَادَى أَوْزَدَ عَلَيْهِ قَلِيلَهُ
وَأَخَذُوهُ فَأَلَّا بِحُسْنِ قَبُولٍ صَدَقَ اللَّهُ فِي الزَّمَانِ مَقُولَهُ
فَلَقَدْ كَانَ يَحْسُنُ الْفَالُ عِنْدَ الْمُصْطَفَى دَائِمًا وَيَرْضَى جَمِيلَهُ

السعاية في المهادنة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر

كثيراً ما يتعاهد الملوك المتجاورون بعضهم بعضاً بالاتحاف بَطْرَفِ
أوطانهم ، للمواصللة والاعانة مَتَى دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ . وكان صلاح الدين
ابنُ أَيُوبَ هَادِي يَعْقُوبَ الْمَنْصُورَ مَلِكَ الْمَغْرِبِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ ،
وَاسْتَجَاشَ بِهِ بِأَسْطُولِهِ فِي قَطْعِ مَدَدِ الْفَرَنْجِ عَنْ سِوَا حِلِّ الشَّامِ حِينَ
كَانَ مَعْنِيًّا بِإِرْجَاعِهِمْ عَنْهَا ، وَبَعَثَ فِي ذَلِكَ رَسُولَهُ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ
مُنْقِذٍ ^(١) مِنْ أَمْرَاءِ شَيْزَرَ ^(٢) ، فَأَكْرَمَ الْمَنْصُورُ رَسُولَهُ ، وَقَعَدَ عَنْ
إِجَابَتِهِ فِي الْأَسْطُولِ لِمَا كَانَ فِي الْكِتَابِ إِلَيْهِ ^(٣) مِنَ الْعَدُولِ عَنْ

(١) هكذا سماه ابن خلدون هنا ، وفي «المقدمة» ؛ وفي «وفيات ابن خلكان» (٢/٤٣٣) ،
والروضتين لأبي شامة ١/١٧٣ ، والاستقصاء ١/١٧٤ ، ان اسمه عبدالرحمن .
وهو شمس الدين ابو المرث (وكناه في الروضتين ابا الحزم) ، عبدالرحمن بن نجم الدولة ابي
عبدالله محمد بن مرشد ، المتوفى سنة ٦٠٠ بالقاهرة ، والمولود بشيزر سنة ٥٢٣ .
(٢) قرية قرب المعرة بيننا وبين حماة ، فتحت سنة ١٧ هجرية ، ومنها الامراء من بني
منقذ ، وأول من ملكها منهم من يد الروم علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، وذلك في
سنة ٤٧٤ . ياقوت ٥/٢٣٤ ، وفيات ١/٤٦٤ ، تاريخ ابي الفداء ٢/٣٥٢ (سنة ٥٠٢) .
وانظر اخبار بني منقذ في تاريخ ابي الفداء ايضاً ٣/٣٢ وما بعدها .
(٣) جاء في الروضتين (٢/١٧٠-١٧٥) نص الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل الى المنصور
الموحدي ، ونص رسالة اخرى مضمونها تكليف الأمير ابن منقذ هذا بالسفارة الى الموحدين .

تخطيطه^(١) بأمير المؤمنين؛ فوجدَهَا غُصَّةً في صدره مَنَعَتْهُ من إجابته الى سؤاله؛ وكان المانع لصالح الدين من ذلك كاتبه الفاضل عبد الرحيم اليبساني^(٢) بما كان يُشاوره في أموره، وكان مُقيماً لدعوة الخليفة العباسي بمصر؛ فرأى الفاضل أن الخلاف لا تنعقد لاثنين في الملة كما هو المشهور، وإن اعتمد أهل المغرب سوى ذلك، لما يرون أن الخلاف ليست لقباً فقط، وإنما هي لصاحب العصبة القائم عليها بالسند والحماية؛ والخلاف في ذلك معروف بين أهل الحق. فلما انقضت دولة الموحدين، وجاءت دولة بني مرين من بعدهم، وصار كبرائهم ورؤساؤهم يتعاهدون قضا، فرضهم لهذه البلاد الشرقية، فيتعاهدهم ملوكها بالاحسان اليهم، وتسهيل طريقهم؛ فحسُن في مكارم الأخلاق انتحال البرِّ والمواصلة، بالاتحاف والاستطراف والمكافأة في ذلك بالهمم الملوكية؛ فسُنَّت لذلك طرائق وأخبار مشهورة، من حثها أن تذكر؛ وكان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثالث ملوك بني مرين، أهدى لصاحب مصر عام سبعمائة^(٣)، وهو يومئذ الناصر بن محمد بن قلاون، هدية ضخمة، أصحبها كريمة من كرائم داره، احتفل فيها ما شاء من أنواع

(١) تخطيطه .

(٢) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين... المسقلاني، ثم المصري المعروف بالقاضي الفاضل عير الدين (٥٢٩-٥٩٦). وفيات ٣٥٧/١ وما بعدها .

(٣) انظر العبرم ٥، والاستقصا ٤٠/٢ - ٤١، حيث تجد تفصيل الحديث عن هذه الهدية .

الطَّرَف ، وأصناف الذَّخائر ، وخصوصاً الخيل والبغال .

أخبرني الفقيه ابو إسحق الحَسَنَوي ، كاتب الموحِّدين بَتُونِس ، أنه عاين تلك الهدية عند مُرورها بَتُونِس ، قال : وعددت من صنف البغال الفارهة فيها أربعمائة ، وسكت عما سوى ذلك . وكان مع هذه الهدية من فقهاء المغرب ، ابو الحَسَنَ التَّنَسيّ كبير أهل القُتيا بتلِمسَان . ثم كافأ النَّاصر عن هذه الهدية بأعلى منها وأحفل^(١) مع أميرين من أمراء دولته ، أدركا يوسف بن يعقوب وهو يُحاصر تلِمسَان ، فبعثهما الي مرّا كُش للنِّزاهة^(٢) في محاسنها ، وأدركه الموت في مَغيبها ، ورجعا من مرّا كُش ؛ فجهَّزها حافده ابو ثابت المالك بعده ، وشيَّعها الي مصر ؛ فاعتزَّتها قبائل حُصين ونهجوها^(٣) ، ودخلا بِحِاية ، ثم مَضيا الي تُونِس ، ووصلا من هنالك الي مصر .

ولما ملك السلطان ابو الحسن تلِمسَان ، اقتترحت عليه جاريةُ أبيه

(١) جاء في الاستقصا : ٤١ / ٢ : « ... وأما الملك الناصر ، فانه كفاً السلطان يوسف على هديته ، بأن جمع من طرف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله ، من الثياب والحيوانات ، ونحو ذلك ، مثل الفيل والزرافة ونحوهما ، وأوفد به مع عطاء دولته سنة ٧٠٥ » .
(٢) الشَّتمُال النَّزاهة ، والنزاهة بهذا المعنى مختف فيه بين الغويين . وانظر تاج العروس « نزه » ، - بيت نجد اتوا لهم .

(٣) في الاستقصا : ٤٢ / ٢ : « ... ولما انتهوا الي بلاد بني حسن في سنة ٧٠٨ ، اعتزتهم الأعراب بالقفر ، فانتهبوهم ، وخلصوا الي مصر بجريعة الدقن ، فلم يعاودوا بعدها سفراً ، ولا لغتوا اليه بوجهاً ، وطالما اوفد عليهم ملوك المغرب بعدها من رجال دولتهم من يؤبه له ، ويهادونهم ويكافئون ، ولا يزيدون في ذلك كله على الخطاب شيئاً » .

أبي سعيد ، وكانت لها عليه تربية ؛ فأرادت الحج في أيامه وبعنايته ؛ فأذن لها في ذلك ، وبعث في خدمتها وليه عريف بن يحيى من أمراء سُويد ، وجماعة من امرائه وبطانته ، واستصحبوا هدية منه للملك الناصر احتفل فيها ما شاء . وانتقى من الخيل العتاق ، والمطايا الفراء وقماش الحرير والكتان ، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة ، والأواني المتخذة من النحاس والفضة والخضار المخصوص كلُّ مصرٍ من المغرب بأصناف من صنائعها ، متشابهة الأشكال والأنواع ، حتى لقد زعموا انه كان فيها مَكيلة من اللالي ، والفصوص ، وكان ذلك وقر خمس مائة بغير ، وكانت عتاق الخيل فيها خمس مائة فرس ، بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر ، واللجم المذهبة ، والسيوف المحلاة بالذهب والآلي . كانت قيمة المركب الأول منها عشرة آلاف دينار ، وتدرجت على الولاة إلى آخر الخمس مائة ؛ فكانت قيمته مائة دينار . تحدث الناس بهذه الهدية دهرًا ، وعرضت بين يدي الملك الناصر ، فأشار إلى خاسكته بانتهاها فنُهبت بين يديه ، وبُولغ في كرامة أولئك الضيوف ، في إنزالهم وقرآهم وإزوادهم إلى الحجاز وإلى بلادهم ؛ وبقي شأن الهدية حديثاً يتجاره الناس في مجالسهم وأسمارهم ؛ وكان ذلك عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة . ولما فصل^(١) أرسال ملك المغرب ،

(١) فصل من البلد : خرج عنه . وقد استعمل ابن خلدون « ارسال » جمع رسول في اماكن متفرقة من كتاب العبر .

وقد قَضَوْا فَرَضَهُمْ ، بَعَثَ الْمَلِكُ النَّاصِرَ مَعَهُمْ هَدِيَّةً كِفَاءً هَدِيَّتِهِمْ ،
وكانت أصنافها حمل القماش من ثياب الحرير والقماش المصنوعة
بالأسكندرية ، تُحْمَلُ كُلُّ عامٍ إلى دار السلطان ، قيمة ذلك الحمل
خمسون ألف دينار ، وخيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام
عل مثال القصور ، تشتمل على بيوت للسراقد ، وأواوين للجلوس
والأبيخ ، وأبراج للاشراف على الطرقات ، وأبراج أحدها لجلوس
السلطان للعرض ؛ وفيها تمثال مسجد بحجراه ، وعمده ، ومأذنته ؛
حواطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الحياطة مفصلة
على الأشكال التي يقترحها المتخذون لها . وكان فيها خيمة أخرى
مستديرة الشكل ، عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رجة الفناء ،
تظل خمس مائة فارس أو أكثر ، وعشرة من عتاق الخيل بالمراب
الذهبية الصقيلة ، ولجمها كذلك ؛ ومررت هذه الهدية بتونس ، ومعها
الخدّام القائمون بنصب الأبنية ، فعرضوها على السلطان بتونس
وعاينت يومئذ أصناف تلك الهدية ، وتوجّوا بها إلى سلطانهم ،
وتبقي التعجب منها دهرأعلى الألسنة . وكان ملوك تونس من
الموحدين ، يتعاهدون ملوك مصر بالهدية في الأوقات .

ولما وصلت إلى مصر ، واتصلت بالملك الظاهر ، وغمرني بنعمه
وكرامته ، كاتب السلطان بتونس يومئذ ، وأخبرته بما عند الملك

الظاهر من التثؤف الى جيات الخيل، وخصوصاً من المغرب، لما فيها [من
 تحمل] الشدة والصبر على المتاعب، وكان يقول لي مثل ذلك، وأن خيل
 مصر قصرت بها الراحة والتنعم، عن الصبر على التعب؛ فحَضَضْتُ
 السلطان بتونس على إتحاف الملك الظاهر بما ينتقيه من الجيات الرائعة،
 فبعث له خمسة انتقاها من مراكبه، وحملها في البحر في السفين الواصل
 بأهلي وولدي؛ ففرقت بمرسی الأسكندرية، ونفقت تلك الجيات،
 مع ما ضاع في ذلك السفين، وكل شيء بقدر.

ثم وصل إلينا عام ثلاثة وتسعين شيخ الأعراب: المعقل
 بالمغرب، يوسف بن علي بن غانم، كبير أولاد حسين ناجياً من سخط
 السلطان أبي العباس احمد بن أبي سالم، من ملوك بني مرين بفاس،
 يروم قضاء فرضه، ويتوسل بذلك لرَضَى سُلْطَانَهُ؛ فوجد السلطان
 غائباً بالشام في فتنة منطاش؛ فعرضته لصاحب المحمل. فلما عاد من
 قضاء فرضه، وكان السلطان قد عاد من الشام، فوصلته به، وحضر
 بين يديه، وشكائبه؛ فكتب الظاهر فيه شفاعاً لسلطان وطنه
 بالمغرب، وحمله مع ذلك هدية اليه من قماش وطيب وقسي،
 وأوصاه بانتقاء الخيل له من قطر المغرب، وانصرف؛ فقيل لسلطانه
 فيه شفاعاً الظاهر، وأعادته الى منزلته. وانتقى الخيول الرائعة
 لمهاده الملك الظاهر، وأحسن في انتقاء أصناف الهدية؛ فعاجلته المنية

دُونِ ذَلِكَ ، وَوَلِي ابْنُهُ أَبُو فَارِسٍ ، وَبَقِيَ أَيَّامًا ثُمَّ هَلَكَ ، وَوَلِي أَخُوهُ
أَبُو عَامِرٍ ، فَاسْتَكْمَلَ الْهَدِيَّةَ ، وَبَعَثَهَا صُحْبَةَ يَوْسُفَ بْنِ عَلِيٍّ الْوَارِدِ
الْأَوَّلِ .

وَكَانَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ ، لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ وَصُولُ الْخَيْلِ مِنَ
الْمَغْرِبِ ، أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مِنْ أَمْرَائِهِ مَنْ يَنْتَقِي لَهُ مَا يَشَاءُ بِالشِّرَاءِ ،
فَعَيَّنَ لِذَلِكَ مَمْلُوكًا مِنْ مَمَالِكِهِ مَنْسُوبًا إِلَى تَرْبِيَةِ الْخَلِيلِيِّ ، اسْمُهُ
قُطْلُوبَغَا^(١) ، وَبَعَثَ عَنِّي ، فَحَضَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَشَاوَرَنِي فِي ذَلِكَ
فَوَافَقْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ يَكُونُ طَرِيقُهُ ، فَأَشْرَفْتُ بِالْكِتَابِ فِي ذَلِكَ
إِلَى سُلْطَانِ تُونِسَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ^(٢) ، وَسُلْطَانِ تِلِمَسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ
الْوَادِ ، وَسُلْطَانِ فَاَسَ وَالْمَغْرِبِ مِنْ بَنِي مَرِينٍ ، وَحَمَّلَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ هَدِيَّةً خَفِيفَةً مِنَ الثَّمَانِ وَالطِّيبِ وَالْقِسِيِّ ، وَأَنْصَرَفَ عَامَ تِسْعَةِ
وَتِسْعِينَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَشِيعَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ مَمْلُوكِهِ إِلَى مَأْمَنِهِ ، وَبَالَغَ
فِي إِكْرَامِهِ بِمَا يَتَعَبَّنَ . وَوَصَلَ إِلَى فَاَسَ ، فَوَجَدَ الْهَدِيَّةَ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ ،
وَيَوْسُفَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى الْمَسِيرِ بِهَا عَنْ سُلْطَانِهِ أَبِي عَامِرٍ مِنْ وَلَدِ السُّلْطَانِ
أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُخَاطَبِ أَوْلَا . وَأَظْلَمَهُمْ عِيدُ الْأَضْحَى بِفَاَسَ ، وَخَرَجُوا

(١) هُوَ قُطْلُوبَغَا بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّونِسِيُّ سَنَةَ ٨٢١ . تَوَلَّى نِيَابَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْحِجَابَةِ أَيَّامَ الظَّاهِرِ ،
وَنِيَابَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَيَّامَ الْمُؤَيَّدِ . قَالَ فِي الْمَنْهَلِ : وَأَظْنَهُ مِنْ مَمَالِكِ جَارِكْسِ الْخَلِيلِيِّ أَمِيرِ أَخُورِ ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي خَفْصَةَ الْوَحِيدِي .

متوجهين الى مصر ، وقد أفاض السلطان من إحسانه وعطائه ، على الرسول قُطْدُوْبُغا ومن في جملته بما أقرَّ عيونهم ، وأطلق بالشكر السننهم ، وملاً بالثناء ضائرهم ، ومرثوا بتلنسان ، وبها يومئذ ابو زيان ، ابن السلطان ابي حمو من آل يغمراسن بن زيان ، فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها ، وكان يحوك الشعر ، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته ، ونصها من أولها الى آخرها :

لن الر كائب سيرهن ذميل^(١) والصبرُ - إلا بعدهن - جميلُ
يا أيها الحادي رويدك^(٢) إنها^(٣) ظنن^(٤) يميل القلب حيث تميل
رفقاً بمن حملته فوق ظهورها فالحسن فوق ظهورها محمولُ
لله آية أنجم : شقافة تنجاب عنها للظلام سدولُ
شهبُ بأفاق الصدور طلوعها ولها بأستار الجدول أفولُ
في الهودج المزرور منها عادة ترع^(٥) الدجى يجبينها فيحولُ
فيكأنها قر على غصن على متني كئيب والكئيب مهيلُ
نارت مطايا فثار بي الهوي واعتاد قلبي زفرة وغليلُ
أومت لتوديعي فغالب عبرتي نظر تخالسه العيون كليلُ

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل فوق التزيد .

(٢) رويدك : اسم فعل بمعنى أهل .

(٣) جمع ظئمة ؛ وهي المرأة تكون في الهودج ، والهودج نفسه .

دمع أغيص منه خوف رقيبها طوراً ويفلبي الأسي فسيل
 ويح المحب وشت به عبراته فكأنها قال عليه وقيل
 صان الهوى وجفونه يوم النوى لمصون جوهر دمهين تذييل
 وتهايه أسد الشرى في خيسها^(١) ويروعه ظبي الحمى المكحول
 تأبى النفوس الضيم إلا في الهوى فالحر عبد والعزير ذليل
 يا بانه الوادي ويا أهل الحمى هل ساعة تصغين لي فأقول
 مالي إذا هب النسيم من الحمى أرتاح شوقاً للحمى وأميل
 خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها إن الصبا لصابتي تليل
 ما لي أحلا عن ورود محله وأذاد عنه وورده منهول^(٢)
 والباب ليس بمرتج^(٣) عن مرتج^(٤) والظن في المولى الجميل جميل

∴

من لي بزورة روضة الهادي الذي ما مثله في المرسلين رسول
 هو أحمد ومحمد والمصطفى والمجتبى وله انتهى التفضيل
 ياخير من أهدي الهدى وأجل من أثنى عليه الوحي والتزليل

(١) الخيس : موضع الأسد .

(٢) حلا الإبل عن ورود الماء : منعها ، وذادها .

(٣) باب مرتج : مقلق .

(٤) من الرجاء .

وحي^١ من الرّمن يُلقيه على قلب النبي محمد جبريل
مدحتك آيات الكتاب وبشرت بقدومك التّوراة والانجيل
صلة الصّلاة عليك تحلو في في مهما تكرر ذكرك المغسول
فور نيك المأهول إن بأضدعي قلباً بحبك ربّعه مأهول
هل من سبيل للسرى حتى أرى خير الورى فهو المنى والسؤل
حتام تطلني الليالي وعدّها إن الزمان بوّعه لبخيل
ما عاقني إلاّ عظيم جرأني إن الجرائم حملهنّ ثقل
أنا مفرم فتعطفوا أنا مذنب فتجاوزوا أنا عاثر فأقبلوا
وأنا البعيد فقرّبوا والمستجير فأمنوا والمرتجى فأناوا
يا سائقاً نحو الحجاز حمولة^(١) والقلب بين حمولة^(٢) محمول
لمحمد بلغ سلام سميّه فدّمأمه بمحمد موصول
وسل الاله له اغتفار ذنوبه يُسمع هناك دعاؤك المقبول

•••

وعن المليك أبي سعيد فلتنب فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته يا حبدك المحمل المحمول
سعد المليك أبي سعيد إنه سيف على أعدائه مسلول

(١) الحمولة (بالفتح) : ما يحمل عليه الناس من الدواب .

(٢) المحمول جمع حمل ، وهو ما حمل على ظهر الدابة .

مَلِكٌ يُحْجُجُ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بِهِ فَلَهُمْ بِهِ نَحْوَ الرَّسُولِ وَصُولٌ ^(١)
 مَلِكٌ بِهِ نَامَ الْأَنَامُ وَأُمِنْتُ سُبُلَ الْمَخَافِ ^(٢) فَلَا يَخَافُ سَبِيلُ
 فَأَلَمَكُ ضَخْمٌ وَاجْتَابَ مُؤَمَّلٌ وَالْفُضْلُ جَمٌّ وَالْعَطَاءُ جَزِيلٌ
 وَالصُّنْعُ أَجْمَلٌ وَالْفَخَّارُ مُؤْتَلٌ وَالْمَجْدُ أَكْمَلُ وَالْوَفَاءُ أَصِيلٌ
 يَا مَالِكَ الْبَحْرَيْنِ بُلِغْتَ الْمَنَى قَدْ عَادَ مِصْرُ عَلَى الْعِرَاقِ يَصُولُ
 يَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ حُقِّ لَكَ الْهَنَاءُ فَعَلَيْكَ مِنْ رَوْحِ ^(٣) الْإِلَهِ قَبُولُ
 يَا مُتَحَنِّنِي وَمُفَاتِحِي بَرَسَالَةٍ سَلْسَالَةٍ يُزْهِى بِهَا التَّرْسِيلُ
 أَهْدَيْتَهَا حَسَنَاءَ بِكْرًا مَا لَهَا غَيْرِي، وَإِنْ كَثَرَ الرَّجَالُ، كِفِيلُ
 ضَاءَ الْمِدَادُ مِنَ الْوِدَادِ بَصْحَنِيهَا حَتَّى اضْمَحَلَّ عُبُوسُهُ الْمَجْبُولُ ^(٤)
 جُمِعَتْ وَحَامِلَهَا بِحَضْرَتِنَا كَمَا جُمِعَتْ بُشَيْنَةُ فِي الْهَوَى وَجَمِيلُ ^(٥)
 وَتَأَكَّدَتْ بِهَدِيَّةٍ وَدِيَّةٍ هِيَ لِلْإِخَاءِ الْمُرْتَضَى تَكْمِيلُ
 أَطْلَعْتَ فِيهَا لِلْقِسِيِّ أَهْلَةَ يَرْتَدُّ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كَلِيلُ
 وَحَسَامَ نَصْرٍ زَاهِيًا بِنُضَارِهِ رَاقَ الْعَيُونَ فِرْنَدُهُ الْمَعْسُولُ
 مَاضِي الشَّبَابِ ^(٦) لِمَصَابِهِ تَعْنُو الطُّبَا فِيهِ تَصُولُ عَلَى الْعِدَا وَتَطُولُ

(١) كانت العناية التي يلقاها الحجاج المغاربة من ملوك مصر ، مما يقدره ملوك المغرب التقدير الجميل ، وكان مما يقلقهم ان يتعرض وفد الحجاج المغاربة للمغاب في سفره . صبح الأعشى ٩ / ٢٥٠ .

(٢) الخاف : موضع الخوف .

(٣) روح الاله : رحمته .

(٤) يعني : اضمحل العيوس الطبيعي .

(٥) جميل بن عبدالله بن معمر العذري ، وبشينة صاحبة التي عشقها منذ ايام صباه .

(٦) الشبابة : حد السيف وطرفه ، والجمع شبأ .

وَبَدَائِعِ الْحَلَلِ الْيَمَانِيَّةِ الَّتِي رَوَى مِعَاطِفَهَا بِبَصْرِ النَّبِيلِ
فَأَجَلْتُ فِيهَا نَاطِرِي فَرَأَيْتُهَا تُحَفِّفًا بِجَوْلِ الْحَسَنِ حَيْثُ تَجُولُ
جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا فَأَهْوَى نَحْوَهَا بِقَمِّ الْقَبُولِ اللَّشْمُ وَالْتَقْيِيلُ
يَا مُسَمِّدِي وَأَخِي الْعَزِيزَ وَمُنْجِدِي وَمَنْ الْقُلُوبَ إِلَى هَوَاهُ تَمِيلُ
إِنْ كَانَ رَسْمُ الْوُدِّ مِنْكَ مَذْيَلًا بِالْبَرِّ وَهُوَ بِذِيهِ مَوْصُولُ
فَنظِيرُهُ عِنْدِي وَلَيْسَ يَضِيرُهُ بِمَعَارِضٍ وَهُمْ وَلَا تَحْيِيلُ
وَدُّ «يَزِيدُ» وَ«ثَابِتُ» شَهْدَابِهِ وَ«لِحَالِدٍ» بِخَالِدِهِ تَذْيِيلُ
وَإِلَيْكُمَا تُنْيِكُ صَدَقَ مَوْدَّتِي صَحَّ الدَّلِيلُ وَوَافَقَ الْمَدْلُولُ
فَإِذَا بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ سَمَتْ فَلَدَيْكَ إِقْبَالٌ لَهَا وَقَبُولُ
دَامَ الْوِدَادُ عَلَى الْعِبَادِ مَوْصِلًا بَيْنَ الْقُلُوبِ وَحَبْلُهُ مَوْصُولُ
وَبَقِيَتْ فِي نِعْمٍ لَدَيْكَ مَزِيدُهَا وَعَلَيْكَ يَضْفُو ظِلُّهَا الْمَسْدُولُ

ثم مرُّوا بعدها بتونس، فبعث سلطان تونس أبو فارس عبد
العزیز ابن السلطان أبي العباس من ملوك الموحدين، هدية ثالثة
انتقى لها جیاد الخیل، وعزز بها هدية السلطانين وراه، مع
رسوله من كبار الموحدين أبي عبد الله ابن تافر الكين؛ ووصلت
الهدايا الثلاث إلى باب الملك الظاهر في آخر السنة، وعرضت
بين يدي السلطان، وانتهب الخاسكية ما كان فيها من الأقمشة

والسيوف والبُسُط ومراكب الخيل ، وحمل كثيراً منهم على كثير من تلك الجياد وارتبطت الباقيات .

وكانت هدية صاحب المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجُم الذهبية ، والسيوف المحلاة ، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد ، منتقاة من أحسن هذه الأصناف .

وهدية صاحب تلمسان تشتمل على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموّهة ، وأحمالاً من الأقمشة .

وهدية صاحب تونس تشتمل على ثلاثين من الجياد مُعشاةً ببرايق الشياب من غير مراكب ، وكلها أتيق في صنعه مُستطرف في نوعه ؛ وجلس السلطان يوم عرضها جلوساً فخماً في إيوانه ، وحضر الرُسل ، وأدوا ما يجب عن ملوكهم . وعاملهم السلطان بالبرّ والقبول ، وانصرفوا إلى منازلهم للجرايات الواسعة ، والأحوال الضخمة . ثم حضر وقت "خروج الحاج" ؛ فأستأذنوا في الحجّ مع تحمّل السلطان ، فأذن لهم ، وأرغد أزودتهم . وقضوا حجّهم ، ورجعوا إلى حضرة السلطان ومعهود مبرّته . ثم انصرفوا

إلى مواطنهم ، وشيّعهم من برّ السلطان وإحسانه ، ما ملأ حقايبهم ،
وأسنى ذخيرتهم ، وحصل لي أنا من بين ذلك في الفخر ذكرٌ جميلٌ ،
بما تناولتُ بين هؤلاء الملوك من السّعي في الوُصلة الباقية على الأبد ،
فحمدت الله على ذلك .

ولاية القضاء الثانية بمصر

مازلتُ ، منذُ العزل عن القضاء الأوّل سنة سبعٍ وثمانين ،
مكبّاً على الاشتغال بالعلم ، تأليفاً وتدرّيساً ؛ والسلطان يولي في
الوظيفة من يراه أهلاً متى دعاه الى ذلك داع ، من موت القائم
بالوظيفة ، او عزله ؛ وكان يراني الأوّل بذلك ، لولا وجودُ الذين
شغبوا من قبلُ في شأني ، من أمراء دولته ، و كبار حاشيته ، حتى
انقرضوا . واتفقت وفاةُ قاضي المالكية إذ ذاك ناصر الدين بن
التنسي^(١) ، وكنتُ مقيماً بالفيوم لضمّ زرعي هنالك ؛ فبعث عني ،
وقلّديني وظيفة القضاء في منتصف رمضان من سنة إحدى وثمانائة ؛
فجريتُ على السنن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً
وعادة ؛ وكان رحمه الله يرضى بما يسمع عني في ذلك . ثم أدركته

(١) هو احمد بن محمد بن عطاء الله بن عوض الزيري الاسكندري المالكي المشهور بابن
التنسي (بفتح التاء والنون وكسر السين المهملة) ، ولد سنة ٧٤٠ ، وتوفي سنة ٨٠١ .

الوفاة في منتصف شوال بعدها ، وأحضر الخليفة والقضاة والأمراء ،
وعهد الى كبير أبنائه فرَج ، ولاخوته من بعده واحداً واحداً ،
وأشهدهم على وصيته بما أراد . وجعل القائم^(١) بأمر ابنه في سلطانه الى
أتابكه ايتمش^(٢) ، وقضى رحمة الله عليه ، وترتبت الأمور من بعده
كما عهد لهم ، وكان النائب بالشام يومئذ أمير من خاسكية السلطان
يعرف بتم^(٣) ، وسمع بالواقعات بعد السلطان ففصّ أن لم يكن هو
كافل ابن الظاهر بعده ، ويكون زمام الدولة بيده . وطلق
سبايرة الفتن يُفروونه بذلك ، وبينما هم في ذلك إذ وقعت فتنة
الأتايك^(٤) أيتمش ، وذلك أنه كان للأتايك دوادار غير يتناول الى
الرئاسة ، ويترفع على أكبر الدولة بحظه من أستاذه ، وما له من
الكفالة على السلطان ؛ فتّموا حالهم مع هذا الدوادار ، وما يسوهم
به من الترفع عليهم ، والتعرض لاهمال نصائحهم ؛ فأغروا السلطان
بالخروج عن ربه الحجر ، وأطاعهم في ذلك ، وأحضر القضاة بمجلسه

(١) كذ بالأصل ؛ ولعلها « القيام بأمر » ،

(٢) هو أيتمش بن عبدالله الأسندمري البجاسي الجرجاني الأمير سيف الدين ؛ أتابك العساكر
بالديار المصرية ؛ أصله من ممالك اسندم البجاسي الجرجاني (نسبة الى جرجي نائب حلب) وكان
ملك ايتمش قبل أن يجره الظاهر برقوق .

(٣) الأمير سيف الدين تم بن عبد الله الحسيني الظاهري ؛ اسمه الاصلي تنيك ؛ وغلب عليه
« تم » ؛ كان نائب دمشق ؛ وهو من ممالك الظاهر برقوق ؛ قتل سنة ٨٠٢ بقلمة دمشق .

(٤) يطلق « اتايك » في أيام المالك ؛ علي مقدم العساكر او القائد العام ؛ علي انه ابو
العساكر والامراء جميعاً . وهو مركب من كلمتين ؛ « أتا » بمعنى « أب » ؛ و « بك » ومعناها
أمير . صبح الأعشي ٤ / ١٨ ، ١ / ٦ .

للدعوى على الأتابك باستغناؤه عن الكافل ، بما عليم من قيامه بأمره وحسن تصرفاته . وشهد بذلك في المجلس أمراء أبيه كافة ، وأهلُ المراتب والوظائف منهم ، شهادةً قبلها القضاة . وأعدروا الى الأتابك فيهم فلم يدفع في شيء من شهادتهم ، ونفذ الحكم يومئذ برفع الحجر عن السلطان في تصرفاته وسياسة ملكه ، وانفض الجمع ، ونزل الأتابك من الاسطبل الى بيت سُكناه . ثم عاود الكثير من الأمراء نظرهم فيما أتوه من ذلك ؛ فلم يروه صوابا ، وحملوا الأتابك على نقضه ، والقيام بما جعل له السلطان من كفالة ابنه في سلطانه . وركب ، وركبوا معه في آخر شهر المولد النبوي ، وقاتلهم أولياء السلطان فرج عشي يومهم وليلتها ؛ فهزموهم ، وساروا الى الشام مستصرخين بالنائب تم ، وقد وقر في نفسه ما وقر من قبل ؛ فبر وفادتهم ، وأجاب صريحهم . واعتزموا على المضي الى مصر . وكان السلطان لما انفضت جموع الأتابك ، وسار الى الشام ، اعتمله في الحركة والسفر لخضد شوكتهم ، وتفريق جماعتهم ؛ وخرج في جمادى حتى انتهى الى غزوة ، فجاءه الخبر بأن نائب الشام تم ، والأتابك ، والأمراء الذين معه ، خرجوا من الشام زاحفين للقاء السلطان ، وقد احتشدوا وأوعبوا ، وانتهوا قريبا من الرملة^(١) ؛ فراسلهم السلطان

(١) الرملة : مدينة بفسطين بينها وبين القدس نحو ١٨ ميلا ؛ كانت ذا شأن عظيم في الحروب

الصليبية ؛ ياقوت ٤ / ٢٨٦ .

مع قاضي القضاة الشافعي صدر الدين المناوي^(١)، وناصر الدين الرّمّاح، أحد المعلمين لشقافة الرّمّاح، يُعذر اليهم، ويخجلهم على اجتماع الكلمة، وترك الفتنة، وإجابتهم الى ما يطلبون من مصالحهم؛ فاشتطوا في المطالب، وصمّوا على ما هم فيه. ووصل الرسولان بخبرهم، فركب السلطان من الغد، وعبّى عساكره، وصمّم لمعالجتهم؛ فلتّيتهم أثناء طريقه، وهاجمهم فهاجموه، ثم ولّوا الأديار منهزمين. وُضِع الكثير من أعيانهم وأمرائهم في صدر موكبه، فما غشيتهم الليل إلا وهم مصفّدون في الحديد، يقُدّمهم الأمير تيم نائب الشام وأكابرهم كلهم. ونجا الأتابك أيتمش الى القلعة بدمشق، فأوى إليها، واعتقله نائب القلعة. وسار السلطان الى دمشق؛ فدخلها على التعبئة في يوم أغرّ، وأقام بها أياماً، وقتل هؤلاء الأمراء المعتقلين، وكبيرهم الأتابك ذنجاً، وقتل تيم من بينهم خنقاً، ثم ارتحل راجعاً الى مصر.

و كنتُ استأذنت في التقدّم الى مصر بين يدي السلطان لزيارة بيت المقدس، فأذن لي في ذلك. ووصلتُ الى القدس ودخلت المسجد، وتبرّكت بزيارته والصلاة فيه، وتعفّفت عن الدخول الى القمامة^(٢) لما فيها من الاشادة بتكذيب القرآن، اذ هو بناء أم

(١) صدر الدين محمد بن ابراهيم بن اسحق الشافعي.

(٢) القمامة (بالضم)؛ كنيسة كبرى بيت المقدس. تاج العروس (قم)؛ ياقوت ١٥٨/٧.

النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نَفْسِي ، ونَكَرْتُ الدُّخُولَ اليه . وقضيت من سُنَنِ الزِيَارَةِ وَنَافِلَتِهَا مَا يَجِبُ ، وَانصرفتُ الى مدفن الخليل عليه السلام . ومررتُ في طريقي اليه بيوت لحم ، وهو بناءٌ عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شِيدت القياصرة عليه بناءً بسباطين من العمد الصُّخُور ، مُنْجِدَةً مَصْطَفَاةً ، مَرْقُومًا على رؤوسها صُورُ ملوك القياصرة ، وتواريخ دُولِهِمْ ، مُيَسَّرَةً لِمَنْ يَبْتَغِي تحقيقَ نَقْلِهَا بِالترجمة العارفين لأوضاعها ؛ ولقد يشهد هذا المصنع بعِظَمِ مُلْكِ القياصرة وَضَخامة دولتهم . ثم ارتحلت من مدفن الخليل الى غَزَّةَ ، وارتحلتُ منها ، فوافيتُ السلطان بظاهرِ مِصرَ ، ودخلتُ في رِكابه أو آخر شهرِ رمضان سنة اثنين وثمانائة . وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين بن الخلال ^(١) ، ينوب أكثر أوقاته عن قضاة القضاة المالكية ؛ فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب ، وبذل ما تيسر من موجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك ، فتمت سعايته في ذلك ، وليس منتصفَ المحرم سنة ثلاث ؛ ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشتغلا به من تدريس العلم وتأليفه ، الى ان كان السفر لمدافعة قر عن الشام .

(١) علي بن يوسف بن عبدالله (او ابن مكّي) الدميري (او الزبيري) ، المعروف بابن الخلال المالكي .

سفر السلطان الى الشام لمدافة الططر عن بلاده

هؤلاء الططر من شعوب الترك ، وقد اتفق النسابة والمؤرخون على أن أكثر أمم العالم فرقتان ، وهما : العرب والترك ، وليس في العالم أمة أوفرَ منها عدداً ، هؤلاء في جنوب الارض ، وهؤلاء في شمالها ، وما زالوا يتناوبون الملك في العالم ؛ فتارةً يملك العرب ويَزْحلون^(١) الأعاجمَ إلى آخر الشمال ، وأخرى يزحلهم الأعاجم والترك إلى طرف الجنوب ، سنة الله في عباده .

فلنذكر كيف انساق الملك لهؤلاء الططر^(٢) ، واستقرت الدُول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول : إن الله سبحانه خلق هذا العالم واعتمده بأصناف البشر على وجه الأرض ، في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه ، وهي عند أهل الجغرافيا مقدار الربع منه ، وقسموا هذا المعمور بسبعة أجزاء يُسمونها الأقاليم ، مبتدأةً من

(١) زحل عن مكانه : زل ، وبمعد .

(٢) كذا بالأصل ، وهي : التتر .

خط الاستواء بين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤس السكان ، إلى تمام السبعة أقاليم . وهذا الخط في جنوب المعمور ، وتنتهي السبعة الأقاليم في شماله . وليس في جنوب خط الاستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف ، لافراط الحر فيه ، وهو يمنع من التكوين ؛ وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة ، لافراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضاً . ودخل الماء المحيط بالأرض من جهة الشرق فوق خط الاستواء بثلاث عشرة درجة ، في مدخل فسيح ، وانساح مع خط الاستواء مغرباً ؛ فمر بالصين ، والهند والسند واليمن ، في جنوبها كلها . وانتهى إلى وسط الأرض ، عند باب المندب ^(١) ، وهو البحر الهندي والصيني ، ثم انحرف من طرفه الغربي في خليج عند باب المندب ، ومر في جهة الشمال مغرباً باليمن وتهامة والحجاز ومدن ^(٢) وأيلة ^(٣) وفاران ^(٤) ،

(١) باب المندب : هو المضيق الواقع في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر .

(٢) Midian : مقاطعة في شمال الحجاز تمتد على الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى مبدأ خليج العقبة ، وفي الجهة الشرقية منها يقع جبل الصفاة .

(٣) أيلة (Aila او Ailat) : ميناء واقع في الزاوية الشمالية الشرقية لخليج العقبة ، وكان في القديم مدينة تجارية ذات أهمية كبرى ، وقد ورد ذكرها في التوراة ؛ في سفر الملوك ٩ : ٢٦ ، ٢٧ . خطط القريري ١ / ٢٩٨ (طبع مصر) .

(٤) فاران : مدينة كانت على ساحل بحر القلزم بناحية الطور ، ويقول القريري في الخطط (١ / ٣٠٤ طبع مصر) : « ... وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين الى اليوم ، وبها نخل كبير مشمر ، أكلت من ثمره ، وبها نهر عظيم ، وهي خراب يمر بها العربان » .

وانتهى إلى مدينة القلزم^(١) ، ويُسمى بحر السويس ، وفي شرقيه بلاد الصعيد إلى عمذاب^(٢) ، وبلا البجاة^(٣) ؛ وخرج من هذا البحر الهندي من وسطه خليج آخر يُسمى الخليج الأخضر^(٤) ، ومرّ شمالاً إلى الأبله^(٥) ، ويسمى بحر فارس^(٦) ، وعليه في شرقيه بلاد فارس^(٧) ، وكرمان^(٨) ، والسند^(٩) ؛ ودخل الماء أيضاً ، من جهة الغرب في خليج متضايق في الاقليم الرابع ، ويسمى بحر الزقاق^(١٠) ،

(١) القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة : بلد ساحلية بجوار السويس والطور ، واليه ينسب البحر ، فيقال بحر القلزم ، ويقول ياقوت ٧ / ١٤٥ : « ... وأما اليوم فهي خراب يباب ، وصار البناء الى مدينة قريبا يقال لها السويس » .

(٢) عذاب : مدينة مصرية على الساحل الافريقي للبحر الأحمر ، وكانت في الصور الوسطى ميناء مهماً للحجاج الذين يقصدون مكة من الغرب ، ومحطة للسفن الهنديه التي كانت تأتي من عدن ، ولتجار افريقية الوسطى ، ياقوت ٦ / ٢٤٦ .

(٣) البجاة ، ويقال البجة : مجموعة من القبائل الحامية تسكن فيما بين النيل والبحر الأحمر ؛ واسمها « البجة » قديم يرجع الى ما قبل الاسلام ، الخطط (طبع مصر ١ / ٣١٣-٣١٩) . صبح الأعشى ٥ / ٢٧٣ .

(٤) يريد بالخليج الأخضر خليج عمان .

(٥) ضبطها ابن خلدون بضم الهمزة والباء الموحدة ، وتشديد اللام المفتوحة ؛ وهي مدينة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة . ياقوت ١ / ٨٩ - ٩٠ ، صبح الأعشى ٤ / ٣٣٦ .

(٦) يسمى بحر فارس اليوم ، الخليج الفارسي .

(٧) فارس ، او بلاد المجمع : هي التي تعرف اليوم باسم ايران اشتقاقاً من كلمة « آرية » وتدل الآن على المملكة الفارسية . ياقوت ٦ / ٣٢٤ .

(٨) كرمان : احدى المدن الجبلية من مدن ايران : وكانت في القديم ولاية تفصل بين فارس في الغرب ، وصحارى لوط في الشرق . ياقوت ٨ / ٢٤١ - ٢٤٤ .

(٩) السند : بلاد كانت تفصل بين الهند وكرمان ، وبعضهم كان يعد من اقليم السند بلاد

امكران الواقعة في جنوب فارس . ياقوت ٥ / ١٥١ .

(١٠) هو مضيق جبل طارق الآن .

تكون سعته هنالك ثمانية عشر ميلاً . ويمر مُشرقاً ببلاد البربر ، من المغرب الأقصى والأوسط وأرض إفريقية والأسكندرية وأرض التيه^(١) وفلسطين والشام ؛ وعليه في الغرب بلاد الأفرنج كلها؛ وخرج منه في الشمال خليجان: الشرقي منها خليج القسطنطينية^(٢) والغربي خليج البنادقة^(٣) ، ويُسمى هذا البحر البحر الرومي ، والشامي .

ثم إن هذه السبعة الأقاليم المعمورة ، تنقسم من شقيها وغربها بنصفين : فنصفها الغربي في وسطه البحر الرومي ، وفي النصف الشرقي من جانبه الجنوبي البحر الهندي ؛ وكان هذا النصف الغربي أقل عمارة من النصف الشرقي ، لأن البحر الرومي المتوسط فيه ، انفسح في انسياحه ، فغمر الكثير من أرضه . والجانب الجنوبي منه قليل العمارة لشدة الحر ؛ فالعمران فيه من جانب الشمال فقط ، والنصف الشرقي عمران أكثر بكثير ، لأنه لا بحر في وسطه يُزاحم . وجانبه الجنوبي فيه البحر الهندي ، وهو متسع جدا ؛ فلطف الهواء فيه بمجاورة الماء ، وعدل مزاجه للتكوين ؛ فصارت أقاليمه كلها قابلة

(١) أرض التيه : هي شبه جزيرة سيناء اليوم .

(٢) يتحدث الآن عن بحر إيجه الذي يصل البحر الأبيض عن طريق الدردنيل ، والبوسفور

بالبحر الأسود .

(٣) خليج البنادقة ؛ هو البحر الأدرياتي الذي يقع في نهايته الشمالية خليج البندقية . صبح

الأعشى ٥/٤٠٤ وما بعدها .

للعمارة ؛ فكثيرُ عمرانه . وكان مبدأ هذا العمران في العالم ، من لدُن آدمَ صلواتُ الله عليه ، وتناسل ولدهُ أولاً في ذلك النصف الشرقي ، وبادت تلك الأمم ما بينه وبين نوح ، ولم تعلم شيئاً من أخبارها ، لأن الكتب الالهية لم يرد علينا فيها إلا أخبارُ نوح وبنيه ؛ وأما ما قبل نوح فلم نعرف شيئاً من أخباره ؛ وأقدم الكتب المنزلة المتداولة بين أيدينا التوراة ، وليس فيها من أخبار تلك الأجيال شيء ، ولا سبيل إلى اتصال الأخبار القديمة إلا بالوحي ؛ وأما الأخبار فهي تدرُس بدروس أهلها .

واتفق النسابون على أن النسل كله منحصر في بني نوح ، وفي ثلاثة من ولده ، وهم سام ، وحام ، وياث ؛ فن سام : العرب ، والعبرانيون ، والسبائيون^(١) ؛ ومن حام : القبط ، والكنعانيون ، والبربر ، والسودان ؛ ومن ياث : الترك ، والروم ، والخزر^(٢) ، والفرس ، والديلم ؛ والجبل .

ولا أدري كيف صحَّ انحصارُ النسب في هؤلاء الثلاثة عند النسابين ؛ أمِنَ النقل ؟ وهو بعيدٌ كما قدمناه ، أو هو رأي

(١) كذا في الأصل . وعلمها : « السريانيون » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بفتح الحاء والزاي ؛ وفي « تنقيح اللسان » لأبي جعفر عمر بن مكي الصقلي « ... ويقولون لقبيلة من الترك الخزر بفتح الحاء والزاي والصواب الخزر بضم الحاء واسكان الزاي ، ويقال لهم سوا بذلك خزر أعينهم » أي ضيقها .

تفرّع لهم من انقسام جماعة المَعْمُور ؛ فجعلوا شعوب كل جهة لأهل نَسَبٍ واحد يشتركون فيه ؛ فجعلوا الجنوب لبني سَام ، والمغرب لبني حَام ، والشمال لبني يافث . إلا أنه المتناقل بين النَسَابَةِ في العالم ، كما قلناه ، فلنعمده ونقول : أول من ملك الأرض من نَسَلِ نُوحٍ عليه السَّلَام ، النَّرُودُ بْنُ كَنْعَانَ بْنِ كُوش ، بن حَام ووقع ذكره في التوراة . وملك بعده عابر بن شالخ الذي يُنسبُ إليه العبرانيون ، والسُريانيون ، وهم النَّبَطُ ؛ وكانت لهم الدَّوْلَةُ العظيمة ، وهم ملوك بَابِل ، مَنْ نَيْيَطُ بْنُ أَشُورِ بْنِ سَام ، وقيل نَيْيَطُ بْنُ مَاشِ بْنِ إِرَم ؛ وهم ملوك الأرض بعد الطوفان على ما قاله المَسْعُودِي . وغلبهم الفرسُ على بَابِل ، وما كان في أيديهم من الأرض ، وكانت يومئذ في العالم دولتان عظيمتان ، لملوك بابل هؤلاء ، وللقبط بمصر : هذه في المغرب ، والأخرى في المشرق ؛ وكانوا ينتحلون الأعمال السحرية ، ويُعولون عليها في كثير من أعمالهم ، وبرأي مصر^(١) ، وفلاحة ابن وحشية ، يشهدان بذلك . فلما غلب الفرسُ على بابل ، استقل لهم ملك المشرق ، وجاء موسى صلوات الله عليه — بالشريعة الأولى ، وحرّم السحر وطرقه ،

(١) كان القدماء يعتقدون ان الرسوم التي توجد على البرابي ، والمعابد المصرية القديمة ، ليست الاطلاسم ، وأوفاناً ، نقشت على جدرانها ليكون لها مفعول سحري معين . خطط القرظي ٤٨/١ طبع مصر ، معجم البلدان « برابي » .

وغدب الله له القبط بإغراق فرعون وقومه؛ ثم ملك بنو إسرائيل الشام، واختطوا بيت المقدس، وظهر الروم في ناحية الشمال والمغرب، فغلبوا الفرس الأولى على ملكهم. وملك ذو القرنين الاسكندر ما كان بأيديهم؛ ثم صار ملك الفرس بالشرق الى ملوكهم الساسانية، وملك بني يونان بالشام والمغرب إلى القياصرة، كما ذكرنا ذلك كله من قبل. وأصبحت الدولتان عظيمتين، وانتظمتا العالم بما فيه. ونازع الترك ملوك فارس في خراسان^(١)، وما وراء النهر^(٢)، وكانت بينهم حروب مشهورة، واستقر ملكهم في بني أفراسياب؛ ثم ظهر خاتم الأنبياء محمد صلوات الله عليه، وجمع العرب على كلمة الاسلام، فاجتمعوا له، «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم»^(٣)، وقبضه الله اليه، وقد أمر بالجهاد، ووعد عن الله بأن الأرض لأمته، فزحفوا الى كسرى، وقبضه بعد سنتين من وفاته، فانتزعوا الملك من أيديها، وتجاوزوا الفرس الى الترك، والروم الى البربر والمغرب، وأصبح العالم كله منتظماً في دعوة الاسلام. ثم اختلف أهل الدين

(١) تطلق خراسان اليوم على القسم الشرقى لآيران، الذي يتصل بأفغانستان. وقد فتح خراسان سنة ٣١ هجرية في أيام عثمان رضي الله عنه. ياقوت ٤٠٧/٣.

(٢) ما وراء النهر: إقليم مشهور يقع فيما وراء نهر جيحون «وهو المراد بالنهر». ياقوت ٣٧٠/٧ - ٣٧٣.

(٣) الآية ٦٣ من سورة الأنفال.

من بعده في رجوعهم الى من ينظم أمرهم ، وتشيع قوم من العرب
 فزعموا أنه أوصى بذلك لابن عمه علي ، وامتنع الجماعة من قبول ذلك ،
 وأبوا إلا الاجتهاد في تعيينه ، فمضى على ذلك السلف في دولة بني
 أمية التي استفحل الملك والاسلام فيها ، وتناقل التشيع بتشعب
 المذاهب ، في استحقاق بني علي ، وأيهم يتعين له ذلك ، حتى انساق
 مذهب من مذهبهم الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ^(١) ؛ فظهرت
 شيعة بخراسان ، وملكوا تلك الأرض كلها ، والعراق بأسره . ثم
 غلبوا على بني أمية ، وانتزعوا الملك من أيديهم ، واستفحل ملكهم ،
 والاسلام باستفحاله ، وتعدّد خلفاؤهم . ثم خامر الدولة ما يخامر
 الدول من الترف والراحة ؛ ففشلوا . وكثر المنازعون لهم من بني
 علي وغيرهم ؛ فظهرت دولة لبني جعفر الصادق بالمغرب ، وهم
 العبيديون ^(٢) بنو عبيد الله المهدي بن محمد ، قام بها كتامة وقبائل
 البربر ، واستولوا على المغرب ومصر ؛ ودولة بني العلوي
 بطبرستان ، قام بها الديلم وإخوانهم الجليل ؛ ودولة بني أمية
 النائية بالأندلس ، لأن بني العباس لما غلبوهم بالشرق ، وأكثروا
 القتل فيهم ، هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ،

(١) كان ذلك في سنة ١٢٩ هـ ، وانظر تفصيل القول في تاريخ الطبري ٨٢/٩ وما بعدها ،

تاريخ أبي الفداء ٢٢٠/١ وما بعدها .

(٢) كان مبدأ دولة الفاطميين بالمغرب في سنة ٢٩٦ هـ ، ونهايتها سنة ٣٦١ هـ .

ونجا الى المغرب . ثم ركب البحر الى الأندلس ؛ فاجتمع عليه من كان هنالك من العرب وموالي بني أمية ، فاستحدث هنالك ملكاً آخر لهم ، وانقسمت الملة الاسلامية بين هذه الدول الأربع الى المائة الرابعة . ثم انقرض ملك العلوية من طبرستان^(١) ، وانتقل الى الديلم ، فاقسموا خراسان وفارس والعراق ، وغلبوا على بغداد ، وحجر الخليفة بها بنو بويه منهم^(٢) . وكان بنو سامان - من أتباع بني طاهر - قد تقلدوا عمالات ما وراء النهر ، فلما فشل أمر الخلافة استبدوا بتلك النواحي ، وأصاروا لهم فيها ملكاً ضخماً^(٣) ، وكان آخرهم محمود بن سبكتكين من مواليهم ، فاستبد عليهم ، وملك خراسان ، وما وراء النهر الى الشاش ، ثم غزاة^(٤) ، وما وراءها جنوباً الى الهند . وأجاز الى بلاد الهند ؛ فافتتح منها كثيراً ، واستخرج من كنوزها ذخائر لم يعثر عليها أحد قبله . وأقامت الملة على هذا النمط الى انقضاء المائة الرابعة ، وكان الترك

(١) طبرستان : إقليم متسع في غربي خراسان ، ويقول ياقوت انه الذي يسمى ايضاً بجزندران .

وهو إقليم واقع في شمالي مرتفعات البرز ، ويشرف على بحر قزوين . ياقوت ١٧/٦ - ٢١ .

(٢) بنو بويه دولة اسسها اترك من الديلم في خلافة الرازي بالله (٣٢٢ - ٤٤٧ هـ) . تاريخ ابي الفداء ٢/٨٣ ، ١٥٢ ، والمعبر ٤/٩٠٩ وما بعدها .

(٣) ملكت دولة بني سامان هذه ما وراء النهر ، وأقامت هناك دعوة بني العباس ، ثم استقلت .

وقد تحدث عنها ابن خلدون ٤/٧١٢ ، أبو الفداء ٢/١٢٣ ، ١٤١ ، صح الأعشى ٤/٤٤٦ .

(٤) غزاة : مدينة من مدن أفغانستان ، وكانت عاصمة الدولة التي اسسها نصر الدين محمود بنه

سبكتكين سنة ٣٦٦ هـ ، والتي استمرت الى سنة ٥٧٨ هـ جرية . المعبر ٤ .

منذُ تعَبَدوا للعرب، وأسلموا على ما بأيديهم وراء النهر، من كاشغر^(١)، والصَّاعون الى فرغانة^(٢)، وولَّاهم الخلفاء عليها؛ فاستحدثوا بها مُلكاً، وكانت بَوادي التُّرك في تلك النواحي مُنتجِمةً أمطارَ السماء، وُعُشب الأرض، وكان الظهور فيهم لقبيلة التُّزِّ من شعوبهم، وُهم الحوزُ، إلا أن استعمال العرب لها عَرَّبَ جَاءَها المعجمة غينا، وأدغمت واوها في الزاي الثانية؛ فصارت زايًا واحدة مشددة. وكانت رياسة التُّزِّ هُوَلاء. في بني سَلْجوق بن ميكائل، وكانوا يُستَخدمون لملوك التُّرك بتركستان تارة، وملكوك بني سامان في بُخارى أخرى. وتحدُّث بينها الفتنة؛ فيتألفون مَنْ شاءوا منها^(٣)؛ ولما تغلب محمود بن سُبُكْتِكِين^(٤) على بني سامان، وأجاز من خراسان فنزل بُخارى^(٥)، واقعد كرسيمهم، وتقبض على كبار بني سَلْجوق هُوَلاء، وحبسهم بخراسان. ثم مات وقام بالأمر أخوه مسعود^(٦)،

- (١) كانت كاشغر قاعدة « التركستان » وكانت تسمى أيضاً « آزدوكنند » وهي اليوم في الصين . ياقوت ٧ / ٢٠٧ صبح الأعشى ٤ / ٤٤٠ :
- (٢) فرغانة كورة واسعة فجا وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان . ياقوت ٦ / ٣٦٤ .
- (٣) انظر كلمة موجزة عن التُّزِّ في تاريخ أبي الفداء ٣ / ٢٧ وما بعدها .
- (٤) هو محمود بن ناصر الدولة بن سبكتكين (٣٦١ - ٤٢١) ، يلقب سيف الدولة ، وعين الدولة . ولعين الدولة هذا ينسب التاريخ « اليميني » الذي افه له ابو نصر العتي . ترجمة عين الدولة في « الوفيات » ٢ / ١١٠ - ١١٤ ، وانظر تاريخ أبي الفداء ٢ / ١٦٥ المعبرم ٤ طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت ، راجع الفهارس لتعيين الصفحات .
- (٥) تقع بخارى اليوم في جمهورية الاتحاد السوفياتي ، وكانت قاعدة الدولة السامانية ، فتحت فيما بين سنتي ٥٣ ، ٥٥٥ ، في ايام معاوية . ياقوت .
- (٦) هكذا في الاصل : « اخوه مسعود » . وهو سبق قلم ، والصواب : « ابنه مسعود » المعبرم ٤ ، « تاريخ دولة آل سلجوق » ص ٨ .

فملك مكانه ، وانتقض عليه بنو سلجوق^(١) هؤلاء ، وأجاز الغزء الى خراسان فلكوها ، وملكوا طبرستان من يد الديلم ، ثم إصهبان^(٢) وفارس ، من أيدي بني بويه ، وملكهم يومئذ طغرل بك^(٣) بن ميكائيل من بني سلجوق ، وغلب على بغداد^(٤) من يد بني معز الدولة بن بويه المستبدين على الخليفة يومئذ المطيع^(٥) ، حَجَرَهُ عن التصرف في أمور الخلافة والملك ، ثم تجاوز الى عراق العرب ، فغلب على ملوكة ، وأبادهم ، ثم بلاد البحرين وعمان ، ثم على الشام ، وبلاد الروم ، واستوعب ممالك الاسلام كلها ، فأصارها في ملكه ؛ وانقبضت العرب راجعة الى الحجاز ، مسلوبة من الملك ، كأن لم يكن لهم فيه نصيب ، وذلك أعوام الأربعين والأربعمائة ؛

(١) ابتدأت الدولة السلجوقية في خلافة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٣٢ ، وانتهت في سنة ٥٧٢ . تاريخ أبي الفداء ١٧١/٢ وما بعدها ، العبر ١/٥ وما بعدها . وقد خص هذه الدولة بالتأليف العهد الاصفهاني ، وطبع مختصر لكتاب العهد بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م .

(٢) كذا بالأصل ، اصهبان ، وكذا في أكثر الكتب القديمة . وهي : أصفهان بفتح الهمزة وكسرها : مدينة جبلية عظيمة في جنوب عراق العجم من بلاد فارس ، وتطلق أصفهان على الاقليم أيضاً . فتحت في سنة ٢٣ هـ في أيام عمر بن الخطاب . ياقوت ١/٣٦٩ .

(٣) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق ، ركن الدين طغرل بك (٣٨٥ - ٤٥٥) . وفيات الأعيان ٢/٥٩ - ٦٠ .

(٤) كان دخول بغداد والعراق سنة ٤٤٧ . وفيات الأعيان ٢/٦٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ .

(٥) كذا بالأصل : « المطيع » والصواب : « القائم » لأنه الذي عاصر طغرل بك . وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر ، القائم بأمر الله . ولد سنة ٣٩١ ، وولي الخلافة سنة ٤٢٢ ، وتوفي سنة ٤٦٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ - ١٦٩ .

وخرج الأفرنج على بقايا بني أمية بالأندلس ، فانتزعوا الملك من أيديهم ، واستولوا على حواضر الأندلس وأمصارها ، وضاق النطاق على العبيديين بالقاهرة بملوك الغزير يذاحمونهم فيها من الشام ، بمحمود ابن زنكي وغيره^(١) من أبنائهم ومماليكهم ، وملك المغرب قد اقتطعوا ما وراء الأسكندرية ، بملوك صنهاجة في إفريقية ، والملاشمين المرابطين بعدهم بالمغرب الأقصى والأوسط ، والمصامدة الموحديين بعدهم كذلك ، وأمام الغزير والسلجوقية في ملك المشرق ، وبنوهم ومواليهم من بعدهم الى انقضاء القرن السادس ؛ وقد فشل ريح الغزير ، واختلت دولتهم ، فظهر فيهم جنكيزخان أمير المثل من شعوب الططر^(٢) ، وكان كاهنا ، وجدّه النجر كاهناً مثله . ويزعمون أنه ولد من غير أب^(٣) ؛ فغلب الغزير في المفازة ، واستولى على ملك الططر ،

(١) رسمه ، على قاعدته التي قررها في اول « المقدمة » بصاد وسطها زاي اشارة الى ان الصاد تشم - عند النطق بها - زاي . وانظر أخبار تملك محمود بن زنكي ، في تاريخ ابي الفداء . ٣٠/٣ ، ٥٨ .

(٢) ولد جنكيز خان (ويقال جنكس خان) في سنة ٥٤٩ هـ ، وهو من قبيلة تركية تسمى ثبات من أشهر قبائل المثل ، وأكثرهم عدداً ؛ وكان اسمه - حين بلغ من العمر ١٣ سنة - تموجين ثم أصاروه : « جنكيز » ؛ و « خان » تمام الاسم ؛ وهو بمعنى الملك عندهم . العبرم . هـ .

(٣) ينتهي نسبه الى : « بوذنجير بن ألان قوی » ؛ والآن قوی اسم امرأة هي جدتهم ؛ كانت متزوجة ثم مات زوجها ؛ وتأنيت وحملت وهي أيم ، فنكر عليها اقرباؤها ، فذكرت انها رأت بعض الأيام ان نوراً دخل فرجها ثلاث مرات ، وطراً عليها الحمل بعد ذلك ، وقالت ان في حملي ثلاث ذكور ، فان صدقت عند الوضع فذلك ، والا فافعلوا ما بدا لكم ؛ فوضعت ثلاث توأم في ذلك الحمل ، فظهرت برامتها ، بزعمهم ، وكان ثلث التوأم « بوذنجير » جد جنكيز خان ، وكانوا يسمون التوأم الثلاث : النورانيين نسبة الى النور المذكور ، ولذلك كانوا يقولون لجنكيز خان : ابن الشمس . العبرم هـ .

وزحفَ الى كرسى الملك بنحوارزم . وهو علاء الدين خوارزم شاه ، سلفه من موالي طغرلبيك ، فعالبه على ملكه ، وفرَّ أمامه ، وأتبعه الى بحيرة طبرستان ؛ فنجأ الى جزيرة فيها ، ومرض هنالك ومات^(١) ، ورجع جنكيزخان الى ما زندران ، من أمصار طبرستان فنتزلها ، وأقام بها ، وبعث عساكره من المغل حتى استولوا على جميع ما كان للغز ، وأزل ابنه طولي^(٢) بكرسى خراسان ، وابنه دوشيزخان^(٣) بصراي وبلاد الترك ، وابنه جغتاي^(٤) بكرسى الترك فيما وراء النهر ، وهي كاشغر وترستان ، وأقام بمازندران الى أن مات جنكيزخان ودفن بها^(٥) ؛ ومات ابنه طولي وله ولدان ، قبلاي^(٦) وهولاكو^(٧) ، ثم هلك قبلاي ، واستقل هولاكو

(١) هو السلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان ، كان من علماء الملوك وعظمائهم ، وكانت مدة ملكه ٢١ سنة ، وتوفي عام ٦١٧ ، وانظر اخبار حروبه مع جنكيزخان في تاريخ ابى الفداء ٣/١٣٣ - ١٣٤ ، ١٥٤ ، ١٥٨ .

(٢) هو الابن الاصغر لجنكيز خان ، وكان عاقلاً كيساً ، ولذلك امره ابوه ان يرأس اخويه : جوجي ، وجغتاي في حرب قلعة الطائقان التي استمضى عليها الاستيلاء عليها . وطاؤه تنطق

بين التاء والطاء ، ويقال في اسمه ايضاً : « تولوي » . وانظر العبر ٥ .

(٣) ويقال طوشي خان (بين التاء والطاء) ، ويقال جوجي خان .

(٤) جغتاي ، ويقال « جغتاي » ، ويسمى ايضاً كداي ، وجداي .

(٥) كانت وفاته في سنة ٦٢٥ ؛ وهناك رأي غير ما ذكره ابن خلدون في مكان وفاة جنكيزخان ، تجده في السلوك ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٦) قبلاي بن تولي خان المتوفى سنة ٦٩٥ . وقد ضبطه ابن خلدون بالمركات - بضم التاء ، وسكون الباء الموحدة ، ولام مفتوحة مخففة ، ثم ياء ساكنة .

(٧) يكتبه ابن خلدون : « هولاوو » بواوين أحياناً ، وأحياناً اخرى يكتبه : « هولاكو » بنقطة تحت الكاف إشارة الى ان الكاف تنطق كلاً فارسية . وقد ابتدأ امر هولاكو في الظهور في سنة ٦٥٤ ، وتوفي سنة ٦٠٣ . وانظر السلوك ص ٥٤١ .

بملك خراسان ، وحدث بينه وبين بركة بن دوشبخان^(١) فتنة بالمنازعة في القانية ، تحاربوا فيها طويلاً ، ثم أقصروا ، وصرف هولاءكو وجهه إلى بلاد أصبهان ، وفارس ، ثم الى الخلفاء المستبدين ببغداد ، وعراق العرب ، فاستولى على تلك النواحي ، واقتحم بغداد^(٢) على الخليفة المستعصم ، آخر بني العباس^(٣) وقتله ، وأعظم فيها العيث والفساد ، وهو يومئذ على دينه من المجوسية ؛ ثم تخطاه إلى الشام ؛ فملك أمصاره وحواضره إلى القدس ، وملوك مصر يومئذ من موالي بني أيوب قد استحاشوا ببركة صاحب صراي ؛ فزحف إلى خراسان ليأخذ بحجزه هولاءكو عن الشام ومصر . وبلغ خبره الى هولاءكو فحرد^(٤) لذلك ، لما بينهما من المنافسة والعداوة ، وكرراً راجعاً إلى العراق ، ثم إلى خراسان ، لمدافة بركة . وطالت الفتنة بينهما إلى أن هلك هولاءكو سنة ثلاث وستين من المائة السابعة ، وزحف أمراء مصر من موالي بني أيوب ، وكبيرهم يومئذ قطز ، وهو سلطانهم فاستولى على أمصار الشام التي كان هولاءكو انتزعها من أيدي بني أيوب ، واحدة واحدة ، واستضاف الشام إلى مصر في ملكه . ثم

(١) ويقال ايضاً : بركة بن توشي بن جنكيزخان . وقد توفي سنة ٦٦٥ . كان مسلماً يعظم اهل العلم ، وكان يميل الى الملك الظاهر بيبرس .
 (٢) دخل هولاءكو بغداد في سنة ٦٥٦ هـ .
 (٢) هو ابو احمد عبد الله بن المنتصر ، ولد سنة ٦٠٩ ، وقتل سنة ٦٥٦ .
 (٤) حرد : اغتاط وغضب

هدى الله أبنًا بن هولاء إلى الاسلام ، فأسلم بعد أن كان أسلم بركة ابن عمه صاحب التخت بصراي من بني دوشي خان على يد مُريدٍ من أصحاب شمس الدين كُبرى^(١) ، فتواطأ هو وأبنًا بن هولاء على الاسلام . ثم أسلم بعد ذلك بنو جقطي وراء النهر ؛ فانتمت ممالك الاسلام في أيدي ولد جنكيزخان من المغل ، ثم من الططر ، ولم يخرج عن مُلكهم منها إلا المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وأصبحوا ، وكأنهم في تلك الممالك خلف من السلجوقية والغز . واستمر الامر على ذلك لهذا العهد ، وانقرض ملك بني هولاء بموت أبي سعيد آخرهم سنة أربعين من المائة الثامنة^(٢) . وافترقت دولتهم بين عمال الدولة وقرابتها من المغل ؛ فملك عراق العرب ، وأذربيجان^(٣) وتوريز^(٤) ، الشيخ حسن سبط هولاء كو^(٥) ، واتصل مُلكها في بنيه

(١) هو ابو الجناح احمد بن عمر بن نجم الخيوفي شيخ خوارزم . عرف به السبكي في طبقاته ١١/٥ ، ١٢ ، ولم يذكر مولده ولا وفاته ؛ ووصفه في تاريخ جنكيز خان بأنه : « شيخ المتايخ ، وقطب الأوتاد ، نجم الدين الكبرى » ، وذكر انه مات في حصار مدينة خوارزم . وقد ضبطه ابن خلدون . بضم الكاف وسكون الباء ، وفي طبقات الشافعية : « الكبرى على صيغة فعلى كعظمى » .

(٢) هو ابو سعيد بن خربند بن ارغون ابغا بن هولاء كو . وانظر اخباره في العبره (٣) آذربيجان ، واسمها القديم أثروباتان : اقليم يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويحده في الشمال اقليم داغستان ، واطليم جورجيا ، ومن الغرب ، والجنوب الغربي مقاطعة ارمنية . باقوت ١٥٩/١ - ١٦١ .

(٤) توريز (تبريز) : احدى مدن ايران الشمالية ، وكانت في القديم تشملها مقاطعة آذربيجان باقوت ٣٦٣/١ .

(٥) يسمى ايضاً الشيخ حسن الصغير .

لهذا العهد؛ ومَلِكُ خِرَاسَانَ وَطَبْرِسْتَانَ شاه وليّ من تابعة بني هولاكو؛ ومَلِكُ إِصْبَهَانَ، وفارس، بنو مُظفَّر البردي^(١) من عُمالهم أيضاً؛ وأقاموا بنو دُوشِي خان في مملكة صَرَائِيْ وآخِرُهُمْ بها طَقَطْمَش بن بُرْدِي بَك^(٢)؛ ثم سَمَّا لبني جَقَطَّاي وراء النهر، وملو-كِهِمْ أَمَلٌ في التَغَلُّبِ على أعمال بني هولاكو، وبني دُوشِي خان، بما استفحل ملكهم هنالك، لعدم الترف والتنعيم، فبقُوا على البَدَاوة؛ وكان لهم مَلِكٌ اسمه ساطلمش^(٣) هلك لهذا العهد، وأجلَسوا ابنه على التَّخْتِ مكانه، وأمراء بني جَقَطَّاي جميعاً في خدمته، وكبيرُهُمْ تيمور المعروف بتمر بن طَرَغاي^(٤) فقام بأمر هذا الصبي وكفله، وتروَّج أمه، ومدَّ يده إلى ممالك بني دُوشِي خان التي كانت على دعوتهم وراء النهر، مثل سمرقند^(٥)، وُبُخَارَى، وخوارزم، وأجاز إلى طَبْرِسْتَانَ وخراسان فملكهما. ثم ملك أصفهان، وزحف إلى بغداد؛ فملكها من يد أحمد بن أُويس. وفرَّ أحمد مستجيراً بملك مصر،

(١) ورد في العبر ٥ : « اليزدي » .

(٢) ضبطه ابن خلدون بالحركات بفتح الباء وضمها، وسكون الراء بعدها دال ثم ياء منناة تحتية ساكنة، ثم ياء موحدة مفتوحة .

(٣) كذا في الأصل، وفي هامش أصل أياصوفيا بخطه : « سيورغتمش » وكتب فوقها

كلمة « أصح » .

(٤) في نسخة : « طرغان »، وفي هامش اصل اياصوفيا بخطه : « ترغاي » وكتب فوقها

كلمة « أصح » .

(٥) مدينة مشهورة، تقع اليوم في جمهورية الاتحاد السوفيتي، وكانت في القديم عاصمة بلاد

وهو الملك الظاهر برقوق ، وقد تقدم ذكره ؛ فأجاره ، ووعدته النصر من عدوه . وبعث الأمير تمر رُسلًا إلى صاحب مصر ، يقررون معه الولاية والاتِّحاد ، وحسنَ الجوار ؛ فوصلوا إلى الرخبة ؛ فلقبهم عاملها ، ودار بينهم الكلام فأوحشوه في الخطاب ، وأزَلَّهم ، فبيَّتَ جميعهم ، وقتلهم . وخرج الظاهر برقوق من مصر ، وجمع العرب والترُّكمان ، وأناخ على الفرات ، وصَرَخ بطقمَش من كرسية بصَرَآي ؛ فحشد ووصل إلى الأبواب ^(١) . ثم زحف تمر إلى الشام سنة ست وتسعين ، وبلغ الرُّها ^(٢) ، والظاهر يومئذ على الفرات ، فَخَّام ^(٣) تمر عن لقائه . وسار إلى محاربة طقمَش ؛ فاستولى على أعماله كلِّها ، ورجعت قبائل المُغل إلى تَمُر ؛ وساروا تحت رايته . وذهب طقمَش في ناحية الشمال ، وراء بُلغار ، متذمِّماً بقبائل أروُس من شعوب التُّرك في الجبال . وسارت عصائب التُّرك كلها تحت رايات تمر ؛ ثم اضطرب ملوك الهند ، واستصرخ خارجٌ منهم بالأمير تمر ؛ فسار اليهم في عساكر المُغل ، ومَلِك دِلِّي ^(٤) ، وفرَّ صاحبها إلى كَنْبَاية ^(٥)

(١) يريد بالأبواب المضائق والممرات التي في الجبال الفاصلة بين إقليم مازندران والعراق العجمي .

(٢) بلدة مشهورة في شمال حران ، وتقع اليوم في الجمهورية التركية ، وتسمى أورفة .

(٣) خام عنه : نكص ، وجين .

(٤) هي دلهي اليوم . صبح الأعشى ٦٨/٥ - ٦٩ .

(٥) كَنْبَاية ، أو كَنْبَايت ، ضبطها ابن خلدون بالحركات بفتح الكاف وسكون النون . وباء مفتوحة بعدها ألف ثم ياء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث . وفي صبح الأعشى ٧١/٥ : أنه ينسب إليها فيقال أنبائي وعلى ذلك قاسمها « أنبائت » بأبدال الكاف همزة . وهي مدينة على ساحل بحر الهند .

مرسى بحر الهند، وعاثوا في نواحي بلاد الهند. ثم بلغه هنالك مهلك الظاهر. برقوق بمصر؛ فرجع الى البلاد، ومر على العراق، ثم على أرمينية^(١) وأرزنكان^(٢)، حتى وصل سيواس^(٣) فخرّبها، وعات في نواحيها، ورجع عنها أول سنة ثلاث من المائة التاسعة. ونازل قلعة الروم^(٤)، فامتنت، وتجاوزها الى حلب؛ فقابله نائب الشام وعساكره في ساحتها؛ ففضّهم، واقتحم المغل المدينة من كل ناحية. ووقع فيها من العيث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم، ما لم يمهّد الناس مثله؛ ووصل الخبر الى مصر، فتجهز السلطان فرج بن الملك الظاهر^(٥) الى المدافعة عن الشام، وخرج في عساكره من الترك مسابغا المغل ومليكمهم ثم أن يصدّهم عنها.

- (١) أرمينية: إقليم واقع في غرب آذربيجان، وفي شماله الغربي يقع إقليم جورجيا. صبح الأعشى ٤/٣٥٣، ياقوت ١/٢٠٣ - ٢٠٦.
- (٢) أرزنكان، ويقال أرزنجان: بلدة كانت تعد قديماً من بلاد أرمينية، وهي الآن من بلاد الجمهورية التركية. صبح الأعشى ٤/٣٥٤.
- (٣) سيواس: مدينة في تركيا، تبعد ستين ميلاً نحو الشرق من «قيسارية» السلوك ص ٣١٣.
- (٤) هي قلعة حصينة واقعة في غربي الفرات مقابل «البيرة». ياقوت ٧/١٥٠ - ١٥١.
- (٥) هو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر. المقرئ ٣/٣٩٢ = ٣٩٣ طبع مصر.

لقاء الأمير تمر ساطان الهغل والطرط

لما وصل الخبر الى مصر بأن الأمير تمر^(١) مَلِكَ بلاد الروم ،
 وخرَّب سيواس ، ورجع الى الشَّام ، جمع السلطان عساكره ، وفتح
 ديوان العطاء ، ونادى في الجند بالرحيل الى الشام ، وكنتُ أنا يومئذ
 معزولاً عن الوظيفة^(٢) ؛ فاستدعاني دوا داره بِشَبَك^(٣) ، وأرادني

(١) في عجائب المقدور ص ٥ ، ٦ : « ... اجتمع تيمور بناء مشاة مكسورة ساكنة ، فثناة تحت ، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهلة ، هذه طريقة املائه ... لكن كرة الألفاظ الأعجمية اذا تداركها صولجان اللغة العربية خرطها في الدوران على بناء اوزانها ... فقالوا تارة تمور ، وأخرى تمرا نك . وضبطه البدر العيني في « عقد الجمان » بخطه بالحركات بفتح التاء وضم الميم بعد راء ساكنة ، ثم لام مفتوحة ، فنون ساكنة ، فكاف .

(٢) في عقد الجمان ، في حوادث سنة ٨٠٣ ، وتاريخ ابن قاضي شعبة كذلك : « ... خرج السلطان الملك الناصر فرج ، ودمه الخليفة المتوكل على الله ، والقضاة الثلاثة ، وهم صدر الدين المناوي الشافعي ، والناضي نور الدين علي بن الحلال المالكي ، والقاضي موفق الدين بن الحنبلي ؛ وأما القاضي جمال الدين الملطي الحنفي فنه ما سار لكونه ضعيفاً ، وشار معهم القاضي ولي الدين ابن خلدون المالكي ، وهو معزول » .

(٣) هو الأمير يشك الشعباني كان من امراء الملك الظاهر ، تقلب في مناصب مختلفة ، وجعل له الملك الظاهر الوصية على اولاده ؛ وفي أيام الملك فرج ، تولى وظيفة دوا دار كبير ، ومشير المملكة تاريخ ابن اياس ٢ / ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٣٧ . وقد ضبطه البدر العيني بخطه في « عقد الجمان » بكسر الياء ، وسكون الشين ، وفتح الباء .

على السَّفَر معه في ركاب السلطان ؛ فتجافيتُ عن ذلك . ثم أظهر العزم عليّ بِلَيِّن القول ، وجزيل الانعام فأصخيتُ ، وسافرت معهم مُنتصفَ شهر المولد الكريم من سنة ثلاث ؛ فوصلنا الى غزوة ، فأرحنا بها أياما نترقب الأخبار ؛ ثم وصلنا الى الشام مسابقين الططر الى أن نزلنا شَقْحَب^(١) ، وأسرينا فَصَبَّحْنَا دمشق ، والامير تَمُرُ في عساكره قد رحل من بَعْلَبَك^(٢) قاصداً دمشق ، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قُبَّة يَلْبُغَا . ويثس الامير تَمُرُ من مهاجرة البلد ، فأقام بمرقَب علي قُبَّة يَلْبُغَا يراقبنا وزاقيه أكثر من شهر ، تجاول العسكران في هذه الأيام مراتٍ ثلاثاً أو أربعاً ، فكانت حربهم سجالاً ؛ ثم نُيي الخبر الى السلطان وأكابر أرائه ، أن بعض الأُمراء المنغمسين في الفتنة يُحاولون الوَرَب الى مصر للثورة بها ؛ فأجمع رأيهم للرجوع الى مصر خشيةً من انتقاض الناس ورائهم ، واختلال الدولة بذلك ، فأسروا ليلة الجمعة من شهر [.....]^(٣) وركبوا جَبَل الصَّالِحِيَّة ، ثم انخطَّوا في شِعباه ، وساروا على شافة البحر الى غزوة ،

(١) بفتح الشين والحاء المهملة ، وسكون القاف بينها (كجهر) ، ويقول القريري في الخطط ٣/ ٣٩٩ (طبع مصر) : « ... انها بظاهر دمشق » ؛ وزاد في السلوك ص ٩٣٢ : « تحت جبل غباغب » ؛ فهي - بناء على هذا - في جنوب دمشق . وانظر تاج العروس (شقب) .

(٢) بعلبك : احدى مدن لبنان المشهورة ، وهي واقعة في الشمال الشرقي لمدينة زلّة . ياقوت

٣٣٦ - ٣٣٨ / ٢

(٣) يياض بالأصل ، ولعله يريد (شهر جادى الآخرة) . وانظر تاريخ ابن اياس ١/ ٣٢٩ .

وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سارَ على الطريق الأعظم إلى مصر؛ فساروا عسباً وجماعات على شَحَب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق مُتَحَيِّرِينَ قد عميت عليهم الأنباء.

وجاءني الفُضاة والفقهاء، واجتمعت بمدرسة العادلية، واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير تَمُر على يوتهم وحرَمهم، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكَّره؛ فلم يوافقوه. وخرج القاضي بُرهان الدين بن مفلح الحنبلي^(١) ومعه شيخ الفقهاء بزواية [....]^(٢) فأجابهم إلى التأمين، وردَّهم باستدعاء الوجوه والفُضاة، فخرَّجوا إليه متدليين من السور بما صَبَّحهم من التقدمة، فأحسن لقاءهم وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردَّهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد، وتصرَّف الناس في المعاملات، ودخول أمير ينزل بمحل الامارة منها، ويملك أمرهم بعزِّ ولايته.

وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأله عني، وهل سافرتُ مع عساكر مصر أو أقيمت بالمدينة، فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت،

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (٧٤٩ - ٨٠٣)، وكان يحسن اللغتين: التركية، والفارسية، ولعلمهم - لذلك - اختاروه للسفارة. وانظر ابن اياس ٣٣٦/١.
(٢) بياض في الأصل ولم نعتز في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذه الزاوية.

وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه ؛ فحدث بين بعض الناس
تساجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى
القول . وبلغني الخبر من جوف الليل ؛ فخشيت البادرة على نفسي ،
وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو
التدلي من السور ، لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ؛ فأبوا عليّ
أولاً ، ثم أصخّوا لي ، ودلّوني من السور ؛ فوجدت بطانته عند الباب ،
ونائبه الذي عمّنه للولاية على دمشق ، واسمه شاه ملك ، من بني
جقظاي أهل عصابته ، فحيّتهم وحيّوني ، وفديت وفدوني ، وقدم
لي شاه ملك ، مر كوباً ، وبعث معي من بطانة السلطان من أوصلاني
إليه . فلما وقفت بالباب خرج الأذن بإجلّاسي في خيمة هنالك تجاور
خيمة جلوسه ، ثم زيد في التعريف باسمي أنّي القاضي المالكي المغربي ،
فاستدعاني ، ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ،
وصحاف الطعام تمرّ بين يديه ، يُشير بها إلى عُصَب المغل جلوساً
أمام خيمته ، حلقاً حلقاً . فلما دخلت عليه فاتحتُ بالسّلام ، وأوميتُ
إيماءة الخضوع ، فرفع رأسه ، ومدّ يده إليّ فقبّلتها ، وأشار بالجلوس
فجلستُ حيث انتهيت . ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن

النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم^(١) ، فأقعدَه يترجم ما بيننا ، وسألني من أين جئت من المغرب ؟ ولِمَا^(٢) جئت ؟ فقلت : جئت من بلادي لقضاء الفرض ركبْتُ إليها^(٣) البحر ، ووافيتُ مرسى الأسكندرية يوم الفطر سنة أربع وثمانين من هذه المائة الثامنة ، والمفرحاتُ بأسوارهم جلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة الأيام بعددِها . فقال لي : وما فعلَ معك ؟ قلت كل خير ، برّ مَقْدَمِي ، وأرغد قراي ، وزودني للحجّ ، ولما رجعت وفرّ جرايتي ، وأقمت في ظلّه ونعمته ؛ رحمه الله وجزاه . فقال : وكيف كانت توليته إياك القضاء ؟ فقلت : مات قاضي المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظنُّني المقام المحمود في القيام بالوظيفة ، وتحرّري المعدّلة والحق ، والاعراض عن الجاه ، فولّاني مكانه ، ومات لشهر بعدَها ، فلم يرض أهل الدّولة بمكاني ، فأدالوني منها بغيري جزاهم الله . فقال لي : وأين ولدك ؟

(١) هو : (عبد الجبار بن النعمان المعتزلي ، أحد خواص تيمور الذين طافوا معه البلاد ، وأهلكوا العباد ، وأظهروا الظلم والفساد) . ذكره علام الدين في (تاريخ حلب) وقال : اجتمعت به ، فوجدته ذكياً فاضلاً ، وسألته عن مولده ، فقال : يكون لي نحو الأربعين . ورأيت شرح الهداية لأكمل الدين ، وقد طالعه عبد الجبار المذكور ، وعلم على مواضع منه ، ذكر أنها غلط . وذكره ابن المبرد في (الرياض) وقال : (كان له معرفة بالفقه ، والعلوم العقلية ، وكان يمتحن العلماء وينظرهم بين يدي ذلك . وهو من فلة الدين على جانب كبير . توفي سنة ٨٠٨ هـ) .

(٢) كذا في الاصل باتبات الف (ما) المجرورة عند الاستفهام ؛ وهي لفة حكوها

عن الأخفش .

(٣) كذا بالأصل .

فقلت : بالمغرب الجوّاني كاتب^(١) للملك الأعظم هنالك . فقال وما معنى الجوّاني في وصف المغرب ؟ فقلت هو في عرف خطابهم معناه الدّاخلي ، أي الأبعد ، لأن المغرب كلّهُ على ساحل البحر الشامي من جنوبه ؛ فالأقربُ الى هنا برّقة ، وإفريقية^(٢) ؛ والمغرب الأوسط^(٣) : تلمسان وبلاد زناتة ؛ والأقصى : فاس ومراكش ، وهو معنى الجوّاني . فقال لي : وأين مكانُ طنجة من ذلك المغرب ؟ فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط ، والخليج المسمّى بالزقاق ، وهو خليج البحر الشامي ؟ فقال : وسبّته ؟ فقلت : على مسافة من طنجة على ساحل الزقاق ، ومنها التّعدية الى الأندلس ، لقرب مسافته ، لأنها هناك نحو العشرين ميلا . فقال : وفاس ؟ فقلت : ليست على البحر ، وهي في وسط التلّول ، وكرسي ملوك المغرب من بني مرّين . فقال : وسجلماسة ؟ قلت : في الحد ما بين الأرياف والرّمال من جهة الجنوب . فقال : لا يُقنعني هذا ، وأحبُّ أن تكتب لي بلاد المغرب كلّها ، أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كاني أشاهده . فقلت : يحصل ذلك بسعادتك ؛ وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبتُ الغرض فيه في

(١) كذا في الأصل .

(٢) هي الملكة التونسية اليوم .

(٣) مكانه اليوم بلاد (الجزائر) .

مختصرٍ وجيزٍ يكون قدرَ اثنتي عشرة من الكراريس المنصّفة القطع .
ثم أشار الى خدّمه بياحضار طعام من بيته يسمونه الرشته ،
ويُحكّمونه على أبلغ ما يمكن ؛ فأحضرت الأواني منه ، وأشار
يعرضها علي ، فمشت قائماً ، وتناولتها وشربت واستطبت ؛ ووقع
ذلك منه أحسنَ المواقع ؛ ثم جلست وسكتنا ، وقد غلبني الوجَل
بما وقع من نكبة قاضي القضاة الشافعية ، صدر الدين المناوي ،
أسره التّابعون لعسكر مصر . بشمّحَب ، وردّوه ؛ فحُيس عندهم
في طلب الفدية منه ؛ فأصابنا من ذلك وجَل ؛ فزورتُ في نفسي
كلاماً أخطبه به ، وأتلّطفه بتعظيم أحواله ، ومُلكه . وكنت قبل
ذلك بالمغرب قد سمعت كثيراً من الحدّثان في ظهوره ، وكان
المنجّمون المتكلّمون في قرانات العلويين^(١) يترقبون القرآن
العاشرَ في المثلثة الهوائية^(٢) ، وكان يُترقب عام ستة وستين من
المائة السابعة . فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين بجامع القرويين
من فاس ، الخطيبَ أبا علي بن باديس خطيب قسنطينة ، وكان ماهراً

(١) الكوكبان العلويان : زحل ، والمشتري ؛ والمراد بالقران - عند الإطلاق - اجتماع

المشتري ، وزحل خاصة (مفاتيح العلوم ص ٢٣٢) .

(٢) الثلثة : كل ثلاثة بروج تكون متفقة في طبيعة واحدة من الطبائع الأربع . (مفاتيح

العلوم ص ٢٢٦) .

ولعل ابن خلدون كان يعرف أن تيمورلنك (كان يعتمد على أقوال الأطباء والمنجمين ، ويقربهم

وبدينهم ، حتى انه كان لا يتحرك بحركة الا باختيار فلكي) ، فحدثه بهذا الحديث .

في ذلك الفن ، فسألته عن هذا القِران المتوقَّع ، وما هي آثاره ؟ فقال لي : يدل على نائز عظيم في الجانب الشمالي الشرقي ، من أمة بادية أهل خيام ، تتغلب على الممالك ، وتقلب الدول ، وتستولي على أكثر المعمور . فقلت : ومتى زمنه ؟ فقال : عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره . وكتب لي بمثل ذلك الطبيب ابن زرَّازر اليهودي ، طبيب ملك الأفرنج ابن أذفونش ومُنجمه . وكان شيعي رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الأبلي متى فإوضته في ذلك ، أوسايلته عنه يقول : أمره قريب ، ولا بُدَّ لك إن عشت أن تراه .

وأما المتصوفة فكنا نسمع عنهم بالمغرب ترقبهم لهذا الكائن ، ويرون ان القائم به هو الفاطمي المشار اليه في الأحاديث النبوية^(١) من الشيعة وغيرهم ؛ فأخبرني يحيى بن عبد الله حافد الشيخ ابي يعقوب البادسي كبير الاولياء بالمغرب ، ان الشيخ قال لهم ذات يوم ، وقد انفتل من صلاة الغداة : إن هذا اليوم ولد فيه القائم الفاطمي ، وكان ذلك في عشر الأربعين من المائة الثامنة ؛ فكان في نفسي من ذلك كله ترقب له .

فوقع في نفسي لأجل الوجَل الذي كنت فيه ان افأوضه في في شي . من ذلك يستريح اليه ، ويأنس به مني ، ففأتحته وقلت :

(١) ذكر هذه الأحاديث في المقدمة .

أيدك الله الي اليوم ثلاثون او اربعون سنة اتمنى لقاءك . فقال لي
 التُّرْجَانُ عبد الجَبَّارِ : وما سببُ ذلك ؟ فقلتُ : أمران ، الأول أنك
 سلطان العالم ، وَمَلِكُ الدُّنْيَا ، وما أعتقد أَنَّهُ ظَهَرَ في الخَلِيقَةِ منذ
 آدَمَ لهذا العهد مَلِكٌ مِثْلُكَ ، وَلَسْتُ مِمَّنْ يَقُولُ في الأُمُورِ بِالْجُزْأفِ ،
 فَإِنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَأَبِينِ ذَلِكَ فَأَقُولُ :

إِنَّ الْمُلْكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ ، وَعَلَى كَثْرَتِهَا يَكُونُ قَدْرُ
 الْمُلْكِ ؛ وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، أَنَّ أَكْثَرَ أُمَّمِ الْبَشَرِ
 فَرَقَتَانِ : الْعَرَبُ وَالتُّرْكُ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مُلْكَ الْعَرَبِ كَيْفَ كَانَ لَمَّا
 اجْتَمَعُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ ، وَأَمَّا التُّرْكُ فَفِي مُزَاحِمَتِهِمْ لِمُلُوكِ
 الْفُرسِ ، وَانْتِزَاعِ مَلِكِهِمْ أَفْرَاسِيَابَ خِرَاسَانَ مِنْ أَيْدِيهِمْ شَاهِدٌ
 بِنِصَابِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ . وَلَا يَسَاوِيهِمْ فِي عَصِيَّتِهِمْ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ
 مِنْ كَسْرَى ، أَوْ قَيْصَرَ ، أَوْ الْأَسْكَندَرِ ، أَوْ بُخْتَنْصَرَ ، أَمَا - كَسْرَى
 فَكَبِيرُ الْفُرسِ وَمَلِكُهُمْ ؛ وَأَيْنَ الْفُرسِ مِنَ التُّرْكِ ؟ وَأَمَا قَيْصَرَ
 وَالْأَسْكَندَرَ فَلَمُلُوكِ الرُّومِ ، وَأَيْنَ الرُّومِ مِنَ التُّرْكِ ؟ وَأَمَا بُخْتَنْصَرَ
 فَكَبِيرُ أَهْلِ بَابِلَ ، وَالنَّبِيطِ . وَأَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنَ التُّرْكِ ؟ وَهَذَا بَرَهَانٌ
 ظَاهِرٌ عَلَى مَا ادَّعَيْتَهُ فِي هَذَا الْمُلْكِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي مِمَّا يَحْمِلُنِي عَلَى تَمَنِّي لِقَائِهِ ، فَهُوَ مَا كُنْتُ
 أَسْمَعُهُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثَانِ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَذَكَرْتُ مَا قَصَصْتُهُ مِنْ

ذلك قبل . فقال لي : وأراك قد ذكرت بُخْتَنْصَرَ مع -كسرى ،
 وقيصر ، والاسكندر ، ولم يكن في عدادهم ، لانهم ملوك أكابر .
 وِبُخْتَنْصَرَ قائد من قواد الفرس ، كما أنا نائب من نواب صاحب
 التَّخْت ، وهو هذا ، وأشار إلى الصفِّ القائمين وراءه ، وكان واقفاً
 معهم ، وهو ربيبه الذي تقدم لنا أنه تزوج أمه بعد أبيه ساطلمش ،
 فلم يلبه هناك ، وذكر له القائمون في ذلك الصفِّ أنه خرج عنهم .

فرجع اليّ فقال : ومن أي الطوائف هو بُخْتَنْصَرَ ؟ فقلت : بين
 الناس فيه خلاف ، فقليل من النبط بقية ملوك بابل ، وقيل من الفرس
 الاولى ، فقال : يعني من ولد منوشهر ^(١) . قلت نعم هكذا ذكروا ،
 فقال : ومنوشهر له علينا ولادة من قبل الامهات . ثم أفضت مع
 التَّرجان في تعظيم هذا القول منه ، وقلت له : وهذا مما يجعلني على
 بنسب لقاته .

فقال الملك : وأي القولين أرجح عندك فيه ؟ فقلت إنه من
 عقبة ملوك بابل ، فذهب هو إلى ترجيح القول الآخر . فقلت : يعكّر
 تملينا رأي الطبري ، فإنه مؤرخ الامة ومحدثهم ، ولا يترجّح غيره ،

(١) كذا بالأصل وهو: منوهر بالجيم المتوسطة بينها وبين الشين اسم ملك من الفرس، الأول
 ومعناه فضي الطلعة ، وذلك لهاته ؛ فان مينو بالفارسية : الفضة ، فاتصروا على حذف الياء وقالوا
 منو . وجر : الطلعة .

فقال : وما علينا من الطبري ؟ نُحَضِرُ كُتُبَ التَّارِيخِ لِلعَرَبِ وَالعَجَمِ ،
وَنَظَارِكُ . فقلتُ : وانا ايضا أَنَاظِرُ عَلَى رَأْيِ الطَّبْرِيِّ ، وَانتهى بنا
القول ، فسكتَ ؛ وجاءه الخبر بفتح باب المدينة ، وخروج القضاة
وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان ، فرُفِعَ من بين
أيدينا ، لما في رُكْبَتِهِ من الداء ، وَحِيلَ على فرسه فقبض شكائمه ،
واستوى في مركبه . وَضُرِبَتِ الآلاتُ حِفافِيهِ حَتَّى ارْتَجَّ لَهَا الجَوُّ .
وسار نحو دمشق ، ونزل في تربة مَنجَك عند باب الجابية ؛ فجلس
هناك ، ودخل اليه القضاة وأعيان البلد ، ودخلتُ في مُجَلَّتِهِمْ ؛ فأشارَ
اليهم بالانصراف ، والى شاه مَلِكِ نَائِبِهِ أَنْ يَخْلَعَ عَلَيْهِمْ في وظائفهم ؛
وأشار إليَّ بِالْجُلُوسِ ، فجلستُ بين يديه . ثم استدعى أمراء دولته
القائمين على أمر البناء ؛ فأحضروا عُرفاء البُنيان المهندسين ، وتناظروا
في إذهاب الماء الدائر بحفير القلعة ، لعلهم يعثرون بالصناعة على منقذه ؛
فتناظروا في مجلسه طويلا ، ثم انصرفوا ، وانصرفتُ الى بيتي داخلَ
المدينة بعد أن استأذنته في ذلك ، فأذن فيه . وأقمتُ في كسر البيت ،
واشغلتُ بما طَلَبَ مني في وصف بلاد المغرب ؛ فكتبته في أيام
قليلة ، ورفعته اليه فأخذه من يدي ، وأمر موقِعَهُ بِترجمته الى اللسان
المغلي . ثم اشتدَّ في حصار القلعة ، ونصَّبَ عليها الآلاتِ من
المجانيق ، والنفوط ، والعرادات ، والنقب ؛ فنصَّبوا لأيام قليلة
ستين منجنيقا الى ما يُشاكلها من الآلات الأخرى ، وضاق الحصار

بأهل القلعة ، وتهدم بناؤها من كل جهة ، فطلبوا الأمان .

وكان بها جماعة من خدام السلطان ومخلفه ، فأمّنهم السلطان تَمْر ، وحضروا عنده . وخرّب القلعة وطمس معالمها ، وصادر أهل البلد على قناطير من الأموال استولى عليها بعد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هنالك ، من الأموال والظهور والحيام . ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة ؛ فاستوعبوا أناسيها ، وأمتعتها ، وأضرّموا النار فيما بقي من سقّط الأقمشة والحُرثي ؛ فاتصّك النار بجيطان الدُّور المدعمة بالخشب ؛ فلم ترل تتوقد الى أن اتصلت بالجامع الأعظم ، وارتفعت الى سقّفه ؛ فسال رصاصه ، وتهدّمت سقّفه وحوائطه ، وكان أمراً بلغ مبالغته في الشناعة والُثبح . وتصاريفُ الأمور بيد الله يفعل في خلقه ما يريد ، ويحكم في ملكه ما يشاء .

وكان أيام مُقامي عند السلطان تَمْر ، خرج اليه من القلعة يومٌ
أمن أهلها رجلٌ من أعقاب الخلفاء بمصر ، من ذرية الحاكم العباسي^(١)
الذي نصبه الظاهر بيبرس ؛ فوقف الى السلطان تَمْر يسأله النصفه في
أمره ؛ ويطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه ، فقال له السلطان
تَمْر : أنا أحضرك الفهقاء والقضاة ، فإن حكّموا لك بشيء أنصفتك

(١) هو أبو العباس احمد بن أبي علي الحسن القطبي المتوفى سنة ٧٠١ .

فيه . واستدعى الفقهاء والقضاة ، واستدعاني فيهم ؛ فحضرنا عنده
 وحضر هذا الرجل الذي يسأل منصب الخلافة ، فقال له عبد الجبار :
 هذا مجلس النصفة فتكلم . فقال : إن هذه الخلافة لنا ولسلفنا ، وإن
 الحديث ^(١) صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا ، يعني أمر
 الخلافة . وإني أحق من صاحب المنصب الآن بمصر ، لأن آبائي الذين
 ورثتهم كانوا قد استحشوه ، وصار الى هذا بغير مستند ؛ فاستدعى
 عبد الجبار كلاً مبنياً في أمره ، فسكتنا برهة ، ثم قال : ما تقولون
 في هذا الحديث ؟ فقال برهان الدين بن مفلح : الحديث ليس بصحيح .
 واستدعى ما عندي في ذلك فقلت : الأمر كما قلتم من أنه غير
 صحيح ، فقال السلطان تمر : فما الذي أصرار الخلافة لبني العباس الى
 هذا العهد في الاسلام ؟ وشأفهي بالقول ، فقلت : أيدك الله اختلف
 المسلمون من لدن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، هل يجب على المسلمين
 ولاية رجل منهم يقوم بأموارهم في دينهم ودنياهم ، أم لا يجب ذلك ؟
 فذهبت طائفة الى أنه لا يجب ، ومنهم الخوارج ، وذهب الجماعة الى
 وجوبه ، واختلفوا في مستند ذلك الوجوب ؛ فذهب الشيعة كلهم
 الى حديث الوصية ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بذلك لعلي ،
 واختلفوا في تنقلها عنه الى عقبه الى مذاهب كثيرة تشذ عن الحصر .

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٠ ، ١٠١ . بعض الآثار التي تمسك بها العباسيون في
 خلافتهم .

وأجمع أهل السنة على إنكار هذه الوصية ، وأن مستند الوجوب في ذلك إنما هو الاجتهاد ، يعنون أن المسلمين يجتهدون في اختيار رجل من أهل الحق والفقہ والعدل ، يُفَوِّضُونَ اليه النظرَ في أمورهم .

ولما تعددت فرق العلوية وانتقلت الوصية بزعمهم من بني الحنفية إلى بني العباس ، أوصى بها ابو هاشم بن محمد بن الحنفية إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس ، وبث دُعَاة بخراسان . وقام ابو مسلم^(١) بهذه الدعوة ؛ فلما خراسان والعراق ، ونزل شيعتهم الكوفة ، واختاروا للأمر أبا العباس السفاح^(٢) ابن صاحب هذه الدعوة ؛ ثم أرادوا أن تكون بيعته على إجماع من أهل السنة والشيعه ، فكتبوا كبار الأئمة يومئذ ، وأهل الحل والعقد ، بالحجاز والعراق ، يشاورونهم في أمره ؛ فوقع اختيارهم كلهم على الرضى به ، فبايع له شيعته بالكوفة بيعة إجماع وإصفاق . ثم عهد بها إلى أخيه المنصور^(٣) ، وعهد بها المنصور إلى بنيهِ ؛ فلم تزل مُتَنَاقِلَةً فيهم ، إما بِعَهْدِ او باختيارِ أهل العصر ، إلى أن كان المستعصمُ آخرهم ببغداد . فلما استولى عليها هولاء

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني . له ترجمة واسعة في وفيات ابن خلكان

٣٥٢ / ١ - ٣٥٦ .

(٢) أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (١٠٤ - ١٣٦) وانظر

تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (٩٥ - ١٥٨) . تاريخ الخلفاء

١٠١ - ١٠٦ .

وَقَتْلَهُ ، افترق قرابته ، ولحق بعضهم بمصر ، وهو أحمد الحاكم من
عقب الرّاشد ، فنصبه الظاهر بيبس بمصر ، بمالأة اهل الحلّ والعقد
من الجند والفقهاء . وانتقل الأمر في بيته الى هذا الذي بمصر ، لا
يُعلم خلاف ذلك . فقال لهذا الرّافع : قد سمعت مقال القضاة ، وأهل
الفتيا ، وظاهر أنه ليس لك حقّ تطلبه عندي . فانصرف راشداً .

الرجوع عن هذا الأمير ثم الى مصر

كنت لما لقيته ، وتدلّيتُ إليه من السور كما مرّ أشار عليّ بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدّمت له من المعرفة بهم ؛ فأشار بأن أطرفه ببعض هدية ، وإن كانت ترزة فهي عندهم متأكدة في لقاء ملوكلهم ، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسناً في جزء محذو ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيري^(١) في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة . وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه ؛ فلما رأيته مقبلاً مثل قائماً وأشار إلي عن يمينه ؛ فجلستُ وأكابر من الجقطيّة حفاّفة ؛ فجلستُ قليلاً ، ثم استدرت بين يديه ، وأشرت إلى الهدية التي ذكرتها ، وهي بيد خدامي ؛ فوضعتها ، واستقبلني ؛ ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه ، قام مُبادراً

(١) هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد الدلاصي البوصيري الصنهاجي (٦٠٨ - ٦٩٤) على خلاف في تاريخ الوفاة . له ترجمة في فوات الوفيات ٢/٢٠٥ - ٢٠٩ ، حسن المحاضرة ١/٣٦٠

فوضعه على رأسه . ثم ناولته البردة ، فسألني عنها وعن ناظمها فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها . ثم ناولته السجادة ، فتناولها وقبلها . ثم وضعتُ علب الحلوى بين يديه ، وتناولتُ منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك . ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه ، وتقبل ذلك كله ، وأشعر بالرّضى به . ثم حومت على الكلام بما عندي في شأن نفسي ، وشأن أصحاب لي هنالك . فقلت أيدك الله ! لي كلام أذكره بين يديك ، فقال : قل . فقلت أنا غريب بهذه البلاد غريبتين ، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشأى وأخرى من مصر وأهل جيلي بها ، وقد حصلتُ في ظلك ، وأنا أرجو رأيك لي فيما يُؤنسني في غرّبتى ، فقال : قل الذي تريد أفعله لك ، فقلت : حال الغربة أنستني ما أريد ، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد . فقال : انتقل من المدينة إلى الأردن^(١) عندي ، وأنا إن شاء الله أوفي كنهه قصدك . فقلت يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك ، فأشار إليه بإمضاء ذلك ، فشكرت ودعوتُ وقلت : وبقيت لي أخرى . فقال : وما هي ؟ فقلت هؤلاء الخلفون عن سلطان مصر . من الثراء ، والموقعين ، والدواوين^(٢) ، والعمال ، صاروا إلي إياتك والمليك لا يُنقل مثل هؤلاء . فسُلطانكم كبير ، وعمّالاتكم متسعة ، وحاجة ملككم إلى

(١) الأردن : المسكر (تركية) .

(٢) كذا في الاصل . ولعلها : (بالدواوين) او (واصحاب الدواوين) .

المتصرفين في صنوف الخدم أشد من حاجة غيركم ، فقال وما تريد لهم ؟ قلت : مكتوب أمان يستنيمون إليه ، ويعولون في أحوالهم عليه . فقال لكاتبه : اكتب لهم بذلك ^(١) ، فشكرت ودعوت . وخرجت مع الكاتب حتى كتب لي مكتوب الأمان ، وختمه شاه ملك بخاتم السلطان ، وانصرفت إلى منزلي . ولما قرُبَ سفره واعتزم على الرحيل عن الشام ، دخلت عليه ذات يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلي وقال : عندك بغلة هنا ؟ قلت نعم ، قال حسنة ؟ قلت نعم ، قال وتبيعها ؟ فأنأ اشتريها منك ، فقلت أيدك الله ! مثلي لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدمك بها ، وبأمثالها لو كانت لي ، فقال : أنا أردت أن أكفك عنها بالاحسان ، فقلت : وهل بقي إحسان وراء ما أحسنت به ، اصطفتني ، وأحللتني من مجلسك محل خواصك ، وقابلتني من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكت وسكت وحميت البغلة — وأنا معه في المجلس — إليه ، ولم أرها بعد .

ثم دخلت عليه يوماً آخر فقال لي : أتسافر إلى مصر ؟ فقلت أيدك الله ، رغبتني إنما هي أنت ، وأنت قد آويت وكفلت ، فان كان السفر إلى مصر في خدمتك فنعم ، وإلا فلا بغية لي فيه ، فقال لا ، بل تسافر إلى عيالك وأهلك ، فالتفت إلى ابنه ، وكان مسافراً إلى

(١) ذكر هذه الشفاعة القرظي في السلوك في حوادث سنة ٨٠٣ .

شَحَبَ لِمِربَاعِ دَوَائِبِهِ ، وَاشْتَغَلَ يُجَادِثُهُ ، فَقَالَ لِي الْفَقِيهَ عَبْدُ الْجَبَّارِ الَّذِي كَانَ يَتَرَجَّمُ بَيْنَنَا : إِنَّ السُّلْطَانَ يُوصِي ابْنَهُ بِكَ ، فَدَعَوْتُ لَهُ ؛ ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ السَّفْرَ مَعَ ابْنِهِ غَيْرُ مُسْتَبِينِ الْوَجْهَةِ ، وَالسَّفْرُ إِلَى صَفَدٍ أَقْرَبِ السُّوَاخِلِ إِلَيْنَا أَمْلَكُ لِأَمْرِي ، فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ ؛ فَأَجَابَ إِلَيَّ ، وَأَوْصَى بِي قَاصِداً كَانَ عِنْدَهُ مِنْ حَاجِبِ صَفَدِ ابْنِ الدَّائِدِي (١) ، فَوَدَعْتُهُ وَانصَرَفْتُ ، وَاخْتَلَفْتُ الطَّرِيقَ مَعَ ذَلِكَ الْقَاصِدِ ، فَذَهَبَ عَنِّي ، وَذَهَبْتُ عَنَّهُ . وَسَافَرْتُ فِي جَمْعٍ مِنْ أَصْحَابِي ؛ فَاعْتَرَضَتْنا جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَشِيرِ قَطَعُوا عَلَيْنَا الطَّرِيقَ ، وَنَهَبُوا مَا مَعْنَا ، وَنَجَوْنَا إِلَى قَرْيَةٍ هُنَالِكَ عَرَايَا . وَاتَّصَلْنَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ بِالصَّيْبَةِ فَخَلَفْنَا بَعْضَ الْمَلْبُوسِ ، وَأَجْزْنَا إِلَى صَفَدٍ ، فَأَقْنَا بِهَا أَيَّاماً . ثُمَّ مَرَّ بِنَا مَرْكَبٌ مِنْ مَرَاكِبِ ابْنِ عُثْمَانَ سُلْطَانَ بِلَادِ الرُّومِ ، وَصَلَ فِيهِ رَسُولٌ كَانَ سَفْرَ إِلَيْهِ عَنِ سُلْطَانِ مِصْرَ ، وَرَجَعَ بِجِوَارِ رِسَالَتِهِ ؛ فَرَكِبْتُ مَعَهُمُ الْبَحْرَ إِلَى غَزَّةَ ، وَنَزَلْتُ بِهَا ، وَسَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ ، فَوَصَلْتُهَا فِي شَعْبَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَهِيَ سَنَةٌ ثَلَاثٌ وَثَمَانِمِائَةٌ ؛ وَكَانَ السُّلْطَانُ صَاحِبَ مِصْرَ ، قَدْ بَعَثَ مِنْ بَابِهِ سَفِيرًا إِلَى الْأَمِيرِ تَمُرُاجَابَةَ إِلَى الصَّلْحِ الَّذِي طَلَبَ مِنْهُ ؛ فَأَعْقَبَنِي إِلَيْهِ . فَلَمَّا قَضَى رِسَالَتَهُ رَجَعَ ، وَكَانَ وَصُولُهُ بَعْدَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَفِي عَجَائِبِ الْمَقْدُورِ ص ١١٣ : « ... وَكَانَ فِي صَفَدٍ تَاجِرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ أَحَدُ الرُّؤَسَاءِ وَالتَّجَارِ ، يَدْعَى عَلَاءَ الدِّينِ ، وَيُنْسَبُ إِلَى دَوَادِرَ ، كَانَ تَقَدَّمَتْ لَهُ خِدْمَةٌ عَلَى السُّلْطَانِ فَوَلَّاهُ حِجَابَةَ ذَلِكَ الْمَكَانِ » .

وصولي؛ فبعث اليّ مع بعض أصحابه يقول لي : ان الأمير تمّر قد بعث معي اليك ثمن البغلة التي ابتاع منك ، وهي هذه فخذها ، فإنه عزّم علينا من خلاص ذمته من مالك هذا . فقلت لا أقبله الا بعد اذن من السلطان الذي بعثك اليه ، وأما دون ذلك فلا . ومضيتُ الى صاحب الدولة فأخبرته الخبرَ فقال وما عليك ؟ فقلت ان ذلك لا يجملُ بي أن أفعله دون اطلاعكم عليه ، فأغضى عن ذلك ، وبعثوا اليّ بذلك المبلغ بعد مدة ، واعتذر الحامل عن نقصه بأنه أعطيه كذلك ، وحمدت الله على الخلاص .

وكتبتُ حينئذُ كتاباً الى صاحب المغرب ، عرّفته بما دار بيني وبين سلطان الطّطرِ تمّر ، وكيف كانت واقعه معنا بالشام ، وضمّنت ذلك في فصل من الكتاب نصّه :

« وان تفضّلتُم بالسؤال عن حال المملوك ، فبي بخير والحمد لله ، وكنت في العام الفارط توجهتُ صُحبة الرّكاب السلطاني الى الشام عندما زحف الطّطرُ اليه من بلاد الروم والعراق ، مع ملكهم تمّر ، واستولى على حلب وحمّة وحمص وبعلبك ، وخرّبها جميعاً ، وعاثتُ عساكره فيها بما لم يُسمع أشنع منه . ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها ، وسبق الى دمشق ، وأقام في مقابلته نحواً من شهر ؛ ثم قفل راجعاً الى مصر ، وتخلّف الكثير من أمرائه وقضاته ، وكنتُ في المخلفين . وسمعت أن سلطانهم تمّر سأل عني ؛ فلم يسع

إلا لقاءه فخرجت اليه من دمشق ، وحضرتُ مجلسه ،
وقابلني بخير ، واقتضيتُ منه الأمان لأهل دمشق ، وأقمتُ
عنده خمساً وثلاثين يوماً ، أبكره واراوِحه . ثمَّ صرفني ، وودَّعني
على أحسن حال ، ورجعتُ الى مصر . وكان طلبَ منِّي بَغْلَةَ كنت
أرْكُها فأعطيته إياها ، وسألني البيع فتأففتُ منه ، لما كان يُعامل به
من الجليل ، فبعدَ انصرافي الى مصر بعث الي بَشَمْنها مع رسول كان
من جهة السلطان هنالك ، وحمدتُ الله تعالى على الخلاص من ورطات
الدنيا .

وهؤلاء الطَّطَر هم الذين خرجوا من المفازة وراء النهر ، بينه وبين
الصين ، أعوام^(١) عشرين وستمائة مع ملكهم الشهير جنكزخان
وملك المشرق كله من أيدي السلجوقية ومواليهم الى عراق العرب ،
وقسم الملك بين ثلاثة من بنيه وهم جَمَطاي ، وطولي ، ودوشي
خان :

فَجَمَطاي كبيرُهم ، وكان في قسمته تُرْكستان وكاشغر ،
والصَّاعون ، والشَّاش وفرغانة ، وسائر ما وراء النهر من البلاد .

وطولي كان في قسمته أعمال خراسان ، وعراق العجم ، والرِّيَّ

(١) كذا بالأصل ، وهو تعبير مألوف في أسلوب ابن خلدون . ورد كثيراً في أماكن متفرقة
من كتابه .

الى عراق العرب وبلاد فارس وسجستان والسند . وكان آبتاؤه :
قبلاي ، وهولاكو .

ودوشي خان كان في قسمته بلاد قنجق ، ومنها صراي ،
وببلاد الترك الى خوارزم . وكان لهم أخ رابع يسمى أوكداي
كبيرهم ، ويسمونه الخان ، ومعناه صاحب التخت ، وهو بمشابة
الخليفة في ملك الاسلام . وانقرض عقبه ، وانتقلت الخانية الى
قبلاي ، ثم الى بني دوشي خان ، أصحاب صراي . واستمر ملك
الطغر في هذه الدُول الثلاث ، وملك هولاءكو بغداد ، وعراق
العرب ، الى ديار بكر ونهر الفرات . ثم زحف الى الشام وملكها ،
ورجع عنها ، وزحف اليها بنوه مراراً ، وملوك مصر من الترك
يدافعونهم عنها ، الى أن انقرض ملك بني هولاءكو أعوام أربعين
وسبعائة ، وملك بعدهم الشيخ حسن التوين وبنوه . وافترق
ملكهم في طوائف من أهل دولتهم ، وارتفعت نفقتهم عن ملوك
الشام ومصر . ثم في أعوام السبعين او الثمانين وسبعائة ، ظهر في بني
جقظاي وراء النهر أمير اسمه تيمور ، وشهرته عند الناس تمر ، وهو
كافل لصبي متصل النسب معه الى جقظاي في آباء كلهم ملوك ،
وهذا تمر بن طرغاي هو ابن عمهم ، كفل صاحب التخت منهم اسمه
محمود ، وتزوج أمه صرعتمش ، ومدّ يده الى ممالك التتر كلها ؛

فاستولى عليها الى ديار بكر ، ثم جال في بلاد الروم والهند ، وعاشت عساكره في نواحيها ، وخرّب حصونها ومدنها ، في أخبار يطول شرحها . ثم زحف بعد ذلك الى الشام ، ففعل به ما فعل ، والله غالب على أمره . ثم رجع آخرأ الى بلاده ، والأخبار تتصل بأنه قصد سمرقند ، وهي كرسية .

والقوم في عدد لا يسهه الاحصاء ، إن قدرت ألف ألف فغير كثير ، ولا تقول أنقص ، وإن خيموا في الأرض ملأوا السّاح ، وان سارت كتابهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء ؛ وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران ، وابتلائهم بأنواع العذاب ، على ما يحصلونه من فئاتهم آية عجب ، وعلى عادة بوادي الأعراب .

وهذا الملك تمر من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونهم الى العلم ، وآخرون الى اعتقاد الرّفص ، لما يرون من تفضيله لأهل البيت . وآخرون الى انتحال السّحر ؛ وليس من ذلك كله في شيء ؛ انما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم ، عمره بين السّتين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه على ما أخبرني ، فيجرّها في قريب المشي ، ويتناولها الرّجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له ؛ والملك لله يؤتبه من يشاء من عباده .

ولاية القضاء الثالثة والرابعة والخامسة بمصر

كنت - لما أقمت عند السلطان تمر تلك الأيام التي أقمت -
 طال منيبي عن مصر ، وشيئت الأخبار عني بالهلاك ، فقدم للوظيفة
 من يقوم بها من فضلا المالكية ، وهو جمال الدين الأقفهسي ^(١) ،
 غزير الحفظ والذكاء ، عفيف النفس عن التصدي لحاجات الناس ،
 ورع في دينه ؛ فقلدوه منتصف جمادى الآخرة من السنة .

فلما رجعت إلى مصر ، عدلوا عن ذلك الرأي ، وبدأ لهم في
 أمري ؛ فوألوني في أواخر شعبان من السنة . واستمرت على الحال
 التي كنت عليها من القيام بالحق ، والاعراض عن الأغراض ،
 والانصاف من المطالب ؛ ووقع الإنكار علي ممن لا يدين للحق ،
 ولا يُعطي النصفة من نفسه ؛ فسعوا عند السلطان في ولاية شخص
 من المالكية يُعرف بجمال الدين الساطي ^(٢) ، بذل في ذلك لسعاة

(١) هو عبد الله بن مقداد بن اسماعيل بن عبد الله الأقفهسي ، جمال الدين المالكي المتوفى

سنة ٨٢٣ هـ .

(٢) يوسف بن خالد بن نعيم بن نعيم بن محمد بن حسن بن علي بن محمد بن علي ، جمال الدين .

دَاخِلُوهُ ، قَطَعَةً مِنْ مَالِهِ ، وَوَجُوهًا مِنْ الْأَغْرَاضِ فِي قَضَائِهِ . قَاتَلَ
 اللَّهُ جَمِيمَهُمْ ؛ فَخَلَعُوا عَلَيْهِ أَوْ آخِرَ رَجَبٍ ، سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ . ثُمَّ رَاجَعَ
 السُّلْطَانَ بِصِيَرَتِهِ ، وَانْتَقَدَ رَأْيَهُ ، وَرَجَّعَ إِلَى الْوِزْلِيفَةِ خَاتَمَ سَنَةِ
 أَرْبَعٍ ، فَأَجْرِيَتْ الْحَالُ عَلَى مَا كَانَ . وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ سَنَةً وَبَعْضَ
 الْأُخْرَى . وَأَعَادُوا الْبِسَاطِيَّ إِلَى مَا كَانَ ، وَبِمَا كَانَ ، وَعَلَى مَا كَانَ ،
 وَخَلَعُوا عَلَيْهِ سَادِسَ رَيْبِعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتٍّ ^(١) ، ثُمَّ أَعَادُونِي عَاشِرَ
 شَعْبَانَ سَنَةِ سَبْعٍ ^(٢) ، ثُمَّ أَدَا الْوَابِعَ مِنْنِي أَوْ آخِرَ ذِي الْقَعْدَةِ ^(٣) مِنْ السَّنَةِ
 وَبِيدِ اللَّهِ تَصَارِيفَ الْأُمُورِ .

(١) انظر «عقد الجمان» للعيني ، في حوادث سنة ٨٠٦ .
 (٢) في صبح الأعشى ١١ / ١٨٩ نص «التقليد» الذي تولى به البساطي القضاء بعد ابن
 خلدون .
 (٣) الذي في «عقد الجمان» للعيني في حوادث سنة ٨٠٧ ، أن الذي خلف ابن خلدون هو
 جمال الدين الأفهسي . ولعل ابن خلدون أعرف بمن ولي بعده .

الفهرس

| <u>صفحة</u> | <u>الموضوع</u> |
|-------------|--|
| ٤ | ابن خلدون - بيته - نسبه |
| ٦ | سلفه بالاندلس |
| ١٠ | سلفه بافريقية |
| ١٧ | نشأته ومشيخته ، وحاله |
| | ولايته العلامة بتونس ، ورحلته الى المغرب وتوليه الكتابة عن ابي عنان ٥٧ |
| ٦٩ | حدوث النكبة من السلطان ابي عنان |
| ٧٠ | كتابه عن السلطان ابي سالم |
| | شعره ٦٩ ، ٧٣ - ٨٠ ، ٧٩ ، ٨٩ - ٩٥ ، ١٤٢ ، ٢٥٠ - ٢٦١ ، ٣٦٥ - ٣٧٠ |
| ٨٤ | رحلته الى الاندلس |
| ٩٥ | رسالة لابن الخطيب يرحب فيها بمقدم ابن خلدون الى الاندلس |
| | رسالة من انشاء ابن الخطيب على لسان ابن الاحمر تتضمن تشييع |
| ٩٦ | ابن خلدون والتوصية به حين عزم على العودة الى بجاية |
| ٩٩ | عودة ابن خلدون الى بجاية ، وتوليه الحجابة بها |
| ١٠٧ | مشايخته للسلطان ابي حمو صاحب تلمسان |
| ١١٢ | رسالة لابن الخطيب يعاتب بها ابن خلدون |
| ١٣٠ | رسالة لابن خلدون يجيب فيها عن رسائل ابن الخطيب |
| ١٣٧ | رساله من ابن الخطيب الى ابن خلدون |
| ١٤٤ | مشايحة ابن خلدون للسلطان عبدالعزيز صاحب المغرب |
| ١٤٩ | رسالة لابن الخطيب يودع فيها ابن الاحمر حينما سافر الى المغرب |
| ١٥٨ | رسالة من انشاء ابن الخطيب على لسان ملكه ابن الاحمر |

الموضوع

صفحة

- ١٦٧ فضل الوزير ابن الخطيب
- ٢٣٢ عودة ابن خلدون الى المغرب الاقصى
- ٢٤٣ اجازته الى الاندلس ثانية وعودته الى تلمسان. واقامته عند اولاد عريف
- ٢٤٦ فينته الى السلطان ابي العباس الحفصي بتونس ، واقامته بها
- ٢٦٤ رحلته الى المشرق وولايته القضاء بمصر
- رسالة الملك الظاهر برقوق الى ابي العباس الحفصي يتشفع في اولاد
- ٢٦٧ ابن خلدون ويطلب منه ارسالهم الى مصر
- ٢٨١ سفر ابن خلدون لقضاء فريضة الحج
- ٢٨٢ رسالة لابن زمرك يخاطب فيها ابن خلدون
- ٢٩٨ رسالة لابي الحسن علي بن الحسن النبي يخاطب فيها ابن خلدون
- ٣٠٤ ولاية ابن خلدون التدريس والخوانق
- ٣٢٣ خطبة له انشأها عند ولايته التدريس بالمدرسة القمحية .
- ٣٢٨ خطبة له انشأها عند تدريسه لكتاب « الموطأ »
- ٣٤٣ ولايته خانقاه ببيرس وعزله عنها
- ٣٤٥ فتنة الناصري
- ٣٧٠ سعائته في المهادة والاتحاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر
- ٣٨٣ ولايته القضاء بمصر مرة ثانية
- ٣٨٨ سفر السلطان الناصر فرج الى الشام لمداغة التتر
- ٤٠٦ لقاء ابن خلدون لتيمورلنك
- ٤٢١ رجوعه عن تيمورلنك الى مصر
- ٤٢٥ رسالة ابن خلدون الى ملك المغرب يخبره فيها باحوال تيمور
- ٤٢٩ ولايته القضاء بمصر مرة ثالثة ، ورابعة ، وخامسة